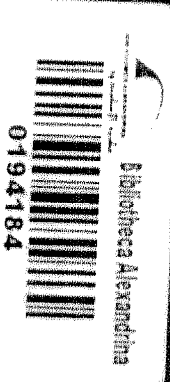
د. لطيفة البكّاي

حركة الخوارج

نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي

(٣٧ ـ ١٣٢ هـ)





حركة الخوارج

هذا الكتاب هو في الأصل رسالة دكتوراه أُعدت بإشراف الأستاذ هشام جعَيط، في جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ قسم التاريخ. وقد نالت المؤلّفة عليها درجة «مشرّف جداً» عام ١٩٩٦.

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩٦١

الطبعة الأولى
كانون الثاني (يناير) ٢٠٠١

د. لطيفة البكّاي

حركة الخوارج

نشأتها وتطورها

إلى نهاية العهد الأموي

(٣٧ ـ ١٣٢هـ)



دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

شكر

- أتوجّه بالشكر الجزيل إلى كلّ الّذين ساعدوني في إنجاز هذا العمل وخصوصاً أساتذتي، وعلى رأسهم الأستاذ **هشام جعيط** الّذي أشرف على البحث وتتبّع مختلف مراحله ولم يبخلْ عليّ بالوقت والجهد والنّصح.
- كما أتقدّم بأحرّ تشكراتي إلى كلّ أصدقائي وصديقاتي لنصائحهم الصّادقة وتشجيعاتهم المستمرّة.
- وأشكر كذلك كلّ العاملين في المكتبة الوطنيّة التونسيّة، ومكتبة معهد الآداب العربيّة IBLA، للخدمات التي قدّموها لي أثناء إنجاز هذا العمل.
- وأخيراً أشكر كلّ أفراد عائلتي وخصوصاً أختي شريفة الّتي شدّت أزري وساعدتني على تخطّي الصّعاب، وبفضلها أمكن لهذا العمل أن يُنجز.

لطيفة

فهرس

المقدمة

يعتقد العديد من المؤرّخين والباحثين أنّ حركة الخوارج قد حظيت بالاهتمام منذ سنوات طويلة، واختيارها موضوعاً لبحث جديد لا يخلو من المخاطرة لأنه يتطلّب تقديم الإضافة في وقت تعدّدت فيه البحوث والدّراسات، ويبدو هذا الاعتقاد صحيحاً إذا اعتبرنا الدّراسات العامّة الّتي اهتمّت بصدر الإسلام والدّولة الأموية أو تلك التي خُصِّصت لبعض الأقاليم أو الفرق أو كذلك للشعر والأدب. ففي كلّ هذه الدّراسات يرد ذكر الخوارج، لكن في أغلبها تتميّز الفصول المخصّصة لهم بالاقتضاب ولا نجد في العديد منها سوى سرد لما تنقله المصادر. أمّا إذا اعتبرنا الدّراسات الخاصّة بهذه الحركة، فيتأكّد بطلان هذا الاعتقاد ويظهر بوضوح أنّ الحركة الخارجية لم تحظ ـ رغم أهمّيتها ووزنها السّياسي والعسكري والفكري ـ إلاّ بعدد قليل جداً من الدّراسات(١).

ويستغرب الباحث ضعف الاهتمام بهذه الحركة في وقت حظيت فيه حركات أخرى، تكوّنت بعدها مثل الشّيعة والمعتزلة والقرامطة وغيرها، باهتمام كبير خصوصاً في النّصف الثّاني من القرن العشرين في إطار حركة البحث في جوانب التّراث العربي ـ الإسلامي السّياسية والاجتماعية والفكرية.

لكن ما كتب عن الخوارج إلى حدّ الآن سواء في إطار دراسات عامّة أو خاصة بالحركة، أو في إطار مقالات لا يخلو من الأهميّة، بل إنّ العديد من هذه الدّراسات أسهمت جدّياً في توضيح بعض الجوانب الخاصّة بهذه الحركة وأبرزت العديد من مميّزاتها وخصائصها إلاّ أنّ جوانب أخرى ما زال يكتنفها الغموض وتتطلّب مزيداً من البحث والتّدقيق وربّما كذلك إعادة التّقييم على ضوء ما توافر من معلومات جديدة. ولعلّ ما يؤكّد

(١) أهمّ الدراسات الّتي تخصّ الفترة موضوع البحث دراسة: يوليوس فلهوزن، **أحزاب المعارضة السّياسية الدّينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة**، ترجمة عبد الرّحمن بدوي، الكويت، ١٩٥٦؛ نايف معروف، **الخوارج في العصر الأموي: نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم وأدبهم**، بيروت، ١٩٨٦. أمّا الدراسات الّتي اهتمت بأحد الجوانب الخاصّة بالحركة فنذكر من بينها: دراسة سهير القلماوي، **أدب الخوارج في العصر الأموي**، القاهرة، ١٩٤٥؛ محمّد رضا الدّجيلي، **فرقة الأزارقة: دراسة تحليلية تاريخية تبحث عن أحوال هذه الفرقة وتطوّرها**، النجف، ١٩٧٣.
كما توجد بعض الدّراسات الأخرى لم نذكرها لاعتقادنا أنّها لم تقدّم إضافات جديدة للموضوع.

غموض بعض الجوانب في تاريخ هذه الحركة التّضارب في أحكام الباحثين بشأنها خاصّة بين القائلين بـ«ثوريتها» و«ديمقراطيتها»[(١)] والقائلين بتعصبها وبداوتها[(٢)].

كما لا تهتمّ الدّراسات المتوفرة بأنشطة الخوارج غير العسكرية، خاصّة الفكرية والدّعائية، فجلّ الباحثين في تاريخ الخوارج ركّزوا على تحرّكاتهم العسكرية ولذلك توقّفوا عن تتبّع أخبارهم بعد الفتنة الثانية وإخماد أكبر الانتفاضات الخارجيّة في القرن الأول هجري ولم يعودوا إليها إلاّ في أواخر الحكم الأموي لمّا عاد نشاط الخوارج العسكري من جديد. وإذا كان الاقتصار على الأنشطة العسكرية تبرّره المادّة المتوافرة في مصادر البحث الأساسيّة، فإنّه خلق على مستوى الدّراسات فراغاً جعل القارىء يتخيّل توقّفاً كليّاً لنشاط الخوارج لفترة تناهز نصف قرن من الزمن، وعسّر عليه تبعاً لذلك فهم التّحوّلات الّتي عرفتها الحركة طيلة هذه الفترة وخاصّة فهم تلك الانتفاضات الضخمة الّتي اندلعت بعد هذا التّوقّف.

كما تتميّز الدّراسات المتوافرة بتركيز اهتمامها على نشاط الخوارج وتحرّكاتهم في العراق أو في الأقاليم القريبة منه، أمّا المجموعات الخارجية الّتي تكوّنت في الأقاليم البعيدة وكان لها نشاط خاصة في أواخر الحكم الأموي، فقد أهمل أغلب الباحثين الاهتمام بها. ورغم توافر دراسات خاصّة ببعض هذه المجموعات، فإنّه يصعب من خلالها تكوين فكرة واضحة عن دور خوارج المركز في تكوين هذه المجموعات وعن طبيعة العلاقات القائمة بينهم وبينها وعمّا يميّز خوارج هذه الأقاليم عن أصحابهم في المركز، وهذا ما جعل المكتبة العربيّة تفتقر إلى دراسة شاملة لكلّ المجموعات الخارجيّة الّتي تكوّنت وكان لها نشاط خلال الحكم الأموي.

---

(١) أغلب أصحاب هذا الرأي من المستشرقين نذكر من بينهم: جولدتسيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمّد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وحسن عبد القادر، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١٧٢؛ فإن فلوتن، **السّيادة العربية والشّيعة والإسرائيليات**، ترجمة حسن إبراهيم حسن ومحمّد زكي إبراهيم، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٦٩؛ LAMMENS (H), *Le siécle des Omayyades, croyances et institutions*, Beyrouth 1926, p. 156; LEVI DELLA VIDA (G), «Kharidjites», dans *L'Encyclopédie de L'islam*, Nouvelle édition, 1978, T. IV, p. 1106; NABHANI KORIBAA, *Les Kharidjites: Démocrates de l'islam*, Paris, 1991.

(٢) أغلب أصحاب هذا الرأي هم من العرب نذكر من بينهم: نايف معروف، **الخوارج في العصر الأموي**، ص ٢٧ ـ ١٢٨؛ محمّد رضا الدّجيلي، **فرقة الأزارقة**، ص ١٠؛ سهير القلماوي. **أدب الخوارج**، ص ٤٩ ـ ١٠٠؛ أحمد أمين، **فجر الإسلام**، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢؛ عبد العزيز الدّوري، **مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام**، بغداد، ١٩٤٩، ص ٣١؛ يوسف العش، **الدّولة الأموية**، دمشق، ١٩٤٥، ص ١١٤ ـ ١١٥.

إنّ كلّ ما ذكرناه سابقاً يبرّر اختيار الخوارج موضوعاً للبحث. ففهم طبيعة هذه الحركة المعارضة وإدراك خصائصها ومميّزاتها وتتبّع تطوّرها على امتداد الحكم الأموي والتّعرّف على الدّور الّذي لعبته خلال هذه المرحلة الهامّة في تاريخ الدّولة الإسلاميّة قد لا يستحقّ دراسة واحدة بل دراسات عديدة.

قمنا بتقسيم هذا البحث إلى ثلاثة فصول، خصّصنا **الفصل الأول** منها لدراسة ظروف نشأة الحركة الخارجيّة وتتبّع التّطوّر الّذي عرفته إلى حدود الفتنة الثانية. ولم تكن عودتنا في بداية هذا الفصل إلى جذور الحركة وتتبّع مراحل نشأتها يهدفان إلى تقديم الجديد خصوصاً بعد صدور دراسة الأستاذ هشام جعيّط الخاصّة بالفتنة الكبرى، وإنّما أردنا من خلالهما تمكين القارىء من تتبّع الأحداث من بدايتها وفهم جوانب الحركة الّتي ارتبطت بهذه الحقبة أو تأثّرت بها.

أمّا ما تبقى من هذا الفصل، فقد تتبّعنا فيه تحرّكات الخوارج وأنشطتهم محاولين من خلالها الوقوف على أبرز التحوّلات الّتي طرأت على الحركة خصوصاً بعد وصول الأمويين إلى السّلطة وتغيّر أسلوب الحكم وطريقة التّعامل مع المعارضين. وقد جعلنا هذه المرحلة من تاريخ الخوارج في الفصل نفسه لأنّ الحركة حافظت فيها ـ رغم ما تعرّضت له من قمع ـ على وحدتها وانسجامها السّياسي والفكري وهو ما فقدته مع اندلاع الفتنة الثانية.

كانت سنوات الفتنة الثّانية وما عرفته الحركة الخارجية خلالها من تحوّلات محور **الفصل الثّاني** من البحث. وقد خصّصنا لهذه الفترة ـ رغم قصرها ـ فصلاً كاملاً لأهميّة الأحداث الّتي وقعت خلالها وعمق تأثيرها على الحركة، ففيها انقسم الخوارج وقامت بعض المجموعات بأكبر انتفاضات خارجية في تاريخ الدّولة الإسلامية خلال القرن الأول هجري.

ويعود اهتمامنا بالانقسام الّذي خصّصنا له الشطر الأوّل من هذا الفصل إلى ما يكتنف هذا الحدث من غموض في المصادر، وخاصّة لما له من أهمية في التعرّف على واقع الحركة في تلك المرحلة وفهم ما طرأ عليها من تحوّلات في المرحلة اللاّحقة. كما تتبّعنا في هذا الفصل الانتفاضات الضّخمة الّتي قامت بها بعض المجموعات الخارجيّة في سنوات الفتنة الثّانية. ولئن طغى الجانب العسكري على دراسة هذه الانتفاضات، إلاّ أننا حاولنا قدر الإمكان الاهتمام بالجوانب السّياسية والاجتماعيّة والفكّرية والتّنظيمية وذلك لتقديم صور كاملة عن هذه المجموعات تساعدنا على فهم واقعها وخاصّة الوقوف على أسباب هزيمتها.

أما **الفصل الثالث** الأخير من البحث فقد تتبّعنا فيه أنشطة الخوارج المختلفة بعد نهاية الفتنة الثانية وإخماد الانتفاضات الخارجيّة الكبرى. ولم يقتصر هذا الفصل على المجموعات الموجودة في العراق وما حوله، بل شمل كذلك تلك الّتي تكوّنت ونشطت في

الأطراف. وقد جاء هذا الفصل مختلفاً من حيث المنهج عن سابقية، فهو ليس تحقيبيّاً بل مقسّمٌ حسب أغراض ومسائل حاولنا قدر الإمكان ترتيبها كرونولوجياً حتّى يتسنّى للقارىء تتبّع مسار التطوّر الّذي عرفته مختلف المجموعات الخارجيّة والوقوف من خلاله على واقعها، وخاصّة فهم تلك الانتفاضات الّتي اندلعت في أواخر الحكم الأموي.

الفصل الأول

نشأة الحركة الخارجيّة وتطوّرها في بداية الحكم الأموي

I ـ الفتنة وظهور «الخوارج»

يتّفق المؤرخون القدامى على التّأريخ للحركة الخارجيّة ابتداءً من معركة صفّين[1] الّتي وقعت سنة ٣٧هـ، وجمعت بين الجيشين العراقي بقيادة علي بن أبي طالب والشامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان ويربط الجمع ظهورها بقبول علي مبدأ تحكيم القرآن في الصرّاع الدّائر بينه وبين معاوية وهو موقف رفضه العديد من المقاتلة العراقيين وخرجوا بسببه على الخليفة. لكن المتتبّع للرّوايات الخاصّة بهذا الحدث لا يمكنه التّسليم بما جاء فيها تسليماً مطلقاً لأنّ ظهور حركة بمثل حجم وأهميّة الحركة الّتي ظهرت في صفين لا يمكن أن يكون فجئياً ومقترناً بحادث بسيط كما يبدو من خلال هذه الروايات. فالأكيد أنّ لهذا الحركة جذوراً تمتد في الحقبة السّابقة، وأنّها تأثرت بالأحداث العديدة التي عرفتها الدّولة الإسلاميّة خصوصاً في خلافة عثمان بن عفان المضطربة، ولذلك تستدعي دراستها الرّجوع إلى هذه الحقبة للبحث عن الظروف الّتي مهّدت لظهورها والأطراف الّتي تزعمتها ولعبت دوراً في تأسيسها.

١ ـ الجذور الأولى للحركة الخارجية: ثورة «القرّاء» في خلافة عثمان:

لا تذكر المصادر في حديثها عن الفترة الإسلاميّة الأولى وجود اختلاف بين المسلمين أو معارضة لسلطة المدينة في الفترة السّابقة لخلافة عثمان بن عفّان، فقد احتلّت أحداث الردّة في خلافة أبي بكر الصّديق القصيرة مكان الصّدارة وتجنّد جميع المسلمين للقضاء على هذه الحركة وبسط سلطة المدينة على كامل الجزيرة العربيّة. أمّا خلافة عمر بن الخطّاب، فقد كان محورها الأساسي الفتوحات وتنظيم المناطق المفتوحة، ولذلك انشغل المسلمون بالحروب والغنائم.

(١) صفّين: موضع قرب الرقّة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٧، مج ٣، ص ٤١٤.

وظهرت أولى بوادر المعارضة بعد وصُول عثمان بن عفان إلى السّلطة، وتطوّرت تدريجيًا حتّى أفضت إلى مقتله ودخول المسلمين لأوّل مرّة في مواجهات عسكريّة فيما بينهم أدّت إلى انقسامهم.

فما هي أسباب هذا الخلاف؟ وما هو دوره في تكوين الحركة الخارجيّة؟

يتّفق الرّواة على تقسيم خلافة عثمان إلى فترتين متساويتين، فترة أولى تميّزت بالاستقرار لم ينقم فيها النّاس على عثمان شيئاً، «بل أنّه كان أحبُّ إلى قريش من عمر لشدّة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم»[1]. وفترة ثانية ظهرت فيها القلاقل والاضطرابات واتّسعت المعارضة مُعلنة بداية أوّل فتنة وأكبرها في تاريخ الدّولة الإسلاميّة النّاشئة.

ولا يعني هذا التّقسيم التّبسيطي في الحقيقة تغييراً فجئيًا في سياسة الخليفة بل يمثّل بداية التّململ في صفوف المسلمين وتحوّل الانتقادات لسياسة الدّولة إلى مرحلة العلنيّة ثمّ انتشارها على نطاق واسع في الأمصار الإسلاميّة. فقد كان عثمان منذ تولّيه الخلافة حريصاً على اتّباع الخطوط العريضة للسّياسة الّتي أرسى قواعدها وطبّقها عمر بن الخطاب، فواصل الفتوحات وحافظ على النّظام المتّبع في جمع الضرائب وتوزيع العطاء على المسلمين. ولم يغيّر هذه السّياسة طيلة خلافته، إلاّ أنّه اتّخذ بعض الإجراءات اعتبرها المسلمون خارجة عن تقاليد الرّسول والخليفتين أبي بكر وعمر ومنافية لمبادىء الدّين الإسلامي ممّا جعل الانتقادات تخرج من الحيّز الضيّق وتأخذ صبغة علنيّة.

انطلقت أولى الانتقادات لسياسة عثمان من المدينة ومن وسط أصحاب الرّسول بصورة خاصة، إلاّ أنها لم تأخذ صدى كبيراً ولم تشكّل خطراً حقيقيًا على سلطته. فالخطر الكبير سيأتي من الأمصار وخصوصاً من مصر والبصرة والكوفة الّتي كانت نقطة انطلاق المعارضة لسياسة الخليفة والمركز الأساسي للثّورة ضده. ونظراً للدّور المهمّ الّذي لعبه سكّان هذا المصر وارتباط الأحداث الّتي جدّت فيه بالحركة الخارجيّة، فإننا سنركّز أكثر على أحداث الكوفة.

أ ـ الثّورة في الكوفة:

يعودُ انطلاق المعارضة لسياسة عثمان من الكوفة إلى الوضع المتميّز لهذا المصر. فهو يضمّ ـ خلافاً للبصرة، مصر العراق الثاني ـ الأغلبيّة السّاحقة من المقاتلة الّذين شاركوا في فتح العراق منذ الحملات الأولى سنة ١٢هـ إلى معركة القادسيّة وفتح المدائن[2].

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، القدس، ١٩٣٨، ج ٥، ص ٢٥.

(٢) كان في الكوفة ثلاثون ألفاً ممن شهد القادسيّة، في حين لم ينتقل منهم إلى البصرة مع عتبة بن غزوان سوى خمسة آلاف: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٦٧، ج ٤، ص ٧٥.

ويعرف هؤلاء في المصادر بـ «أهل الأيام» و«أهل القادسيّة»، كما يضمّ عدداً كبيراً من النّازحين الجدد الّذين قدموا من شبه الجزيرة العربيّة بعد تأسيس هذا المصر واستقرار الفاتحين فيه وهؤلاء هم «الرّوادف».

ولئن كان سكّان الكوفة كلهم يتمتّعون بالعطاء بموجب النّظام الذي أقرّه عمر بن الخطاب، فإنّ مقدار هذا العطاء كان يختلف من فئة إلى أخرى. فقد كان عطاء أهل الأيام وأهل القادسيّة مرتفعاً باعتبار أسبقيّة مشاركتهم في الفتوحات ودورهم الكبير فيها، في حين كانت عطاءات الرّوادف منخفضة وخصوصاً المتأخرين منهم[1]. وقد خلق هذا الاختلاف تبايناً اجتماعيًا واضحاً انضاف إلى التّباين القبلي الكبير الناجم عن تركيبة جيش الفتح ممّا جعل الوضع في هذا المصر يتوتّر تدريجيًا في انتظار اللّحظة المناسبة للانفجار.

لم يحدث الانفجار في الكوفة زمن الخليفة عمر بن الخطاب لعدة أسباب أهمها تواصل عمليات الفتح الّتي كانت تدرّ غنائم كثيرة تمكّن من حلّ مشاكل سكّان المصر باعتبار أنّها كانت تُقسّم بالتّساوي بين المشاركين في الحروب بقطع النظر عن تاريخ قدومهم إلى الكوفة، كما كان تواصل الفتوحات يشغل المقاتلة عن الاهتمام بالمشاكل الدّاخليّة سواء منها الخاصة بالمصر أو بالدّولة الإسلاميّة عموماً. لكن فتوحات الكوفة قلّت في خلافة عثمان ثم توقّفت تماماً ابتداءً من سنة ٣٠هـ، وكان توقفها عاملاً حاسماً في بروز المشاكل الاجتماعيّة على السّطح.

وقعت أولى الاضطرابات في الكوفة في ولاية الوليد بن عقبة وتحديداً سنة ٣٠هـ. ولئن يجمع الرّواة على القول إن مجون الوليد هو سببها الرّئيسي، فإن إشارات عديدة تؤكد أنّ أسباب الأزمة لا تكمن في أخلاق الوليد بقدر ما كانت تكمن في سياسته الّتي وصفها المؤرّخ جعيّط بـ «الشعبويّة» والهادفة إلى تحسين حال الفئات الاجتماعيّة الضعيفة[2]. فهذه السّياسة لم تعجب بعض الكوفيين الذين يسميّهم سيف بن عمر «الخاصة»[3]، وهي خاصة إسلاميّة تتمثّل في أهل السّابقة ووجوه أهل الكوفة الذين رأوا في اعتماد الوليد على العامة ومساعدته لها إبعاداً لهم وإضعافاً لدورهم في المجتمع[4]. ويؤكّد هذا القول التّقرير الذي

(١) فرض عمر لمن ولي الأيام ثلاثة آلاف، ثم فرض لأهل القادسيّة ألفين، وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة، وفرض لمن بعد القادسيّة واليرموك ألفاً، ثم للرّوادف المثنى خمسمائة، والروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة، وفرض للرّوادف الرّبيع على مائتين وخمسين ولمن بعدهم على مائتين. انظر: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٦١٤.

(٢) DJAIT (H), *La grande discorde*, Paris, Gallimard, 1989, pp. 104 - 106.

(٣) يقول سيف بن عمر واصفاً موقف الكوفيين من الوليد: «كان النّاس في الوليد فرقتين: العامّة معه والخاصة عليه»: تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٧٧.

(٤) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 106.

بعثه الوالي الجديد للكوفة سعيد بن العاص والّذي جاء فيه «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرُهم، وغُلب أهل الشّرف منهم والبيوتات والسّابقة والقُدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت، وأعراب لحقت، حتّى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها»[١].

وكان الحلّ بالنّسبة للخليفة هو المحافظة على التّراتبية الاجتماعيّة التي أقرّها عمر بن الخطاب[٢] والمرتكزة على مبدأ السّابقة في الجهاد، لذلك كتب إلى سعيد يطلب منه تفضيل أهل السّابقة والقُدمة على من سواهم من الفئات الاجتماعية، ومن هنا كان تقريب الوالي «لأهل الأيام وأهل القادسيّة والقرّاء»[٣]. وقد مكّنت هذه الإجراءات من تهدئة الوضع في الكوفة لبعض الوقت، لكن سرعان ما عادت الاضطرابات لتعصف بالمصر من جديد.

اندلع الخلاف في مجلس سعيد بن العاص وكان المتسبّبون فيه وجوه أهل الأيام وأهل القادسيّة والقرّاء، أمّا سببه فهو الحديث الّذي دار في المجلس حول أراضي السّواد. ويذكر بعض الرّواة أنّ قول سعيد بن العاص «إنّما السّواد بستان لقريش» هو الذي أثار ثائرة الجماعة وحوّل النقّاش إلى خلاف حادّ[٤] كاد يفضي إلى صراع بين القبائل لولا محاولة الوالي وبعض الحاضرين تهدئة الغاضبين وتفريقهم.

ولم تكن الأراضي محور الخلاف في مجلس سعيد سوى تلك التيّ فرّ ملاّكوها أثناء الفتح وهم آل كسرى وكبار النبلاء ورجال الدّين وصارت فيئاً للمسلمين. وكان عمر بن الخطّاب قد قرّر عدم تقسيمها بين المقاتلة وإبقائها ملكيّة جماعيّة[٥] يقوم بخدمتها المزارعون القدامى ويُديرها ويُشرف عليها الأمناء وهم من أهل السّابقة وخصوصاً من أهل الأيّام.

ولا تورد المصادر طيلة خلافة عمر الخطاب وبداية خلافة عثمان ما يفيد وجود خلافات حول وضعية أراضي الفيء، وكان الإجراء الوحيد والهام بشأنها ذلك الّذي اتّخذه عثمان سنة ٣٠هـ والقاضي بالسّماح لسكّان المدينة الّذين شاركوا في فتح العراق ببيع نصيبهم من هذه الأراضي أو إبداله بأرضٍ أخرى في الجزيرة العربيّة. وقد تمّت هذه العمليّة من دون مشاكل[٦]، وكانت نتيجتها الأولى تحديد أراضي أهل الذمّة تحديداً دقيقاً يبدو أنّه أضرّ بمصالح الأمناء الّذين كانوا إلى حدود هذه الفترة يستفيدون من حالة التّداخل

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٧٩.
(٢) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 107
(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٧٩.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٤٠.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧؛ ج ٤، ص ٣٠ ـ ٣١.
(٦) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

التي كانت عليها هذه الأراضي[١].

كما أدّت هذه العمليّة إلى ظهور ملكيات كبيرة على حساب أراضي الفيء أصحابها إمّا من قريش مثل طلحة بن عبيد الله ومروان بن الحكم أو من أشراف القبائل الذين يملكون أراضي في شبه الجزيرة من أمثال الأشعث بن قيس زعيم كندة[٢]، وهو ما أدّى إلى تدعيم مركز مجموعة من أهل السّابقة وهم رؤساء القبائل على حساب مجموعة أخرى لا يملك أفرادها أراضي، وقد يكون هذا التحوّل أغضب هذه المجموعة وأثار خوفها من تواصل هذه العمليّة.

ولا تعود مسألة تدعّم مركز رؤساء القبائل واسترجاعهم لمكانتهم في المجتمع الكوفي إلى عمليّة تبادل الأراضي فحسب، بل كذلك إلى إجراءات أخرى كان اتّخذها عثمان لفائدتهم وتتمثّل خاصة في تقليدهم المناصب الإداريّة والسياسيّة ومنحهم القيادات العسكريّة[٣]، وهي إجراءات مكّنت الأطر القَبَليّة القديمة من البروز شيئاً فشيئاً بعد أن كان عمر قد أضعفها وأبْدَلَها بفكرة السّابقة[٤]. وقد زاد تدفّق الرّوادف على الكوفة في تدعيم هذه الأطر القَبَليّة بما أنّ القادمين الجدد كانوا يلتحقون في الغالب بقبائلهم، مدعّمين بذلك سلطة رؤسائها[٥].

وعموماً خلقت إجراءات عثمان الجديدة تناقضات داخل النّخبة الكوفيّة بين التيّار الاسلامي الذي يضمّ أهل السّابقة وخاصة "أهل الأيّام" الّذين احتلّوا مكانة متميّزة في التّركيبة الاجتماعيّة بفضل سياسة عمر المرتكزة على مبدأ الأسبقيّة في الجهاد، وبين التيّار القَبَلي الّذي يضمّ القوى العربيّة التقليديّة التي بدأت تكتسب أهمية أكبر بفضل سياسة عثمان، والتناقضات بين هذين التيّارين هي التي ستكون أحد الأسباب الرّئيسية للثورة ضدّ عثمان. لكن هذا الخليفة لن يكون ضحيّة التيّار القبلي كما يرى عبد العزيز الدّوري[٦]، بل ضحيّة التيّار الإسلامي الّذي تضرّرت مصالحه وبدأ يفقد مكانته من جرّاء سياسة عثمان.

ولئن اعتبر جلّ المؤرخين والمستشرقون منهم بنوع خاص أنّ الثورة في الكوفة مرتبطة بسياسة عثمان التي ولّدت صراعاً بين الأشراف وأهل السابقة، فإن المؤرّخ هشام جعَيْط - رغم اعترافه بوجود جانب من الصحّة في هذا التفسير - يعتبر أنّ الأيديولوجيا الّتي تشكّل

(١) HINDS (M), «Kûfa Political Aligements", In: *International Journal of Middle East Studies*, vol. II, 1971, p. 360.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٤) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 109

(٥) DJAIT (H), «Al - Kûfa», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, 1986, T. V, p. 350.

(٦) عبد العزيز الدّوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص ٦٨.

دعامته تحجب بسبب شدّة تبسيطها تعقّد اللّعبة الاجتماعيّة ذاتها ولا تُدرك بسبب تجزّئها الشّديد الجدليّة بين الدّين والسياسة في كلّ عمقها[1]. ومن هنا كان تركيزه على العامل الدّيني من خلال الاهتمام بالظاهرة القرآنيّة الّتي عرفتها الدولة الإسلاميّة وخاصة الكوفة وبيان دورها في الثّورة ضدّ عثمان.

ترتبط الظاهرة القرآنيّة بالانتشار الكبير للإسلام خارج شبه الجزيرة العربيّة نتيجة الفتوحات وما تبعها من انتقالٍ للصّحابة واهتمام بعضهم كعبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري بقراءة القرآن وحفظه وتفسير آياته، وهو اهتمام أدّى إلى تكوُّن مجموعات من القرّاء حول هؤلاء الصحابة ارتفع عدد أفرادها وصار لها إشعاع ديني كبير. وقد وفّرت خلافة عثمان الإطار الملائم لتكثيف نشاط القرّاء في الكوفة واتّساع دائرة اهتمامهم لتشمل بالإضافة إلى القرآن مسائل أخرى تهمّ الحياة السّياسية. وبذلك صار القرّاء يكوّنون مجموعة متميّزة ذات مضمون سياسي يختلف عن مضمونها الدّيني السّابق[2]، ويرى جعَيْط أنّ اختراق القرآن لبُنى الفكر الدّيني وللحركة السّياسية هو الّذي مكّن "القرّاء" الّذين صاروا على علاقة متينة مع النصّ القرآني وبالتالي مع الله من تجاوز الدولة باعتبار امتلاكهم للمرجعيّة الأولى والأساسية وهي القرآن الذي يفوق كل المرجعيات الأخرى[3]. وقد زاد القرّاء تمسّكاً بالنصّ القرآني افتقادهم للمرجعيات الأخرى مثل الصّحبة أو الشرف القَبَلي.

وعموماً يمكن القول إنّ مختلف الأسباب المذكورة سابقاً قد لعبت دوراً في دفع القرّاء إلى الثورة، وكان الحادث الّذي وقع في مجلس سعيد الشرّارة الأولى لهذه الثّورة، ورغم أنّ عثمان قد سيّر قادة القرّاء إلى الشام في محاولة منه لاحتواء هذه الحركة المعارضة وإخماد فتيلها بإبعاد عناصرها القيادية، فإنّ المتبقّين منهم في الكوفة استغلّوا غياب الوالي عن المصر للقيام بتحرّك جديد هدفه إرجاع المسيّرين وتنظيم عملية منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة، وهي العمليّة الّتي انتهت باختيار والٍ جديد هو أبو موسى الأشعري وموافقة عثمان على هذا الاختيار رغم ما تمثّله هذه العمليّة من تجاوز لسلطته[4]. ويكتسي التّحرك الّذي شهدته الكوفة في غياب الوالي سعيد بن العاص أهمية كبيرة، لأنّه يؤكّد أنّ حركة القرّاء كان لها وجود فعلي في هذا المصر، وأنّ جماعة من الكوفيين كانت ملتفّة حول قيادتها قد تكون محدودة العدد لكنّها منظّمة ونشيطة، وهو ما مكّنها من القيام بتحرّك ناجح.

---

(١) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 110.

(٢) عبد العزيز صالح الهلاّبي؛ «إلقاء الضوء على الدّور المزعوم للقرّاء في معركة صفّين»، **مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة**، السعوديّة، مج ٤، ١٩٨٤، ص ١٦.

(٣) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 136.

(٤) تفاصيل هذه الأحداث توجد في: **تاريخ الطبري**، ج ٤، ص٣١٧ وما بعدها؛ وفي **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٣٩ وما بعدها.

كما يبرز من خلال هذا التحرّك أرتباط الحركة الخارجيّة الّتي ستظهر في الفترة اللاّحقة وسط القرّاء، وهو ارتباط سنتبيّنه من خلال تتبّع القوائم الحاملة لأسماء بعض المشاركين في هذه التحرّكات والرّوايات المتعدّدة الخاصة بأحداث الكوفة.

يبلغ عدد المشاركين في مجمل التحرّكات المذكورة سابقاً حوالى ثلاثين نفراً،[1] وتتضمّن القوائم أسماء سبعة عناصر من الذين صاروا خوارج في ما بعد وهم: زيد بن حصين الطّائي، وشريح بن أوفى العبسي، وعبد الله بن شجرة السّلمي، وحمزة بن سنان الأسدي، وحرقوص بن زهير السّعدي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وعبد الله بن الكوّاء اليشكري. وقد كان بروز هذه العناصر خاصّة أثناء عمليّة طرد سعيد بن العاص ولعب أحدها، وهو يزيد بن قيس الأرحبي، دوراً بارزاً في تنظيم هذا التحرّك وقيادته إلى حين رجوع الزعماء وعلى رأسهم الأشتر النّخعي.

وإذا كانت القوائم تؤكّد ما قلناه سابقاً عن ارتباط الحركة الخارجيّة الّتي ستظهر في خلافة عليّ وسط القرّاء، فإنّها تبيّن كذلك أنّ بروز القرّاء الذين صاروا خوارج لم يكن مع بداية أحداث الكوفة، بما أنّنا لا نجدهم ضمن المجموعة المشاركة في الخصومة التي وقعت في مجلس سعيد بن العاص ولا نجد أسماءهم في قوائم المسيّرين إلى الشام. وإذا كان هذا لا يعني عدم مشاركتهم باعتبار أنّ المصادر لا تذكر سوى العناصر البارزة، فإنّه يدلّ على أنّهم ليسوا من الزعماء الكبار بل زعماء من «الدرجة الثانية» برزوا أساساً بعد عملية التّسيير الّتي شملت العناصر القياديّة وأحدثت فراغاً على مستوى القيادة استوجب تحرّكهم إلى حين عودة الزّعماء إلى المصر.

ومن ناحية أخرى، يفسّر ارتباط الحركة الخارجيّة الّتي ستظهر إبّان خلافة علي وسط القرّاء تأثير أحداث الكوفة على هذه الحركة وخاصةً على مستوى المبادىء الّتي ستتبناها. وإذا كنّا سنؤجّل دراسة الجانب الفكري للحركة إلى حين ظهورها وتبلور أفكارها، فإننا سنكتفي هنا بالإشارة إلى بعض أوجه هذا التأثير.

أول أوجه هذا التّأثير اكتساب القرّاء الّذين صاروا خوارج فكرة النّقد لسياسة الدّولة. فقد تبيّن من خلال تتبّع الأحداث أنّ أزمة الكوفة الّتي امتدّت جذورها في الفترة السّابقة لخلافة عثمان واتّسع نطاقها مع توقّف الفتوحات وتزايد النّقمة ضدّ سياسة هذا الخليفة في الأمصار الأخرى قد استقطبت مجموعة هامة من سكّان الكوفة. لكن وجود القرّاء كان

---

(١) تحصلنا على هذا العدد بإحصاء أسماء كل الّذين شاركوا في تحركات الكوفة أي المسيّرون والذين كاتبوا عثمان بن عفّان والذين شاركوا في طرد سعيد بن العاص. انظر: **تاريخ الطبري**، ج ٤ ص ٣١٨ ـ ٣٢٣؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٤، ص٤٠ ـ ٤١، ٤٥ ـ ٤٦؛ عمر بن شبّة، **كتاب تاريخ المدينة**، تحقيق محمّد شلتوت، جدة، ج ٣، ص١١٤٢.

عاملاً حاسماً في تحويل الخلافات إلى حركة سياسيّة قائمة على أفكار ومبادىء لأنّ القرّاء المتأثرين بالقرآن عمّقوا النّقاشات حول المشاكل المطروحة ليثبتوا تجاوز عثمان وولاته لتعاليم الإسلام وانبثقت من هذه التعاليم فكرة النقد لسياسة الخليفة التي لم تقتصر على أراضي الفيء بل شملت مجالات أخرى أيضاً.

- أمّا الوجه الثّاني لهذا التّأثير فهو التّحول من النّقد إلى المعارضة والرّفض لسياسة الخليفة والعداء لقبيلة قريش عامة، وسيعبّر الخوارج بوضوح عن هذا الرّفض والعداء في مبادئهم الّتي سيتبنّونها في الفترة اللاحقة.

- كما ستخلق أحداث الكوفة لدى القرّاء شعوراً بأنّه من حقّهم كمسلمين التّدخل في شؤون الدّولة والمشاركة في تحديد مصير الأمة، وهو الشّعور الذي سيقوى بعد مقتل عثمان ودخول المسلمين في دوامة الفتنة، وسيدفع القرّاء إلى فرض آرائهم ومواقفهم على الخليفة الجديد عليّ بن أبي طالب، وسيكون سبباً في خروج بعضهم عليه في صفّين إبّان حادث التحكيم.

هذه إجمالاً هي الأحداث الّتي وقعت في الكوفة أثناء خلافة عثمان بن عفّان. وإذا كنّا قد أسهبنا في سرد تفاصيلها، فإنّ ذلك يعدّ ضروريًا لفهم تطوّر الأحداث اللاّحقة وخاصةً لفهم حركة الخوارج المرتبطة بها. لكن رغم الأهمّية الكبرى الّتي تكتسيها ثورة قرّاء الكوفة في تحديد ملامح الفترة اللاّحقة، فإنّ دور الكوفيين في عملية قتل عثمان كان ثانويًا بالمقارنة مع دور سكان الأمصار الأخرى، وهو ما يدلّ على حصول تطوّر في هذه الأمصار ولا سيما في المدينة، مركز الخلافة ونقطة انطلاق الفتنة.

ب - الثورة في الأمصار الأخرى ومقتل عثمان:

بدأت المعارضة لسياسة عثمان في المدينة قبل أن تبدأ في الكوفة، وكان أول الأصوات المنتقدة لها صوت الصّحابيّ أبي ذر الغفاري الذي احتجّ بشدّة على ظاهرة تهافت المسلمين على جمع الثّروة وتكديس الأموال التي برزت في خلافة عثمان وأدّت إلى ظهور فوارق اجتماعيّة بين المسلمين. وقد واجه عثمان دعوة أبي ذرّ إلى الزّهد والتّقشف بنفي صاحبها خارج المدينة[1]، لكن موجة الاحتجاج لم تنقطع، وكان أبرز زعمائها عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود.

وتذكر المصادر تفاصيل ضافية عن تحرّكات هذين الصّحابيين[2]، ويظهر أنّ أسلوب

(١) انظر تفاصيل هذا الحدث في: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص٥٢ - ٥٤؛ تاريخ الطبري، ج ٤، ص٢٨٣ - ٢٨٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٤ - ٣٧، ٤٨ - ٥١.

العنف الّذي توخّاه عثمان في ردعهما هو الّذي أعطى لاحتجاجهما قيمة كبيرة في المدينة وخارجها. فقد اعتبر المسلمون ضرب هذين الصحابيين وإهانتهما ظلماً كبيراً وخروجاً عن التّقاليد السّابقة التي تعطي أصحاب محمّد مكانة متميّزة اعترافاً بتضحياتهم في سبيل الإسلام.

ولم تقتصر المعارضة في المدينة على الصّحابة ذوي المكانة الاجتماعيّة الضّعيفة، بل شملت بعض كبار الصّحابة القرشيين من ذوي المكانة المرموقة من أمثال عليّ بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزّبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوف... وغيرهم. ورغم أنّ طلحة والزّبير كانا من أبرز المستفيدين من سياسة عثمان «اللّيبيرالية»[1] التي مكّنتهما من تكوين ثروة طائلة[2] فإنّهما لم يتردّدا في التنديد بأعماله وتوجيه النّقد إليه كلّما سنحت لهما الفرصة بذلك.

أمّا أسباب معارضة بعض الصّحابة لسياسة عثمان فهي عديدة، ولعلّ أبرزها سياسة الإقصاء الّتي اتّبعها تجاههم باعتماده كليًا على بني أميّة. وتذكر المصادر أنّ هؤلاء الصّحابة لعبوا دوراً كبيراً في عمليّة قتل عثمان، ويذهب الواقدي إلى القول إنّ قدوم رجال الأمصار إلى المدينة لقتل الخليفة كان تلبية للنّداء الّذي وجّهه هؤلاء الصّحابة لهم[3]. وإذا كنّا لا نستطيع نفي هذا القول أو تأكيده، فإن مما لا شك فيه أنّ بعض الصحابة قد لعبوا دوراً كبيراً في عملية التأليب على عثمان، ويبدو أنّ المكانة المتميّزة الّتي يحتلّها بعضهم مثل عليّ بن أبي طالب جعلت مواقفهم وأقوالهم تلقى صدى كبيراً لدى بعض المسلمين في الأمصار وخصوصاً في مصر والبصرة.

لا تذكر المصادر عن البصرة معلومات كثيرة تتعلّق بثورة المسلمين فيها ضدّ عثمان، ويُعَدّ صمت المصادر في حدّ ذاته دليلاً على عدم وقوع أحداث مهمّة شبيهة بتلك التي وقعت في الكوفة. فالرّواية الوحيدة التي تشير إلى وجود انتقادات لسياسة عثمان في البصرة هي التي تتحدث عن تسيير أحد قرّائها، وهو عامر بن عبد القيس، إلى الشام سنة ٣٣هـ. وتبدو أسباب هذا التسيير من خلال رواية سيف بن عمر غير واضحة[4]. أمّا أبو مخنف فيذكر أنّ عامراً كان ينكر على عثمان أمره وسيرته، فكتب حُمران بن أبان، مولى عثمان، إلى عثمان بخبره، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر فحمله إلى المدينة[5] ومنها سيّره عثمان إلى الشام.

(١) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 81.

(٢) يعطي المسعودي تفاصيل عن ثروة الصّحابة في خلافة عثمان، وخصوصاً ثروة كلّ من طلحة بن عبيد الله والزّبير بن العوام. انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، ١٩٧٠، ج ٣، ص ٧٦-٧٧.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٢٦ - ٣٢٨.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٥٧.

ولم تقتصر عمليّة التّسيير على ما يبدو على عامر بن عبد القيس، بل شملت كذلك بعض البصريين[1] المنتمين إلى الوسط نفسه الذي انطلقت منه أحداث الكوفة. إلاّ أنّه لا يوجد رغم هذا التّشابه ما يشير إلى حصول تنسيق بين الثّائرين في الكوفة والبصرة، والإشارة الوحيدة الّتي يمكن أن نستشفّ من خلالها وجود علاقة بين قرّاء المصرَيْن، تلك الّتي تتحدّث عن مشاركة حرقوص بن زهير السّعدي البصري إلى جانب ثوّار الكوفة في عمليّة طرد سعيد بن العاص سنة ٣٤هـ[2] قبل عودته إلى مصره وخروجه مع ثوّاره إلى المدينة سنة ٣٥هـ[3]. وحتّى إنْ لم يكن وجود حرقوص في الكوفة بهدف التّنسيق مع قرّائها، فإنّ تنقّله بين المصرَيْن قد يكون ساهم في نقل أفكار ثوّار الكوفة إلى البصرة ولو أنّ انتشارها ظلّ محدوداً جداً بسبب انشغال البصريين في هذه الفترة بالفتوحات والغنائم.

أمّا عن ثورة سكان مصر، فإنّ المصادر لا تعطي معلومات توضّح ملابساتها وتطوّراتها، وتظهر أغلب الرّوايات تحرّكات المصريين وكأنّها نتيجة لعمليات التّحريض التي قام بها محمّد بن أبي بكر ومحمّد بن أبي حذيفة ضدّ الخليفة[4]. لكن يبدو من خلال بعض الإشارات ومن خلال تتبّع أسماء الثّوّار المصريين أنّ نقمة المسلمين الأوائل الذين فتحوا مصر واستقرّوا فيها كانت من أهمّ أسباب هذه الثّورة على سياسة عثمان التي لم تعطهم المكانة التي يستحقّونها. وقد تطوّرت هذه النّقمة بسرعة وتفاعلت مع الانتقادات العديدة الموجّهة ضدّ الخليفة وأدّت إلى تحرّك المصريين في اتجاه المدينة.

هذه هي مجمل الأحداث الّتي جدّت في الأمصار وأدّت إلى مقتل الخليفة. ونستنتج من خلالها أنّ النقمة على سياسة عثمان لم تقتصر على الكوفة بل شملت جلّ الأمصار الإسلاميّة، إلاّ أنها لم تبلغ ما بلغته في الكوفة من عمق وتجذّر فكانت بذلك نقمة مصطنعة تفتقد إلى الحسّ السّياسي[5] خاصةً في مصر، ويفسّر عدم تجذر المعارضة في هذه المنطقة هدوء الوضع فيها مباشرةً بعد مقتل عثمان وعدم ظهور حركات معارضة شبيهة بتلك الّتي ظهرت في العراق وخصوصاً في الكوفة.

ولا بدّ من الإشارة قبل الحديث عن عمليّة قتل عثمان بن عفّان إلى وجود روايات عديدة لسيف بن عمر التّميمي[6] تذكر كسببٍ أساسي لهذه الثورة مؤامرة حاكها ونفّذها يهوديّ اسمه عبد الله بن سبأ، وهو المعروف بابن السّوداء. وقد جعلت هذه الرّوايات

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، بيروت، ١٩٥٧، ج ٧، ص ١١١.
(٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٤٥.
(٣) **تاريخ الطبري**، ج ٤، ص ٣٤٩.
(٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٦١.
(٥) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 148.
(٦) مجمل هذه الرّوايات نجدها في: **تاريخ الطبري**، ج ٤، ص ٢٨٣، ٣٣١، ٣٤٠ ـ ٣٤١.

العديد من الدارسين يركّزون على دور ابن سبأ وأصحابه السبئيّة في إثارة الفتنة ويحمّلونهم مسؤوليّة قتل عثمان وما انجرّ عنها من صراع بين المسلمين، كما يعتبرونهم النّواة الأولى الّتي انطلقت منها المعارضة الخارجيّة والشيعيّة[1]. إلاّ أن بعض الدّارسين شكّكوا في الدّور المنسوب إلى ابن سبأ[2] وانكبّ بعضهم على دراسة هذه الشخصيّة للوقوف على حقيقة دورها في الفتنة. ومن أبرز الدراسات وأحدثها دراسة بعنوان «عبد الله بن سبأ: دراسة للرّوايات التاريخيّة عن دوره في الفتنة» أثبت فيها صاحبها بعد عمليّة نقد ومقارنة دقيقة للرّوايات أن ابن سبأ شخصيّة وهميّة لم يكن لها وجود، وإنْ وُجد شخص بهذا الاسم فمن المؤكد أنه لم يقم بالدّور الذي أسنده إليه سيف وأصحاب كتب الفرق[3]. وبذلك تكون الثّورة على عثمان ناتجة عن عدّة أسباب ذكرناها سابقاً لا دور لهذا اليهودي فيها.

مثّل قدوم الثوّار من مختلف الأمصار الإسلاميّة إلى المدينة سنة ٣٥هـ تتويجاً للتحركات السّابقة وقد انتهت هذه العمليّة بحصار عثمان ثم قتله. ورغم اتّفاق أغلب الرّوايات على وجود تنسيق بين مختلف الأطراف وانتقال العديد من قادة المعارضة إلى المدينة مثل الأشتر النّخعي، وصعصعة بن صوحان العبدي، وحكيم بن جبلة، وحرقوص بن زهير السعدي.. وغيرهم، فإن دور ثوّار البصرة والكوفة في قتل الخليفة كان ثانويًا[4] بالمقارنة مع الدور الّذي لعبه المصريون. أمّا سكان المدينة فلئن لم يشاركوا في عمليّة القتل إلاّ أنهم تخلّوا عن الخليفة ولم يبذلوا جهداً كبيراً لمنع قتله، وظلّوا ينتظرون تطوّر الأحداث من بعيد.

تمّت بعد مقتل عثمان البيعة للخليفة الجديد عليّ بن أبي طالب. وقد لعب زعماء المعارضة دوراً كبيراً في اختيار عليّ وخاصةً في عمليّة البيعة له، ويبرز من بين هؤلاء الأشتر النّخعي وحكيم بن جبلة العبدي[5]. ويدلّ حرص الثوار على إتمام البيعة في المدينة قبل

---

(١) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ٤٨؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١١٠ ـ ٢٥٤؛ عمار الطّالبي، آراء الخوارج الكلامية، الجزائر، ١٩٧٨. مج ١، ص ٦٩ ـ ٧٠؛ وداد القاضي، الكيسانية في التّاريخ والأدب، بيروت، ١٩٧٣، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) من الدارسين الذين شكّكوا في دور ابن سبأ: طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، المجلد الرابع: الخلفاء الرّاشدون، بيروت، ١٩٧٣، ص ٥١٨ ـ ٥١٩؛ جواد علي، «عبد الله بن سبأ»، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٥، ١٩٥٨، ص ٦٦ ـ ١٠٠.

(٣) عبد العزيز صالح الهلابي، «عبد الله بن سبأ: دراسة للرّوايات التاريخيّة عن دوره في الفتنة»، حوليات كليّة الآداب، جامعة الكويت، الحوليّة الثامنة، ١٩٨٧، ص ٧٣.

(٤) انظر التفاصيل الكاملة لعملية مقتل عثمان في: تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٦٥ وما بعدها، وفي: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص٥٩ ـ ٧٢.

(٥) انظر تفاصيل البيعة لعليّ في: تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٢٧ وما بعدها.

عودتهم إلى أمصارهم أن الهدف من وراء الثّورة لم يكن القضاء على سلطة المدينة ولا إقصاء قريش من الحكم بل تغيير الخليفة الذي رفض تلبية مطالب الثوّار.

التف الثوّار حول الخليفة الجديد وناصروه في معركة الجمل الّتي دارت في البصرة سنة ٣٦هـ وقادتها عائشة زوجة الرّسول والصّحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ضدّ الخليفة الجديد بدعوى المطالبة بدمّ عثمان المقتول ظلماً.

واتّجه عليّ بن أبي طالب بعد وقعة الجمل إلى الكوفة ومنها خرج إلى صفّين للقاء معاوية بن أبي سفيان والي الشّام الّذي كان بدوره رافضاً لسلطة الخليفة الجديد، وهو اللقاء الّذي سينتهي بالتّحكيم وظهور «المحكّمة».

٢ ـ التحكيم وظهور «المحكّمة»

منذ وصول عليّ بن أبي طالب إلى الحكم سنة ٣٥هـ وإلى حدود حرب صفّين لم تبرز بوادر اختلاف في صفوف مسلمي العراق حول الخليفة الجديد. فكلّ العراقيين الذين شاركوا في الثورة ضدّ عثمان أو تعاطفوا معها التفّوا حوله وناصروه ووقفوا إلى جانبه في حرب الجمل، ثم خرج أغلبهم معه إلى صفّين وكانوا أشدّ المتحمّسين لقتال معاوية. وحتّى العناصر القليلة من القرّاء التي اعتذرت عن الخروج معه[١]، فإن اعتذارها لم يكن رفضاً لسلطة الخليفة أو خروجاً عن طاعته بل كان تعبيراً عن موقفها الشخصي من الحرب. على أن الانقسام الخطير والكبير في صفوف جيش عليّ سيحدث في صفّين وسيؤدّي إلى ظهور أوّل مجموعة معارضة وهي «الخوارج».

أ ـ صفّين وانقسام جيش عليّ:

دخل علي معركة صفّين بجيش كبير يضمّ قسماً من مقاتلة البصرة وكلّ مقاتلة الكوفة. ورغم أنّ المصادر تحاول إبراز تفوّق جيش عليّ، فإن العديد من الرّوايات تبيّن بما لا يدعو للشكّ أنّ الجيشين كانا متقاربين عدداً وعدّةً وأنّ المعارك كانت في أغلب مراحلها سجالاً بين الطّرفين، ولم يكن الجيش العراقي لمّا توقّفت الحرب على وشك الانتصار كما تذكر المصادر[٢]. وقد توقّفت هذه الحرب لمّا رفع الجيش الشّامي المصاحف مطالباً بإنهاء القتال وتحكيم القرآن في النّزاع بين الطرفين. وقبل أن يتّخذ عليّ قراره النهائي بشأن توقيف الحرب أو مواصلتها برزت مجموعة من القرّاء من الذين صاروا خوارج فيما بعد، وفرضت على الخليفة قبول التّحكيم بالقوّة واختيار أبي موسى الأشعري ممثّلاً للعراقيين. لكن

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١١٥.

(٢) تجدون وقائع حرب صفّين في كتاب نصر بن مزاحم، وقعة صفين؛ وفي: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٠ ـ ٦٤؛ وفي كتاب البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٢٧٥ ـ ٣٤٠.

مباشرة بعد المفاوضات وكتابة وثيقة التحكيم عادت تلك المجموعة نفسها إلى عليّ طالبةً منه استئناف القتال إلاّ أنه رفض فكان ذلك سبباً في خروجها عليه.

تلك هي باختصار مجمل أحداث رفع المصاحف والتّحكيم وخروج الخوارج كما نجدها في أغلب المصادر الإسلاميّة، وهي أحداث تبدو للوهلة الأولى مترابطة ومتسلسلة إلى حدّ كبير. ولولا الموقف المتناقض الّذي اتخذه القرّاء، والمتمثّل في قبول التّحكيم ثم رفضه لكانت القضيّة مقبولة.

لقد أثار هذا الانقلاب المفاجىء في موقف القرّاء استغراب كلّ الدّارسين وتساؤلاتهم خصوصاً وأنّه صدر عن مجموعة تملك بحكم تجربتها السّابقة بعض الأفكار الواضحة، ولا يمكن لها بحال من الأحوال أن تتصرّف بصورة اعتباطية في مثل هذه القضية المصيرية. وقد دفع هذا التناقض الدّارسين إلى تسليط الضّوء على هذه المسألة ومحاولة التعرّف على حقيقة موقف هذه المجموعة من التّحكيم وتفسير دوافعه وخلفياته. وقد سلكت الدّراسات في تناول هذه المسألة اتّجاهين مختلفين وأدّت بالتّالي إلى آراء واستنتاجات متباينة:

ـ **فأمّا الاتجاه الأول**، فقد قبل أصحابه الرّوايات الموجودة في المصادر، وحاولوا بالاعتماد عليها البحث عن تفسير مقبول ومنطقي لهذا التّغيير المفاجىء في موقف القرّاء. وبرز من بين هؤلاء الدّارسين فلهوزن الّذي اعتبر أنّ الخوارج أخطأوا لمّا قبلوا التّحكيم، لكن لما تبيّن لهم الخطأ رجعوا عن باطلهم وتابوا[1]. وهو التّفسير الّذي تذكره المصادر على لسان الرّافضين للتّحكيم إبّان الحوار الذي دار بينهم وبين عليّ بعد صفّين. أمّا نايف معروف فيتحدّث عن وجود فريقين من القرّاء طلب أحدهما وقف القتال والتّحكيم وأصرّ الثّاني بقيادة ابن وهب الرّاسبي على مواصلته، ثمّ يتساءل إن لم يكن ذلك يندرج في إطار خطّة مدبّرة من قبل عناصر من الفريقين[2]. إلا أنّ ما يذكره هذا الباحث لا نجد ما يؤيّده في المصادر، كما أنّ الحديث عن تخطيط وعن توزيع للأدوار يفترض وجود تنظيم له قيادة وهو ما لم يكن موجوداً في تلك الفترة، بالإضافة إلى أنّ أغلب الخوارج لا يحبّذون استعمال هذه الأساليب الملتوية في التّعامل مع أعدائهم.

ويقدّم الباحث محمد رضا الدّجيلي تفسيراً مشابهاً للذي قدمه فلهوزن مع التّركيز على دور القرآن في تفسير التحول الطارىء في موقف هذه المجموعة. إذ يرى أنّ القرّاء لمّا رأوا المصاحف مرفوعة على رؤوس الرّماح استجابوا للقرآن استجابةً طبيعيّةً، وأحسّوا أنّه يجب الانصياع لأمره وحكمه ولم يستجيبوا لنداء الخليفة بوجوب الاستمرار في القتال لأنهم يرون أنّ طاعتهم يجب أن تكون للقرآن فقط لا للأشخاص. ولمّا انجلت لهم الحقيقة أحسّوا

(١) فلهوزن، أحزاب المعارضة السّياسية الدّينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة، ص ٣٧.
(٢) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ٣٢.

بالنّدم وأدركوا أنّ الكتاب لم يكن هو الحكم بين أهل الشّام وأهل العراق[1].

ويبدو هذا التفسير وجيهاً إذا اعتبرنا التّأثير القويّ للقرآن في نفوس القرّاء. لكن الانصياع لأوامر القرآن لا يعني عدم فهم هؤلاء وإدراكهم لحقيقة ما يحدث، لأنّ تعاملهم مع القرآن لم يكن تعاملاً وجدانيًا بحتاً كما يبدو من خلال تفسير هذا الباحث بل كان تعاملاً واعياً. فهم يدركون جيداً أسباب هذه الحرب وخلفياتها وموقفهم من معاوية واضح، ولذلك فإنّنا لا نعتقد أنهم كانوا يرون في القرآن ما يبرّر تصرّفاته حتّى يقبلوا تحكيم القرآن في الصّراع معه.

وعلى العموم، فإنّ ما توصّل إليه هؤلاء الدّارسون وكلّ الّذين حاولوا تفسير موقف القراء من التحكيم وفقاً لما تذكره الرّوايات، كان مجرّد تخمينات حاولت تبرير تناقض هذا الموقف، إنما من دون أن تنفي عن القرّاء تهمة الخطأ الذي ارتكبوه بقبولهم التحكيم ثم رفضه، وهو الخطأ الّذي حرم عليًا من تحقيق الانتصار على معاوية وتسبّب في تقسيم جيشه وإضعاف قوته.

ـ وأمّا **الاتجاه الثّاني** فقد رفض أصحابه التهمة الموجهة إلى القرّاء وشكّوا في صحّة الرّوايات نفسها، لذلك انطلقوا في البحث عن حقيقة موقف هذه المجموعة من التحكيم من خلال تعريض كلّ الرّوايات لعمليّة تمحيص ونقد ومقارنة. ونذكر من بين الدّارسين الّذين ساروا في هذا الاتجاه محمود إسماعيل، الذي استعرض في مقالٍ بعنوان «الخوارج وقضيّة التحكيم»[2] العديد من الروايات التي تنفي عن الخوارج نفياً قطعيًّا أية مسؤوليّة في إيقاف الحرب وقبول التحيكم وتبيّن وقوفهم منذ اللحظة الأولى ضدّه ورفضهم الشديد له. لكن ما يعاب على هذه الدراسة ـ رغم أهميّتها ـ هو اعتماد صاحبها على روايات واردة في مصادر متأخرة جدًا لا يرقى مستواها إلى مستوى الرّوايات الواردة في مصادر البحث الأولى والأساسية الخاصة بتلك الفترة مثل الطبري والبلاذري وابن مزاحم. وما يزيد في ضعف البحث اعتماد صاحبه على مصادر خارجيّة تتّسم بالتّحيّز الشديد باعتراف الباحث نفسه.

ونجد في هذا الاتجاه نفسه مقالاً لسليم النعيمي بعنوان «ظهور الخوارج»[3]، حاول من خلاله التوصّل إلى حقيقة موقف القرّاء من التحكيم على ضوء دراسة معمّقة ودقيقة للروايات الواردة في المصادر الأساسية، وهي: **تاريخ الطبري**، وكتاب **الأنساب** للبلاذري، و**وقعة صفّين** لنصر بن مزاحم.

وقد استنتج صاحب المقال بعد استعراض مجمل الروايات ومقارنتها أنّه لا يوجد

---

(١) محمد رضا الدّجيلي، **فرقة الأزارقة**، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) د. محمود إسماعيل، «الخوارج وقضيّة التحكيم»، **المجلة التاريخيّة المصريّة**، مج ٢٠، سنة ١٩٧٣، ص ٤٧ ـ ٦٩.

(٣) د. سليم النعيمي، «ظهور الخوارج»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، العدد ١٥، سنة ١٩٦٧، ص ١٠ ـ ٣٥.

اتفاق على إدانة الخوارج وذلك لتوافر روايات لا تذكر لهم أي دور في التّحكيم وأخرى تذكر رفضهم له منذ اللحظة الأولى إلى جانب تلك التي تتهمهم بفرض التحكيم على عليّ ثم رفضه. وهذا في حدّ ذاته كافٍ لعدم التسليم بمسؤوليّة القراء الكليّة في وقوع التّحكيم. إلاّ أنّه يتّضح لقارىء المقال أنّ الروايات التي تذكر رفض الخوارج للتحكيم ليست سوى واحدة انفرد بنقلها البلاذري في حين أنّ عدد الرّوايات التي تتهمهم كثيرة ونجدها في المصدرين الرئيسيين لحرب صفين وهما: **وقعة صفين** لنصر بن مزاحم و**تاريخ الطبري**. وتواتر هذه الرّوايات ووجودها في مصادر عديدة يجعل القارىء يميل إلى قبولها. ولئن لم يتوصّل سليم النّعيمي إلى نفي التهمة الموجهة إلى القرّاء الذين صاروا خوارج، فإليه يعود الفضل في إبراز الروايات التي لا تتهم القراء بقبول التحكيم، وتلك التي تذكر رفضهم له من البداية وهي روايات ظلّت مغمورة لقلّة عددها واقتضابها الشديد وعدم وجودها في المصادر كافة.

ويعود عدم توصل النعيمي إلى نفي التهمة عن القرّاء إلى سبب أساسي وهو اقتصاره على تعديد الروايات من دون إعطاء أهمية كبيرة لرجال السند. ومن هنا فإن تركيز الاهتمام على أسانيد الروايات يُمكن أن يلقي مزيداً من الضوء على حقيقة موقف هذه المجموعة من التحكيم.

إن المصادر الرّئيسيّة لحرب صفين وهي: **تاريخ الطبري**، والجزء الثاني من **أنساب البلاذري**، وكتاب **وقعة صفين** لنصر بن مزاحم، توفّر روايات عديدة ومتناقضة عن حادثة رفع المصاحف والتحكيم، ومصدر كل هذه الروايات إمّا الزهري أوّ الشعبي أو أبو مخنف أو عمرو بن شمر أو عمر بن سعد:

فأمّا رواية الزهري (ت ١٢٤هـ) الّتي نقلها كل من الطبري والبلاذري، فهي مقتضبة ولكنّها واضحة، إذ هي لا تذكر للقرّاء أي دور لا في قبول التحكيم ولا في اختيار الحكم. ويبدو من خلالها أن قبول إيقاف الحرب وإجراء التحكيم كان رضوخاً لرأي أغلبيّة العراقيين[1].

وأمّا الشعبي (ت ١٠٣هـ) فإنّه يذكر في الرّواية التي ينقلها نصر بن مزاحم عن عمرو بن شمر اللّحظات الأولى الّتي تلت رفع المصاحف وردود الفعل داخل الجيش العراقي ثمّ الاستشارة التي قام بها عليّ قبل اتخاذ قرار وقف الحرب[2]. ورغم أنّ الشعبي قد حرص على نقل مواقف مختلف الأطراف وآرائها في تلك اللحظات، فإنّه لم يذكر للقرّاء أيّ موقف، وهذا دليل على أنه لم تتمّ استشارتهم كمجموعة منفصلة عن القبائل لأنهم لم يكونوا كذلك إلاّ أثناء القتال عندما كان عليّ يضعهم في كتائب وحدهم، أمّا خارج المعارك فكانوا منصهرين في قبائلهم المختلفة، لذلك لم تشملهم الاستشارة لاقتصارها على

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ١٥٧؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.
(٢) نصر بن مزاحم، **وقعة صفين**، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢.

الرؤساء، وأغلب القرّاء لا ينتمون إلى هذه الفئة. وممّا يؤكد أنّ هؤلاء لم يبرزوا ولم يقوموا بأي عمل قبل قبول عليّ التحكيم هو عدم تعرّض عمرو بن شمر لذكرهم، لا في هذه الرواية فحسب، بل في كل رواياته الأخرى المتعلقة بهذا الحدث مع أنه يعد أحد أبرز الرّواة لأحداث صفين نقل عنه نصر بن مزاحم العديد من الأخبار. لذلك لا يعقل أن يطّلع على كلّ التّفاصيل الخاصة بهذه المعركة من دون أن يكون له علم بدور القرّاء في إيقاف الحرب والتحكيم. ولا يمكن في هذا المجال أن نفترض أنّه تعمّد إخفاء دورهم لأن هذا الإخباري معروف بتشيّعه[1]، وبالتالي لا يمكن أن يخفي معلومات تتهم القرّاء الذين صاروا خوارج صراحة بأنهم السّبب فيما حلّ بعليّ وبالعراقيين من مصائب نتيجة التّحكيم.

ما نستنتجه من خلال روايات الزّهري والشّعبي وعمرو بن شمر أنّه لم يكن للقرّاء أي دور قبل قبول عليّ بن أبي طالب الهدنة، وقد يكونون بدورهم غير رافضين لفكرة إيقاف الحرب ولذلك جاء قرار عليّ تلبيةً لرغبة أغلبيّة العراقيين وليس نتيجة ضغط سُلط عليه من قبل مجموعة بعينها. إلاّ أن الاتّصالات التي جرت بين عليّ ومعاوية واتفاق الطّرفين على إجراء التحكيم هي التي أثارت بعض القرّاء ودفعتهم إلى رفضه، وهذا ما تؤكّده رواية الشّعبي الثّانية الّتي ينقلها البلاذري وهي أكثر الروايات وضوحاً ودقّةً فيما يخصّ موقف القرّاء.

يذكر الشّعبي أنّ رفض القرّاء للتحكيم جاء مباشرةً بعد اتفاق الطرفين على قبول إيقاف الحرب وقبل الخوض في التفاصيل الخاصة بعملية التحكيم. وقد كان الرّافضون «زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعبّاد منهم»[2]. وقد تكون هذه الرّواية تكملةً لرواية الشعبي المذكورة سابقاً والتي نقلها نصر بن مزاحم عن عمرو بن شمر، لكن نصراً تعمّد تجزئتها بحيث لم يذكر منها إلاّ ما يتماشى مع ما نقله من روايات عن هذه الحادثة وخصوصاً مع روايتي أبي مخنف المناقضتين تماماً لما ذكره الشّعبي. والظاهر أن نصراً كان مطّلعاً على حقيقة موقف القرّاء كما ورد على لسان الشعبي إذ نقل رواية مشابهة تؤكّد رفضهم للتّحكيم من البداية وتصدّيهم له قبل إنجازه[3]. لكن إدراجه لهذه الرّواية بعد أخبار التّحكيم وكتابة الوثيقة يجعل القارىء يعتقد أنّ الرفض جاء بعد إنجاز التّحكيم لا قبله.

أمّا أبو مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ) فينفرد مع عمر بن سعد (ت ١٨٠هـ) في تحميل القرّاء، الّذين صاروا خوارج، مسؤولية إجبار عليّ على وقف القتال وقبول التّحكيم واختيار أبي موسى الأشعري حَكَماً، وأخيراً رَفْضُ التّحكيم والخروج على عليّ[4].

---

(١) فؤاد سزكين، تاريخ التّراث العربي، السعودية، ١٩٨٣، مج ١، ج ٢، ص ١٣٢.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٣) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٤٩٧.

(٤) نجد النصّ الكامل لهذه الرّوايات في: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٤٨ ـ ٥١؛ وفي كتاب نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٣.

وبخصوص عمر بن سعد، فمن المعروف أنّه نقل العديد من أخباره عن أبي مخنف[1]، وروايتا التحكيم بالذّات منقولتان عنه. فإحداهما، وهي الّتي يرويها على لسان إبراهيم بن الأشتر، هي صورة طبق الأصل لرواية أبي مخنف، كما تتطابق الثّانية، وهي الّتي يرويها عن عبد الرحمن بن جندب الأزدي عن أبيه، مع رواية أبي مخنف غير أنّها تتميّز عنها بزيادة طفيفة تخصّ عدد القرّاء الّذين فرضوا على عليّ قبول التحكيم، وهذا ما يؤكّد أنّ أبا مخنف هو مصدر الرّوايتين. ونلاحظ عند الرّجوع إلى السّند أنّ هذا الرّاوي ينقل إحدى الرّوايتين عن فضيل بن خديج عن رجل من النّخع عن إبراهيم بن الأشتر رواها لمصعب بن الزبير. ويكفي مصدر الرّواية وحده للشكّ في صحّتها لأنّ إبراهيم بن الأشتر هو ابن الأشتر النّخعي بطل الرّواية وقد أراد من خلالها أن يظهر شجاعة أبيه الّذي كان على وشك تحقيق النّصر لولا انخداع القرّاء برفع المصاحف وإصرارهم على إيقاف الحرب وإجراء التّحكيم[2].

بقيت رواية وحيدة تتّهم القرّاء بفرض التّحكيم وهي التي ينقلها أبو مخنف عن عبد الرحمن بن جندب الأزدي عن أبيه. وهذه رواية يمكن ـ رغم انتشارها في المصادر ـ الشكّ في صحّتها باعتبار وجود روايات أخرى عديدة متنوّعة المصادر لا تذكر للقرّاء أيّ دور أو هي تنفي التّهمة عنهم.

أمّا اختيار أبي موسى الأشعري، فإنّ القرّاء الرّافضين للتّحكيم لم يلعبوا فيه أيّ دور، لأنّهم رفضوا العمليّة جملة وتفصيلاً، لذلك لا يعقل أن يقوموا باختيار الحَكَم فيها مع رفضهم لها.

وجرى التّحكيم مباشرةً بعد إيقاف الحرب وأفضت اجتماعات الوفدين العراقي بقيادة أبي موسى الأشعري والشّامي بقيادة عمرو بن العاص إلى اتفاق الطّرفين على تحكيم القرآن وتحديد مكان وتاريخ اجتماع الحَكَمين، وكُتبت وثيقة في ذلك «أخذها الأشعث بن قيس وخرج يقرؤها على الناس ويعرضها عليهم فيقرأونها حتّى مرّ بها على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديّة التّميمي فقرأها عليهم فقال عروة: أتحكّمون في أمر الله الرّجال. لا حُكْمَ إلاّ لله. ثم شدّ بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث فغضبت اليمنيّة وكادت أن تقع الفتنة بينها وبين تميم»[3].

---

(١) فؤاد سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج ١، ج ٢، ص ١٣٣.

(٢) عبد العزيز صالح الهلابي، «إلقاء الضوء على الدور المزعوم للقرّاء في معركة صفّين»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، السعودية، مج ٤، ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٥؛ المبرّد، **الكامل**: باب الخوارج، دمشق، ١٩٧٢، ص ٢٢؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٣٨.

ولم تكن صرخة عروة بن أديّة الرافضة للتّحكيم الوحيدة بل تبعتها صرخات أخرى صدرت كلّها عن عناصر عراقيّة رافضة لهذه العمليّة[1]. إلاّ أنّ ردّ فعل عروة كان أكثرها حدّة وعنفاً لذلك ذكره كلّ الرّواة.

عبّر الرّافضون للتّحكيم عن رفضهم بشعار «لا حُكْمَ إلاّ لله» الّذي سيصبح اعتباراً من تلك اللّحظة وعلى امتداد قرون الشّعار الأساسي للخوارج، والقاعدة الّتي ستقوم عليها عقيدتهم. وقد ورد تفسير هذا الشّعار في العديد من الدّراسات، ويتّفق جلّ الباحثين على القول إنّه يعبّر عن رفض هذه المجموعة للتّحكيم باعتباره من مشمولات اي اختصاصات الله وحده لا دخل للبشر فيه. ويتفّق هذا التّفسير مع المدلول اللغوي لكلمة «حُكْم» في تلك الفترة الّتي تعني: القضاء وفصل النّزاع[2]، ومع ما ذكره القرّاء أثناء النّقاش الّذي دار بينهم وبين عليّ أو بينهم وبين ابن عبّاس بعد صفّين. فقد ذكروا أن «التّحكيم لا يكون إلاّ في ما جعل الله حكمه للنّاس وأمرهم بالنّظر فيه، أمّا ما صدر فيه حكم واضح فليس للعباد أن ينظروا فيه مثل حكمه في الزّاني والسّارق وكذلك في هذه القضيّة. لذلك أخطأ عليّ عند قبوله التّحكيم لأنّ الله عزّ وجلّ قد أمضى حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا منذ نزلت "براءة" التي قطع فيها الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب إلاّ من أقرّ بالجزية»[3].

هذا تفسير الشّعار كما ورد على لسان المجموعة الرّافضة للتّحكيم، وهو تقريباً المعنى المقصود منه في تلك الفترة. وإن كان بعض الرّواة ينقلون تفسيراً آخر ينسبونه لعليّ بن أبي طالب يقول فيه رداً على الشّعار: «كلمة حقّ يُراد بها باطل. إنّهم يقولون لا إمرة ولا بدّ من أمير يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع الفاجر ويبلغ الكتاب الأجل»[4]. وهو المعنى ذاته الّذي استعمله الباحث رضوان السيّد في تفسير الشعار، معتبراً أنه يوضّح موقف المجموعة من السّلطة السياسيّة إذ هي ترى أنّ الإسلام كدين لا يحتاج إلى زعيم سياسي لأنّه مشروع إلهي يُمكن للأمّة بأكملها أن تقوم عليه في ظلّ أحكام الله[5]. وإذا صحّ هذا التفسير، فهو يدلّ على تحوّل في معنى كلمة «حُكْم» من معناها في تلك الفترة وهو فصل النّزاع، إلى معناها الحالي وهو السلطة السياسيّة.

ويذكر المؤرّخ مونتغمري واط أنّ الشعار يعني أن عثمان قد خالف حكم الله كما جاء

---

(١) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، ص ٥١٢ ـ ٥١٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٣٦؛ المبرد، الكامل، ص ٢٢ ـ ٢٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج ١، ص ٦٨٨ ـ ٦٨٩.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦١ ـ ٣٧٧.

(٥) رضوان السيّد، «رؤية الخلافة وبنية الدّولة في الإسلام»، مجلة الاجتهاد، العدد ١٣، السّنة الرابعة، خريف ١٩٩١، ص ١٦.

في القرآن فاستحق القتل[1]، متجاهلاً بذلك الصلة بين الشعار والصّراع الدّائر آنذاك بين عليّ ومعاوية، وهو تفسير يصعب قبوله لأنّ شعار «لا حُكْمَ إلاّ لله» قد ارتبط بهذا الصّراع وبحادثة التّحكيم بالذّات، والأقرب أنّه عبّر عن موقف هذه المجموعة من التّحكيم. غير أنّ تطوّر الأحداث في الفترة اللاّحقة سيؤدّي إلى تطوّر في معنى الشعار يصبح معه تفسير واط مقبولاً لأنّ الخوارج سيعيدون قراءة الأحداث السّابقة وسيعتبرون أنّ مقتل عثمان كان نتيجة لمخالفته حكم الله وأنّ عليًا قد خالف بدوره هذا الحكم، ومن هنا جاء مبدؤهم القائل بتكفير المخالفين ثمّ استحلال قتلهم.

هذه إذن هي تفسيرات الشعار الّذي رفعته المجموعة الرّافضة للتّحكيم في صفّين، والّذي انقسم على أساسه الجيش العراقي وتفكّك الائتلاف الّذي كوّنه عليّ بن أبي طالب وأدّى إلى اندلاع صراع بين العراقيين اتّخذ شكلاً عنيفاً عند العودة من صفّين. فقد «رجعوا متباغضين أعداء يتشاتمون ويضطربون بالسّياط، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض، الأخ من أخيه والابن من أبيه»[2]. وهو ما يدلّ على عمق تأثير الحادثة في العراقيين، فقد تجاوزوا بسببها روابطهم العائلية والقَبَليّة والإقليمية من أجل رابطة أخرى إيديولوجيّة.

انحازت المجموعة الرّافضة للتّحكيم عند الوصول إلى الكوفة واتّجهت إلى حروراء ونزلت فيها مُعلنةً انفصالها عن بقيّة المقاتلة ورفضها الإقامة في نفس المصر مع الخليفة الّذي لم يُلبِّ مطالبها، مؤكّدةً بذلك القيمة الكبيرة التي يكتسيها مكان الإقامة بالنّسبة لها. وقد بدأ يتبلور منذ تلك اللحظة مفهوم «الخروج» بمعنى مفارقة المكان الّذي يقيم فيه المخالفون، وهو الّذي ستتبنّاه المجموعة بعد رجوعها إلى الكوفة وستطبّقه بالخروج إلى النهروان.

بلغ عدد المجتمعين في حروراء اثني عشر ألفاً[3] بعد أن كان لا يتجاوز أربعة آلاف حسب الشّعبي وهو ما يفيد اتّساع موجة الرّفض للتّحكيم وانضمام عدد آخر من العراقيين إليها. والظاهر أنّ الأقليّة الرّافضة للتّحكيم قد تمكّنت بفضل حججها المقنعة من استقطاب عدد آخر من العراقيين كانوا في البداية مع التّحكيم، كما قد تكون الصّيغة الّتي تمّت بها العمليّة سبباً في انضمام عدد آخر إلى صفوف الرّافضين. أمّا عن المنضمّين الجُدد فلا تذكر الرّوايات شيئاً، والأرجح أنّ أغلبهم من خارج وسط القرّاء، وهو ما سنتبيّنه من خلال تتبّع ما وقع في حروراء.

---

(1) WATT (W - M), «Kharijite Thought in the Umayyad Period», In: *Der islam*, Volume 36, part 3, 1961, p. 218.

(2) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٣؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(3) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٤٢؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٤٤، تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٦٠، ج ٢، ص ١٩١.

ب ـ حروراء وتحدّد ملامح الحركة الخارجية:

عند النزول في حروراء اختارت المجموعة أميراً للصّلاة هو عبد الله بن الكوّاء اليشكري، وآخر للحرب هو شبث بن الرّبعي[1] أحد زعماء تميم في الكوفة. ويدلّ اختيار المجموعة أميراً للحرب على أنّها تستعدّ للمواجهة العسكريّة، أو هي على الأقل لا تستبعد الالتجاء إليها إذا استدعت الضرورة ذلك. فاستعمال السّيف لمواجهة المخالفين صار أمراً عادياً منذ مقتل عثمان.

كما يذكر أبو مخنف أنّ المجموعة رفعت في حروراء شعارات جديدة هي: «الأمر شورى بعد الفتح»، و«البيعة لله عز وجلّ»، و«الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»[2].

ويكتسي شعار «الأمر شورى بعد الفتح» أهميّة كبيرة لأنّه يتطرّق إلى إحدى المسائل الهامّة، وهي الحكم باعتبار أنّ كلمة «الأمر» تعني السلطة السياسيّة[3]. لكن تحليل محتوى الشّعار يبرز غموضه ويجعلنا نستغرب رفعه من قبل المجموعة في تلك الفترة، إذ إنّ المطالبة بالشّورى قد صدرت منذ مقتل عثمان، إنما عن عناصر غير متحمّسة لقضيّة عليّ مثل أبي موسى الأشعري، أو معادية مثل معاوية بن أبي سفيان. وإذا كنّا نفهم دوافع المطالبة بالشّورى بالنسبة إلى هذه العناصر، فإنّنا لا نستطيع فهم ذلك بالنسبة إلى هذه الجماعة من القرّاء لأنّهم أصحاب عليّ بايعوه وناصروه في حروبه وكانوا بعدُ يعتبرونه إلى تلك اللّحظة الخليفة الشّرعي رغم اختلافهم معه بسبب قبوله التّحكيم. وقد عبّروا عن استعدادهم للعودة إلى صفوفه إذا قبل التّراجع عن إجراء التّحكيم وسيدخلون معه الكوفة بمجرّد حصولهم على وعدٍ منه بذلك. وهذا ما يجعلنا نستغرب مطالبة الحروريّة بالشّورى في وقتٍ لم تحصل فيه القطيعة بينهم وبين عليّ. وتزداد الأمور غموضاً إذا اعتبرنا مجمل الشّعار، أي: «الأمر شورى بعد الفتح»، لأنّ كلمة الفتح التي تمّ ربطها بالشّورى تعني، في اللغة، فتح دار الحرب[4] والانتصار على الكفار وإخضاعهم بالقوّة، وهو ما ينطبق على الشّاميين وحدهم الذين يعتبرونهم «الفئة الباغية». أمّا العراقيون ـ فرغم اختلافهم معهم بشأن التّحكيم ـ فإنّهم لم يصلوا إلى حدّ تكفيرهم ولا نعتقد أنّهم صاروا يفكّرون في محاربتهم.

أمّا إذا قبلنا الشّعار كما ورد في الرواية من دون محاولة فهم خلفياته، فإنّ الغموض يظلّ يكتنفه لأنّ الطّريقة الّتي ستتمّ بها الشّورى والأطراف الّتي ستشملها غير واضحة من خلال الشّعار. فهل ستكون شورى عامة يُشارك فيها جميع المسلمين في وقتٍ انقسمت فيه

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٤٢.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٣.

(٣) ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج ١، ص ٩٧.

(٤) المصدر نفسه، مج ١١، ص ١٠٤٤.

الأمّة إلى مجموعتين وبدأت الخلافات تدبّ في صفوف الجيش العراقي نفسه؟ أم ستكون الشّورى داخل المناطق الخاضعة لحكم عليّ وأغلب مسلميها في أعناقهم بيعة الخليفة الجديد؟ أم هي شورى وسط هذه الأقليّة الرّافضة للتّحكيم؟ وفي هذه الحالة تكون العمليّة لا قيمة لها باعتبار أنّ بقية المسلمين لن يعترفوا بنتائجها.

إنّ كلّ ما ذكرناه سابقاً يجعلنا نستبعد إمكانيّة رفع هذا الشّعار في حروراء. والظّاهر أنّه نُسب إليهم في فترة متأخّرة لمّا صاروا يُنادون بالشّورى. وهذا الاحتمال غير مستبعد إذا عرفنا أنّ أبا مخنف هو الوحيد النّاقل لهذه الرّواية، وأنّه لا وجود في الروايات التي تنقل النقاشات التي دارت بين الحروريّة وعليّ، أو بينهم وبين ابن عبّاس، ما يشير إلى طرح مسألة الشّورى، بما في ذلك الروايات الّتي ينقلها أبو مخنف نفسه.

ويصدق ما بيّناه سابقاً بخصوص شعار «الأمر شورى بعد الفتح» على الشّعار الثاني وهو: «البيعة لله عزّ وجلّ»، فهو لا يقلّ عنه غموضاً والتباساً.

أمّا شعار «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»، فرغم شكّنا في صحّة رواية أبي مخنف بأكملها، فإنّنا لا نستبعد صدوره عن المجموعة في حروراء لأنّه منذ الثّورة على عثمان اعتبر بعض المعارضين أنّ ما يقومون به يدخل في إطار الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، إذ يذكر سيف بن عمر أنّ المعارضين لعثمان «دعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتبٍ يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك». كما اعتبر أبو ذرّ الغفاري انتقاداته لسياسة عثمان داخلة في الإطار نفسه(1). وسيؤكّد الرّافضون للتّحكيم بصورة متواصلة على هذا المبدأ، وسيطالبون بتطبيقه حتّى إنّه سيصبح أحد الأركان الرئيسية للنّظرية الخارجية الّتي ستتكوّن في الفترة اللاّحقة.

ولا يعود التّركيز على هذا المبدأ إلى كونه أحد المبادىء الإسلاميّة الواردة في القرآن والّتي يتمسّك القرّاء بتطبيقها في إطار حرصهم الشّديد على تطبيق تعاليم الإسلام وإنّما كذلك لأنّه اقتحم منذ الثّورة على عثمان ـ كما بيّنا سابقاً ـ المجال السّياسي، وهذا ما يفسّر الأهميّة الكبيرة التي سيوليها له الحروريّة وبقيّة المسلمين ولا سيما المعارضون منهم للسّلطة.

هذه إذن على الإجمال ما تميّزت به مرحلة حروراء على المستوى الفكري، ويبدو من خلالها أنّ الرّافضين للتّحكيم لا يملكون برنامجاً متكاملاً سوى اتّفاقهم على رفض التّحكيم وإصرارهم على مفارقة مخالفيهم برفض الإقامة معهم والمطالبة بتطبيق مبدأ «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر». أمّا على المستوى السّياسي، فإنّ مرحلة حروراء ستكون

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٥٥.

هامّة بالنّسبة لحاضر هذه الحركة ومستقبلها وهو ما سنتبيّنه من خلال تتبّع بقية الأحداث.

كان انحياز الرّافضين للتحكيم ونزولهم في حروراء قد أقلق عليًا، ولذلك بدأت محاولات إقناعهم بضرورة العودة إلى الكوفة مباشرة إثر الرّجوع من صفّين. وقد أرسل عليّ لهذا الغرض في البداية عبد الله بن عبّاس ثم انتقل بنفسه إلى حروراء. وتعطي المصادر تفاصيل إضافية عن المناظرات والنّقاشات الّتي دارت بين أفراد المجموعة ومبعوث عليّ ثم بينهم وبينه[1]، وعن الحجج الّتي قدّموها لبيان أسباب رفضهم للتّحكيم وهي حجج بناها الحروريّة على فكرتهم القائلة إنّ معاوية ومن معه يمثّلون «الفئة الباغية» الوارد ذكرها في القرآن ولذلك يرفضون قبول فكرة التّفاوض معهم ويصرّون على محاربتهم حتّى الانتصار عليهم تطبيقاً لكلام الله كما أوّلوه، مؤكدين بذلك تمسُّكهم بالقرآن وإصرارهم على إظهار أنفسهم بمثابة المجموعة الدّينية.

وأسفرت أولى هذه المناظرات عن رجوع العناصر القيادية للمجموعة وهم: عبد الله بن الكوّاء اليشكري أمير الصّلاة، وشبث بن الرّبعي أمير الحرب، ثم يزيد بن قيس الأرحبي رأس الجماعة[2]. ويذكّرنا موقف هذه العناصر بموقف كبار قادة القرّاء في صفّين، فهم لم يرفضوا التّحكيم مثل البقيّة بل ساندوه وشارك بعضهم في وفد التّحكيم نفسه[3]. ويدعو هذا التّباين في موقف القرّاء بين القيادة والقاعدة إلى التّساؤل عن الأسباب الكامنة وراءه.

يُمكن تحديد الأسباب بالرجوع إلى القوائم الحاملة لأسماء المشاركين في أحداث الكوفة. فهي تظهر أنّ العناصر القياديّة للحركة مثل الأشتر النّخعي[4]، وصعصعة بن صوحان العبدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، ومعقل بن قيس الرياحي، وسليمان بن صرد، وحجر بن عدي الكندي، وعبد الله بن الطّفيل العامري، هي الّتي قبلت التّحكيم والتزمت به. ويعود هذا الموقف، على ما يبدو، إلى التطوّرات الّتي حصلت بعد وصول عليّ بن أبي طالب إلى الحكم وانتقاله إلى العراق واعتماده على الكوفيين وخصوصاً على

(١) انظر تفاصيل هذه المناظرات في: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٦٥ - ٦٦؛ المبرد، **الكامل**، ص ٩ - ٢٤، ٤٨؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٤٨ - ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٦٥؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٣) المشاركون في وفد التّحكيم من زعماء القرّاء الذين نشطوا في الكوفة حسب رواية أبي مخنف، هم: حجر بن عدي الكندي، وعبد الله بن الطّفيل العامري، ومالك بن كعب الهمداني؛ ويضيف عمر بن سعد: الأشتر النّخعي، وعمرو بن الحمق الخزاعي. انظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفّين**، ص ٥٠٦ - ٥٠٧؛ **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٤.

(٤) تُجمع كلّ الرّوايات على أنّ الأشتر رفض التّحكيم، لكنّ رفضه لم يدفعه إلى الانضمام إلى الخارجين على الخليفة بل ظلّ إلى آخر حياته من أبرز المؤيدين له ومن أصحابه المقرّبين.

العناصر البارزة من القرّاء في إطار تفتّحه على القوى الاجتماعية الجديدة[1] الأكثر اعتدالاً، وهو ما ضمن له تأييد قادة القرّاء والعناصر الملتفّة حولهم لأسباب قَبَليّة أو إيديولوجية، في حين بقي القرّاء الّذين لا يملكون الزّعامة السياسية ولا الشّرف القَبَلي والمؤدلجين أكثر من غيرهم[2] بعيداً عن سلطة القرار، الأمر الذي جعلهم يتمسّكون بشرعية القرآن لأنها تمكّنهم من لعب دور سياسي. وهذه المجموعة المتشدّدة هي التي رفضت التحكيم وصارت تقود كل الرافضين له، ومنها ستتكوّن النواة الأولى لحركة الخوارج. وممّا يؤكّد أن عليًا كان حريصاً على استقطاب قادة القرّاء ما قام به في حروراء حيث استهلّ لقاءه بالحرورية، بتعيين يزيد بن قيس الأرحبي قائد المجموعة وأكثر عناصرها شعبيّة والياً على الريّ، وهو ما أدّى إلى انسلاخه الفوري والتحاقه بصفوف عليّ.

كما يبدو من خلال تتبّع القوائم الحاملة لأسماء القرّاء أنّ عليًا قرّب أكثر العناصر اليمنيّة من النّخع ومذحج وهمدان وغيرها. والظّاهر أنّه أراد من وراء ذلك استقطاب أكثر ما يُمكن من القرّاء نظراً لسيطرة أبناء هذه القبائل على الحركة وتدعيم مركزه باعتبار المكانة التي تحتلّها القبائل اليمنيّة في الكوفة. وقد أدّى هذا الإجراء إلى ظهور تمايز قبلي واضح داخل مجموعة القرّاء، فقد انسحبت العناصر التي أيّدت عليًا وأغلبها يمنيّة وتبعها على ما يبدو أبناء عشائرها ولذلك صار أبناء القبائل الأخرى وخاصةً تميم يشكّلون الأغلبيّة في المجموعة المتبقيّة، وهذا ما جعل العديد من الدّارسين يعتبرون الحركة الخارجية حركة بدو تزّعمها أعرابٌ يرفضون بحكم طبيعتهم البدويّة الخضوع للحكم المنظّم[3]، وهو تفسير لا يمكن قبوله لأنّ تتبّع الأحداث يثبت أنّهم لا يختلفون عن بقيّة القرّاء الذين صاروا من شيعة عليّ سوى بافتقادهم للشرف القبلي وللزّعامة السّياسية، هذا بالإضافة إلى بقاء خمسة عناصر من اليمنيّة في صفوف الحركة من بينهم عبد الله بن وهب الرّاسبي الذي ستختاره المجموعة لقيادة تحرّكاتها.

رغم انسحاب العديد من العناصر سواء من القيادة أو من المنضمّين إلى صفوف الحركة عند النّزول في حروراء وعودتهم إلى الكوفة، فقد رفض قسم كبير من القرّاء الرّضوخ لمشيئة عليّ، وقدّموا كشرط أساسي للرّجوع إلى المصر إقراره بذنبه في قبول التّحكيم وإعلانه التّوبة. وتذكر المصادر الخارجيّة أنّ عليّاً عبّر بالفعل عن توبته كما وعد باستئناف الحرب ضدّ معاوية بعد أن يجبي المال ويسمن الكراع[4]. وتؤكّد هذا الخبر

(١) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 181.

(٢) *Ibid.*, p. 265.

(٣) عبد العزيز الدّوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص ١٣١؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٦١.

(٤) البرّادي، كتاب الجواهر، طبعة حجرية بدون تاريخ، ص ١٢٥؛ الشماخي. كتاب السير، طبعة حجرية بدون تاريخ، ص ٥٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٤٩.

المصادر غير الخارجيّة لكن الروّاة يختمونه غالباً بالقول: «ولسنا نأخذ بقولهم وقد كذبوا»[1].

حدث التّصالح إذن بين عليّ والرّافضين للتّحكيم وعاد الجميع إلى الكوفة، ويذكر المبرّد أنّ الجماعة صارت تحمل ابتداءً من تلك اللّحظة اسم «الحروريّة»، وقد أطلقه عليهم عليّ نفسه[2]. وسواء صحّت هذه الرّواية أم لا، فالأكيد أنّ تسمية «الحرورية» قد ظهرت في تلك الفترة، وهي نسبة إلى مكان اجتماعهم وليس لها مضمون فكري أو سياسي[3]. كما يظهر من خلال المصادر أنّه من أولى الألقاب الّتي أطلقت على الجماعة، بالإضافة إلى لقب المُحَكّمة الّذي ارتبط بشعارهم «لا حَكَمَ إلاّ الله»، وإنْ كان هذا اللّقب نادر الاستعمال على عكس لقب «الحروريّة» الذي انتشر حتى صار أكثر ألقابهم استعمالاً في تلك الفترة. والظاهر أنّه لم يكن مرفوضاً من قبل الجماعة وإنْ كان استعماله نادراً في خطب وأشعار تلك الفترة المنسوبة إليهم. ويُفسّر نايف معروف موقفهم من اللّقب بقوله: «إنّهم لم يهتمّوا به لأنّه لا يُعبّر عن أهدافهم ولا يحمل شعائرهم»[4].

ويجرّنا الحديث عن الألقاب إلى الإشارة إلى مسألة هامة تخصّ تسمية الخوارج في كتب الفرق. فبعض مؤلّفي هذه الكتب يذهبون إلى القول إنّ الحروريّة هي فرقة من فرق الخوارج لها عقائدها الخاصّة بها[5]، وكذلك المحكمة الأولى[6]. وقد حمل التّداخل في المصادر بعض الدّارسين على افتراض أنّ تسمية الحروريّة لا تشمل كلّ المعارضين للتّحكيم بل تقتصر على الذين رجعوا مع عليّ بعد انعزالهم في حروراء ولم يعودوا إلى صفوف الخوارج بعد ذلك[7]، وهو افتراض لا نجد ما يؤيّده في مصادر التاريخ العام. فكلّ ما يظهر من خلال الروايات هو وجود مجموعة واحدة انسلخت منها العناصر المتردّدة وظلّت البقيّة متّحدة وملتفّة حول المبادىء والمطالب نفسها سواء في حروراء أو بعد الرّجوع إلى الكوفة مع عليّ وإلى حين إجراء التّحكيم.

ج ـ إجراء التحكيم وخروج «الخوارج»:

لم تدمْ إقامة الحروريّة في الكوفة طويلاً، فقد كان قرار عليّ بإرسال أبي موسى

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٦.

(٢) المبرّد، الكامل، ص ٢٤.

(٣) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٨٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٨٩.

(٥) الملطي، التّنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهر الكوثري، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٥١، ٥٦ ـ ٥٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٧) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٨٩.

الأشعري لإتمام إجراءات التّحكيم كافياً لتفجير الوضع من جديد. وقد اتّخذ الخلاف في هذه المرحلة شكلاً عنيفاً، إذ صار الحروريّة يُعبّرون عن رفضهم للتّحكيم في الأماكن العامّة وخاصّة في المسجد الجامع، حيث راحوا يُقاطعون خطب الخليفة ويستفزّونه برفع شعاراتهم وبتلاوة آيات من القرآن تتّهمه بالكفر والشّرك(١). وقد حاولت عناصر أخرى الاتّصال به لإقناعه بالعدول عن إرسال وفد التّحكيم والاستعداد لاستئناف الحرب ضدّ معاوية(٢). ويظهر من خلال الحوار الذي دار بينهم وبينه استخفافٌ كبير بالخليفة وتهجّمٌ عليه وتهديدٌ له بالقتل رغم مركزه وقِدم إسلامه وقرابته من الرّسول. فقد جاء على لسان أحدهم، وهو زرعة بن برج الطائي، قوله: «والله يا عليّ لئن لم تدع تحكيم الرّجال في كتاب الله عزّ وجلّ قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه»(٣). ويذكّرنا هذا الأسلوب في معاملة الخليفة بالأسلوب الّذي استعمله الثّوار في الكوفة ضدّ سعيد بن العاص، وفي المدينة ضدّ عثمان بن عفّان.

لم تؤدِّ التّحركات الجماعيّة والفرديّة الّتي قامت بها الحروريّة في الكوفة إلى نتيجة. فقد أصرّ عليٌّ على انجاز التّحكيم ورفض الرّجوع عن العهد الّذي قطعه على نفسه، ونتيجة لذلك بدأت الاستعدادات للخروج وهو ما يظهر من خلال الاتصالات المكثّفة والاجتماعات الّتي عُقدت في منازل عبد الله بن وهب الرّاسبي وشريح بن أوفى العبسي وزيد بن حصين الطّائي(٤).

تنقل المصادر تفاصيل هامّة عن المواضيع الّتي تمّ التّطرّق إليها خلال تلك الاجتماعات، كما تنقل خطبة لعبد الله بن وهب الرّاسبي وأخرى لحرقوص بن زهير السّعدي التّميمي(٥). وتبرز من خلال هذه الخطب أفكارٌ جديدة وأخرى ظهرت في حروراء مثل فكرة الخروج من «القرية الظالم أهلها» التي وردت على لسان كلّ المتدخّلين تقريباً، والتي بدأت تتبلور منذ الرجوع من صفّين وعبّرت عنها المجموعة برفضها الدّخول إلى الكوفة والإقامة مع المخالفين لها. ولإضفاء أهميّة على عمليّة الخروج واعتزال المخالفين والتأكيد على ارتباط أفراد المجموعة الكلّي بالدّين، شبّه بعضهم الخروج بهجرة الرّسول وابتعاده عن كفّار مكّة(٦). ومن هنا ستأتي تسمية الخوارج أنفسهم «المهاجرين» وتسمية

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٥٩.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٢؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥.

المصر «القرية الظالم أهلها» قبل أن تصبح «دار الكفر» في فترة لاحقة[١].

وسيصبح الخروج ومفارقة المخالفين أحد المبادىء الأساسيّة لهذه الحركة، وإنْ كان محتواه سيتطوّر بتطوّر الأحداث بحيث لن يحمل معنى الابتعاد عن المكان ومفارقة الأعداء بقدر حمله معنى الثّورة واعلان الحرب ضدّ السّلطة حتّى داخل المصر نفسه، ومن هذا المبدأ ستأخذ المجموعة أشهر أسمائها وهو: «الخوارج».

كما يذكر الشّعبي تبنّي المجموعة في هذه الفترة مبدأ آخر هو «تكفير المخالف والبراءة منه». فبعد أن شمل التكفير في حروراء معاوية وأنصاره، صار بعد قرار إجراء التّحكيم يشمل الخليفة والمساندين لهذه العمليّة، إذ ينقل البلاذري عن الشّعبي قوله إنّ عليّاً لما أصرّ على ارسال أبي موسى للتّحكيم، «انصرف الحروريّة إلى منزل عبد الله بن وهب الرّاسبي وذكروا أمر الحَكَمَين وكفّروا من رضي بالحكومة وبرؤوا من عليّ»[٢]. وإذا كنّا لا نستطيع تأكيد ما جاء في هذه الرواية بخصوص التكفير لعدم وجود روايات أخرى تؤيّده، فإنّ ربط القرّاء مواقفهم السياسية بالدّين سيدفعهم إلى تبنّي فكرة الخطأ الدّيني وتكفير من يخالفهم، وسيستبيحون بناءً على ذلك محاربة بقيّة المسلمين، وسيعتبرون ذلك واجباً مقدّساً لأنّهم «أهل الحقّ» ومن واجبهم الوقوف في وجه أهل الباطل ولو أدّى ذلك إلى الموت.

لا تكتسي فكرة الموت في سبيل الحقّ أو الاستشهاد الأهمية الكبيرة الّتي ستكتسبها في الفترة اللاّحقة. فكلّ ما يرد على لسان الحروريّة هو «ذمّ الدّنيا الفانية» ورفضها والتّحريض على «طلب الحق»[٣]، وهي الأفكار التي ستتعمّق في المستقبل وستؤدّي إلى تبلور مفهوم متميّز للاستشهاد سيتبنّاه الخوارج ويعملون على تطبيقه خلال الحكم الأموي.

وبرزت قبيل الخروج من الكوفة فكرةٌ أخرى وهي ضرورة اختيار شخص يتولّى أمر الجماعة ويقود تحرّكاتها. ولئن سبق للحروريّة أن اختاروا أميراً للصّلاة وآخر للحرب، فإنّ ما ميّز عمليّة الاختيار في تلك الفترة هو حصولها نتيجة اقتناع الجميع بأنّ نجاح أيّ تحرّك يتطلّب وجود زعيم يتولّى عمليّة التنظيم والقيادة. وقد عبّر أحد المتدخّلين عن هذا الموقف بوضوح بقوله: «يا قوم إنّ الرأي ما رأيتم، فولّوا من شئتم فإنّه لا بدّ من عماد وسناد وراية تحفّون بها وتعودون إليها»[٤]. وسيحرص الحروريّة ابتداءً من ذلك الحين على اختيار الزعيم الذي يقودهم قبل القيام بأيّ تحرّك حتّى وإنْ كان لا يضمّ سوى بضعة أفراد. أمّا لقب

(١) ستظهر هذه التسميات في الفترة اللاّحقة وبالتّحديد إبّان الخلاف الّذي ستعرفه الحركة مع اندلاع الفتنة الثانية.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥.

هذا القائد، فالظّاهر أنّه لم يكن محلّ نقاش في تلك الفترة، ولذلك لم يحمل عبد الله بن وهب الرّاسبي لقب أمير المؤمنين أو غيره من الألقاب المعروفة.

بالإضافة إلى هذه المبادىء والأفكار ركّز زعماء الحروريّة في تدخّلاتهم على مبدأ «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر» الّذي ردّده أغلب المتدخّلين وركّزوا عليه[1]. ولم تقتصر الخطب والنقاشات في هذه الاجتماعات على رفع الشّعارات التي ذكرناها بل اهتمّت كذلك بالجوانب التنظيمية لعمليّة الخروج، إذ تمّ الاتفاق في هذا المجال على توقيت الخروج والمكان المقصود وكيفيّة مغادرة الكوفة التي رأوا أن تتمّ في سريّة مطلقة[2] حتّى لا يجري ردّهم أو منعهم من الخروج. كما حرصوا على اشراك أصحابهم البصريين في هذا التحرّك ولذلك أرسل عبد الله بن وهب الرّاسبي كتاباً إلى من بالبصرة «يعلمهم ما اجتمعوا عليه ويحثّهم على اللّحاق بهم»[3].

هذه إذن جملة الأعمال التي قام بها الحروريّة في الكوفة بعد قرار إجراء التّحكيم، وهي أعمال تذكر المصادر أنّ عليّ بن أبي طالب واجهها بصبر كبير ولم يحاول رغم عمليات الاستفزاز التي كان يقوم بها الخوارج انزال عقوبات بهم. ويذكر الرّواة تأكيده في مناسبات عديدة أنّه لن يمنعهم الفيء ولن يحول بينهم وبين دخول المساجد ولن يهيّجهم ما لم يسفكوا دماً[4]، مُبرزاً بذلك حرصه الشّديد على تجاوز الخلافات لتجنّب حصول انقسام في معسكره لأنّ ذلك سيضعف حظوظه في مواجهة عدوّه الرّئيسي: معاوية. لكن موقف عليّ سيسهّل عليهم تنفيذ قرارهم والخروج من الكوفة والانفصال نهائيًا عن المصر وعن الأمّة الاسلاميّة.

ويرى هشام جعيط أنّ الحروريّة صاروا بخروجهم من الكوفة «الخوارج»les sortants بالمعنيين الحقيقي والمجازي للكلمة[5]. ولئن كان رفعُ شعار الخروج ثمّ تنفيذه بمغادرة الكوفة قد أعطى هذه المجموعة صفة الخوارج، فإنّنا لا نعرف ما إذا كانت التّسمية قد أُطلقت عليهم في تلك الفترة أو بعدها. غير أنّ الظّاهر من خلال إحدى الإشارات أنّ كلمة «خوارج» كانت تُطلق أحياناً على الخارجين على السلطة، وهو ما يتّضح من خلال الرّسالة الّتي بعثها عليّ بن أبي طالب إلى مالك الأشتر يطلب فيها منه القدوم إلى الكوفة لتوليته مصر، فقد جاء في نصّ الرّسالة: «... وكنت ولّيت محمد بن أبي بكر مِصْر فخرجت عليه بها خوارج وهو غلام حدث ليس بذي تجربة

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٢ - ٣٦٤.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٠.
(٥) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 286.

فأقدم عليّ لننظر في ذلك»[1]. والخارجون في مصر لا علاقة لهم إطلاقاً بالرّافضين للتّحكيم في العراق، وهذا ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ ارتباط التّسمية بهذه الجماعة قد تمّ في فترة لاحقة. لكن الرّواة الّذين دوّنوا الأحداث في مرحلة متأخّرة استعملوا في كلّ رواياتهم لقب «الخوارج» الذي صار اللّقب الرّسمي والمميّز لهذه المجموعة من دون اعتبار لتاريخ ظهوره. ويثبت بالرّجوع إلى خطب تلك الفترة ورسائلها وأشعارها أنّ استعماله لم يكن شائعاً، وقد وردت التّسمية لأوّل مرّة على لسان الحروريّة أنفسهم في نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان في أبيات من الشعر لعيسى بن فاتك الخطّي (أو الحبَطي) يصف فيها انتصار مجموعة من الخوارج بقيادة أبي بلال على جيش البصرة يقول فيها:

أألفاً مُؤمِنٌ فِيمَا زَعَمْتُمْ ... ويَهْزِمُهُمْ بآسِكَ أَرْبَعُونَا

كَذِبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ ... وَلَكِنَّ الخَوَارِجَ مُؤمِنُونَا[2].

وإذا كنّا لا نستطيع من خلال هذه الأبيات تحديد تاريخ إطلاق التسمية على هذه المجموعة ولا الطّرف الذي أطلقها عليها، فبإمكاننا القول إنّ التّسمية قد حازت رضاهم ووجدوا فيها تعبيراً عن أحد مبادئهم وهو الخروج بمعنى الانفصال عن المخالفين والثّورة، وهو المعنى ذاته الذي صارت تلك المجموعة تحمله خلال الحكم الأموي. إلاّ أنّ التّسمية تحمل في بعض المصادر غير الخارجيّة معنى الخروج عن الدّين. والظّاهر أنّ أعداء الخوارج هم الّذين أعطوها هذا المعنى المخالف لمعناها الأصلي، وهو المعنى نفسه الّذي تحمله تسمية «المارقة»[3] التي سيطلقونها عليهم بعد النّهروان.

ورغم هذا التحوّل في معنى اللّقب، فإنّه سينتشر وسيطغى على بقيّة ألقابهم بل سيصبح اللّقب المميّز لهم. وقد فسّر نايف معروف سبب انتشاره بقوله: «إنّه لاقى الرّضا والقبول من الجميع. فقد أحبّه الخوارج لأنّه يمثّل خروجهم في سبيل الله، وأحبّه خصومهم لأنّه يُخرجهم من دائرة الإسلام»[4]. لكن المتتبّع للروايات يلاحظ أنّ الخوارج لا يستعملون هذا اللّقب كثيراً في الخطب والأشعار المنسوبة إليهم، والظّاهر أنّ ذلك يعود إلى التزييف الذي ألحقه أعداؤهم به.

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٩٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق إحسان عبّاس، القسم الرابع، الجزء الأوّل، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨٣؛ المبرّد، الكامل، ص ٨.

(٣) أطلقت هذه التسمية في البداية على الخرّيت بن راشد النّاجي وجماعته الذين خرجوا على عليّ بعد التّحكيم، لكنّها صارت فيما بعد تطلق على الحروريّة وهي التّسمية المفضّلة عند أنصار عليّ.

(٤) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٩٤.

كما أطلق الحروريّة على أنفسهم لقباً آخر في تلك الفترة وهو «الشّراة». ويدلّ معناه على بيع النّفس لله مقابل الجنّة[1] تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾[2]، وهو المعنى نفسه الّذي يرد في بيت من الشّعر يُنسب لقطري بن الفجاءة الخارجي يقول فيه:

رأيت فتية باعوا الإله نفوسهم   بجنّات عدن عنده ونعيم[3]

وقد ظهر لقب «الشّراة»، على ما يبدو، بعد خروج الجماعة إلى النّهروان وانفصالها عن عليّ بن أبي طالب وإنْ كانت فكرة الشّراء قد تكرّر ذكرها على لسان زعماء الحركة قبل الخروج من الكوفة. وعموماً سيستعمل الخوارج هذا اللّقب كثيراً خلال خلافة عليّ وطوال العصر الأموي، أمّا أعداؤهم فسيستعملون الألقاب الّتي ذكرناها سابقاً وقد ظهرت كلّها في خلافة عليّ وارتبطت بالمواجهة بين هذه المجموعة والخليفة.

II ـ عليّ بن أبي طالب يُواجه الخوارج

لما اتّخذ الحروريّة قرار الخروج من الكوفة وشرعوا في تنفيذه، ولم يمنعهم عليّ بن أبي طالب بالقوّة واقتصر دوره، حسب الرّوايات، على تثبيط بعض الكوفيين ونهيهم عن الخروج[4]، معتقداً أنّ انفصالهم عنه إلى حين اجراء التّحكيم لا يشكّل خطورة كبيرة عليه، فإذا انتهى التّحكيم لصالحه وصار خليفةً لكلّ المسلمين، أمكنه إرجاعهم إلى صفوفه باللّين كما فعل سابقاً أو بالقوّة. لكن عمليّة التّحكيم التي دارت بأذرح[5] بين ممثّل الشّاميين عمرو بن العاص وممثّل العراقيين أبي موسى الأشعري جاءت نتائجها مغايرة تماماً لتوقعاته، لذلك انطلقت الاستعدادات لاستئناف الحرب ضدّ معاوية. وقد شجّع فشل التّحكيم عليًا على إرسال كتاب إلى الحروريّة يسترضيهم فيه ويطلب منهم الرّجوع إلى الكوفة للمشاركة معه في الحرب[6]. ولم يرفض الخوارج طلبه وإنّما وضعوا لعودتهم شروطاً كانوا متأكّدين أنّه لن يقبلها. فقد جاء في ردّهم له: «إنّك لم تغضب لربّك وإنّما غضبت لنفسك. فإنْ شهدتَ على نفسك بالكفر واستقبلت التّوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك وإلاّ نابذناك على السّواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين»[7]. ولمّا قرأ عليّ هذا الرّدّ يئس منهم

---

(١) ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج ٢، ص ٣٠٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٢٤.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٦.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٧ ـ ١٦٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٤٣.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٧؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٧.
(٧) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٨.

ورأى أن يدعهم ويمضي بالنّاس إلى الشام، لكن تحرّكات الحروريّة والأعمال الّتي قاموا بها في العراق غيّرت وجهة الجيش نحو النّهروان.

١ ـ معركة النّهروان

لا يمكن فهم الدّوافع الّتي كانت وراء اتخاذ عليّ قرار البدء بمحاربة الحروريّة قبل التعرّض لمجمل التّحركات الّتي قام بها الخوارج وتلك الّتي وقعت في صفوف الجيش العراقي في تلك الفترة. ويتطلّب التعرّض لأعمال الحروريّة أثناء انتقالهم إلى النّهروان التّعرّف على الظّروف التي تمّ فيها خروجهم من الكوفة والضغوطات التي سلّطت عليهم أثناء عمليّة الخروج وبعدها لأنّها تفسّر تصرّفاتهم ومختلف الأعمال التي قاموا بها في هذه الفترة.

يركّز الرّواة عند تعرّضهم لتحرّكات الحروريّة في الكوفة على مسألة رئيسيّة وهي الحريّة المطلقة التي كان يتمتّع بها أفراد المجموعة، ويربط جميعهم أعمال الشّغب التي قاموا بها في هذا المصر بموقف عليّ المتسامح إزاءهم. إلاّ أنّ إجماع الرّواة لا ينفي وجود إشارات تؤكّد أنّ الحريّة التي يتمتّع بها أفراد المجموعة لم تكن مطلقة وأنّ أعمالهم كانت تخضع للمراقبة. ولعلّ حرص الحروريّة على إتمام عمليّة الخروج في طيّ السريّة المطلقة وتأكيدهم على مغادرة الكوفة وحداناً مستخفين وفي أوقات مختلفة[١]، دليل على أنّهم كانوا يخشون قيام الكوفيين بتتبّعهم أو منعهم من مغادرة المصر. ورغم هذه الاحتياطات، فقد مُنع العديد منهم من الخروج. ولئن لم يتولّ عليّ هذه العمليّة بنفسه، فإننا لا نستبعد أن يكون بعض القائمين بها قد تحرّكوا بأمر منه أو على الأقل إرضاءً له.

كانت العشائر هي الّتي قامت باعتراض سبيل أبنائها. وإذا كان البعض قد أفلحوا في ردّ الخارجين مثل طيء التي أرجعت القعقاع بن نفر، فإنّ الأغلبية فشلت في ذلك وتعرّض العديد من أفرادها لردود عنيفة من قبل الخارجين الذين لم يتردّدوا في استعمال القوّة ضدّ من حاول منعهم[٢].

أمّا في الطريق إلى النّهروان، فقد تجنّد العمّال لمنع هذه المجموعات من اجتياز المناطق الّتي يتولّونها. ففي منطقة المدائن، خرج سعد بن مسعود الثقفي، عامل عليّ على هذه المدينة، ليعترض سبيل جماعة من الحروريّة فيهم عبد الله بن وهب الرّاسبي. وقد دارت بين الطرفين معركة انتهت في المساء بخروج عبد الله بن وهب وأصحابه إلى النّهروان[٣]. كما قام عدي بن الحرث الشيباني، عامل عليّ على بهرسير[٤]، باعتراض

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥ ـ ٧٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٦.

(٤) بهرسير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٥١٥.

سبيل حرورية البصرة الذين كانوا في طريقهم إلى النّهروان، واسفرت المعركة عن انهزام العامل وسقوطه جريحاً بسبب طعنة سدّدها له ابن عمّه الأشرس بن عوف الشّيباني كاد يموت من جرّائها[1].

خلقت كلّ هذه الأعمال جواً من الفوضى في الكوفة والمناطق المحيطة بها، وأظهرت للجميع إصرار الحروريّة على تنفيذ ما قرّروه وعدم اعترافهم بسلطة الدولة من خلال رفضهم الاستجابة لأوامر العمّال وتعمّدهم الردّ بعنف على كلّ من يحاول التصدّي لهم. إلاّ أنّ ما يتجلّى من خلال الرّوايات هو عدم مسؤوليّة الخوارج في ما وقع من أحداث، فكلّها تؤكّد حرص الجماعة على تجنّب المواجهة ورغبتها في الالتحاق بأصحابها المجتمعين في النّهروان، مستثنيةً من هذه الأحداث عمليّة قتل عبد الله بن خباب بن الأرت الّتي كانت السّبب في حصول المواجهة بين عليّ والخوارج.

فما هي حيثيات هذه العمليّة؟ وهل كانت وحدها السّبب في حصول المواجهة؟ تذكر المصادر أنّ حروريّة البصرة بقيادة مسعر بن فدكي التّميمي قاموا وهم في طريقهم إلى النّهروان بقتل أحد أبناء الصّحابة، وهو عبد الله بن خباب بن الارت، وزوجته وثلاث نسوة من طيء وأمّ سنان الصّيداويّة[2]. وقد اغضبت هذه الجرائم المرتكبة في حقّ مسلمين أبرياء الكوفيين ودفعتهم إلى مطالبة عليّ بمحاربة الحروريّة قبل الذهاب إلى صفّين خوفاً من استفحال عنفهم في غياب الجيش العراقي.

وتنقل خبر مقتل عبد الله بن خباب بن الأرت كلّ المصادر تقريباً، وقد تفنّن بعض الرّواة في ذكر تفاصيل العمليّة وإبراز بشاعتها. لكن تركيز المصادر على الحدث واتّفاقها على ذكره لم يمنع هشام جعيط من الشكّ في صحّته، معتمداً في ذلك على جملة من الأدلّة المنطقية منها ارتباطه بأحاديث تُنسب إلى الرسول عن الفتنة تحتوي على معلومات متأخّرة عن الفترة النّبويّة، ووجود اسم عبد الله بن خباب بن الأرت في إسناد إحدى الروايات التي ينقلها ابن سعد تدلّ أحداثها بوضوح على بقائه حيّاً عدّة سنوات بعد هذه الحادثة[3]. الاّ أن ما يذكره جعيط لا يكفي رغم وجاهته للشكّ في صحّة الحدث خصوصاً وأنّ الشماخي، أحد أبرز مؤرّخي الخوارج، يؤكّد وقوعه حيث يذكر في معرض حديثه عن النّهروان أنّ مسعر بن فدكي خرج من البصرة في عصابة فجاز على قرية فيها عبد الله بن خباب فأخبره بالتّحكيم فقال: إنّ أبي أوصاني أن ألزم بيتي إذا وقعت فتنة فقال: إنّ الله أوصانا بغير ما

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٦١.

(٢) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٨١؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٣) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 292.

أوصاك به أبوك وقال: ﴿قاتلوهم حتّى لا تكون فتنة﴾[1]، فقتله مسعر بن فدكي[2].

وباستثناء الشمّاخي، يتّفق الرّواة على القول إنّ مقتل ابن الأرت كان السبب الأساسي لحرب النّهروان. لكن الحادثة رغم أهميّتها لم تكن على ما يبدو السّبب الوحيد الّذي أدّى إلى حصول المواجهة بين عليّ والحروريّة كما تحاول المصادر تأكيده، لأنّ الرّواة أنفسهم ينقلون أحداثاً جدّت قبل النّهروان تؤكّد أنّ فكرة القيام بهذه الحرب كانت مطروحة قبل وقوع عمليّة القتل التي ذهب ضحيّتها ابن الأرت.

يذكر أبو مخنف «أنّ عليًا لما كان بصدد جمع المقاتلة والإعداد لحرب أهل الشّام بلغه أن النّاس يقولون لو سار بنا إلى هذه الحروريّة فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجّهنا من وجهنا ذلك إلى المحلّين»[3]. وقد رفض عليّ هذا المقترح معتبراً أنّ محاربة معاوية وأهل الشّام أهمّ وأوكد، أمّا البلاذري فينقل عن الشّعبي قوله «إن عليًا نهى أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتّى يحدثوا حدثاً»[4].

ويبدو من خلال هاتين الروايتين أنّ الرّغبة في محاربة الحروريّة قد وجدت لدى العراقيين قبل مقتل ابن الأرت وأنّها راجت في صفوف المقاتلة حتّى بلغت الخليفة نفسه. والظاهر أن هذه الرغبة بلغت عند بعضهم حدّ التفكير في السّطو عليهم لدفعهم إلى ردّ الفعل والحصول بالتّالي على حجّة تخوّلهم شنّ حرب ضدّهم. وتكفي هذه الادلّة للقول إنّ خيوط الحرب ضدّ الحروريّة كانت تُحاك في الكوفة رغم أن هؤلاء لم يقوموا بأي عملٍ معادٍ للسّلطة أو للمسلمين سوى إصرارهم على الانفصال عن المصر وعن بقيّة المسلمين والتّجمع مع أصحابهم في مكان واحد. فما الّذي دعا العراقيين إذن إلى اتخاذ هذا الموقف من الحروريّة؟

يعود حرص العراقيين على البدء بمحاربة الحروريّة، على ما يبدو، إلى رغبتهم في تأجيل المواجهة مع الجيش الشامي التي كان عليّ يعدّ لها، فآثار معركة صفّين وأهوالها ومآسيها ما زالت حيّة في الأذهان وفي الواقع، ولذلك فهم لا يريدون حصولها ثانية ويسعون إلى تجنّبها بترويج فكرة البدء بمحاربة الحروريّة واعتبار ذلك ضرورة ملحّة لإقناع عليّ بقبولها.

ولم يكن الخليفة نفسه رافضاً للفكرة، فهو يعتبر أنّ خروج هذه المجموعة وانفصالها عنه بوصفه الخليفة الشرعي نكثاً للبيعة وخروجاً عن الطّاعة يستحقّ مرتكبوها الرّدع، وهو

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٣.
(٢) الشمّاخي، كتاب السير، ص ٥١.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨٠.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٧.

السّبب الذي من أجله حارب الثالوث في الجمل ومعاوية في صفّين. لكن عليًا كان على عكس العراقيين يحبّذ تأجيل المواجهة مع الحروريّة ريثما يخضع معاوية لأنّه يمثّل الخطر الأكبر على سلطته.

كلّ هذا يؤكّد أنّ احتمال وقوع هذه الحرب كان أمراً وارداً إنْ لم نقل شبه مؤكّد. ولذلك فإنّ عمليّة قتل ابن الأرت لما تمّت دعّمت موقف العراقيين الرّاغبين في الحرب وعجّلت بتنفيذها باعتبار أنّها وفّرت لهم الحجّة.

هذه إذن هي الأسباب التي أدّت إلى المواجهة بين عليّ والحروريّة. وإذا كان ما ذكرناه عن رغبة العراقيين في شنّ هذه الحرب قبل قتل ابن الأرت غير واضح من خلال الرّوايات، فهذا يعود، على ما يبدو، إلى تعمّد الرّواة التقليل من شأن هذا الدّور مقابل تفخيم عمليّة القتل وإبراز بشاعتها لتبرير المجزرة الرهيبة التي ارتكبها عليّ في حقّ الحروريّة.

تكتسي عمليّة القتل في حدّ ذاتها أهميّة كبيرة لأنّها أوّل عمليّة قتل تقوم بها عناصر من هذه المجموعة، وأوّل عمليّة قتل يتعرض لها مسلم على أيدي مسلمين بسبب آرائه ومواقفه من الأحداث السّياسية. وهو ما يدفعنا إلى التّركيز عليها لمحاولة فهم خلفياتها وتحديد موقف المجموعة منها.

يذكر الشّماخي عن مقتل ابن الأرت أنّ أصحاب النّهر «أنكروا على ابن فدكي ما قام به وهمّوا بقتله ففرّ منهم وبرؤوا منه فخرج يستعرض النّاس، وقيل إنّه لقي أناساً من أهل خراسان حجّاجاً فضرب أعناقهم، ثم أتى المدائن فما شعر عليّ إلاّ وهو واقف على رأسه فآمنه»[1].

أمّا الرّواة من غير الخوارج فيذكرون أنّ ابن فدكي ومن معه من حروريّة البصرة التحقوا بأصحابهم في النّهروان وانضمّوا إليهم، وقد تبنّى الجميع عمليّة القتل وتجنّدوا للدّفاع عن مرتكبيها. وقد ظلّ ابن فدكي مع أصحابه ولم ينفصل عنهم إلاّ قبل المعركة بقليل لمّا التجأ إلى راية الأمان التي رفعها عليّ بن أبي طالب قبل بدء القتال بلحظات[2].

ونتبيّن من خلال ما تقدّم أنّ ما يذكره الشّماخي يبدو ـ رغم اختلافه مع الرّوايات الأخرى ـ مقبولاً ومتماشياً مع الأحداث إلى حدّ ما. فقوله إنّ أفراد المجموعة قد استنكروا قتل ابن الأرت أمر غير مستبعد لأنّه يتماشى مع سلوك الحروريّة الذين ـ رغم إصرارهم على مفارقة مخالفيهم ـ لم يُنادوا إلى ذلك الحين بضرورة قتلهم، وإن كان هذا لم يمنع بعضهم من القيام بأعمال عنف كان أكثرها حدّة طعن الأشرس بن عوف الشيباني ابن عمه عدي بن

(١) الشمّاخي، كتاب السير، ص ٥١.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧١.

حرث الشيباني[1].

وقد يكون من بين هذه الأعمال قتل ابن فدكي وبعض أصحابه لإبن الأرت، إلاّ أنّ عنف هذه العمليّة قد جعل العديد من أفراد الحركة يستنكرونها. ويدعم هذا الافتراض غياب ابن فدكي كليّاً عن مسرح الأحداث بعد هذه الفترة وعدم مشاركته في أيّ تحرّك من تحرّكات الخوارج اللاّحقة، وإنْ كان يصعب تحديد زمن هذا الانسحاب بسبب التّضارب الكبير بين الرّواية الخارجيّة والرّوايات الأخرى.

ويحملنا رفض العديد من الحروريّة قتل ابن الأرت إلى التساؤل عن أسباب وقوع المعركة: ألأنّ المجموعة رفضت تسليم القتلة لعليّ كما تذكر المصادر غير الخارجيّة؟ أم أنّ عليًا كان مصمّماً على قتالهم وأنّ مسألة قتل ابن الأرت لم تكن مطروحة كما يظهر من خلال الرّواية الخارجية؟

يبدو من الصّعب الإجابة على هذه التّساؤلات لأنّ الرّوايات بشأنها متناقضة جدًّا يعسر ترجيح إحداها عن الأخرى. غير أنّنا مع ذلك لا نستبعد أن تكون عمليّة القتل قد لعبت دوراً أساسياً في المفاوضات الّتي سبقت المعركة وأنّ عليًّا استغلّها لاخضاع الخوارج لسلطته.

بقيت مسألة أخرى يكتنفها الغموض كذلك وتخصّ دوافع قتل ابن الأرت ومدى صحّة ما يذكره الرّواة عن استعراض الخوارج لهذا الصحابي قبل قتله.

يتّفق الرّواة على القول إنّ قتل ابن الأرت يُعزى إلى موقفه من النّزاع الدّائر بين عليّ ومعاوية، وهو موقف سأله عنه الخوارج في عمليّة استجواب طويلة. إلاّ إنّ ابن الأرت لم يكن الوحيد المتبنّي لهذا الموقف، فالعراقيون الذين يشاطرونه هذا الرأي كثيرون، والأكيد أنّ الخوارج قد اعترضوا وهم في طريقهم إلى النّهروان عدداً كبيراً منهم، فلماذا لم يقوموا باستعراضهم وقتلهم جميعاً؟

يبدو من الصعب تحديد الأسباب التي جعلت ابن فدكي وأصحابه يقتلون ابن الأرت دون سواه خصوصاً وأنّ المصادر لا توفّر معلومات تفيدنا في الإجابة على السؤال، وهو ما يجعلنا نفترض حصول مشاذّات بينه وبين حروريّة البصرة على غرار ما حدث للمجموعات الأخرى كانت هي السّبب في قتله. أمّا عمليّة الاستعراض بمعنى الاستجواب، فالأقرب أنّها لم تقع لأنّ التنظير للاستعراض وتبنّيه كشكل من أشكال النّضال ضدّ المخالفين لم يقع إلاّ في خلافة معاوية وهو ما تؤكّده جلّ المصادر. ولعلّ تأخّر الرّواة في تسجيل الأحداث هو ما جعلهم يقحمون عمليّة الاستعراض مع القتل لأنّ الخوارج صاروا يقومون بذلك في الخلافة الأموية.

تلك هي بعض ملابسات عمليّة مقتل عبد الله بن خباب بن الأرت التي ستكون السّبب

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦١.

المباشر في حصول المواجهة بين عليّ بن أبي طالب والخوارج المجتمعين في النهروان.

تُذكر تفاصيل معركة النّهروان في كلّ المصادر تقريباً، وهي متشابهة إلاّ فيما يخصّ عدد المشاركين من جانب الحروريّة وتاريخ وقوعها. ويُعتبر كتاب الأنساب للبلاذري أكثر المصادر دقّة في سرد هذا الحدث، إذ ينقل معلومات ضافية ودقيقة عن المعركة وعن عدد المشاركين فيها وأسماء العناصر البارزة من الجانبين.

كان عدد المقاتلة من جانب عليّ أربعة عشر ألفاً[1]، وهم قسم من الجيش العراقي الذي جمعه لمحاربة معاوية؛ أمّا من جانب الحروريّة فإنّ عدد المشاركين كان أربعة آلاف حسب رواية أبي مخنف[2]، وستة آلاف حسب المبرِّد[3]، بينما يذكر البلاذري أنّهم كانوا أربعة آلاف فارس معهم خلق كثير من الرجّالة[4]. والظّاهر من خلال مقارنة الرّوايات ببعضها وتتبّع عدد المنسحبين أنّ الخوارج الّذين اجتمعوا في النّهروان كانوا أكثر من أربعة آلاف، والأقرب أنّهم كانوا ستّة آلاف كما يذكر المبرّد منهم أربعة آلاف فارس والبقيّة من الرجّالة.

انسحبت قبل بداية المعركة مجموعات عديدة، يذكر البلاذري بعضها واسم زعيم كل مجموعة وعدد أفرادها والوجهة الّتي قصدتها، ويُنهي حديثه عن المنسجمين بقوله: «ولم يبقَ مع ابن وهب سوى ألف وثمانمائة فارس ورجّالة ويقال إنّهم ألف وخمسمائة»[5]. ولا يتّفق هذا العدد مع ما تذكره المصادر الأخرى وهو ألفان وثمانمائة، ويعود الاختلاف على ما يبدو إلى إهمال البلاذري ذكر عدد الرجّالة واقتصاره على ذكر عدد الفرسان. ويُلاحظ المتتبّع للرّوايات أن نسبة الرّجالة في صفوف الحروريّة تُقدَّر بحوالى الثُلث، لذلك فإن إضافة هذه النسبة إلى العدد الذى يذكره البلاذري، وهو ألف وثمانمائة، يجعل المجموع يُقارب العدد الوارد في بقيّة المصادر وهو ألفان وثمانمائة.

وتكتسي عمليات الانسحاب التي جرت في اللحظات الأخيرة التي سبقت المعركة أهميّة كبيرة لأنها تبيّن أنّ هذه المجموعة الّتي تبدو من خلال الرّوايات متماسكة وملتفّة حول المبادىء التي نادى بها زعماؤها لم تكن لأفرادها الدرجة نفسها من الاقتناع والالتزام، ولذلك ظهر تردّد بعضهم عند حصول أوّل مواجهة. وقد عبّر فروة بن نوفل الأشجعي عن ذلك بوضوح حين قال لأصحابه: «والله ما أدري على أيّ شيء نُقاتل عليًا، لا أرى إلاّ أن انصرف حتّى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتباعه ثمّ انصرف في خمسمائة فارس حتّى نزل

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧١.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨٦.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ٢٩.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧١.
(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧١.

البندنيجين[1] والدّسكرة[2]». ولعلّ الأمر الأمر اللاّفت للانتباه هو انسحاب عدد كبير من حروريّة البصرة والتجاء بعضهم إلى راية أبي أيوب[3]، وهم الّذين كانوا إلى تلك اللّحظة متحمّسين جداً في مواجهة عليّ. ويُمكن تفسير موقف حروريّة البصرة بخصوصيّة هذه الجماعة فهي لم تخُض التّجربة نفسها التي خاضها أصحابها في الكوفة زمن الثورة على عثمان وبعدها، ولم تتكوّن لديها تبعاً لذلك رؤية واضحة للأمور مثلها، كما لم تكن المدّة الّتي مرّت كافية لاختمار مبادىء الحركة وترسيخها، وهو ما جعل الحماس والعنف يطغيان على تصرّفاتها. لكن هذا الحماس سرعان ما خَبَا أمام أوّل امتحان حقيقي.

كانت معركة النّهروان خاطفة لم تدم سوى سويعات انتهت بانتصار ساحق لجيش عليّ. وتبالغ المصادر كثيراً عند حديثها عن النتائج العسكريّة للمعركة حيث تذكر أنّها اسفرت عن مقتل عشرة فقط من جانب عليّ ونجاة عشرة من الجانب المقابل[4]. ويضيف بعض الرّواة أنّ علياً نفسه تكهّن بهذه النّتيجة قبل اندلاع القتال[5]. وتبدو هذه الرّوايات غير مقبولة لا لأنها تدخل في باب التّنبؤات والخوارق، وهي صفات ألصقتها الشيعة بعليّ في فترة متأخرة، بل لأن المصادر نفسها تؤكّد أنّ الانتصار لم يكن سهلاً بالنّسبة إلى الجيش العراقي. ويدعم ذلك قول أبي مخنف أنّهم «شدّوا على الناس والخيل أمام الرّجال فلم تثبت خيل المسلمين لشدّتهم»[6]. لكن الفارق الكبير بين الجيشين جعل انتصار العراقيين أمراً حتمياً، وإن كان ذلك لم يتحقّق الاّ بعد سقوط عدد كبير من الضحايا بلغ ألفاً وثلاثمائة شخص حسب رواية ابن مزاحم[7]. أمّا من جانب الحروريّة، فقد كانت الهزيمة ثقيلة جداً إذْ لم ينجُ من المعركة سوى أربعمائة شخص سقطوا جرحى. وقد أمر عليّ بعد انتهاء القتال بنقلهم إلى الكوفة ومداواتهم، كما أمر بتقسيم الدّواب والسّلاح بين العراقيين وردّ الرقيق والإماء إلى أهلهم[8].

ويذكر الرّواة عند سردهم لأحداث النّهروان أنّ علياً أمر أصحابه بعد نهاية المعركة

---

(١) البندنجين: بلدة مشهورة في طرف النّهروان من ناحية الجبل: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ١، ص ٣٧٥.

(٢) الدّسكرة: قرية كبيرة غربي بغداد: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ص ٤٥٥؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨٦.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧١.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧٠؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨٩.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٥٦.

(٦) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨٦.

(٧) نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، ص ٥٥٩.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٨٨.

بالبحث بين القتلى عن رجل ناقص اليد في عضده شامة تمتدّ كهيئة الثّدي وهو الشّخص الذي أخبره الرّسول أنّه يكون العلامة المميّزة لقوم سيخرجون يتكلّمون كلام الحق لا يتجاوز حلوقهم يمرقون من الدّين مروق السّهم من الرّمية(١). وقد عثر أصحاب عليّ على جثّة هذا الرّجل بين القتلى، ففرح عليّ لتأكّده من صحّة موقفه في هذه الحرب. واعتماداً على هذا الحديث المنسوب إلى الرّسول ربط بعض الدّارسين نشأة هذه المجموعة المعارضة بالفترة النبويّة(٢)، في حين نفى البعض الآخر هذه الصّلة معتبراً أنّ الحديث يدخل في باب الأساطير(٣).

ويبدو لمتتبّع الأحاديث المنسوبة إلى الرسول حول هذا الشخص أنّها ترد مختلفة في كلّ تفاصيلها وجزئياتها، ويمثّل اختلافها واضطرابها أحد أوجه ضعفها كما يزيد تحليل محتواها في إثبات هذا الضّعف، فهو يؤكّد أنّها ليست سوى محاولة لربط ما وقع في تلك الفترة بعصر النّبي، والدّليل على ذلك احتواؤها على معلومات متأخرة منها تطابق أوصاف المارقة الوارد ذكرهم في الأحاديث وتصرّفاتهم كليًا مع أوصاف وتصرّفات المسلمين الذين صاروا خوارج، وهو ما يؤكّد ظهورها في فترة كانت فيها الحركة الخارجيّة قد تكوّنت واتّضحت معالمها ومبادؤها الأساسية. هذا بالإضافة إلى الاختلاف الواضح بين المتأخرين من الرّواة والمتقدّمين منهم، وتعمّد المتأخرين إضافة معلومات تؤكّد تعرّض هذه الأحاديث الّتي نسبها الرّواة الأوائل إلى الرّسول لزيادات وإضافات، من ذلك إقحام الشهرستاني والعسقلاني وغيرهما اسم أحد الخوارج المعروفين، وهو حرقوص بن زهير السّعدي، في هذه الحادثة واعتباره ذا الثديّة الذي احتجّ على الرّسول لمّا قسّم الغنائم وذلك ليتماشى محتوى الأحاديث مع الأحداث اللاّحقة.

وفي الحقيقة، لا تقتصر عمليّة ربط الأحداث المتأخّرة بالفترة النّبويّة على هذه الحادثة الخاصة بالخوارج بل تشمل جلّ الأحداث الهامة الّتي جدّت في صدر الاسلام وخصوصاً المتعلّقة منها بالفتنة وظهور المجموعات المعارضة، وهي عمليّة يهدف أصحابها من ورائها إلى كسب شرعية أو تدعيم موقفهم واضعاف موقف أعدائهم، وهو ما جعل العديد من الباحثين(٤) يضعون الأحاديث الخاصة بالفرق موضع الشكّ رغم وجودها في كلّ المصادر وخاصة في الصّحاح.

أمّا تتبّع تفاصيل الحادثة فيظهر بوضوح التّركيز على الجانب الدّيني من خلال جعل

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٢) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٩، ١٩٠؛ عمار الطالبي، آراء الخوارج الكلامية، ص ٤٦.

(٣) فلهوزن، أحزاب المعارضة. . ، ص ٤٥؛ سهير القلماوي، أدب الخوارج في العصر الأموي، ص ٥.

(٤) عبد العزيز الدّوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص ٣١.

هذا الشّخص الذي احتجّ على الرّسول عندما قسّم الغنائم وخرج عليه مارقاً من الدّين، وكلّ من يخرج من ضئضئه مارق مروق السّهم من الرميّة أي خارج منه بسرعة[1]، من دون فهم له وهو ما يدلّ على رغبة واضحة في ضرب هذه المجموعة المعارضة في الصميم من خلال ضرب الركيزة التي تعتمد عليها في معارضتها للدّولة وللمسلمين وهي الدّين. وهذا ما سيجعل لقب «المارقة» اللّقب المفضّل عند خُصوم الخوارج، وسيزداد استعماله خاصةً بعد معركة النّهروان.

تلك هي إذن معركة النّهروان من حيث وقائعها ونتائجها العسكريّة. فكيف كان تأثيرها على الوضع وخاصةً على طرفي الصّراع: عليّ والحروريّة؟

لم يكن الانتصار السّاحق الذي حقّقه عليّ كافياً لاستئصال هذه المجموعة المعارضة والقضاء على الفكر الذي تحمله، إذ ستعود الحركة من جديد، وسيكون لتحرّكاتها دور كبير في استنزاف قوّة عليّ العسكريّة وتشتيت أنصاره، بالإضافة إلى الشّرخ العميق الّذي ستحدثه بين الكوفيين وبينه. فالمعركة الّتي اضطرّ فيها السكّان إلى قتل أبنائهم وإخوانهم وأقربائهم ليس من السّهل نسيانها، وهو ما يظهر بوضُوح من خلال موقف الكوفيين وتصرّفاتهم مع عليّ. فلقد أصبحوا يماطلونه ويتلكّؤون في تنفيذ أوامره إلى أن ضعف نفوذه، وصار يقول فلا يُلتفت إلى قوله، ويدعو فلا يُستمع لدعوته[2]. وقد استغلّ معاوية هذا الوضع فكثّف غاراته على أطراف دولة عليّ[3]، كما قد يكون حاول جلب وجهاء العراق إلى صفوفه[4].

أمّا من جانب الحروريّة، فقد كان تأثير المعركة كبيراً وعميقاً على كلّ المستويات. فعلى المستوى العسكري مزّقت النّهروان الخوارج وقضت على خيرة زعمائهم، وتركت أسوأ الأثر في نفوسهم وخصوصاً في نفوس الذين انسحبوا من المعركة إذ أحسّ أغلبهم بالنّدم لخذلانهم أصحابهم. وسيتجسّم هذا الاحساس في المستقبل القريب عبر سلسلة من التحرّكات ستقوم بها بعض العصابات وستكون بمثابة التّكفير عن الذّنب والانتقام من عليّ وأنصاره. وستظلّ النّهروان طيلة الفترة المتبقّية من خلافة عليّ السّبب الرّئيسي للخروج والثّورة.

كما امتدّ تأثير المعركة ليشمل المستوى الفكري حيث ستلعب النّهروان دوراً كبيراً في تركيز المذهب الخارجي وتدعيمه في نفوس الحروريّة، وتجعلهم يتمسّكون أكثر بمبادئه ويلتزمون بالدّفاع عنها. كما أنّها ستُخرج نهائيًا من الحركة كلّ المتشكّكين و«ذوي

---

(١) ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج ١١، ص ٣٧٢.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٨٣.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٨٣.

الاغراض»[1]، فتعمّق بذلك صبغتها الفئويّة[2].

ويتجلّى التّأثير الكبير للنّهروان على الخوارج من خلال أدبهم، فقد ظلّت أصداء المعركة وذكرى شهدائها تتردّد باستمرار طيلة خلافة بني أميّة. وتوجد أشعار كثيرة تتصّل بهذا الحدث أو تشير إليه خصوصاً قصائد الرثاء التي كثيراً ما تنتهي بذكر شهداء النّهر، فتمجّدهم وتنسب اليهم كل الصّفات السامية، من ذلك ما جاء على لسان حيّان بن ظبيان السّلمي، أحد المرتثّين في النّهروان:

خليلي ما بي من عزاء أو صبر ... ولا إربة بعد المصابين في النّهر

سوى نهضات في كتائب جمّة ... إلى الله ما تدعو وفي الله ما تفري[3]

وعموماً فقد كان لهذه المعركة تأثير قوي وعميق على الخوارج جعل نيكلسون يذهب إلى حدّ القول: «إن النّهروان ستصبح بالنسبة اليهم فيما بعد مثل كربلاء بالنسبة إلى الشيعة»[4]. وسيتجلّى هذا التأثير بوضوح من خلال تحرّكات الخوارج الّتي تلت النّهروان.

٢ ـ الخوارج بعد النّهروان

تحرّكت المجموعات الخارجيّة بعد النّهروان مباشرة. ورغم أهميّة هذه التحرّكات فقد أهملها العديد من الإخباريين، إذ لا يذكر الطبري أيّ تحرّك للخوارج طيلة الفترة الفاصلة بين سنة ٣٨هـ تاريخ المعركة، وسنة ٤٠هـ تاريخ مقتل عليّ. وينفرد المبرّد بنقل تفاصيل معركة يقول إنّها وقعت في النّخيلة وتزعّمتها عناصر من الذين انسحبوا من النّهروان.[5] لكن تتبّع الرّوايات في المصادر الأخرى يثبت أنّ معركة النّخيلة لم تقع في خلافة عليّ بل بعد مقتله، وأنّها كانت أولى المعارك الّتي دارت بين الخوارج وجيش الكوفة في خلافة معاوية. والارجح أن المبرّد أخطأ في تحديد زمن وقوع هذه المعركة. ويبقى البلاذري، رغم محدوديّة معلوماته، المصدر الأساسي الذي نقل أغلب تحرّكات هذه الفترة[6]، وعليه سنعتمد لرسم الخطوط العريضة لهذه التحركات بقصد التّعرف على وضعيّة الحركة في هذه المرحلة من تاريخها.

انطلقت تحرّكات الخوارج مباشرة بعد النّهروان وامتدّت لتشمل كامل الفترة المتبقيّة

---

(١) سهير القلماوي، أدب الخوارج، ص ٣٤.

(٢) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 296.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٤.

(٤) قول نيكلسون هذا أورده نايف معروف، في: الخوارج في العصر الأموي، ص ٩٥.

(٥) المبرّد، الكامل، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٦) المعلومات نفسها نقلها ابن الأثير في: الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، مج ٣، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

من سنة ٣٨هـ. وكان أوّل الخارجين الأشرس بن عوف الشيباني في ربيع الأول[١]، أي شهراً واحداً بعد الهزيمة. وتتالت بعد ذلك التحرّكات بمعدّل تحرّك في كل شهر، وهو ما يدلّ على أنّها جاءت كردّ فعل على المجزرة التي وقعت وكتكفير عن الذنب الذي ارتكبه المنسحبون في حقّ إخوانهم ضحايا النّهروان.

كان قادة هذه التحرّكات من المنسحبين من المعركة. أمّا المشاركون فيها، فالأقرب أنهم كانوا من المنسحبين كذلك باستثناء أصحاب أبي مريم السّعدي الذين انضمّوا إلى صفوف الخوارج بعد النّهروان[٢]. ويفسّر اعتماد هذه التحرّكات على المنسحبين انخفاض عدد المشاركين فيها، فهو لم يتجاوز مائتي نفر الاّ في انتفاضة أبي مريم، وقد بلغ عدد الخارجين مع الأشهب بن بشر القرني مائة وثلاثين فقط[٣]. ويمكن أن نضيف سبباً آخر لهذا الضّعف، وهو التشتّت الكبير الذي عرفته الحركة بعد النّهروان، والفراغ الذي خلّفه غياب العناصر القياديّة والذي جعل من الصّعب إيجاد قيادة جديدة قادرة على جمع شتات الخوارج وإعادة تنظيمهم، بالإضافة إلى تردّد العديد من المنسحبين في محاربة عليّ. وقد انعكس هذا التشتّت وغياب التّنسيق على نتيجة هذه التّحرّكات، إذ انهزم أغلب الثائرين في أوّل مواجهة مع جيوش عليّ رغم ما أظهروه من اندفاع واستماتة في المعارك.

وكان لارتباط هذه التحرّكات بالنّهروان تأثير على أماكن انطلاقها كذلك، فقد خرج الثائرون في مناطق قريبة من مكان المعركة، من ذلك خروج الأشرس الشيباني في الدّسكرة وهلال بن علّفة وأخيه في ماسبذان، وهو المكان نفسه الذي أتاه الأشهب بن بشر القرني عند خروجه في جُمادى الثانية. أمّا سعيد بن قفل فقد خرج في البندنيجين وأبو مريم في شهرزور[٤].

ولئن تمّ القضاء على بعض التحرّكات في مواقع اندلاعها، فقد تمكّنت مجموعات أخرى من التنقّل قبل قدوم جيش الدّولة إليها، من ذلك انتقال الأشرس الشّيباني من الدّسكرة إلى الأنبار، وسعيد بن قفل من البندنيجين إلى المدائن، وأبو مريم من شهرزور إلى المدائن ومنها إلى الكوفة. ولئن لا يوجد في الرّوايات ما يفسّر سبب هذا الانتقال ولا الغاية منه، فإنّ تتبّع اتّجاه المجموعات المتنقلة يظهر أنّها اتّجهت في الغالب من مراكز صغيرة إلى أخرى أكبر، هدفها على ما يبدو مواجهة جيوش الدّولة بما أنّ المراكز المقصودة تضمّ حاميات عسكريّة. فالأنبار كانت مسلحة لعليّ فيها خمسمائة رجل[٥]، كما كانت

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٥.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣.
(٤) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٥.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٣٤.

المدائن إحدى المسالح الهامّة في العراق باعتبارها «باب الكوفة»[1]، وتضمّ هذه الأخيرة بدورها الجزء الأكبر من مقاتلة العراق[2].

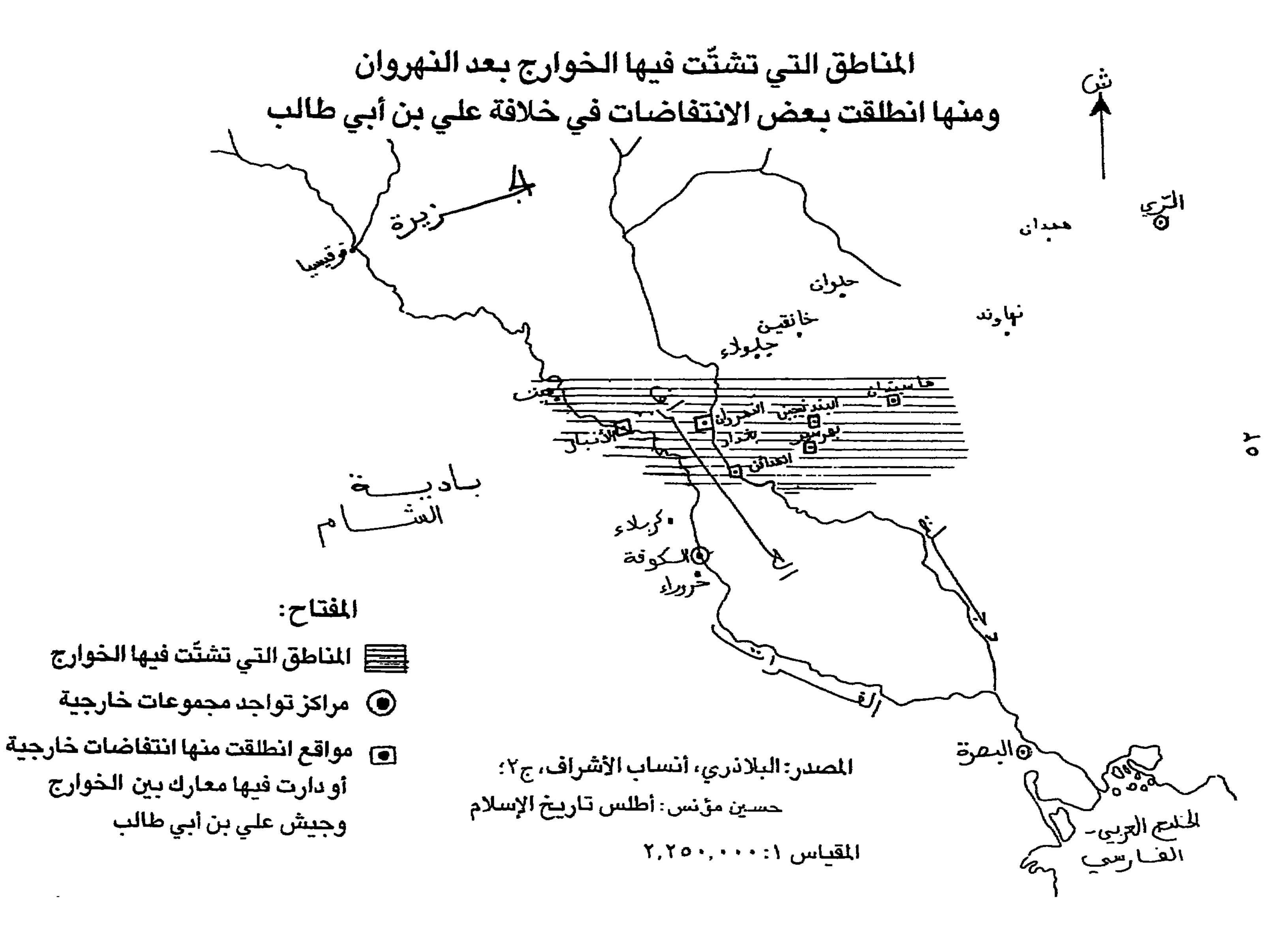
إلاّ أنّه لا بدّ من التأكيد على أنّ هدف انتقال الثائرين لم يكن ترويع السكان أو القيام بعمليات انتقامية ضدّ السّلطة يدلّ على وقوع عمليات كسر للخراج أو سطو على ممتلكات خاصة أو عامة أو سقوط ضحايا من المسلمين نتيجة عنف الخوارج. ويؤكد البلاذري أنّ هلال بن علّفة، أحد الثائرين، «كان لا يقاتل إلاّ من قاتله»[3]. وربّما لهذا السّبب لم تُسمِّ المصادر هذه التّحركات غارات، كما فعلت بالنسبة إلى التّحركات الّتي كان يقوم بها الشّاميون في الفترة نفسها. ومن هنا، فإنّ ما يقال عن عنف الخوارج واستعراضهم، أيّ استجوابهم للمخالفين وقتلهم العشوائي لهم لا ينطبق على تلك الفترة.

استغلّ بعض الخارجين في تلك الفترة تنقّلاتهم لنشر الفكر الخارجي وجمع أنصار جُدد قبل مواجهة عليّ. فقد أتى هلال بن علّفة ماسبذان «يدعو إلى رأيه»[4]، وأقام أبو مريم السّعدي في شهرزور يحضّ أصحابه ويذكّرهم بأمر النّهروان فاستجاب له قوم من غير أصحابه[5]، وهي المرّة الأولى الّتي تبرز فيها رغبة بعض الخوارج في نشر أفكارهم وتعزيز صفوفهم بأنصار جدد.

ولئن لا تذكر الرّوايات نتيجة هذه العمليّة بالنّسبة إلى هلال بن علّفة، فهي تؤكّد أنّها افضت إلى انضمام عدد كبير من الأنصار إلى أبي مريم بلغ أربعمائة كلّهم من الموالي ليس فيهم من العرب إلاّ خمسة وأبو مريم سادسهم[6]. وبذلك يدشّن هذا الخارجي دخول الموالي إلى الحركة التي ظلّت إلى حدود تلك الفترة حكراً على المسلمين العرب ويدشّن كذلك اقتحام سكّان الأرياف الحركة التي كانت تقتصر على الكوفيين وبعض البصريين.

ويتميّز من بين الخارجين في تلك الفترة الأشهب بن بشر القرني، الذي انتقل عند خروجه إلى مكان المعركة التي أُصيب فيها هلال بن علّفة وأصحابه الخارجين قبله فصلّى عليهم ثمّ واصل تحرّكه[7]. ولئن يبدو صنيع الأشهب بن بشر من خلال الرّواية عاديًا، فإنّه سيكتسب أهميّة كبيرة عند الخوارج في المستقبل وخصوصاً عند المنتمين منهم إلى الجزيرة الفراتية، إذ سيصبح تقليداً من تقاليدهم، وسيكون النّهروان المكان المفضّل للوقوف على

(١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٤٩.
(٢) كان عدد المقاتلة في الكوفة في أواخر خلافة عليّ أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٩.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨٢.
(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٢.
(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٥.
(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٣.
(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨٣.


المناطق التي تشتّت فيها الخوارج بعد النهروان
ومنها انطلقت بعض الانتفاضات في خلافة علي بن أبي طالب
ش
الري
همدان
نهاوند
حلوان
خانقين
جلولاء
الجزيرة
قرقيسيا
هيت
الأنبار
المدائن
النهروان
بغداد
الحدائق
كربلاء
الكوفة
حروراء
البصرة
بادية الشام
الفرات
دجلة
الخليج العربي-الفارسي
المفتاح:
المناطق التي تشتّت فيها الخوارج
مراكز تواجد مجموعات خارجية
مواقع انطلقت منها انتفاضات خارجية
أو دارت فيها معارك بين الخوارج
وجيش علي بن أبي طالب
المصدر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج٢؛
حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام
المقياس ١: ٢,٢٥٠,٠٠٠

قبور أصحابهم ضحايا المعركة والبكاء عليهم.

انتهت هذه السّلسلة من التحرّكات مع بداية سنة ٣٩هـ. ولئن أمكن لعليّ القضاء عليها بسهولة بسبب تشتّتها وعفويتها، فإنّها ساهمت في إضعاف قوّته وزادت في عدد النّاقمين عليه، كما أنّها دفعت بعض العناصر الخارجيّة إلى الإقدام على قتله متسبّبة في خلق وضع جديد سيؤثّر على الخوارج وعلى الأمّة الإسلاميّة قاطبة.

٣ ـ مقتل عليّ وانتقال الحكم إلى بني أميّة

تُجمع المصادر على أنّ مقتل عليّ بن أبي طالب جاء إثر اتّفاق تمّ بين الخوارج في مكّة يقضي بقيام ثلاثة عناصر من الحرورية، وهم: عبد الرّحمن بن ملجم المرادي، والحجّاج بن عبد الله الصّريمي، وعمرو بن بكير التّميمي، باغتيال الثالوث الذي كان وراء انقسام المسلمين وتشتّتهم والمتكوّن من عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص.

ولتنفيذ الاتّفاق قدم ابن ملجم إلى الكوفة وأقام فيها بانتظار الموعد المتّفق عليه، وفي الأثناء تعرّف على قطام بنت علقمة وقرّر أن يتزوّجها بعد أن اشترطت عليه عدّة شروطٍ كان من بينها قتل عليّ قاتل أبيها وأخيها في النّهروان. وقامت قطام بتنظيم العمليّة واختيار الأشخاص الّذين ساعدوا ابن ملجم في القيام بها. وتمّ في الوقت المتّفق عليه التّنفيذ، ونجح ابن ملجم في تسديد ضربة قاتلة لعليّ توفي بعدها بثلاثة أيام[١].

تلك هي إذن صورة الحادثة وخلفياتها كما ينقلها الإخباريون، وقد قبلها بعض الدّارسين وسلّموا بوقوعها[٢]، في حين شكّك في صحّتها البعض الآخر لاحتوائها على عناصر متضاربة وأخرى مختلفة[٣]، ولا نستبعد بدورنا أن تكون هذه الحادثة المهمّة قد تعرّضت مثل غيرها من أخبار العلويين إلى إضافات وزيادات في الفترات المتأخرة من قبل الشّيعة، لكن الشكّ في صحّة الرّوايات لا يمنع من الإقرار بوجود حقائق تاريخيّة حاول العديد من الدارسين البحث عنها من خلال إلقاء مزيد من الضوء على الرّوايات.

ويبدو من خلال المصادر والدّراسات الحديثة أنّ هناك إجماعاً على أنّ عملية قتل علي تمّت على أيدي عناصر خارجيّة انتقاماً لضحايا معركة النّهروان، إلاّ أنّ حصول اتّفاق مسْبَق بين الخوارج وتخطيط لعمليّة القتل يبدو أمراً مستبعداً بسبب التشتّت الكبير الذي كانت عليه المجموعة وكره أغلب الخوارج أسلوب الاغتيالات في مواجهة أعدائهم[٤].

---

(١) يتفق الرّواة على أنّ مقتل عليّ كان في رمضان سنة ٤٠هـ، لكنّهم يختلفون في تحديد اليوم. انظر: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٤٣.

(٢) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٠٣ ـ ١٠٣؛ فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٤٩.

(٣) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 375.

(٤) لا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الخوارج أيّدوا عمليّة قتل عليّ إلاّ أنّ هذا التأييد يُعبّر عن موقفهم الشخصي =

وإذا أمكننا الحديث عن مؤامرة، فإنّها قد وقعت بين عدد محدود جدًا من الخوارج ولا يمكن اعتبارها عملاً ملزماً للحركة بأكملها. أمّا بقيّة المعلومات الخاصة بالعمليّة مثل قصّة الحب بين ابن ملجم وقطام والدّور المزعوم للأشعث الكندي وغيرها فقد شكّك العديد من الباحثين في صحّتها.

اختار الكوفيون بعد قتل عليّ بن أبي طالب ابنه الحسن خليفةً لهم، ويبدو واضحاً من خلال الرّوايات أنّ نيّة الاختيار قد وردت لمّا تعرّض عليّ للطعنة، وأنّ بعض الكوفيين استشاروه في ذلك فلم يشر عليهم بشيء وترك الأمر لهم(١).

وتمّت عمليّة الاختيار من قبل أنصار عليّ وأصحابه المقرّبين، وكان أوّل المبايعين قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري(٢) ثمّ تبعه سكّان الكوفة. وقد أدخلت البيعة للحسن بن عليّ فكرة الوراثة في الحكم عند المسلمين، إلاّ أنها حصلت من دون اتفاق مسْبَق بين الأطراف العراقيّة ومن دون اختيار من عليّ بل استوجبها الشغور المفاجىء الحاصل على رأس السلطة وحالة الانقسام والصرّاع التي كانت تعيشها الأمّة الإسلاميّة آنذاك. وقد وقع اختيار الحسن لأنّه أقرب المسلمين إلى هذا المنصب، فهو يمثّل الشخصيّة الّتي يمكن أن يلتفّ حولها أغلب الكوفيين باعتبار قرابته من عليّ ومن الرسول خاصة(٣)..

وكانت أولى المهام المطروحة على الخليفة الجديد هي استئناف الحرب ضدّ معاوية، لكن الحسن أبدى منذ اللحظة الأولى عدم تحمّسه لذلك، فقد اشترط على مبايعيه أن يكونوا سامعين مطيعين يُسالمون من سالم ويُحاربون من حارب(٤). ويضيف ابن كثير أنّ الحسن لم يكن في نيّته أن يقاتل أحداً لكن غلبوه على رأيه ودفعوه إلى الموافقة على السّير إلى

= وليس عن موقف الحركة ككلّ، ويعدّ الشاعر الخارجي عمران بن حطان من أبرز المؤيّدين لهذه العمليّة وقد ألّف قصيدة يمجّد فيها ابن ملجم يقول في مطلعها:

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها ... إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي أذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا

(المبرد، الكامل، ص ١٣).

أمّا المسعودي فيذكر أنّ الكثير من الخوارج لا يتولّون ابن ملجم لقتله عليًا غيلة: المسعودي، التنبيه والأشراف، عني بتصحيحه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصّاوي، القاهرة، ١٣٥٧هـ، ص ٢٥٧؛ DJAIT (H), *op. cit.*, p. 375.

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٤٦ ـ ١٤٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٥٨.

(٣) DJAIT (H), *op. cit.*, pp. 397 - 398.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٠٢.

الشام(١). جاء قرار المسير إلى الشام بعد بضعة أسابيع من البيعة للحسن(٢). ويبدو أنّ إصرار بعض العناصر الكوفيّة مثل قيس بن سعد بن عبادة على استئناف الحرب كان وراء هذا القرار، كما كان حشد معاوية لقواته على الحدود العراقيّة من دوافع الخروج إلى الشام كذلك، غير أنّ المواجهة بين الجيشين لم تحصل لأنّ الحسن ومعاوية تصالحا قبل حدوثها.

وتتضارب الرّوايات عند تعرّضها لعملية الصّلح، فهي من ناحية تظهر الحسن بمظهر المسالم الّذي لا يريد استئناف الحرب(٣)، وتظهره من ناحية أخرى بمظهر المجبر على قبول الصّلح لتفرّق جيشه وتعرّضه لاعتداءٍ من قبل بعض العراقيين(٤). إلاّ أنّ الواضح من خلال التتبّع الدقيق للرّوايات أنّ قبول الحسن للصّلح لم يكن نتيجة الاعتداء الذي تعرّض له كما يحاول بعض الرّواة إثباته، وإنّما جاء تنفيذاً لرغبته الشخصيّة في مصالحة معاوية بسبب كرهه للحرب، ورغبته في حقن دماء المسلمين، وعدم ثقته في العراقيين لاختلافهم على أبيه وكثرة تلوّنهم عليه كما يقول الجاحظ(٥).

أمّا عن دور الحروريّة في هذه الأحداث، فلا تذكر المصادر شيئاً. ويلاحظ المتتبّع للرّوايات الغياب الكلّي للعناصر الخارجيّة في مختلف مراحل هذه العمليّة، إلاّ أنّ بعض الرّواة يذكرون عند تعرّضهم لخروج الحسن من المدائن بعد تنازله عن السّلطة أنّ أحد العراقيين، وهو الجرّاح بن سنان الأسدي، كمن له وضربه ضربة كادت تذهب بحياته لولا أنّها أصابت فخذه. ويضيف الأصفهاني أنّ الجرّاح صاح عند طعنه الحسن: «الله أكبر لقد أشركت كما أشرك أبوك»(٦). واعتماداً على هذا القول نسب العديد من الدّارسين محاولة القتل إلى الخوارج وأكّدوا مسؤوليتهم فيها(٧). إلاّ أنّ هذه الرّواية لا يُمكن تصديقها بسهولة، كما لا يُمكن التّأكيد على الدّور المنسوب للخوارج فيها وذلك لعدّة أسباب أهمّها عدم تعرّض أبرز الرّواة، مثل الطّبري وابن خياط والمسعودي وابن الأثير وابن كثير وغيرهم

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، ١٩٦٦، ج ٨، ص ١٤.
(٢) يذكر اليعقوبي أنّ قرار المسير جاء بعد شهرين من البيعة وقيل أربعة أشهر. انظر: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٤.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٥٨.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٥٩؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٨٥.
(٥) الجاحظ، الرسائل: رسالة في النابتة، تحقيق عبد السلام محمّد هارون، القاهرة، ١٩٦٥، ج ٢، ص ١١ - ١١.
(٦) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق أحمد صقر، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٦٤. كما ينقل النّوبختي الرّواية نفسها، انظر: النّوبختي، فرق الشيعة، صحّحه إبراهيم الزين، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٩.
(٧) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١١١؛ VECCIA Vaglieri (L), «Al Hassan b. Ali», In: *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle, édition, 1971, T. III, p. 241.

لها، واقتصار بعض الرّواة الآخرين، مثل اليعقوبي، على ذكر الحادثة واسم مرتكبها من دون الإشارة إلى علاقته بالحركة الخارجيّة[1].

أمّا إذا اعتبرنا القول المنسوب للجرّاح كدليل على انتماء صاحبه إلى الخوارج باعتبار انفرادهم بتكفير عليّ، فإنّه لا يكفي وحده لإلقاء التّهمة كاملة عليهم لأنّ الخوارج المقيمين في الكوفة لم يكونوا ـ رغم ارتفاع عددهم[2] ـ شديدي التمسّك بمبادىء الحركة، لذلك لم يخرجوا مع أصحابهم إلى النّهروان وفضّلوا العيش بسلام، ومن المستبعد أن يتحوّل موقفهم بصورة مفاجئة من المسالمة إلى التّفكير في قتل الخليفة. كما أنّ الجراح شخص مجهول الهويّة لا يوجد ما يثبت انتماءه إلى الحركة الخارجيّة. هذا بالإضافة إلى أنّ أعداء الصّلح في صفوف الجيش العراقي عديدون، ولعلّ الخوارج أقلّهم رفضاً له لأنّ بقاء الحسن أو مجيء معاوية لا يغيّر الوضع كثيراً بالنّسبة إليهم، فعداوتهم للحسن لا تقلّ عن عداوتهم لمعاوية. لذلك نستبعد أن يكون لهم دور كبير في هذه الأحداث، والأرجح أنّهم أُقحِموا فيها لتبرير ما قام به الحسن من خلع نفسه وتسليم الأمر لبني أميّة، أعداء أبيه والعراقيين عامة.

ويمثّل انتقال الحكم إلى بني أميّة نهاية مرحلة هامة في تاريخ الدولة الإسلاميّة وفي تاريخ الحركة الخارجيّة بالخصوص، لا بل يُمكن اعتبارها بمثابة المرحلة التأسيسيّة التي شهدت ميلاد الحركة وانطلاقتها الأولى على أيدي زعماء كبار عاشوا الفتنة من بدايتها ولعبوا دوراً فيها، فتكوّنت لديهم بعض الأفكار تحوّلت نتيجة التّحكيم وما تلاه من أحداث إلى جملة من المبادىء ستكوّن الركيزة الأساسية الّتي ستقوم عليها النّظرية الخارجيّة. ورغم أنّ أغلب هؤلاء الزّعماء قد استشهدوا في أوّل معركة جمعتهم بعليّ، فإنّ أفكارهم ومبادئهم ستظلّ حيّة، وسيتمسّك بها أصحابهم كما سيتمسّك بها بقيّة الخوارج، وسيحتلّ زعماء هذه الفترة مكانةً متميّزة لدى كلّ أتباع الحركة ستتعزّز بمرور الزّمن حتّى تصبح أعمالهم وأقوالهم مرجعاً للجميع[3] تكتسي قيمة تُضاهي قيمة أعمال كبار أصحاب الرّسول وأقوالهم عند بقيّة المسلمين.

III ـ الحركة الخارجية في بداية الحكم الأموي

أدّى الصلح، كما رأينا سابقاً، إلى تنازل الحسن عن السّلطة وانتقالها إلى معاوية بن أبي سفيان. وينتمي الخليفة الجديد إلى بني أميّة، أحد البيوتات العربية العريقة ذات النفوذ

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٥.

(٢) كان عدد الخوارج في الكوفة حوالى ثلاثة آلاف لم يشاركوا في النّهروان: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨٥.

(٣) الجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجهول لعلّه كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم للبلاذري، طبعة غريفزولد، ١٨٨٣، ص ٧٨.

الكبير في قريش قبل الإسلام. ناهض أبوه الإسلام وقاومه إلى آخر لحظة، ولم يُسلم معاوية بدوره إلى يوم الفتح. لكن تأخّره في دخول الإسلام لم يمنعه من احتلال مكانة متميّزة منذ الفترة النبويّة إذْ كان من كتّاب الوحي، ثم شارك في الفتوحات الأولى زمن أبي بكر وولاّه عمر دمشق والأردن[١]، ثم ضمّ له عثمان حمص وقنسرين وفلسطين والجزيرة[٢].

دامت ولاية معاوية على الشّام عشرين سنة، وقد مكّنته هذه الفترة الطويلة من اكتساب خبرةٍ واسعة في الميدانين الإداري والسّياسي، ومن فهم الواقع الشّامي فهماً دقيقاً وظّفه للحصول على ولاء وتأييد السكّان وخصوصاً رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ منهم.

ولمّا قُتل عثمان بن عفّان، كان معاوية أوّل الرافضين الاعتراف بالخليفة الجديد عليّ بن أبي طالب، لكن من دون أن يجرؤ على المطالبة بالخلافة لنفسه لعدّة اعتبارات أهمها افتقاده للأسبقيّة في الإسلام وشرف الصّحبة، وهي المقاييس المعتمدة في اختيار الخلفاء إلى ذلك الحين. ولذلك اكتفى بالمطالبة بدم عثمان المقتول ظلماً، وأخذ بيعة الشاميين على ذلك. وقد أدّى هذا الموقف إلى نشوب حرب صفّين الّتي انتهت بخدعة التّحكيم وتشتّت الائتلاف الّذي كوّنه عليّ. وكان معاوية أوّل المستفيدين من ذلك، إذ انفرد بالشّام، وانطلق منها للسّيطرة على مناطق أخرى. وفي تلك الأثناء، حدث مقتل عليّ بن أبي طالب، فانزاحت من طريق معاوية أكبر عقبة كانت تحول بينه وبين الوصول إلى الحكم، إذ تمكّن بفضل حصوله على تنازل الحسن من أن يصبح خليفةً لكلّ المسلمين بعد أن كان خليفة للشّاميين فقط[٣].

دخل معاوية الكوفة بعد الصّلح مباشرةً حيث بايعه النّاس[٤]. وتحقّقت بهذه البيعة وحدةُ الأمّة من جديد وانتهت الحرب الأهليّة الّتي مزّقتها أكثر من خمس سنوات. وقد أطلق المؤرّخون في الفترة اللاّحقة على تلك السنة: «عام الجماعة»[٥]، تعبيراً عن نهاية حال الانقسام والتمزّق الذي كانت تشهده الأمّة.

ويستثني الحديث عن وحدة الأمّة والجماعة الخوارج الذين بقي العديد منهم خارج هذا الإجماع. وإذا كانت المصادر لا تذكر قبول خوارج الكوفة البيعة لمعاوية أو رفضهم لها باعتبار أنّ الرؤساء هم الذين ينوبون أبناء قبائلهم وعشائرهم في هذه العمليّة، فلا شيء يدلّ على أنّ من بينهم من عبّر عن رفضه للخليفة الجديد علانية. أمّا المجموعات الأخرى

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢١.

(٣) بايع الشّاميون معاوية خليفة في القدس في رجب سنة ٤٠هـ: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦١.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٤.

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف، ١٩٦٧، ج ١، ص ١٨٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٦.

المتكوّنة من الّذين انسحبوا قبل معركة النّهروان ولم يشاركوا في التّحركات التي تلتها بالاضافة إلى الأربعمائة رجل الذين ارتثّوا في المعركة وأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم، فقد رفضوا الاعتراف بسلطة معاوية لأنّ موقفهم منه كان واضحاً وثابتاً منذ التّحكيم: فهو كافر ليس بينهم وبينه إلا السّيف، وهو موقف تبنّاه الجميع بما في ذلك المجموعات التي كانت في السّابق متردّدة في محاربة عليّ بن أبي طالب، مثل فروة بن نوفل الذي تحرّك بأصحابه في اتجاه الكوفة بمجرّد علمه بتنازل الحسن ومبايعة العراقيين معاوية[1]. وهو التحرّك الذي سيكون ردّ الخليفة الجديد عليه تدشيناً لسياسة الدّولة تجاه الخوارج والمعارضين عامّة.

١ ـ الأمويّون يتصدّون للخوارج

كان قدوم فروة بن نوفل الأشجعي وأصحابه الخمسمائة من شهرزور إلى النّخيلة أوّل ردّ فعل خارجي ضدّ الخليفة الجديد، تلاه قدوم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي في ثلاثمائة من الذين اعتزلوا يوم النهر، وتولّى أمر الجميع فروة بن نوفل استعداداً للمواجهة. وكردٌ على تلك التّحركات، قرّر معاوية استعمال القوّة ضدّ هذه المجموعة، وهو موقف يتناقض مع ما تذكره المصادر عن رغبته القويّة في تجنّب الحرب وإراقة دماء المسلمين، ومع حرصه في تلك الفترة بالذات على جمع شتات الأمة وإعادة بناء وحدتها من خلال محاولته جلب مختلف القوى إلى صفوفه. وقد ظهر هذا الحرص بوضوح من خلال ما أبداه من مرونة في التّعامل مع أصحاب عليّ الذين لم يبايعوه في البداية، وعلى رأسهم قيس بن سعد بن عبادة. ويُمكن تفسير مواقف معاوية المتباينة بالاختلاف بين المجموعتين: فابن سعد كان على رأس قوة عسكريّة، ولذلك فإنّ إخضاعه بالقوّة سيكون صعباً وسيكلف الدّولة مزيداً من الخسائر البشريّة، بالإضافة إلى ما سيثيره من غضب في صفوف أصحاب عليّ في وقت يحرص فيه معاوية على جمع القلوب ورأب الصدّع الّذي أحدثته الفتنة؛ أمّا الخوارج، فهم أقليّة رافضة مبدئيًا لأيّ شكل من أشكال التّعامل مع السّلطة الجديدة، وهي في نظر أغلب المسلمين خاطئة، ولذلك لن يكون لمحاربتها تأثير سلبي على الحكم الجديد.

أرسل معاوية إلى فروة وأصحابه في البداية خيلاً من خيل الشام قدمت معه، فألحق بها الخوارج هزيمة نكراء جعلته يلتجىء إلى القبائل الكوفيّة ويكلّفها بمهمّة القضاء على هذه المجموعة. كما حاول في الوقت نفسه إقناع الحسن بن عليّ بمساعدته في هذه العمليّة قبل الالتحاق بالمدينة. ولم يكتفِ معاوية بطلب المساعدة من القبائل، بل أجبرها على الخروج وهدّدها «بأن لا أمان لها ولا رزق حتّى تقضي على الخوارج»[2]. وهي المرّة الأولى التي

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٣؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٦، البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٤.

تُجبر فيها القبائل بالقوة على محاربة الخارجين على السلطة، وتُستعمل فيها الأرزاق وسيلة للضغط على السّكان لإجبارهم على المشاركة في الحرب.

لبّت القبائل دعوة معاوية و«خرج من أهل الكوفة بشرٌ كثيرٌ عليهم خالد بن عرفطة العذري»[١]. واستعملت بعض القبائل في الوقت نفسه الحيل لإرجاع أبنائها المشاركين في هذه الثورة وخصوصاً العناصر البارزة منهم. ويظهر أنّ معاوية هو الذي دفعها للقيام بهذا العمل حتّى يتسنّى له تشتيت جمع الخوارج بإبعاد قادتهم. وقد مكّن تدخل القبائل طيئاً من إرجاع القعقاع بن نفر الطائي، وبني شيبان من إرجاع عتريس بن عرقوب الشيباني، وأشجع من إرجاع فروة[٢]. غير أنّ انسحاب هذه العناصر البارزة لم يمنع الحروريّة من اختيار قائد جديد هو عبد الله بن أبي الحوساء الطائي ومواصلة التحرّك.

كانت معركة النّخيلة ثاني ضربة قويّة تلقتها الحركة بعد النّهروان، وكان تأثيرها على الخوارج كبيراً باعتبار عدد الّذين هلكوا فيها وقيمتهم، فهم من المؤسّسين للحركة أو من الذين عاشوا عمليّة تأسيسها، لذلك سيزيد غيابهم في تعميق الفراغ الّذي أحدثه غياب الزّعماء الكبار الذين استشهدوا في النّهروان. ويتجلّى عمق تأثير وقعة النّخيلة على الخوارج من خلال الأشعار العديدة التي رثت ضحايا هذه المعركة ومجّدتهم[٣]. وقد جمع بعض الشّعراء بين أصحاب النّخيلة وأصحاب النّهر تعبيراً عن المكانة المتميّزة التي يتمتّع بها شهداء الوقعتين في نفوسهم[٤].

ورغم الهزيمة الّتي مُني بها الحروريّة في النّخيلة، فإنّهم سرعان ما عادوا إلى التّحرّك من جديد بقيادة حوثرة بن وداع الأسدي الذي كان في مائة وخمسين انضمّ إليهم المتبقّون من معركة النّخيلة[٥]. واستعمل معاوية في هذه المعركة كالعادة قبائل الكوفة، كما أجبر أبا

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٤/١، ص ١٦٤.

(٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٤/١، ص ١٦٤؛ **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ١٦٦.

(٣) يقول قيس بن الأصمّ أحد شعراء الخوارج:

إنّي أدين بما دان الشّراة به ... يوم النّخيلة عند الجوسق الخرب

(إحسان عباس، **شعر الخوارج**، ص١٩٥).

(٤) من الأشعار التي تجمع بين شهداء النّهر والنّخيلة ما جاء على لسان داود بن عقبة العبدي:

إلى الله أشكو فقد فتيان غارة ... شهدتم يوم النّخيلة والنّهر

شهدتم أسداً إن الحرب شمّرت ... مساميح بهم بالمهنّدة البتر

ويقول عبيدة بن هلال رائياً أخاه محرز بن هلال:

سرى محرز والله أكرم محرزاً ... بمنزل أصحاب النّخيلة والنّهر

(إحسان عباس، **شعر الخوارج**، ص ٩٥، ١٩٢).

(٥) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٤/١، ص ١٦٥.

حوثرة، وهو شيخ كبير، على الخروج إلى ابنه في محاولة منه للتأثير على معنوياته ودفعه إلى الانسحاب وترك أصحابه[1]. لكن حوثرة أصرّ على المواجهة فكانت هزيمته وقُتل أغلب أصحابه.

ولعلّ ما يلفت انتباه متتبّع هذه التّحركات هو أولاً اقتصارها على المجموعات المنسحبة من النّهروان والتي ظلّت إلى تلك اللحظة مشتّتة في الأرياف وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين في الكوفة فيها، وهو ما يؤكّد عدم حصول تحوّل في موقف هؤلاء رغم التّغيير الذي طرأ على السّلطة. أمّا ثانية هذه الملاحظات فتخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماساً في محاربة الخوارج. وإذا كنّا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من عليّ قد لعبت دوراً في دفع هؤلاء إلى المشاركة في قمع الثائرين، فإنّنا لا نستبعد أن تكون الرّغبة الملحّة في إنهاء الحروب والانقسامات والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها في دفع الكوفيين إلى مساعدة معاوية في القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنّهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم وسيفقد مِصْرُهُم المكانة التي كان يتمتع بها في خلافة عليّ. وقد انتقد الخوارج موقف الكوفيين وعبّر عن ذلك حوثرة بقوله: «يا أعداء الله. أنتم بالأمس تُقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه، واليوم تُقاتلون مع معاوية لتشدّوا سلطانه»[2]، واصفاً بذلك التحوُّل في موقف الكوفيين من معاوية.

بعد القضاء على هذه التحرّكات ولّى معاوية المغيرة بن شعبة الثقفي الكوفة، وعبد الله بن عامر البصرة، وعاد إلى دمشق التي أصبحت عاصمة الخلافة الإسلاميّة. إلاّ أنّ تحرّكات الخوارج لم تتوقّف بعد عودة معاوية إلى الشّام، بل زادت حدّة في الكوفة والبصرة على حدٍّ سواء وهو ما جعل ولاة بني أميّة يستخدمون أساليب متعدّدة في قمعهم.

أ ـ سياسة المغيرة بن شعبة ودورها في توقّف نشاط خوارج الكوفة:

يُعتبر المغيرة بن شعبة الثّقفي، والي الكوفة الجديد، من كبار الصّحابة، إذ لعب دوراً كبيراً في عهد الرّسول، وتولّى عدّة مناصب إدارية في خلافة عمر بن الخطاب، واشتهر بقدراته الفائقة في الميدانين السّياسي والإداري. ويبدو أنّ اختياره من قبل معاوية لا يعود إلى مركزه الإسلامي المتميّز بقدر ما يعود إلى رغبة الخليفة الجديد في استغلال قدراته ومواهبه في إدارة شؤون الكوفة التي كان الوضع فيها في منتهى التعقيد يتطلّب وجود والٍ قادر على السّيطرة على مختلف القوى ذات النّفوذ فيها.

أمّا عن سياسة المغيرة وموقفه من الخوارج، فتذكر المصادر أنّ هذا الوالي «أحبّ

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٥٧؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ١٦٥.

(٢) المبرّد، الكامل، ص ٧٥.

العافية، وأحسن في النّاس السّيرة، ولم يفتّش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يُؤتى فيُقال له إنّ فلاناً يرى رأي الشيعة وأنّ فلاناً يرى رأي الخوارج، فكان يقول: قضى الله ألاّ تزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون»[1]. وقد أطنب المؤرّخون اعتماداً على هذه الرّواية في الحديث عن لين المغيرة وتسامحه تجاه المعارضين. وذهب فلهوزن إلى القول إنّه رجل متساهل لم يُبدِ حماساً في مواجهة المعارضين[2]، وفسّر الجميع هذه السّياسة بكبر سنّ المغيرة وميله إلى الرّاحة والهدوء. إلاّ أنّه لا يمكن تقييم سياسة المغيرة تجاه المعارضين وخصوصاً الخوارج منهم انطلاقاً من هذه الرواية فقط، بل يجب تتبّع مختلف الأحداث الّتي شهدتها الكوفة خلال ولايته وتحديد موقفه منها.

تحرّك الحروريّة في الكوفة مباشرة بعد تولية المغيرة، ولم تأتِ تحرّكاتهم في الحقيقة كردّ فعلٍ على تعيين الوالي الجديد بل مواصلةً لسلسلة الانتفاضات التي انطلقت إثر وصول معاوية إلى السّلطة. وينقل البلاذري مجمل هذه التّحرّكات ويعطي تفاصيل مهمّة عنها[3].

بدأت تحرّكات الخوارج بانتفاضة فروة بن نوفل الأشجعي الّذي قاد معركة النخيلة قبل أن تُرجعه قبيلة أشجع بالقوّة إلى الكوفة. وتدلّ سرعة استئناف فروة لنشاطه على تمسّكه بمحاربة الأمويين رغم المحاصرة الشديدة المفروضة عليه. وإذا كانت محاصرة أشجع لفروة لم تفلح في منعه من الخروج، فالظاهر أنّها ساهمت في إبعاد الأنصار من حوله ممّا جعل تحرّكه صغيراً أمكن للمغيرة القضاء عليه بسهولة[4].

ولم تقتصر محاصرة أشجع على فروة بن نوفل بل شملت خارجيًّا آخر هو شبيب بن بجرة الأشجعي، أحد المشاركين في عمليّة مقتل عليّ، رغم أنّه لم يكن من الخوارج النّشيطين مثل فروة. وقد تمثّل عمل أشجع تجاه شبيب في طرده من الكوفة تنفيذاً لأمر معاوية[5]. ولئن كان الهدف من عمليّة الإبعاد، على ما يبدو، معاقبة شبيب ودفعه إلى التّخلّي عن الفكر الذي يحمله، فإنّ النتيجة جاءت عكسيّة: فقد ثار شبيب بالقفّ قرب الكوفة واعترض الناس[6]، ممّا أجبر المغيرة على إرسال جيش للقضاء عليه.

ويدلّ حزم قبيلة أشجع في التصدّي للخوارج من أبنائها على حرصها على تنفيذ أوامر

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٤.

(٢) فلهوزن، تاريخ الدّولة العربيّة، نقله وعلّق عليه محمّد الهادي أبو ريدة، وراجعه حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١١٠ ـ ١١٢.

(٣) أهمل الطبري كالعادة تحركات الخوارج الصّغيرة ولم يذكر منها سوى ثورة المستورد بن علّفة، كما أهملها أغلب الرّواة المتأخّرين.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٦.

(٦) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٦.

معاوية لتجنّب عقوباته، كما قد يدلّ على رغبتها في محاصرة الفكر الخارجي ومنع انتشاره في صفوف أبنائها وهو ما يظهر بوضوح من خلال ما قامت به تجاه شبيب.

وعموماً تُعطي أعمال قبيلة أشجع فكرة عن مدى مساهمة القبائل الكوفيّة في إضعاف الحركة الخارجيّة والحدّ من خطرها. كما تُظهر بوضوح التطوّر الكبير لدورها. فبعد أن كان أفراد من القبيلة هم الذين يحاولون ردّ الخارجين من أقربائهم بدافع قَبَلي ومن دون عنف في أغلب الأحيان، صار الرؤساء هم الذين يقومون بذلك وبأساليب أكثر صرامة، كما صاروا يفرضون العقوبات على الحاملين لهذا الفكر مثل عقوبة الإبعاد عن المصر التي سلطت على شبيب بن بجرة. وسيتطوّر دور القبيلة خلال الحكم السّفياني حتّى تصبح طرفاً رئيسياً في القضاء على المعارضين وعلى الخوارج بصورة خاصة.

تلا خروج فروة وشبيب خروج أبي مريم، مولى بني الحارث بن كعب، ثمّ أبي ليلى[1]. ويتشابه هذان التّحركان في العديد من الجوانب، منها انطلاقهما من الكوفة التي ظلّ الخوارج فيها ملازمين للهدوء والطاعة إلى تلك اللحظة، وتولّي عنصرين من الموالي لأول مرّة مهمّة التنظيم والقيادة. إلاّ أنّ انتفاضة أبي مريم تميّزت بمشاركة امرأتين هما قطام وكحيلة[2]، وهو ما جعلها تدشّن اقتحام المرأة الخارجية ميدان النّضال العسكري.

أمّا عن عدد المشاركين في التّحركين، فلا تذكر المصادر سوى عدد أصحاب أبي ليلى، وهو ثلاثون[3]. والظاهر أنّ عدد أتباع أبي مريم كان بدوره ضعيفاً ممّا يفسّر سهولة القضاء على تحرّكه. كما نجهل الانتماء الاجتماعي لأصحاب أبي مريم، والأرجح أنّهم كانوا خليطاً من العرب والموالي، لأنّ الروايات لم تشر إلى انتمائهم كما فعلت بالنّسبة إلى أنصار أبي ليلى حيث أكّدت أنهم كانوا جميعاً من الموالي[4].

تمكّن المغيرة بن شعبة من القضاء على هذه السّلسلة من التحرّكات الصّغيرة بفرق من جيش الكوفة، وقاد معقل بن قيس الريّاحي أحد أصحاب عليّ أغلب الجيوش. كما أظهر العديد من الشيعة، مثل صعصعة بن صوحان العبدي، حماساً كبيراً ورغبة في المشاركة في عمليات القمع. إلاّ أنّ الانتصار على الحروريّة لا يعود إلى تحمّس الكوفيين بقدر ما يعود إلى تشتّتهم وغياب التّخطيط المسْبَق بين القائمين بهذه التحرّكات، وهو ما سيحاول الخوارج تفاديه في الانتفاضة التي سيقودها المستورد بن علّفة التّميمي.

تُعتبر انتفاضة المستورد التي وقعت سنة ٤٣هـ آخر أهمّ تحرّكات الحروريّة في

---

(١) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٨.
(٤) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٨.

الكوفة. وقد ارتبط هذا التحرّك مثل سابقيه بمقتل عليّ، ذلك أنّ حيّان بن ظبيان السّلمي، أحد المرتثّين في النّهروان، «كان مقيماً في الريّ في رجال يرون رأيه، فلمّا قتل عليّ قرّر جمع أصحابه والخروج»[1]. وقد كانت تجربة حيّان السّابقة ومشاركته في النّهروان سبباً في حرصه على تنظيم عملية الخروج والتّخطيط لها بدقّة حتّى لا تمنى بالفشل مثل سابقاتها. ولتنفيذ العمليّة، «عاد حيّان إلى الكوفة قبل قدوم معاوية إليها»[2]، وشرع في جمع العناصر المعروفة من الحروريّة وخصوصاً تلك التي شاركت في النّهروان، وعقد عدّة اجتماعات في منزله تمّ خلالها تحديد تاريخ الخروج واختيار المستورد بن علّفة التّميمي قائداً للتحرّك وأطلق عليه لقب أمير المؤمنين[3].

ولمّا بلغ المغيرة خبر هذه الاستعدادات أمر شرطته بمداهمة منزل حيّان مكان انعقاد الاجتماعات حيث ألقي القبض على بعض العناصر من بينهم معاذ بن جوين الطائي وسالم بن ربيعة العبسي وحيّان بن ظبيان ورمى بهم في السّجن. ولمّا علم بقيّة الخوارج بأمر القبض على حيّان وأصحابه خرجوا من الكوفة لمواصلة الاستعداد بعيداً عن المصر. غير أنّ أمرهم سرعان ما انكشف، فعادوا إليه من جديد ونزلوا في عبد القيس عند أحد أصهار المستورد فأخبر المغيرة بوجودهم في المصر.

اختار المغيرة كحلٍّ للقضاء على هذه المجموعة الالتجاء إلى رؤساء القبائل وتحميلهم مسؤولية القضاء عليها. وقد جاء في خطابه أمام هؤلاء الرّؤساء قوله: «لقد ذُكر لي أنّ رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وإيم الله لا يخرجوا في حيّ من أحياء العرب في هذا المصر إلاّ أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم»[4]. ثم أمر كلّ رئيس أن يكفيه عشيرته.

ويُعدّ تهديد رؤساء القبائل بهذه الصورة وتحميلهم مسؤولية البحث عن المعارضين ومساعدة الدّولة في القضاء عليهم إجراءً جديداً أدخله الأمويون واستعملوه لتصفية المعارضين. وستكون نتيجته تقوية نفوذ الرؤساء وتدعيم الأُطر القَبَليّة القديمة التي بدأت تستعيد مكانتها بخجلٍ في خلافة عثمان، كما أنّه سيحولّ القبيلة إلى طرف له وزنه في سياسة الدّولة.

وامتثل الرؤساء لإنذار المغيرة وأبدوا استعدادهم للقيام بعملية البحث عن الخوارج. وكان أصحاب عليّ أشدّهم تحمّساً في ذلك، وهو ما يظهر بوضوح من خلال ما جاء على لسان صعصعة بن صوحان العبدي في الخطبة التي ألقاها في عبد القيس حيث قال محرّضاً العبديين: «ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيّكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٤.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ١٦٨.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ١٦٩، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٨٤.

الخاطئة الذين فارقوا إمامنا واستحلّوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر. فإياكم أن تؤووهم في دُوركم أو تكتموا عليهم»[1]. ودفع هذا الضّغط القوي المسلّط على القبائل المستورد وأصحابه إلى الخروج.

كان اتّجاه الثائرين في البداية نحو بهرسير، إلاّ أنّ امتناع عاملها عن الانضمام إلى صفوف الخوارج ومنعهم من دخولها[2] جعلهم يغيّرون وجهتهم نحو المدائن[3]. التي عجزوا عن دخولها كذلك. وتبيّن هذه الأعمال رغبة الخوارج في السّيطرة على إحدى المدن وإخراج سكانها[4]، ثمّ محاربة جيوش الدّولة انطلاقاً منها، وهي رغبةٌ تعود إلى ما قبل النّهروان. وقد عبّر عنها بوضوح زعماء الحركة الأوائل وناقشوها مطوّلاً قبل خروجهم من الكوفة، وأدّت إلى اختيار بعضهم المدائن وتفضيل البعض الآخر النّهروان التي وقع اختيارهم عليها لعدم وجود من يمنعهم من دخولها. لكن فكرة اختيار المكان المناسب والتجمّع فيه استعداداً للمواجهة بدأت تغيب تدريجيًا بعد معركة النّهروان حيث صار الخوارج يحرصون في تحرّكاتهم على مواجهة العدو أين ما كان من دون التّفكير في النتيجة. ويظهر أنّ حرصهم على الانتقام من أعدائهم والاستشهاد كان أقوى منه على الانتصار. لذلك جاءت أغلب تحرّكاتهم بمثابة العمليات الانتحاريّة.

لم يتمكّن المستورد من دخول المدائن لأن المغيرة وجّه إليه جيشاً يُعدّ ثلاثة آلاف من نقاوة الشيعة وفرسانهم عليه معقل بن قيس الرّياحي[5]. كما بعث والي البصرة عبد الله بن عامر بدوره جيشاً مماثلاً أغلب عناصره من ربيعة من شيعة عليّ على رأسه شريك بن الأعور الحارثي[6]. وهي المرّة الأولى التي يُساهم فيها البصريون في قمع ثورة كوفيّة، وإنْ لم تتجاوز مساهمتهم في تلك المرحلة الدّفاع عن أراضي البصرة وحمايتها من دخول هذه المجموعة.

ضيّقت هذه الجيوش الخناق على المستورد وأصحابه، وتمكّن جيش الكوفة بعد عمليات المطاردة الطويلة من إلحاق الهزيمة بالخوارج حيث أسفرت المعركة عن مقتل معقل بن قيس الرياحي التمّيمي والمستورد بن علّفة التميمي، قائدي الجيشين[7].

---

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨٥، ١٩١ ـ ١٩٢.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٩.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥.
(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨٩.
(٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٤.
(٧) انظر تفاصيل المعركة في: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٩٤ ـ ١٩٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

وتعدّ هذه الانتفاضة آخر التحرّكات الخارجية المهمّة في الكوفة، إذ لن يحصل بعدها سوى تحرّكين أحدهما هو عمليّة استشهاديّة تزعّمها حيّان بن ظبيان السّلمي وجمعت الخوارج الذين قبض عليهم المغيرة وسجنهم[1]، وثانيهما انتفاضة صغيرة قام بها حرّاش العجلي سنة ٥٢هـ[2]، وستصبح الكوفة بعدها معقلاً للشيعة إلى نهاية الحكم الأموي.

هذه مجمل تحرّكات الخوارج في الكوفة، ونلاحظ من خلالها أنّ ما تذكره المصادر عن سياسية اللين التي سلكها المغيرة مع المعارضين لا تتّفق مع ما قام به تجاه الخوارج. فهو لم يحاول مهادنتهم كما فعل مع شيعة عليّ، وكان موقفه منهم منذ البداية مجابهة العنف بالعنف، ولذلك لم يتردّد لحظة واحدة في محاربة الخارجين على السّلطة بالشرطة والجيش. ولم يقتصر استعمال القوّة على الثائرين بل شمل حتّى الذين بلغه أنّهم ينوون الخروج مثل معين بن عبد الرحمن المحاربي وحيّان بن ظبيان السّلمي وغيرهما، وهو ما يدلّ على أنّ المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر ويتجسّس عليهم ويُنزل عقوباته بهم تبعاً لما يصله عنهم من أخبار. وقد وصفت أشعار معاذ بن جوين الطائي هذا الوضع بالقول:

ألا أيّها الشّارُونَ قَدْ حَانَ لامرىء ... شَـرَى نـفـسَـهُ لِـلّـهِ أنْ يَـتَـرَحّـلاَ

أقِـمْـتُـمْ بِـدَار الـخَـاطِـئِـينَ جَـهَـالَـةً ... وكـلّ امرىء مِـنـكُـمْ يُـصَـادُ لـيُـقْـتَـلاَ

فـشُـدّوا عـلى الـقَـوْمِ الـعـداة فـإنّـمَـا ... إقـامَـتَـكُـمْ لـلـذبْـح رأيـاً مُـضـلّـلا[3]

ولعلّ أهمّ وأخطر ما قام به المغيرة هو استعماله شيعة عليّ ضدّ الخوارج مستغلاً العداوة الّتي كانت بينهم، وهو عمل استفادت منه الدولة الأمويّة كثيراً على المدى القريب والبعيد.

فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجي في الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها من دون أن يكلّف الدّولة خسارة تُذكر. كما قضى في الوقت نفسه على بعض العناصر المعروفة بتشيّعها لعليّ مثل معقل بن قيس الرّياحي، فضلاً عن أنّه شغل الكوفيين عن معارضة الدّولة الأمويّة وأعطاها بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها.

---

(١) يختلف الرّواة في تحديد تاريخ هذا التحرّك إذ يجعله البلاذري في ولاية المغيرة على الكوفة. ويبدو من خلال السّياق أنه وقع سنة ٤٤هـ وهي السنة التي خرج فيها حيّان وأصحابه من سجن المغيرة بعد أن قضّوا فيه سنة. أمّا الطبري فإنه يتّفق مع البلاذري في القول إن حيّاناً وأصحابه بقوا في سجن المغيرة سنة لكنه يذكر تحرّكهم ضمن أحداث سنة ٥٨هـ. انظر: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٠٩ ـ ٣١١؛ البلاذري، أنساب الأشراف؛ ج ١/٤، ص ١٧٢.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ١٧٧.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ١٧١؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٨٧.

أمّا على المدى البعيد فقد عمّق المغيرة الهوّة بين الخوارج والشيعة وأبعد إمكانيّة التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنّباً بذلك الدولة الأمويّة خطر مواجهة معارضة موحّدة وقويّة. غير أنّ ما قام به المغيرة تجاه المعارضة في الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه مع بعض الاجتهادات التي رأى أنّها تخدم الدّولة أكثر. فقد كان معاوية على وعي تامّ بحقيقة المعارضة الخارجيّة وموقفها من السّلطة ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه وقرّر منذ اللحظة الأولى التّصدّي لهم بالقوّة. وستقف الدّولة الأموية طيلة تاريخها بالمرصاد لكلّ الحركات الّتي تعلن معارضتها لها، وسيزيد عنف الأمويين تدريجيًا بشكل يجعل ما قام به المغيرة مجرّد بداية مقارنة بمن سيأتي بعده من الولاة. ولعلّ هذا ما جعل الرّواة يؤكّدون على مرونته وتساهله مع المعارضين.

أمّا أنصار عليّ أو الشيعة[1]، وخاصة الزّعماء منهم، فقد عملت الدّولة الأموية على تقريبهم في تلك المرحلة[2]، رغم ما كانوا يضمرونه من كره لخلافة بني أميّة التي سلبتهم امتيازاتهم السّابقة. لذلك سلك المغيرة سياسة اللّين معهم حتّى لا يتحوّل كرههم إلى عداء سافر للدّولة، وهو ما ضمن الهدوء في الكوفة طيلة فترة ولايته عليها.

هذه إذن هي الخطوط العريضة لسياسة المغيرة في الكوفة والتي كانت نتيجتها توقّف تحرّكات الخوارج في هذا المصر في الوقت الذي نشط فيه البصريون وتكثّفت تحرّكاتهم تدريجيًا.

ب ـ توسّع نشاط الخوارج في البصرة وتصدّي السّلطة له:

تختلف أوضاع خوارج البصرة عن أوضاع أصحابهم في الكوفة، ويعود هذا إلى اختلاف الأوضاع بين المصرين منذ الثورة على عثمان بن عفّان. فالبصرة لم تشهد إبّان هذه الثورة تحرّكات شبيهة بتلك التي وقعت في الكوفة، والتي كانت بحكم خصوصيات هذا المصر الاقتصادية والاجتماعية المركز الأساسي للثورة ضدّ عثمان. ففيها تطوّرت الانتقادات لسياسة الدّولة إلى جدل كان له تأثير كبير على الفكر الخارجي، كما ساهم في بروز زعماء كبار كان لهم الأثر البالغ على الحركة.

أمّا في البصرة فقد كان الصّراع محدوداً جداً، لذلك لم يظهر في هذا المصر زعماء

---

(١) كانت كلمة «الشيعة» في تلك الفترة ما فتئت تعني أنصار عليّ بالمعنى الواسع للكلمة، أي الأشخاص الذين ناصروه ووقفوا إلى جانبه طيلة حياته وظلّوا أوفياء لذكراه بعد موته. ولن تأخذ كلمة «الشيعة» مفهومها السّياسي الدّيني إلا بعد مقتل الحسين في كربلاء.

(٢) يقول أبو مخنف في رواية له إنّ معاوية كتب إلى المغيرة: «خذ زياداً وسليمان بن صرد وحجر بن عديّ وشبث بن ربعي وابن الكوّاء وعمرو بن الحمق بالصّلاة في الجماعة»، فكانوا يحضرون معه الصّلاة. انظر: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٩.

في مستوى زعماء الكوفة، ولم يقم الخوارج بتحرّكات في خلافة عليّ بن أبي طالب، ولا تذكر المصادر سوى مشاركة خمسمائة منهم في النّهروان وكان ذلك بطلب من أصحابهم الكوفيين، وقد انسحب أغلب البصريين قبل بداية المعركة[1]. وباستثناء تحرّك الأشرس بن عوف الشيباني الذي تلا النّهروان مباشرة[2]، فإنّنا لا نملك معلومات عن خوارج هذا المصر طيلة خلافة عليّ بن أبي طالب.

لم يتغيّر هذا الوضع في بداية الحكم الأموي إذْ لم تعرف البصرة خلال ولاية عبد الله بن عامر، التي تواصلت من سنة ٤١هـ إلى سنة ٤٤هـ، سوى تحرّك واحد قاده سهم بن غالب الهجيمي وضمّ حوالى سبعين رجلاً منهم الخطيم الباهلي[3]. ولا يعود عدم قيام خوارج البصرة بتحرّكات ضدّ السّلطة الأمويّة إلى اختلاف موقفهم عن موقف أصحابهم الكوفيين إزاء الحكم الجديد ولا إلى تصلّب والي هذا المصر، بل على العكس من ذلك كان ابن عامر متسامحاً[4] إزاء الخارجين عليه، إذ منحهم الأمان ورفض تنفيذ أمر معاوية بقتلهم[5]، وإنّما يعود على ما يبدو إلى عوامل أخرى لعلّ من أهمّها الوضع في هذا المصر الذي لم يكن ملائماً للقيام بثورات لأن ابن عامر استأنف منذ تولّيه البصرة الحملات العسكرية في اتجاه المناطق الشرقيّة[6]، فشغل بذلك المقاتلة والرأي العام البصري عن الاهتمام بالشؤون السياسية. كما أنّ قلة عدد الخوارج في هذا المصر، وافتقادهم إلى التقاليد النضاليّة جعلاهم غير قادرين على التنظّم والقيام بتحرّكات شبيهة بتلك التي وقعت في الكوفة وأحوازها. غير أنّ التغيّرات التي سيعرفها العراق مع وصول الأمويين إلى الحكم وتوقف نشاط الخوارج في الكوفة سيكون لهما الأثر الكبير على خوارج البصرة وهو ما سيظهر بوضوح مع بداية حكم زياد بن أبي سفيان.

* ولاية زياد بن أبي سفيان وتزايد القمع ضدّ الخوارج:

بدأت ولاية زياد بن أبي سفيان على البصرة سنة ٤٥هـ. وقبل الحديث عن سياسته تجاه الخوارج لا بدّ من الإشارة إلى أنّ زياداً كان يتمتّع بكفاءات استثنائية مكّنته من الحصول

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨١.
(٣) يختلف الرّواة في تحديد تاريخ وقوع هذا التحرّك، فالبلاذري يذكر أنه جرى سنة ٤٤هـ، أمّا الطبري فيذكره ضمن أحداث سنة ٤١هـ. لكن يبدو من خلال الرّواية أنّ الطبري أورد الخبر عند حديثه عن تحركات الخوارج في بداية الحكم الأموي من دون الاهتمام بالتسلسل الزمني للأحداث، انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٢؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧١.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢١٢.
(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٣.
(٦) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٠.

على مناصب إدارية هامّة منذ خلافة عمر بن الخطاب. وقد برهن طيلة الفترة التي قضاها في خدمة الدولة الإسلامية على قدرة فائقة في إدارة شؤون المناطق الصّعبة وحلّ المشاكل العويصة ممّا جعل الخلفاء، وخاصة عليّ بن أبي طالب، يستعينون بخدماته، وهي الميزات التي جعلت معاوية يحرص منذ تولّيه الخلافة على استمالته وجلبه إلى صفّه للاستفادة من قُدراته رغم معرفته بولائه لعليّ. ولضمان وفاء زياد الدّائم له وللعائلة الأمويّة، قام معاوية بإلحاقه بنسبه، وهو ما مثّل نقطة التحوّل في علاقته بالأمويين.

كانت ولاية البصرة أولى المهام التي أُسندت لزياد. ويبدو أنّ معاوية ولاّه هذا المصر بالذات لاعتبارين اثنين: **أولهما** إلمامه بكلّ التّفاصيل عن أحوال البصرة الداخلية: القبليّة والاجتماعية. . ، **وثانيهما** حالة الفوضى والتسيّب التي كانت تسود هذا المصر بعد خروج ابن عامر منه والتي تستوجب والياً حازماً وقادراً على إعادة الأمور إلى نصابها.

ألقى زياد عند وصوله إلى البصرة خطبته الشهيرة «البتراء» التي تهدّد فيها سكّان المصر وتوعّدهم ورماهم بشتّى الأوصاف والنّعوت، كما قدّم فيها الخطوط العريضة لسياسته والإجراءات التي سيقوم بها لإصلاح الأوضاع. ولعلّ أبرز ما جاء في هذه الخطبة هو موقفه من المعارضين للسّلطة، فقد قال في هذا الإطار: «من كان محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته. إنّي لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتّى يبدي لي صفحته ويُبادي بمعصيته، فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا عليّ أنفسكم»[(1)] وشرع زياد بعد هذه الخطبة مباشرة في تطبيق سياسته، فجنّد لذلك الشُّرَط وعددهم أربعة آلاف شخص[(2)]، وفرقة عسكريّة كوّنها بنفسه تضمّ خمسمائة نفر وهم الحرس. ويذكر بعض الرّواة أنّ زياداً كان أوّل من اتّخذ الحرس في الإسلام[(3)].

وأمكن لزياد في فترة وجيزة الحدّ من حالة التسيّب التي كانت تسود البصرة قبل قدومه، إلاّ أنّه أظهر في تطبيق سياسته صرامةً كبيرة وتعسّفاً شديداً لم يعرف المسلمون مثيلاً له في السّابق. ويبدو أنّ عنف زياد هو الذي كان وراء خروج أوّل مجموعة من الحروريّة بقيادة سهم بن غالب الهجيمي والخطيم الباهلي، وهما اللّذان ثارا في ولاية ابن عامر وتحصّلا على الأمان. لكن لمّا «وُلّيَ زياد خافا أن لا ينفّذ لهما أمان ابن عامر فخرجا عليه»[(4)]. وتتالت بعد ذلك تحرّكات الخوارج إلى حدود سنة ٥٢هـ، واضطرّ زياد إلى

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٢٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٩٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٢٢.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٢٢١؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٢٤.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٣.

التصدّي لها ومواجهتها بأساليب عديدة سنحاول من خلال تتبّعها التّعرف على مميّزات سياسة حكّام الدّولة الإسلامية الجُدد ونتائجها بالنسبة للدّولة. كما سنخصّص القسم الأخير من هذا الفصل لدراسة تأثير هذه السّياسة على الحركة.

كان أوّل تحرّك كما ذكرنا سابقاً بزعامة سهم بن غالب الهجيمي والخطيم الباهلي، وقد أخمده زيادٌ وأنزل بالقائمين به أحكاماً تراوحت بين القتل والنفي والإقامة الجبرية[١]. إلاّ أنّ زياداً لم يستغل هذا التحرّك للانتقام من بقيّة الخوارج الموجودين في البصرة، وظلّ وفيّاً لما التزم به في خطبته، مُعتبراً أنّ عدم خروجهم عليه يكفي لضمان أمنهم.

ولم يكتفِ زياد بمهادنة الحروريّة، بل حاول جلب بعضهم إلى صفّه، إذ كان يبعث إلى الرجل من قعد الخوارج فيعطيه ويكسوه ويقول له: «ما أراه منعك من إتياننا إلاّ الخلّة والرّجلة»[٢]. ويذكر المبرّد أنّ الأمر وصل به إلى حدّ استعمال أحدهم على جند سابور ومنحه أربعة آلاف في كلّ شهر[٣]. ويبدو أنّ الخبرة التي اكتسبها زياد أثناء إدارته شؤون بلاد فارس وما يذكره الرّواة عن تأثره بسيرة ملوك الفرس يُفسّران تقلّبه بين القوة واللّين خصوصاً في الأشهر الأولى من ولايته.

لكن تواصل التّحرّكات وتعمّد بعض الخوارج استعراض المسلمين وقتلهم دفعا زياداً إلى تصعيد العنف واستعمال كلّ أصناف العقوبات ضدّهم. وكانت انتفاضة قريب بن مرّة وزحّاف الطائي التي اندلعت سنة ٥٠هـ بداية القمع المركّز ضدّ الخوارج، إذ يذكر الطبري «أنّ زياداً اشتدّ في أمر الحروريّة بعد قريب وزحّاف وأمر سمرة عامله على البصرة بذلك فقتل سمرة منهم بشراً كثيراً»[٤]، ولم يكتفِ زياد في تصدّيه للخوارج باستعمال جهاز القمع من شُرَطٍ وحرسٍ، بل جنّد كذلك القبائل واعتبرها طرفاً في القضاء على انتفاضات المعارضين. وقد دفعت تهديداته المتكرّرة القبائل إلى لعب دور هام في كشف الخوارج ومنع تحرّكاتهم، إذ صارت كلّما «أحسّت بخارجة فيهم شدّتهم وثاقاً وأتت بهم زياداً أو قتلتهم»[٥].

وبرز أثناء عمليات قمع الخوارج عنفٌ شديد لم يسبق أن استعمله الولاة. فقد كان زياد لا يتردّد في قتل كلّ من يحدث شغباً في المصر. وتذكر المصادر في هذا السّياق أنّه قتل من الخوارج بشراً كثيراً، وأنّ سمرة بن جندب نائبه على البصرة قتل في ظرف ستّة

(١) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٧٣.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٤؛ المبرّد، الكامل، ص ٩٣.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ٩٣.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٣٨؛ تاريخ خليفة بن خيّاط، ج ١، ص ٢١٠.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ٧٩.

أشهر ثمانية آلاف شخص[1]. ورغم شكّنا في صحّة هذا العدد لضخامته، فإنّنا لا نستبعد أن يكون عدد ضحايا هذا العامل كبيراً لأنّه لم يكتف بوسائل القمع المعروفة بل أقام بالإضافة إلى ذلك نوعاً من محاكم التّفتيش «كان يجمع فيها النّاس بين يديه فيقول للرّجل: ما دينك؟ فيقول؛ أشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وإنّي بريء من الحروريّة، فيتقدّم فيضرب عنقه»[2]، وهو ما قد يكون أدّى إلى سقوط ضحايا أبرياء لا صلة لهم بالخوارج. ويعود عنف سمرة بن جندب وقتله العشوائي للخوارج إلى تزايد تحرّكاتهم عند انتقال زياد إلى الكوفة، وهو ما يؤكّد أنّ تدعيم السّلطة بفرق قمع جديدة لم يكن كافياً لمنع المعارضين من التحرّك، وأنّ حضور الوالي كان بعد أمراً ضروريًا، الأمر الذي يفسّر قُدوم زياد إلى البصرة إثر كل تحرّك خارجي.

وبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثّل بالمقتولين فيصلبهم في الأماكن العامة أو في دُورهم، وقد شمل التّمثيل الخارجين من الرجال والنّساء. فقد أُتي لزياد بامرأة من الخوارج «فصلبها وعرّاها وقال أيّما امرأة خرجت فعلت بها مثل هذه، فكفّت النساء عن الخروج خوفاً من أن يُعرّين»[3]. ورغم أنّ التّمثيل يُعدّ من الأعمال البشعة التي نهى الرّسول عن القيام بها حتّى مع الكفّار، فإنّ زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساء ليروّع بقيّة السّكان ويُلزمهم الهدوء.

ولم تقتصر عقوبات زياد على الخارجين عليه بل امتدّت لتشمل أهلهم وذويهم الذين تفنّن في معاقبتهم، إذ سجن بعضهم وسيّر البعض الآخر، ووصل به الأمر إلى حدّ منح بعض المسلمين المشاركين في قمع الخوارج نساء بعض الخارجين عليه[4]، وهو ما لم يقمْ به أحد قبله، ويمثّل تجاوزاً للقيم والقوانين التي يقوم عليها المجتمع العربي الإسلامي.

ولم تكن العقوبات المسلّطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتّمثيل والتّسيير والإقامة الجبريّة، بل شملت كذلك العطاء. وقد تجاوز زياد في هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلاّت الدّيوان[5]، وحرمهم بذلك من مورد رزقهم الأساسي. كما استعمل العطاء وسيلة للضّغط على القبائل، إذ كان يهدّدها باستمرار بحرمانها من هذا المورد إنْ لم تتصدّ للخارجين من أبنائها[6].

إجمالاً يمكن القول إن تحوّلاً قد طرأ على أسلوب الحكم في الدّولة الإسلامية نتيجة

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٩٢، البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٢١١.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٩٢، البلاذري أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٢١١.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٧.
(٤) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٧٦.
(٥) نقله محمد عبد الحيّ شعبان، في: صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ٩٩.
(٦) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٣٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٦.

الإجراءات التي اتّخذها زياد بن أبي سفيان. فقد جعل هذا الوالي من محاربة الخارجين عليه شغله الشّاغل وسخّر لذلك الشّرط والحرس والجيش، فاكتسب نفوذاً واسعاً لم يكن من سبقه من ولاة أو خلفاء يتمتّعون به. كما أنّ إصراره على اعتبار كلّ معارضة علنيّة بمثابة جريمة جعلته يتخلّص من القيود التي كان يفرضها الشّرع على أسلافه وتحول دون معاقبة المعارضين لهم. ولا يُمكن في هذا الإطار مشاطرة فلهوزن قوله إنّ زياداً لم يفعل سوى ما يقتضيه منصبه وما يفرضه عليه القرآن[1]، لأنّ المعارضة لا تعدّ من الجرائم الشرعيّة، وقد سبق أن بيّنا إلى أيّ مدى كانت العقوبات التي سلّطها عثمان بن عفّان على معارضيه مثيرة للرأي العام رغم أنّها طفيفة.

لقد أقحم زياد بأعماله المختلفة العنف في سياسة الدّولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أنّ مصلحتها تقتضي استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها. أمّا البقية فقد هادنهم وحاول جلب بعضهم إلى حظيرة الدّولة لتجنّب خروجهم عليه.

وقد أدّت سياسة زيادة إلى إخماد تحرّكات الخوارج[2]، وفرضت هيبة الدّولة على الجميع، وحوّلت القبائل إلى طرف له دور في سياستها ومنحتها مهمّة توفير الأمن داخل المصر بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الديّة والتأطير العسكري. إلاّ أنّها أضعفت التّضامن القبلي وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السُّلطة وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحياناً.

ولئن نجح زياد في إخماد تحرّكات المعارضين وزرع الرّعب في نفوس بقيّة سكان العراق وتحويلهم من مقاتلة يتمتّعون بقدر كبير من الحرّية إلى رعيّة خاضعة كليّاً لأجهزة الدّولة، فقد فشل في خنق إرادة الخروج لدى قسمٍ كبيرٍ من الحروريّة، وهو ما يفسّر عودة الانتفاضات في ولاية ابنه عُبيد الله.

*** عُبيد الله بن زياد يصعّد القمع ضدّ الخوارج:**

لم يستأنف الخوارج نشاطهم مباشرة إثر موت زياد وتولّي ابنه عُبيد الله ولاية البصرة، بل تواصلت فترة الهدوء التي بدأت سنة ٥٢هـ إلى حدود سنة ٥٨هـ، حيث ستنطلق الانتفاضات الخارجيّة من جديد وستكون أكثر حدّة وعنفاً.

كان أوّل إجراء اتّخذه عبيد الله بن زياد لمّا ولاّه معاوية البصرة سنة ٥٥هـ إطلاق سراح من كان من الحروريّة في حبس زياد[3]. والظاهر أنّه أراد بهذا العمل التقرّب من

---

(١) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٦٠.

(٢) كان آخر تحرّك قام به الخوارج في البصرة في ولاية زياد سنة ٥٢هـ. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٧.

(٣) المبرّد، الكامل، ص ٩٢.

الخوارج واستمالتهم أو على الأقل إظهار نفسه بمظهر المتسامح المحبّ للعافية والألفة ليتجنّب ثوراتهم.

وأعقبت هذه الإجراءات بالفعل فترة من الهدوء لم يقصد الخوارج من ورائها الاعتراف لابن زياد بالجميل للخدمة التي قدّمها إليهم وإنّما لأسباب أخرى لعلّ من أهمّها حالة التشتّت التي صار عليها أنصار الحركة بعد العقوبات التي سُلطت على الخارجين منهم وسلسلة الإجراءات القمعيّة الّتي اتّخذها زياد لمراقبة تحرّكاتهم. إلاّ أنّ غياب النشاط العلني لم يمنع بعض العناصر الخارجيّة من القيام بنشاط سرّي تمثّل في عقد بعض الاجتماعات.

يذكر البلاذري عن هذا النّشاط رواية يقول فيها «إنّ قوماً من الخوارج كانوا يجتمعون إلى جدار يتحدّثون عنده ويعيبون السّلطان»[1]. ولئن لا تعطي الرّواية تفاصيل عن فحوى الاجتماعات وما كان يدور فيها من نقاشات، فإنّ الإشارة إلى ذمّ السّلطان تكفي للدّلالة على أنّها كانت تُعقد لتدارس الأوضاع في البصرة وفي الدّولة الإسلامية وتقييمها.

علم ابن زياد بهذه الاجتماعات، فقام باعتقال منظّميها وألقى بهم في السّجن، ثم عرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ليخلّي سبيل القاتلين[2]، ويتخلّص من بعض العناصر النّشيطة ويُحدث خلافات داخل الحركة. غير أنّ تأثير الحادثة كان عكسيًّا، فقد استاء الخوارج من هذا العمل الشنيع، وقرّرت العناصر التي تولّت قتل أصحابها التحرّك ضدّ ابن زياد للتكفير عن الذنب الذي ارتكبوه في حقّ اخوانهم.

وانطلقت إثر هذه العمليّة تحرّكات الخوارج وتواصلت طيلة الفترة المتبقيّة من ولاية ابن زياد[3]، ولئن اتّخذ أغلبها شكل عمليات استشهاديّة جمعت عدداً قليلاً من الخوارج واستهدفت في أغلب الأحيان أشخاصاً معروفين بولائهم للسّلطة وعدائهم للخوارج[4]، فقد اكتسى بعضها أهميّة كبيرة مثل تحرّك أبي بلال مرداس بن أديّة الذي يُعتبر من أهمّ الأحداث في تلك الفترة وفي تاريخ الخوارج عامة. وتعود أهميّته إلى قيمة قائده وما كان يتحلّى به من مثاليّةٍ وتعلّقٍ بقيم الإسلام ومبادئه والتزام بها في تعامله مع بقية المسلمين، ورفضه الشديد للعنف الصادر عن الدولة وعن الخوارج كذلك. كما قد تعود إلى الطريقة الشّنيعة الّتي تمّ بها قمع هذا التحرّك، فقد قُتل أبو بلال وأصحابه غدراً أثناء الصّلاة[5]، وهو ما استنكره

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/ ١، ص ١٧٨.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/ ١، ص ١٧٨.

(٣) ينقل البلاذري مجمل هذه التحرّكات ويعطي بعض التفاصيل عنها: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/ ١، ص ١٧٨ ـ ١٨٦، ٣٨٦ ـ ٣٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤/ ١، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(٥) انظر تفاصيل ثورة أبي بلال في: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣١٤ وما بعدها؛ وفي: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/ ١، ص ١٨٠؛ وفي: المبرِّد، الكامل، ص ٨٢ ـ ٨٩.

المسلمون وأثّر على الضّمائر وكان له صدى واسع داخل الحركة وخارجها في تلك الفترة وبعدها. ويبدو ذلك واضحاً من خلال الأدب الخارجي الذي صوّرت قصائد عديدة منه عمق هذه المأساة وتأثيرها المعنوي على أنصار الحركة. ولعلّ أبلغ ما قيل في هذا الموضوع أبيات لعمران بن حطان أحد شعراء الخوارج الكبار يقول فيها:

يا عَيْنُ بَكّي لِمرداسٍ ومصرعِهِ   يَا رَبّ مِرداس اجعلني كمِرْدَاس
تركتني هائِماً أبكي لمرزئتي   في منزِلٍ مُوحِش بعد إينَاس
أنكَرتُ بَعْدَكَ من قَدْ كنت أعرفه   ما النّاس بَعدَك يا مِردَاس بالنّاس[1]

وقد عظّم مؤرّخو الخوارج كثيراً أبا بلال ورفعوا من شأنه ومجّدوا ما قام من أعمال، وأضفوا على بعضها صبغة من التّقديس رغم أنّه لم يبرز كزعيم خارجي إلاّ في أواخر ولاية زياد، ولم يرتبط بروزه بأعمال قام بها في سبيل الحركة بقدر ارتباطها بموافقة الرّافضة للعنف. وقد تبنّت العديد من التيارات الخارجيّة في الفترة اللاّحقة أبا بلال وجعلته إمامها الأوّل.

ولم يكن أبو بلال ورفاقه وحدهم ضحايا بطش ابن زياد، بل كان عدد ضحاياه من الخوارج كبيراً ارتفع أكثر بعد هذه الانتفاضة بالذات لأنّه تجرّد بعدها مباشرة «لاستئصال الخوارج وهلاكهم»[2].

وقد تجاوز عُبيد الله بن زياد والده في قمع الخوارج بفرضه العقوبات على الجميع المعلن والمسرّ على حدّ السّواء. وإذا كان القتل هو عقوبته المفضّلة، فقد كان يعمد أحياناً إلى سجن البعض منهم حتى إنّه جمع في حبسه أربعة آلاف خارجي على حدّ قول الهيثم بن عديّ[3]. كما كان يسمح أحياناً أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر مع فرض الإقامة الجبريّة عليهم وتكليف من يقوم بعمليّة المراقبة التي كانت غالباً ما تنتهي بقتلهم صبراً لمخالفتهم الأوامر. ولعلّ أبرز من قُتل على هذا النّحو عروة بن أدية أخو أبي بلال، وخالد بن عبّاد السّدوسي، وكانا من مجتهدي الخوارج ونسّاكهم[4]. وقد بلغ الأمر بابن زياد حدّ قتل مسلم تكفّل بأحد الخوارج لمّا فرّ الخارجي من المصر[5].

ولم يكن ابن زياد ينتظر خروج الحروريّة عليه بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما في ذلك تشجيع السّكان بالمال لتتبّع تحرّكات أبناء قبائلهم ونقلها اليه أو إلى

(١) المبرّد، الكامل، ص ٨٨.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٢٤.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٩٣.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ٩٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٨٧.
(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٨٧.

أعوانه. وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممّن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشتبه فيه ذلك، لكنّها فسحت في الوقت نفسه المجال أمام الوشاية وتلفيق التّهم بالباطل[1]، فأحيت بذلك الحزازات القَبَلية القديمة وخلقت خلافات جديدة بين القبائل.

ولم يكتفِ ابن زياد بالقتل كعقاب بل كان يمثّل بالمقتولين. والرّوايات الّتي تتحدّث عن بشاعة ما كان يقوم به كثيرة، لعل أهمّها تلك الّتي تصف مقتل البلجاء (أو البشجاء)، وهي إحدى مجتهدات الخوارج التي قام ابن زياد بقطع يديها ورجليها ورمى بها في السّوق[2].

كما أقحم عُبيد الله بدوره القبائل البصريّة في عملية قمع الخوارج ودعّم دورها بحيث صار من واجبها قتل من يخرج من أبنائها.

كانت هذه، بصورة إجمالية، مختلف الأساليب التي توخّاها ابن زياد في مواجهة الخوارج، ويتأكّد من خلالها أنّ هذا الوالي قد واصل استخدام العنف ضدّ المعارضين لتوطيد سلطة الدّولة، لكنّ عنفه تجاوز الخارجين عليه ليشمل كل المعارضين والمشتبه فيهم.

وقد كان هدف ابن زياد من خلال هذه السّياسة «الوقائية» خنق كل نفسٍ معارضة ومنع تسرّب الأفكار المعادية للدّولة في أوساط المسلمين لضمان الهدوء التّام والدّائم. وقد نجح هذا الوالي في السّيطرة على الوضع في العراق وفي البصرة خاصّة، لكن سياسته أثّرت على الوضع داخل الحركة وساهمت في رسم ملامحها التي ستبرز مع اندلاع الفتنة الثانية.

٢ ـ تأثير السّياسة الأموية على الحركة الخارجية:

أ ـ التأثير على المستوى الجغرافي:

تتمثّل أولى التّغييرات على هذا الصعيد في توقّف نشاط الحركة نهائيًا في الكوفة، بعد أن كان هذا المصر مركزها الأساسي ومكان انطلاق أغلب تحرّكاتها في خلافة عليّ. فالحركة كوفيّة المنشأ، ومن هذا المصر تنحدر الأغلبية السّاحقة من مؤسّسيها، كما تدلّ على ذلك الرّوايات، إذ من جملة خمس وخمسين شخصاً أمكن التّعرف على أمصارهم ينتمي ستة وأربعون إلى الكوفة وحدها وثمانية إلى البصرة وواحد إلى مصر، وهو ما يجعل نسبة المشاركة الكوفيّة تصل إلى حوالى ٨٥٪.

كما تبدو السّيطرة الكوفيّة على الحركة واضحة أيضاً من خلال الرّوايات التي تعطي أرقاماً للخوارج المشاركين في تحرّكات الفترة الفاصلة بين سنتي ٣٨هـ و٤٣هـ، إذ إنّ عدد

(١) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٧٨، ٣٩١.
(٢) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٨١؛ المبرّد، الكامل، ص ٨١.

الّذين انضمّوا إلى الحركة لا يقلّ عن ثمانية آلاف شخص[1]، منهم خمسمائة فقط من البصرة.

وقد تغيّرت الأوضاع بعد انتقال السّلطة إلى بني أميّة، فقد كان تصدّي الدّولة لتحرّكات الخوارج في الكوفة واستعمال المغيرة بن شعبة رجال القبائل وخاصة الشيعة لتصفية الحركة سبباً في إضعافها وانحصارها ثمّ توقف نشاطها نهائيًا. لكن ذلك لا يعني القضاء على كلّ أنصار الحركة في هذا المصر حيث يُلاحظ المتتبّع لتحرّكات الخوارج وعدد المشاركين فيها أنّ الذين قُتلوا في خلافة عليّ وبداية خلافة معاوية أقلّ بكثير من العدد المذكور سابقاً، وهو ما يقودنا إلى التّساؤل عن مصير بقيّة خوارج هذا المصر.

لا توجد في المصادر أيّة إشارة إلى انتقال خوارج الكوفة إلى البصرة ولا إلى وجود علاقات بين أنصار الحركة في المصرين، كما لا يوجد في الروايات ما يدلّ على مغادرة الخوارج الكوفة إلى مناطق أخرى. ولذلك فإنّنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ الحاملين للفكر الخارجي أو المتعاطفين معه قد فضّلوا اللّجوء إلى الهدوء وعدم القيام بأيّ عمل علنيّ من شأنه أن يجلب لهم عقوبات الوالي كما قد يكون بعضهم انتقل إلى خارج المصر. ومع توقّف نشاط الحركة في الكوفة تحرّك خوارج البصرة الذين ارتفع عددهم على امتداد فترة حكم زياد وابنه عُبيد الله، حتّى إنّ بعض الرّواة يتحدّثون عن مقتل ثلاثة عشر ألفاً وحبس أربعة آلاف[2].

وتدلّ هذه الأرقام رغم شكّنا في صحّتها على أنّ الحركة كانت لها بعض الجاذبيّة في البصرة، وهو ما تؤكّده الأحداث التي وقعت والتحرّكات العديدة الّتي شهدها المصر في تلك الفترة. كما يعدّ وجود مسجد للحروريّة[3] دليلاً آخر على ارتفاع عدد أنصار الحركة فيه. إلاّ أنّ ارتفاع عدد المنضمّين إلى الحركة لا نجد ما يؤيّده إذا اقتصرنا على الأسماء المذكورة في الرّوايات. فالبصريون الذين يرد ذكرهم في المصادر لا يتجاوز عددهم واحداً وأربعين نفراً. وهو عدد ضعيف إذا ما قارنّاه بالأرقام الضّخمة الواردة في الرّوايات المذكورة سابقاً. وقد يكون اهمال الرّواة ذكر أسماء كلّ العناصر الخارجيّة التي نشطت في البصرة أحد أسباب هذا الاختلاف. كما قد يكون تعدّد تحرّكات الخوارج وارتفاع عدد ضحاياهم

(١) يذكر البلاذري في إحدى رواياته أنّه «كان بالكوفة بعد النّهروان ثلاثة آلاف من الخوارج وألف في عسكر عليّ ممّن فارق ابن وهب وجاء إلى راية أبي أيوب»، هذا بالإضافة إلى عدد المشاركين في معركة النّهروان وهو ألفان وثمانمائة وعدد المنسحبين منها إلى مناطق أخرى. كما يذكر المبرّد أرقاماً مشابهة للتي يذكرها البلاذري، انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨٥؛ المبرّد، الكامل، ص ٢٨.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٢٤.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩٣.

هو الذي جعل الرّواة يضخّمون عددهم.

وعموماً، فإنّ عدد أفراد الحركة لم يكن مرتفعاً كما يذكر الرّواة. والأرجح أنّه لم يتجاوز في البصرة بضع مئات. الاّ أنّ هذا العدد كان - رغم محدوديته - يتجدّد باستمرار بانضمام عناصر جديدة إلى الحركة، ولذلك لم يكن قتل العناصر الثائرة يُحدث فراغاً في صفوف الخوارج أو يعيقهم عن مواصلة تحرّكاتهم، وهو ما جعل الرّواة يضخّمون عددهم، كما ذكرنا.

أمّا سبب انتشار الفكر الخارجي في البصرة خلال الحكم الأموي فقد فسّره أحد الباحثين بالفراغ العقائدي في تلك الفترة، إذ لا وجود في هذا المصر لعقيدة سائدة تقف في مواجهة الخوارج كما هو الحال في الكوفة[1]. ويمكن أن نضيف أنّ عدم اقتصار الدّعاية الخارجيّة على مسألة التّحكيم كما كانت في السّابق واهتمامها بمختلف المسائل الّتي تشغل بال المسلمين في تلك الفترة مثل «ظلم الحكام الأمويين» «وأكلهم الفيء» و«تعطيلهم الحدود» قد لعبت دوراً في انتشار هذا الفكر وانضمام بعض السّكان إلى صفوف هذه الحركة المعارضة.

ب - التأثير على المستوى القبلي والاجتماعي:

ضمّت الحركة في البداية عناصر تنتمي إلى قبائل مختلفة مع تفوّق واضح في عدد التّميميين والطّائيين إذْ من جملة سبعة وخمسين شخصاً أمكن التعرّف على انتمائهم القبلي نجد تسعة عشرة من تميم وتسعة من طيء. أمّا بكر بن وائل التي يعتبرها الرّواة المموّل الرئيسي للحركة الخارجيّة فلم نجد من أبنائها سوى ستّة عناصر.

ولا يمكن تفسير هذه المشاركة المكثّفة لأبناء بعض القبائل مثل تميم وطيء الاّ بالرجوع إلى تاريخ هذه القبائل، وخصوصاً إلى دورها في الفتوحات ودور العناصر الخارجية ومكانتها في صلب هذه القبائل.

يظهر من خلال دراسة تاريخ هذه القبائل أنّها لعبت دوراً هاماً في الفتوحات، إذ شارك العديد من عشائرها في العمليات العسكريّة الأولى التي مهّدت الطريق لفتح العراق، كما ساهمت في معارك الفتح الهامة مثل القادسيّة[2]. وتؤكّد بعض الإشارات مشاركة عناصر من المؤسّسين للحركة في الفتوحات الأولى.

أمّا إذا اعتبرنا مكانة هذه العناصر داخل قبائلها، فإنّنا نتبيّن أنّ الأغلبيّة السّاحقة منها لا تتمتّع بمكانة مرموقة. وحتّى الأقليّة الّتي يظهر من خلال بعض الإشارات أنّ لها مكانة متميّزة فالواضح أنّها لا تتجاوز دائرة العشيرة مثل حرقوص بن زهير السّعدي، ومن هنا يمكن القول إنّ افتقاد هذه العناصر للشّرف القَبَلي وعدم حصولها على مكانة تتماشى مع

(١) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص٣٤٣ - ٣٤٤، ٣٤٧ - ٣٤٨، ٣٥٤، ٤٨٦، ٥٠٢ - ٥٠٣.

دورها في الفتوحات قد يكون أحد الأسباب الرئيسية لمعارضتها للدولة. ويثبت تتبّع الانتماء القبلي للخوارج المشاركة المكثّفة لبعض العشائر دون الأخرى مثل تيم الرّباب الّتي شارك من أبنائها ثمانية من جملة تسعة عشر تميميًّا وسنبس التي ينتمي إليها الطّائيون.

شهدت هذه التّركيبة القبلية تغيّراً طفيفاً مع بداية الحكم الأموي، إذ صار الخوارج المنضمّون إلى الحركة في البصرة ينتمون أساساً إلى بكر بن وائل وتميم التي أصبحت تحتلّ المرتبة الثانية. فمن جملة ثلاثة وثلاثين خارجيًّا أمكن تحديد انتمائهم القَبَلي، هناك أحد عشر من بكر بن وائل وتسعة من تميم وخمسة من الأزد، أمّا البقيّة فمن عبد القيس وباهلة وغيرها، ولا ينتمي إلى طيء سوى زحّاف بن زحر الطائي.

وبالإضافة إلى الأسماء المذكورة، نجد أرقاماً جمليّة عن عدد الخوارج في بعض القبائل، من ذلك ما تذكره الرّواية التي تتحدّث عن تحرّك طوّاف بن علاّق الذي شارك فيه سبعون نفراً من عبد القيس[1]. وتدفعنا هذه الرّوايات إلى التساؤل عن الأسباب التي شجّعت أبناء هذه القبائل على الالتحاق بصفوف الحركة الخارجيّة.

لا تنطبق الأسباب المذكورة سابقاً لتفسير انضمام بعض الكوفيين إلى الحركة على خوارج البصرة لسببين اثنين: **أولهما** الاختلاف الكبير بين المِصْرَيْن: فالبصرة على خلاف الكوفة لم تعرف استقرار عدد كبير من أبناء القبائل التي شاركت في الغزوات الأولى، لذلك ينتمي أغلب سكّانها إلى قبائل لم يقم أبناؤها بدور نشيط في حروب الردّة، ولعلّ بعضهم لم يعتنق الاسلام قبل نهاية هذه الحروب[2]. وبالتّالي، فإن مشكل السّابقة في الفتوح لا يُطرح في هذا المصر بالحدّة نفسها الّتي يُطرح بها في الكوفة.

وثاني هذه الأسباب هو أنّ أغلب خوارج البصرة الذين تذكر المصادر أسماءهم هم من الجيل الثاني انضموا إلى الحركة بعد ظهورها وخاصةً في خلافة بني أمية، ولذلك تختلف أوضاعهم عن أوضاع رفاقهم المؤسّسين للحركة وتختلف بالتالي دوافع انضمامهم إليها. أمّا البحث عن الأسباب المفسّرة للمشاركة المكثفة لأبناء بكر بن وائل وتميم في الحركة فيتطلب دراسة وضعية هاتين القبيلتين في البصرة.

تعدّ قبيلتا تميم وبكر بن وائل من القبائل الكبرى التي تتمتّع بوضع متميّز في البصرة بسبب وزنهما العددي وقدم استقرارهما في هذا المصر وخصوصاً دورهما في فتح العراق وتأسيس البصرة[3]، الاّ أنّ تتبّع تاريخ هاتين القبيلتين، وخصوصاً قبيلة تميم ودراسة وضعية عشائرها في البصرة ومواقفها خلال تلك الفترة، يبرز أنّ هذه القبيلة لم تكن كتلة متماسكة إذْ

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٨.

(٢) محمد عبد الحيّ شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ٦٤.

(٣) CASKEL (W), «Bakr b. Wail», In: *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, Paris, 1960, T. I, p. 994.

كانت عشائرها منقسمة على نفسها، وهو ما تجلّى بوضوح إبّان معركة الجمل وبعدها[1].

ولئن ساندت تميم البصرة ـ رغم انقسامها ـ الحكم الأموي ووقفت إلى جانبه، فإنّ العديد من أبنائها انضمّوا إلى الحركة الخارجيّة التي استمدّت منها العديد من أنصارها والأغلبية السّاحقة من قادتها. ومن هنا يصعب التّمييز بين المؤيّدين والمعارضين من أبناء القبيلة الواحدة، كما يصعب تحديد الدوافع بالنّسبة إلى الطرفين، وبالتالي يتعذر علينا تقديم تفسير مقنع وصحيح إلاّ إذا عرفنا بدقّة الانتماء القبلي والعشائري للخوارج ووضعية مختلف عشائر هذه القبائل وبطونها وعلاقتها ببعضها البعض وبالسّلطة، وهو ما يصعب التّوصّل اليه انطلاقاً من المادّة المتوافرة في المصادر.

إلاّ أنّه يُمكن مع ذلك القول إنّ عوامل عديدة تفسّر مواقف مختلف الأطراف داخل كلّ قبيلة منها أساساً المصلحة الخاصة والعصبيّة القبليّة. فرؤساء القبائل الذين قرّبتهم الدّولة وأغدقت عليهم الأموال ومختلف الامتيازات لكسب ولائهم وتأييد قبائلهم كانوا في أغلب الأحيان إلى جانب الدّولة، في حين انضمّت العناصر المتضرّرة من هذا الوضع وغير المؤطّرة قبليًا إلى الحركة الخارجيّة. ويبدو هذا الانقسام واضحاً داخل قبيلة تميم التي كوّن منها ابن زياد جيشاً لقمع ثورة أبي بلال مرداس التي كانت تضمّ بدورها العديد من التّميميين، منهم أبو بلال نفسه، وقد وقف أبناء تميم هذا الموقف مرات عديدة في خلافة بني أميّة.[2] أمّا عن سبب غياب أبناء بعض القبائل عن الحركة في البصرة فيعود إلى ضعف عددها أو إلى عدم وجودها في هذا المصر مثل قبيلة طيء[3].

هذا وتغيّرت تركيبة الحركة الخارجيّة في بداية الحكم الأموي كذلك بدخول المرأة ميدان النضال السّياسي والعسكري، وقد كان أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب هو أوّل من أخرج النّساء معه[4] ورغم انتقاد أبي بلال مرداس بن أديّة لعملية إشراك المرأة في القتال[5]، فإنّ نساء الخوارج واصلن نشاطهنّ داخل الحركة. وإذا كانت المصادر لا تذكر سوى أسماء قليلة لنساء نشطن في الفترة الأولى من الخلافة الأمويّة، فذلك قد يعود إلى ما قام به زياد بن أبي سفيان تجاه أوّل امرأة خرجت عليه، فقد قتلها وصلبها وعرّاها، وقال

---

(١) عبد الجبار العبيدي، «قبيلة تميم بين الجاهلية والإسلام»، حوليات كليّة الآداب، الكويت، الحوليّة ٦٧، سنة ١٩٨٦، ص ٥٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٣) انظر عشائر البصرة في كتاب صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، في القرن الأول هجري، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣١١ وما بعدها.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٧.

أيّتها امرأة خرجتْ فعلتُ بها مثل هذه فكفّتْ النّساء عن الخروج خوفاً من أن يعرّين[١].

ولئن حدّ هذا الإجراء من خروج النّساء في فترة ولاية زياد، فإنّه لم يؤدّ إلى ابتعادهن كليًّا عن الحركة، فقد واصلت العديد منهن النشاط الذي صار سياسيًّا ودعائيًّا أكثر منه عسكريًّا. وتبرز من بين نساء البصرة البلجاء التي كانت «تحرّض على ابن زياد وتذكر تجبّره وسوء سيرته وفعله»[٢].

ولم يمنع ركون أغلب نساء الخوارج إلى الهدوء بسبب القمع الشديد المسلّط على المسلمين من مشاركة بعضهنّ في عمليات التّحكيم والقتل التي كانت تقع من حين إلى آخر في البصرة. وتُعدّ جزعة وزوجها من أبرز الخارجين في تلك الفترة[٣].

ومن ناحية أخرى، تغيّرت تركيبة الحركة بانضمام بعض الموالي إلى صفوفها بعد أن ظلّت إلى حدود النّهروان حكراً على العرب المسلمين من سكّان البصرة والكوفة خاصة. وقد كان دخول الموالي في الحركة في أواخر خلافة عليّ بن أبي طالب وبالتحديد إبّان انتفاضة أبي مريم السّعدي التي جمعت أربعمائة من الموالي. ويدلّ الحوار الذي دار بين مبعوثي عليّ وأصحاب أبي مريم على أنّ اقتناعهم بالمبادىء الخارجيّة وتجاوبهم معها هو الذي دفعهم إلى الالتحاق بصفوف أبي مريم والمشاركة معه في انتفاضته[٤].

وقد تواصلت مشاركة الموالي في تحرّكات الخوارج بعد وصول الأمويين إلى السّلطة بخروج أبي مريم ثمّ أبي ليلى مولى بني الحارث بن كعب الذي كان في ثلاثين من أتباعه كلّهم من موالي الكوفة[٥]، وكانت هي المرّة الأولى التي يُشارك فيها موالي هذا المصر في تحرّكات الخوارج إذْ كان أتباع أبي مريم السّعدي من شهرزور ومن سواد الكوفة. وعموماً سيكون موالي البوادي أسرع في الانضمام إلى الحركة من أصحابهم المستقرّين في الأمصار، وهو ما قد يدلّ على اختلاف أوضاعهم باختلاف مناطق إقامتهم.

أمّا في البصرة فقد كانت مشاركة الموالي وأهل الذمّة ضعيفة، ولا يرد ضمن قائمة المشاركين في التحرّكات سوى إسمين هما: عبد لبني يشكر ومولى لعروة بن أديّة. على أنّ هناك اشارة قد تدلّ على انضمام بعض العناصر من الموالي وأهل الذمّة إلى صفوف الخوارج وتتمثّل في بيت من الشعر رثى فيه صاحبه طوّاف بن علاّق وأصحابه الذين قتلهم عُبيد الله بن زياد يقول فيه:

(١) المبرّد، الكامل، ص ٧٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤/١، ص ١٧٧.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٨٠؛ المبرّد، الكامل، ص ٨١.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.
(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨٦.
(٥) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٦٧.

مَا كَانَ فِي دِينِ طوّافٍ وإخوتِهِ   أهلِ الجدارِ حراثُ القطنِ والعنب[1]

يشير هذا البيت إلى وجود عناصر من أصحاب طوّاف تهتمّ بالفلاحة[2]. والأرجح أن يكون هؤلاء من الموالي باعتبار أنّ العرب المسلمين كانوا يهتمّون أساساً بالفتوحات ولا علاقة لهم بالنشاط الفلاحي. إلاّ أن هذا لا يمنع من القول إنّ الحركة الخارجية ظلت لمدّة طويلة حركة عرب مسلمين لم يدخل فيها من الموالي وأهل الذمّة والعبيد سوى القليل. ويُعزى غياب هذه الفئات الاجتماعيّة بالأساس إلى بقائها طيلة الفترة السّابقة بعيدة عن المشاكل الداخليّة للأمصار الإسلاميّة وذلك لإحكام الفاتحين سيطرتهم على هذه الفئات وحرصهم على إبعادها عن الحياة السياسيّة رغم وزنها العددي[3] ودورها الاقتصادي والاجتماعي. إلاّ أنّ محاولة إقصاء هذه الفئات لم يكن السّبب الوحيد لبقائها بعيداً عن صفوف هذه الحركة الّتي كانت تُنادي بالثّورة ضدّ الظلم ومحاربة السلطان وتدعو إلى المساواة ومعاملة الأجناس الأخرى معاملة حسنة. فالأكيد أنّ أسباباً أخرى تفسّر هذا الوضع، لكنّنا مع ذلك لا نشاطر أحمد أمين قوله إن تعصّب الخوارج البدو لجنسهم واحتقارهم للموالي هو الذي يفسّر بقاء هذه الفئات خارج الحركة[4].

ويجرّنا الاهتمام بالجوانب الاجتماعية للحركة الخارجيّة إلى إلقاء الضوء على علاقتها ببقيّة المسلمين ووضعها داخل المجتمع الإسلامي وما طرأ على هذه العلاقة من تحوّل بعد وصول الأمويين إلى السّلطة واندلاع عنف الدّولة وعنف الخوارج.

يتطلّب الاهتمام بهذه المسألة الرّجوع إلى الفترة السّابقة وبالتّحديد إلى اللّحظة التي أعلن فيها الرّافضون للتّحكيم انعزالهم عن بقيّة المسلمين ورفضهم الإقامة مع المخالفين لهم وتكفيرهم معاوية وأنصاره من الشّاميين. فقد توتّرت بسبب هذه المواقف العلاقة بين المسلمين وهذه الجماعة، وتحوّل التوتّر تدريجيّاً إلى عداء اختلفت درجته من مجموعة إسلاميّة إلى أخرى.

ففي الشّام لم يكن عداء معاوية وأصحابه للحروريّة منفصلاً عن عدائهم للعراقيين عامّة، ولا يظهر من خلال الرّوايات أنّ الشّاميين صاروا بعد التّحكيم يكنّون لهذه المجموعة حقداً خاصًا بسبب تكفيرها لهم ودعوتها العراقيين إلى محاربتهم، وإنْ كنّا لا نشكّ في أن موقفها قد قوّى شعور العداء تجاهها. وقد يعود عدم تعبير الشّاميين عن كرههم لهذه

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٨٠.
(٢) إحسان عبّاس، شعر الخوارج، ص ٥٩.
(٣) بلغ عدد الموالي والعبيد القادرين على القتال في الكوفة ثمانية آلاف شخص في أواخر خلافة عليّ بن أبي طالب: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٩.
(٤) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

الجماعة بالردّ عليها عسكرياً أو فكرياً إلى انشغالهم بالصّراع مع عدوّهم الرئيسي عليّ بن أبي طالب وإلى عدم رغبتهم في القضاء عليها لأنّ بقاءها يُساهم في إضعاف خصمهم ويسهّل التّغلب عليه. ولم يجسّد الحروريّة بدورهم عداءهم للشّاميين عسكرياً إذْ اقتصرت انتفاضاتهم على المجال العراقي الخاضع لسلطة عليّ.

وتغيّر الوضع مع وصول الأمويين إلى السّلطة وحصولهم على بيعة العراقيين، فقد صار الخوارج العدوّ الرئيسي للحكم الجديد. لكن الشّاميين لن يشاركوا في قمع تحركات الخوارج إلاّ مع اندلاع الفتنة الثانية.

أمّا العراقيون فيمكن التّمييز في موقفهم تجاه هذه الحركة بين أصحاب عليّ المقرّبين وبين عامّة العراقيين. فالمجموعة الثانية لم تكن - رغم اختلافها مع الحروريّة في مسألة التّحكيم - تكنّ عداء كبيراً لهم، والأرجح أنّ معركة النّهروان التي سقط فيها عدد كبير من الضحايا قد اكسبت الحركة بعض المتعاطفين معها من داخل العراق. لكنّ تصلّب مواقف الخوارج وتكرّر انتفاضاتهم ثم إقدام عناصر منهم على قتل الخليفة قد يكون خلق لدى العديد من العراقيين شعوراً بالنّقمة تجاه هذه الجماعة لأنّها فرّقتهم وساهمت في خروج السّلطة من بلادهم.

ولم يكن الخوارج بدورهم راضين عن موقف العراقيين المؤيّد للتّحكيم وقد عبّروا عن ذلك برفض الإقامة معهم واعتبروا مصرهم «القرية الظالم أهلها»[1]، ولكنّهم لم يُجمعوا على تكفيرهم مثل الشّاميين ولم يقوموا ضدّهم بأعمال عنف. وباستثناء مقتل ابن الأرت - الذي لم نتمكن من تحديد أسبابه - فإنّه لم تسقط من جرّاء تحرّكات الخوارج في خلافة عليّ سوى العناصر التي حاولت التّصدّي لهم. لكن وصول معاوية إلى السّلطة وتجنّد العديد من العراقيين للدّفاع عن حكمه من خلال المشاركة في قمع تحرّكات الخوارج قد أثار ثائرتهم[2] لأنّه كشف لهم عن مدى انتهازية العراقيين.

أمّا المجموعة العراقية الثانية فتضمّ أصحاب عليّ بن أبي طالب، أي الشّيعة، وعلاقة هؤلاء بالخوارج عدائية منذ البداية. ونظراً لما لهذه العلاقة من أهمية بالنسبة للمجموعتين وللسّلطة الأموية، فإنّ الضرورة تقتضي تتبّعها بدقّة.

يبدأ الحديث عن الشّيعة كمجموعة متميّزة منذ العودة من صفّين ونزول الرّافضين للتّحكيم في حروراء. فكردٌ على هذا الموقف «وثبت الشّيعة فقالوا لعليّ: في أعناقنا بيعة ثانية نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت»[3]. ثمّ كرّروا ذلك مرّة أخرى لمّا خرج

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٣.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٦٦.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٤٨.

الحروريّة من الكوفة وانفصلوا نهائيًا عن عليّ[1]. وضاق بهاتين البيعتين معنى كلمة «الشّيعة» حيث صارت تعني أصحاب علي المقرّبين الّذين ارتبطوا به شخصيًا من دون قيد أو شرط أي أنّها شيعة سياسيّة لا تختلف كثيراً عن شيعة معاوية[2]. كما خلقت البيعتان توتراً شديداً بين المجموعتين خصوصاً وأنّهما جاءتا بمثابة الردّ على موقف الخوارج الرّافض للتّحكيم.

وقد عبّر الشّيعة عن موقفهم المعادي للحرورية بالتنديد بأعمالهم والمشاركة في عمليات قمع انتفاضاتهم. أمّا الخوارج فلئن ندّدوا بدورهم بمواقف الشّيعة وشبّهوا انقيادهم اللاّمشروط لعليّ بانقياد الشّاميين الأعمى لمعاوية[3]، فإنّهم لم يصلوا إلى حدّ الإقرار بكفرهم وكان موقفهم منهم مماثلاً لموقفهم من العراقيين عامّة.

لكن مقتل عليّ بن أبي طالب على يدي أحد الخوارج جعل العداء يستحكم بين المجموعتين. وقد دفع حقد أصحاب عليّ العميق على الحرورية إلى وقوف بعضهم إلى جانب السّلطة الأموية في حروبها ضدّهم رغم كرههم لمعاوية. وقد حاول ولاة بني أميّة وخصوصاً المغيرة بن شعبة استغلال هذا العداء، إذْ يذكر بعض الرّواة أنّه كوّن من الكوفة جيوشاً بأكملها من أصحاب علي[4]. وقد ساعدت العناصر الشّيعية التي تبنّت هذا الموقف الأموي على إضعاف الحركة الخارجيّة في الكوفة.

أمّا الخوارج فلم يوجّهوا أعمالهم العسكريّة ضدّ أصحاب علي رغم عدائهم الشّديد لهم إذ لا يوجد في الرّوايات ما يشير إلى تعرّض مسلمين لعمليات عنف بسبب تشيّعهم، فقد كان الخوارج يحاربون الأمويين وكلّ من يقف معهم بلا تمييز.

لكن وقوف العناصر الشّيعيّة إلى جانب السّلطة الأموية في صراعها ضدّ الخوارج لم يدم طويلاً. إذ مثّلت عملية قتل حجر بن عدي الكندي في خلافة معاوية[5] بداية القطيعة بينهما، وكان أحد مظاهر هذه القطيعة توقّف الشّيعة عن مساعدة الدّولة في حروبها ضدّ الخوارج. فمنذ تلك الفترة لم نعد نجد في الرّوايات ما يفيد مشاركة عناصر معروفة بتشيّعها في عمليات القمع الّتي كانت تستهدف الثائرين من الخوارج[6]. ويبدو أنّ الدّولة تخلّت بدورها عن استعمالهم لفقدانها الثّقة في ولائهم لها.

---

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٧٦.
(٢) فلهوزن، **أحزاب المعارضة**، ص ١١٣.
(٣) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٦٤.
(٤) **المصدر نفسه**، ج ٥، ص ١٨٩.
(٥) انظر التفاصيل الكاملة لتحرّك حجر بن عدي في: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٢٥٦ ـ ٢٧٧.
(٦) توجد إشارة واحدة تخصّ مشاركة بعض أصحاب عليّ إلى جانب المهلب في حروبه ضدّ الخوارج الأزارقة أثناء الفتنة الثانية. انظر: المبرّد، **الكامل**، ص ١٨٤؛ ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٤، ص ١٨٩.

وقد زادت العلاقة بين الشيعة والأمويين سوءاً في خلافة يزيد بن معاوية وتحولت بعد مقتل الحسين في كربلاء سنة ٦١هـ إلى قطيعة تامّة. ورغم أنّ الحركة الشيعيّة قد بدأت بعد هذه الحادثة تتنظّم وزاد عدد أفرادها وصاروا أكثر وعياً بظلم الحكام الأمويين وأكثر حقداً عليهم، فإن علاقتهم بالخوارج لم تتحسّن. والظاهر أنّ أنصار الحركتين لم يفكّروا في إعادة النّظر في مواقفهم السّابقة رغم أنّ ذلك صار أمراً ضروريًا لمواجهة عدوّهما المشترك. ولعلّ غياب المعلومات عن وجود علاقات بين الخوارج والشّيعة دليلٌ على انعدامها. والظّاهر أن انتقال مركز الحركة الخارجيّة إلى البصرة وتمركز الشّيعة في الكوفة قد ساعد على تكريس القطيعة. لكن تتبّع الأحداث اللاّحقة يُؤكّد استمرار العداوة بين المجموعتين، وتحوّل الخلافات السّياسية تدريجيّاً إلى صراع فكري ومذهبي. وإذا كان تتبّع هذا الصّراع والتّعرف على أبرز محاوره غير ممكن في هذه المرحلة من البحث باعتبار أن الفكر الشّيعي لم يكن قد تبلور بعد، فإنّه يمكننا في انتظار ذلك التّعرف على الفكر الخارجي وما طرأ عليه من تطوّر خلال السّنوات الأولى من الحكم الأموي.

ج ـ التأثير على المستوى الفكري والتنظيمي:

جاءت الحركة الخارجيّة منذ ظهورها ـ كما هو معروف ـ مكتسبةً لأبرز ملامحها، ومنها التفاف أتباعها حول جملةٍ من المبادىء والشّعارات هي: «رفض تحكيم الرّجال في أمور المسلمين»، و«الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر»، وضرورة «الخروج من القرية الظالم أهلها». وقد ساعد انسجام الخوارج الفكري والتفافهم حول هذه المبادىء على خلق لحمة على المستوى التّنظيمي، وبدا ذلك واضحاً خلال وقعة النّهروان التي شارك فيها أغلب خوارج الكوفة والبصرة.

ورغم أنّ الخوارج تشتّتوا بعد هذه الوقعة وصارت تحرّكاتهم عشوائية وغير منظّمة دافعها الأساسي الانتقام لضحايا النّهر والتكفير عن الذنب الذي ارتكبه المنسحبون من المعركة، فإنّ المبادىء الخارجيّة ظلّت تجمع المنتمين إلى الحركة آيّاً كان مكان إقامتهم.

ولقد حاول بعض الخوارج بعد انتقال السّلطة إلى بني أميّة تنظيم صفوفهم والقيام بتحرّك مشابه للنّهروان، وهو الّذي تزعّمه حيّان بن ظبيان السّلمي والمستورد بن علّفة التّميمي. ولئن لم ينجح هذا التحرّك عسكريًا، فإنّه كان على المستوى الفكري ثريًّا جدًّا ساهم في بلورة وتنظيم بعض المبادىء والأفكار.

يبدو من خلال خطب الخوارج ونقاشاتهم خلال هذا التحرّك تمسّكهم جميعاً بالمبادىء الأساسية للحركة وخاصّة مبدأ «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر» و«الخروج على الولاة الظلمة»، و«تكفير المخالفين». كما يتّضح تبلور محتوى بعض هذه المبادىء والشّعارات مثل مبدأ «الخروج» الذي صار يعني الثّورة من دون الحاجة إلى الانفصال عن

المصر كما كان يعني في السّابق. وقد جعل حيّان بن ظبيان الخروج أمراً ضروريًّا، واعتبر «القعود» تقاعساً في القيام بالواجب[1]، مساهماً بذلك في إثارة مسألة سيكون لها تأثير كبير على مستقبل الحركة.

كما لم تعد أسباب الخروج مقتصرة على رفض التّحكيم أو الانتقام لضحايا النّهر، بل صارت مرتبطة كذلك بـ«جور الحكّام الأمويين»، و«استئثارهم بالفيء»، و«تعطيلهم الحدود»[2]. وهو ما يؤكد ارتباط الحركة بالواقع السّياسي الجديد وتطوّر شعاراتها بتطوّر الأحداث.

وتبلورت خلال هذا التحرّك كذلك فكرة اختيار القائد. فقد ضبط أصحاب حيّان جملةً من الشروط التي ينبغي أن تتوافر فيه، وهي: التّبصر في الدّين والبصيرة بالحرب والتقدّم في السنّ، متخلّين بذلك عن شروط الانتماء إلى قريش الذي ظلّ إلى حدود تلك الفترة الشرط الأساس في اختيار الخلفاء.

ولا يعود تخلّي الخوارج عن هذا الشّرط إلى عدم وجود عناصر من هذه القبيلة في صفوف الحركة وإنّما إلى موقفهم المعادي لقريش والذي ظهر منذ الثّورة ضدّ عثمان وكان أحد أهمّ أسبابها. وقد تمسّك به الخوارج حتّى صاروا يتميّزون به عن سائر المسلمين. وعموماً، لم يولِ الخوارج أهميّة للانتماء القَبَلي واعتبروا أنّ كلّ من تتوافر فيه الشروط المذكورة سابقاً وتتّفق الجماعة على توليته يُمكن أن يقود الحركة بقطع النّظر عن قبيلته. وقد ظهر الحرص على تجاوز الرّوابط القَبَلية في أوساط القرّاء منذ الثّورة ضدّ عثمان، وقد تشبّث به الخوارج وطبّقوه. ولذلك لا يمكن مشاطرة نايف معروف قوله إنّ العصبيّة القبلية كان لها الأثر الكبير في التمهيد لنشأة الخوارج واستمرار وجودهم لسنوات طويلة[3]. فكلّ ما كان يجمع الخوارج إلى حدود تلك الفترة هي المبادىء الّتي من أجلها انفصلوا عن عليّ وحاربوا إخوانهم وأقاربهم.

أمّا شرط التبصّر في الدّين الذي وضعته المجموعة في طليعة الشّروط الواجب توافرها في القائد فيتمثّل في اطّلاعه على تعاليم الإسلام لقيادة الحركة طبقاً لهذه التعاليم، وخاصّةً لاستعمالها في مواجهة أعدائها وفي إقناع بقيّة المسلمين بصحّة مواقفها. وقد كان الدّين منذ البداية سلاح الخوارج منه استمدّوا مبادئهم وعليه اعتمدوا في ثورتهم ضدّ عثمان وعليّ والأمويين. وسيظلّ القرآن المرجع الأول الذي يستنبطون منه مواقفهم وأحكامهم.

أمّا شرط البصيرة بالحرب، فهو مرتبط بحالة المواجهة الّتي كانت عليها الحركة،

---

(١) انظر النصّ الكامل لخطبة حيّان بن ظبيان السّلمي في: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ١٩١.

(٣) نايف معروف، **الخوارج في العصر الأموي**، ص ٢٥.

والتي كانت تتطلّب قائداً عسكرياً ممتازاً وقادراً على قيادة العمليات العسكرية بنجاح. ولم يبقَ سوى شرط السنّ المرتبط بالتّقاليد العربية قبل الإسلامية، فقد اعتبره الخوارج من الشّروط التي يستحسن توافرها في الخليفة لأن السنّ تعني دائماً التّجربة والحنكة والرصانة. ولعلّ اعتماد المسلمين على هذا الشّرط في اختيارهم لأبي بكر قد أثّر بدوره على الخوارج باعتبار مكانة هذا الخليفة عندهم.

وعموماً، برز خلال تحرّك حيّان بن ظبيان والمستورد اهتمام الخوارج بمسألة اختيار القائد من خلال ضبط الشّروط الواجب توافرها في المترشّح لهذا المنصب إنما من دون تحديد طريقة الاختيار، إذ لم يرد في خطبهم ذكرٌ للشّورى أو غيرها. إلاّ أنّ الطريقة التي توخّوها في اختيار المستورد تُعطي فكرة عن النموذج الذي يعتبرونه الأفضل في هذه العمليّة، وهو الانتخاب بمعناه الواسع الشامل لكلّ عناصر الحركة.

أطلق الخوارج على قائدهم لقب «أمير المؤمنين»، وكان المستورد أوّل من تسمّى به إذ لم يحمل عبد الله بن وهب الرّاسبي هذا اللّقب ولا غيره من الألقاب المعروفة. ولئن لم يفكّر الخوارج في هذه المسألة قبل النّهروان، فذلك يعود على ما يبدو إلى بقاء الرّابطة التي تجمعهم بعليّ منذ الثّورة على عثمان حيّةً رغم اختلافهم معه. ولئن انقطعت هذه الرابطة تماماً بعد معركة النّهروان، فإنّ الثائرين من الخوارج لم يطلقوا اللّقب على قادتهم لأنّ تشتّتهم لم يوفّر لهم إمكانيّة البحث في هذه المسألة والبتّ فيها. أمّا بعد مقتل عليّ وانتقال الحكم إلى معاوية، فلم يعد هناك مجال للتفكير في هذه المسألة. فجميع الخوارج لا يعترفون بهذا الخليفة ويطعنون في إيمانه وإيمان كلّ المخالفين لهم، لذلك اعتبروا أنفسهم المؤمنين الحقيقيين وأميرهم هو أمير المؤمنين، وباقي المسلمين كفّاراً.

كما برزت في بداية الحكم الأموي كلمة «الأحزاب» الّتي وردت لأول مرّة في خطاب حيّان بن ظبيان السّلمي لمّا دعا أصحابه إلى «الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وجهاد الأحزاب»[1]. وتعني لفظة «حزب» لغةً جماعة النّاس[2]. وقد استعملت في القرآن للدّلالة على الكافرين الذين تحزّبوا ضد الرسول وعلى أصحاب الرسول كذلك، وإن لم تردْ بهذا المعنى سوى مرّة واحدة. والظّاهر أنّ الخوارج استعملوا معناها الأكثر شيوعاً في القرآن وهو الكفّار، فقصدوا بها كل من تحزّب ضدّهم. ويرد هذا المعنى على لسان حيّان بن ظبيان في بيت من الشعر يرثي فيه أحد الخوارج وهو سهم بن غالب الهجيمي يقول فيه:

فإن يكُن الأحزَابُ باؤوا بصلبه فلا يبعدَنَّ اللّهُ سهمَ بن غالب[3]

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج ١، ص ٢٩٩.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ١٧٣.

ويدلّ الحديث عن الأحزاب على اعتراف الخوارج بوجود انقسام داخل الأمة الإسلامية وبروز مجموعات مختلفة فكريًا وإيديولوجيًا. ومن هذا المنطلق يُمكن اعتبار الخوارج بدورهم حزباً لاختلافهم عن البقيّة وإنْ كانوا لا يعترفون بذلك لأنّ الحزب يعني بالنسبة إليهم المجموعة الخاطئة والبعيدة عن الحقّ.

هذه هي أبرز التّحولات الّتي طرأت على الحركة الخارجيّة مع بداية الحكم الأموي. ونلاحظ من خلالها تبلور الفكر الخارجي وتطوّر بعض مبادئه ولكن في الوقت نفسه اتّجاهه نحو مزيد من التّصلّب والرّاديكالية. وقد انعكست هذه التّحولات على تحرّكات الخوارج حيث غابت تدريجيًا الانتفاضات الكبيرة[1]، وتزايدت في المقابل العمليات الاستشهادية الفرديّة خاصّة. ولئن استهدفت هذه العمليات غالباً أشخاصاً عُرفوا بعدائهم للخوارج فإنها شملت أحياناً مسلمين أبرياء، وهذا ما أحدث ردود فعل داخل الحركة وأظهر بداية تكوّن تيّارين مختلفين داخلها:

ـ **تيار راديكالي**: رأى أصحابه ضرورة مواجهة العنف بعنف أكبر واعتبروا الخروج واجباً وكفّروا كلّ مخالفيهم. ويبرز من بين عناصر هذا التيّار سهم بن غالب الهجيمي الذي يقول البلاذري إنّه «أوّل من سمّى أهل القبلة بالكفر ولم تكن الخوارج قبلة تقطع بالشّهادة في الكفر والإيمان»[2]. كما تبنّى أتباع هذا التيّار الاستعراض وطبّقوه في تحرّكاتهم، وثمة روايات عديدة تتحدّث عن عمليات الاستعراض الّتي وقعت في البصرة في تلك الفترة، ولعلّ من أهمها ما قام به زحّاف الطائي وقريب بن مرّة وأصحابهما «الّذين خرجوا يستعرضون النّاس ويقتلون من لقوا وكانوا يدينون بالاستعراض»[3].

وتكتسي هذه الرواية أهميّة كبيرة لأنّها تشير لأوّل مرّة إلى تبنّي الخوارج للاستعراض[4] كشكل من أشكال النضال ضدّ مخالفيهم، وإنْ كان الرّواة قد ذكروا قيام الخوارج باستعراض عبد الله بن خباب بن الأرت في خلافة عليّ. وتتعدّد في المصادر الرّوايات الّتي تتحدّث عن استعراض خوارج البصرة لمخالفيهم إبّان ولاية زياد وابنه عُبيد الله، لكنّها لا تذكر شيئاً عن الأسئلة الّتي كانت تطرح أثناء عمليّة الاستجواب. وترد كلمة

---

(١) أبرز التّحركات الّتي وقعت بعد ثورة المستورد وحيّان بن ظبيان التحرّك الّذي قاده سهم بن غالب الهجيمي والخطيم الباهلي وجمع سبعين رجلاً، وتحرّك قريب وزحّاف الذي شارك فيه ستون رجلاً، ثم تحرّك طواف بن علاق الذي جمع كذلك سبعين رجلاً من عبد القيس، وأخيراً تحرّك أبي بلال الّذي لم يجمع سوى أربعين نفراً.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٧٥.

(٤) لكلمة الاستعراض عدّة معانٍ منها: اسْتَعْرَضَ الشخص أي طَلَبَ منه أن يعرض عليه ما عنده، ومنها استعراض الناس أي قتلهم: ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج ٢، ص ٧٣٨ ـ ٧٤١.

الاستعراض في أغلب هذه الرّوايات مرادفة للقتل وهو معناها الشّائع في المعاجم. ويبدو أنّ الاستعراض، بمعنى الاستجواب، لم يطبّقه الخوارج في تلك الفترة لأنّ أغلب العمليات التي يقومون بها كانت تتمّ في أماكن عامّة مثل الأسواق أو المساجد. ولذلك تكون سريعة جداً بحيث يتعذر على القائمين بها استجواب ضحاياهم قبل قتلهم.

ولم يكن توجُّه الخوارج نحو العنف نتيجة حرصهم على الخروج والثورة للتعبير عن رفضهم للحكم القائم فحسب، بل كذلك نتيجة تزايد القمع المسلّط عليهم خاصّة من قبل عبيد الله بن زياد. وتظهر روايات عديدة ارتباط تصاعد عنف الخوارج بعنف الولاة، نذكر منها تلك الّتي تتحدّث عن خروج أبي الوازع الراسبي. فقد قال لأصحابه لمّا أراد الخروج: «إنّي شار فاشروا، ودعوا المضاجع فطالما نمتم وغفلتم عن أهل البغي حتّى صيّرهم ذلك إلى أن يتبعوكم فيقتلونكم في مضاجعكم قتل الكلاب في مرابضها». ورغم أنّ أصحاب أبي الوازع لم يستجيبوا لدعوته وطلبوا منه التريّث، فإنّه أصرّ على الخروج، مبرّراً ذلك بالقول: «كلا إنّ في غدوّ الموت ورواحه ما يجعلني أخاف معه فوت ما أريد»[1]. وكان قد سبق خروج أبي الوازع مقتل عروة بني أديّة أحد كبار الخوارج، وهو ما جعله يصرّ على الخروج خوفاً من أن يلقى المصير نفسه.

وتثبت هذه الرّواية وغيرها أنّ عنف الدّولة المسلّط على الخوارج كان أحد العوامل الّتي تفسّر تواصل تحرّكاتهم وتزايد عنفها واقتصار هدفها على الموت في ساحة المعركة أو الاستشهاد.

ولئن كانت الرغبة في الاستشهاد سابقة للحكم الأموي، فإنّها لم تكن هدف الخارجين في البداية. فقد ارتبط الخروج قبل النّهروان بأهداف منها «طلب الحق» و«إنفاذ حكم الله» و«القضاء على حكم أيمة الجور وإقامة حكم عادل»[2]. لكن صدمة النّهروان زادت في رغبة الخارجين في الاستشهاد، ثمّ ترسّخ هذا التّوجه في بداية الحكم الأموي لمّا تأكّد العديد من الخوارج أنهم لن يقدروا في ظل القمع المسلّط عليهم على القيام بثورة عارمة تسقط هذا الحكم وأنّهم عرضة للقتل في أيّة لحظة. لذلك، فإنّ العمليات الانتحارية هي وسيلة للاستشهاد والانتقال إلى الجنّة حيث الحياة الحقيقيّة مع الرفاق الأبرار الذين سبقوهم، ومن هنا كان تمجيدهم للموت في شعرهم وخطبهم وكان الموت المحور الرئيسي للأدب الخارجي في تلك الفترة.

ولا يعود احتقار الحياة واستعذاب الموت بهذا الشكل إلى حالة اليأس التي صار عليها

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٤/١، ص ٣٩٢؛ المبرّد، **الكامل**، ص ١٠٦.

(٢) ورد هذا في خطب الخوارج، وخصوصاً في خطبة حرقوص بن زهير قبل الخروج إلى النّهروان، انظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٢، ص ٣٦٣.

الخوارج في ظلّ الحكم الأموي فحسب، بل كذلك إلى تأثّرهم الشّديد بالقرآن الذي مجّد الجهاد والموت في سبيل الله وأعطى الشهداء مكانة متميّزة ووعدهم بالجنّة وجعلهم ﴿أحياء عند ربّهم يُرزقون﴾[1]. ولعلّ هذا الموقف من الموت هو الذي جعلهم ينتصرون على جيوش كبيرة ودفعهم إلى القيام بتلك العمليات الانتحارية العديدة في ولاية عُبيد الله بن زياد خاصةً، وهي عمليات لا يُمكن بحال من الأحوال أن نعتبرها بمثابة عمليات لصوصيّة كما يرى فلهوزن[2].

ولا بدّ من الإشارة في هذا السّياق إلى مسألة هامّة، وهي تعمّد الخوارج التّحكيم والقتل في المساجد واختيار ضحاياهم خاصةً من بين الذين اشتهروا بالتديّن والزّهد. فهذا سهم بن غالب الهجيمي يستعرض ويقتل عبّاد بن قرص اللّيثي الذي يذكر الرّواة أن له صحبة، وقريب بن مرّة وزحاف الطائي يقتلان رؤبة الضّبعي وكان ناسكاً، وغيرهما. وتدعو هذه التصرّفات إلى الاستغراب والتساؤل عن الدّوافع التي جعلت الخوارج يعمدون إلى قتل هؤلاء المسلمين بالذّات ويستبيحون حُرمة الأماكن المقدّسة ويقتلون من فيها أثناء الصّلاة خصوصاً وأنّهم اشتهروا بالاجتهاد والتمسّك الشديد بالدّين؟

يبدو أنّ الخوارج استحلّوا قتل المصلّين والمجتهدين وكلّ الذين لهم معرفة بالقرآن واطلاع على تعاليم الدّين لأنهم اعتبروا أنّ معرفتهم بالقرآن تُحمّلهم قبل غيرهم مسؤولية فضح السّلطة وبيان ما تقوم به من تجاوزات في حقّ المسلمين وتحريض النّاس على الثّورة ضدّها. لكن سكوت هؤلاء على الظلم ورضاهم بهذا الوضع يُعتبران إخلالاً بمسؤولياتهم ونوعاً من التواطؤ معها وجريمة في حقّ المسلمين يستحقّون من أجلها القتل، لذلك لا يُعدّ التّحكيم والقتل في المساجد انتهاكاً لحرمتها بل تطهيراً لها من هؤلاء المنافقين.

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنّ أنصار هذا التيّار الراديكالي قد تزّعموا أغلب الأعمال التي وقعت في البصرة في ولاية زياد وخصوصاً في ولاية ابنه عُبيد الله ومنهم ستنبثق النّواة الأولى لتيّار الأزارقة.

ـ تيّار معتدل: كان ظهور هذا التيّار، كما ذكرنا سابقاً، نتيجة للقمع الأموي. ولئن لم يتخلّ أنصاره عن مبادىء الحركة، فقد طوّعوها حسب الواقع الجديد إذ ابتعدوا عن الثّورة وركنوا إلى الهدوء. ولم يكتفوا بذلك بل استنكروا عمليّات الاستعراض والقتل الّتي كان يقوم بها أصحابهم، وأخيراً ابتدعوا «التقيّة» فأخفوا ما يتبنّون من مبادىء خوفاً من بطش السّلطة[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٢) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٣) Dozy (R), *Supplément aux dictionnaires arabes*, Beyrouth, Librairies du Liban, 1981, T. I, p. 149.

ويعدّ أبو بلال مرداس بن أديّة أبرز زعماء هذا التيّار، فقد كان «لا يدين بالاستعراض»[1]. ويستنكر بشدّة عمليات القتل الّتي كانت تقع في البصرة. وقد جاء في إحدى الرّوايات قوله لما علم بما قام به قريب وزحّاف من استعراض للمسلمين: «قريب لا قرّبَهُ الله من الخير وزحّاف لا عفا الله عنه. لقد ركباها عشواء مظلمة»[2]. كما عاب أبو بلال خروج النساء ثمّ حرّمه رغم مشاركة المرأة في الحروب منذ عهد الرّسول. ولا يمكن تفسير موقف أبي بلال من خروج النساء بعمليّات التمثيل التي كان يقوم بها ولاة بني أميّة لأنّه قد حرّم ذلك قبل ولاية زياد الذي دشّن هذا الأسلوب في معاملة نساء الخوارج. ويُعدّ أبو بلال كذلك أوّل من أجاز التقيّة، فقد نصح بلجاء الخارجية لمّا بلغه أن ابن زياد يريد القبض عليها أن تختفي مؤكّداً لها «أنّ الله قد وسّع على المؤمنين في التّقيّة»[3].

وتجلى اعتدال أبي بلال بوضوح إبّان انتفاضته، فقد أكّد عند خروجه من البصرة «أنّ كلّ ما يريده هو الهروب بدينه وأديان أصحابه من الحكّام الجورة»[4]. وقد التزم بأن لا «يجرّد سيفاً ولا يقاتل إلاّ من قاتله»[5]، وهو ما يثبت عدم خروجه ثائراً على حكّام بني أميّة بل هارباً من ظلمهم، ولذلك لم يقم بأي عمل من شأنه أن يجلب له أذى الوالي حتّى إنّه لمّا أصاب مالاً يحمل إلى ابن زياد لم يأخذ منه سوى «عطائه وأعطيات أصحابه وردّ الباقي على الرّسول»[6].

لقد كان أبو بلال بمواقفه النّابذة للعنف المدشّن للتيّار المعتدل والمتزعّم له. وقد لاقت مواقفه قبولاً لدى بعض الخوارج كما لم تغضب المتشدّدين منهم ولذلك لم تحدث خلافات بينهم وظلّوا أصحاباً طيلة حكم معاوية وابنه يزيد يتولّون بعضهم بعضاً ويعتبرون أنفسهم كتلةً واحدة رغم غياب تنظيم يجمعهم. ويبرز الشعور بالانتماء إلى المجموعة نفسها من خلال بعض أشعار تلك الفترة التي تجمع عناصر خارجيّة متشدّدة وأخرى مسالمة منها ما جاء على لسان أحد الخوارج راثياً أبا بلال:

يا ربّ هب لي التّقي والصّدق في ثبت ... واكف الهمّ فأنت الرازق الكافي
حتّى أبيع الذي يفنى بآخرة ... تبقى على دين مرداس وطوّاف[7]

وقد استنكر جميع الخوارج قتل أبي بلال وانتقم العديد منهم من قاتله، وكان أبرز

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٨٠.
(٢) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ١٧٥.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ٨١؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٨١.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ٨٣.
(٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٨٢؛ المبرّد، الكامل، ص ٨٣.
(٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٩.

المنتقمين عبيدة بن هلال اليشكري، أحد المتشدّدين وأحد مؤسّسي تيّار الأزارقة. لكن بقاء الحركة موحّدة في خلافة معاوية وابنه يزيد لم يمنع الخوارج من التفكير في المسائل التي كانت محلّ خلاف بينهم، وستظهر نتائج هذا التفكير مع اندلاع الفتنة الثانية.

في ختام هذا الفصل يمكن القول إن حركة الخوارج التي ظهرت في خلافة علي بن أبي طالب قد ارتبطت بالمعارضة الكوفيّة التي قادها القرّاء ضدّ سياسة عثمان وتجاوزاته. وقد أثّر هذا الارتباط على المبادىء التي تبنّاها زُعماؤها الأوائل وعلى الطُرق الّتي توخّوها في التعبير عن معارضتهم للخليفة الجديد عليّ بن أبي طالب.

كان بروز هذه الحركة في صفّين لمّا رفض بعض القرّاء تحكيم القرآن في الصّراع بين عليّ ومعاوية وانحازوا إلى حروراء. ورغم أنّ مرحلة حروراء قد ارتبطت بالتحكيم واقتصرت النقاشات فيها على هذه المسألة، فإنّ مجادلات الحروريّة أظهرت تمسّكهم الشديد بالقرآن وإصرارهم على إخضاع هذه المسألة إلى الدّين واعتبار كل من يخالف موقفهم خاطئًا دينيًا. ومن هنا كان تكفيرهم لمعاوية وأصحابه ثمّ لبقيّة المسلمين في الفترة اللاحقة.

ولئن كانت عمليّة إجراء التّحكيم هي التي أدّت إلى خروج المجموعة وانفصالها عن الكوفة وعن الأمّة الإسلامية، فإنّ مسائل أخرى قد طرحت خلال هذه الفترة وهي الّتي كوّنت إلى جانب مسألة التّحكيم النّواة الأولى لنظريّة الخوارج. وتتمثّل أولى هذه المسائل في «الخروج» الذي حمل في البداية معنى مفارقة المدينة وسكّانها الكفّار ثمّ معنى الثورة حتّى داخل المصر نفسه. كما مثّل مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» إحدى ركائز هذه النظرية إذ اعتبر الخارجون معارضتهم تندرج في إطار تطبيق هذا المبدأ الإسلامي. أمّا مسألة الخلافة فإنّ الحروريّة لم يحدّدوا موقفهم منها إلاّ في بداية الحكم الأموي بضبط الشّروط التي يجب أن تتوافر في الخليفة من دون أن يحدّدوا طريقة اختياره، ولذلك لا يمكن الحديث عن تبنّي الخوارج مبدأ الشورى في هذه المرحلة.

لقد كان تبنّي الحروريّة مبدأ «الخروج» وتطبيقه بمغادرة الكوفة والتّصدي لكلّ من يحاول ردّهم سبباً في حصول مواجهات بينهم وبين عليّ بن أبي طالب. وقد كانت النّهروان أولى المعارك وأهمّها على الإطلاق قُتل فيها أغلب مؤسّسي الحركة وتشتّت المتبقّون منهم في المناطق المجاورة. وقد اندلعت انتقاماً لضحايا هذه المعركة سلسلة من الانتفاضات الصغيرة وكان مقتل عليّ بن أبي طالب نفسه إحدى نتائج هذه المعركة.

انتقلت الخلافة بعد مقتل عليّ إلى بني أميّة وكان موقف الحكم الجديد من الخوارج واضحاً. فقد قرّر معاوية بن أبي سفيان التصدّي للخارجين عليه بالقوّة والقضاء على كلّ من

يظهر معارضته للدّولة، واختار لتنفيذ هذه المهمّة ولاة تميّزوا بالشدّة والقسوة ومنحهم سلطات واسعة. وقام ولاة العراق بتجنيد كلّ الوسائل، فأحدثوا بالإضافة إلى الشُّرَطِ والجيش فرق قمع جديدة، كما أقحموا رؤساء القبائل في عملية القضاء على الثّائرين وأجبروا العشائر على التصدّي لأبنائها. وقد بلغ عنف ولاة بني أميّة أوجه مع عُبيد الله بن زياد الذي دفعه حرصه الشّديد على توفير الأمن في العراق إلى إنزال العقوبات بكلّ الحاملين للفكر الخارجي أو الّذين يشتبه فيهم ذلك.

وقد تنوّعت العقوبات كما تنوّعت وسائل القمع، فكان السّجن والتّسيير والإقامة الجبرية والحرمان من العطاء؛ وهي عقوبات لم تقتصر في ولاية زياد وابنه عبيد الله على الثّائرين من الخوارج بل شملت أحياناً نساءهم وأقاربهم وعشائرهم. وكان القتل والتّمثيل العقوبة المفضّلة والأكثر استعمالاً ضدّ الخوارج، لذلك كان عدد ضحاياهم مرتفعاً لكنّه لم يبلغ على ما يبدو الأرقام الضّخمة الّتي يذكرها الرّواة.

وقد أثّر عنف الأمويين كثيراً على الحركة الخارجية، ولعلّ أحد أبرز مظاهر هذا التّأثير الخلافات الداخلية التي بدأت تدبّ في صفوف أتباعها والتي ستطفو على السطح مع اندلاع الفتنة الثانية.

الفصل الثاني

الخوارج خلال الفتنة الثانية: انتفاضات ضخمة رغم الانقسام

شهدت الدّولة الإسلاميّة مع نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠هـ بوادر أزمة سياسيّة اندلعت في الحجاز وانطلقت تدريجياً لتشمل أغلب أجزاء الإمبراطوريّة الإسلاميّة، وتسبّبت في حرب أهليّة ثانية دامت حوالى ثلاث عشرة سنة تُعرف عند المؤرّخين بـ«الفتنة الثانية». وفي الحقيقة، لا يمكن الحديث عن الفتنة إلاّ بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ لأنّ موت معاوية لم يؤدّ إلى شغور على رأس الدّولة الإسلاميّة إذ سيطر الخليفة الشرعي - الذي بايعه المسلمون في كلّ الأمصار - على أغلب أنحاء الإمبراطوريّة، وهو ما مكّنه من القضاء على ثورة الحسين في الكوفة، والحدّ من خطر ابن الزبير في مكّة. لكنّ دخول قوى أخرى في حومة الصّراع، مثل أهل المدينة والخوارج، وسّع نطاق الأزمة وزاد في حدّتها، ثم فتح موت يزيد باب الفتنة على مصراعيه ودخلت الأمة الإسلاميّة بأكملها في حرب أهليّة فجّرت التناقضات القبليّة والإقليمية وحرّكت كلّ القوى المعارضة للدّولة الأمويّة.

لقد أخذت الأحداث في هذه الفتنة اتجاهات متعدّدة. «فبالإضافة إلى الصّراع الرّئيسي بين ابن الزّبير والأمويين، كانت هناك صراعات أخرى أقلّ أهميّة لكن تأثيرها على مجرى الأحداث كان هامّاً، لعلّ من أبرزها الصّراع مع الخوارج الذي دام سنوات طويلة، وكان تأثيره كبيراً لا في الدّولة فحسب بل وداخل الحركة نفسها أيضاً.

I - اندلاع الفتنة وانقسام الخوارج

لم يكن الخوارج، رغم الحصار الشديد المفروض عليهم، في معزل عن الأحداث السياسيّة التي كانت تعرفها الإمبراطوريّة الإسلاميّة. لذلك حاولوا منذ اندلاع الأزمة في بداية خلافة يزيد بن معاوية المشاركة في التحركات التي كان يقوم بها المعارضون للحكم الأموي. ولئن كانت تحرّكاتهم خلال تلك الفترة محدودة جداً، فإنّ موت يزيد واندلاع

الفتنة سيفسح المجال أمامهم لتكثيف نشاطهم، وسيكون ذلك سبباً في انقسامهم.

فما هي ظروف اندلاع الفتنة؟ وما هو دورها في انقسام الحركة؟

١ ـ الأزمة السياسيّة وعودة الخوارج إلى النشاط من جديد

أ ـ خلافة يزيد وبداية الأزمة السياسية:

كانت مشكلة الخلافة هي المنطلق للأزمة السياسية والمحور الرئيسي لها. فبعد سنوات طويلة من الهدوء والاستقرار عادت هذه المسألة لتطرح على المسلمين من جديد، وكانت البداية لمّا أقدم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان على العهد لابنه يزيد ثم أخذ البيعة له من زعماء القبائل ومسلمي الأمصار. وتذكر المصادر أنّ المغيرة بن شعبة الثّقفي، والي الكوفة، هو الذي أشار على الخليفة بالعهد لابنه يزيد، وأنّ معاوية قد استحسن الفكرة وعمل على تنفيذها قبل موته[1]. وبقطع النّظر عن مدى صحّة هذه الرّواية، فإنّ مما لا شكّ فيه أن مشكل الخلافة كان الشغل الشاغل لمعاوية طيلة فترة حكمه. فقد كان حريصاً كل الحرص على أن يكون انتقال الحكم بعده بدون مشاكل، وأنّ يجنّب الأمّة خطر فتنة جديدة ويضمن استقرار الوضع في الدّولة الإسلاميّة مع بقاء الخلافة في بني أميّة. ويذكر محمد عبد الحي شعبان أنّه كان أمام معاوية مرشّحان بارزان لهذا المنصب هما ابنه يزيد ومروان بن الحكم شيخ بني أميّة. وقد وقع اختياره على يزيد لأنّه كان يحظى بتأييد الجيش السّوري ومساندة قبيلة كلب السّورية[2].

لكن الحديث عن نيّة اختيار مروان بن الحكم على رأس الدّولة لا تذكره المصادر. والظّاهر أنّ الفكرة لم تطرح أصلاً، فقد كان أمام معاوية خيار واحد هو يزيد. إلاّ أنّه كان يشعر بخطورة ما سيقدم عليه، وهو متأكد من أنّ العمليّة لا تخلو من المخاطر، وأنّ إمكانيّة الفتنة واردة بل هي شبه أكيدة. لذلك لم يكتفِ بالعهد له كما فعل أبو بكر مع عمر، بل حرص على أخذ البيعة لهُ بصفة علنيّة قبل موته، وقد تحصّل على بيعة كل الأمصار ورؤساء القبائل والشّخصيات ذات النّفوذ الكبير في الدّولة. وبهذا العمل ضمن معاوية بقاء الخلافة في البيت الأموي، وقطع نهائياً مع التقاليد التي اتبعها المسلمون في اختيار الخلفاء والتي تعتمد على إجماع الصحابة أهل الحلّ والعقد في المدينة.

ولم يرفض البيعة ليزيد سوى بعض أبناء الصّحابة وهم: الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزّبير، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل من يزيد وأحقّ بالخلافة منه[3] باعتبار ما قاموا به وما قام به آباؤهم في سبيل

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٠٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٤٩.

(٢) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٠٢.

(٣) فلهوزن، تاريخ الدّولة العربية، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

الإسلام. كما أنّهم يرفضون الوراثة في الحكم ويرون في ما قام به معاوية خرقاً للتّقاليد العربيّة الإسلاميّة المتّبعة في اختيار الخلفاء إلى حدود تلك هذه الفترة.

كان الحسين بن عليّ أوّل الخارجين على يزيد. فبعد أن رفض البيعة للخليفة الجديد، خرج من المدينة إلى مكّة ومنها قصد الكوفة حيث قُتل قبل الدّخول إليها في معركة كربلاء[1] الشّهيرة.

أمّا عبد الله بن الزّبير، فقد رفض بدوره البيعة ليزيد بن معاوية، وانتقل إلى مكّة وبقي فيها يترقّب تطوّر الأحداث من دون القيام بأيّ عمل مناهض للدّولة. وفي تلك الأثناء كان خُروج الحسين إلى الكوفة ومقتله، وهي الحادثة التي استغلّها ابن الزبير للبروز على السّاحة وكسب الأنصار. وقد أدرك ابن الزبير أنّه لا يستطيع طرح نفسه كمنافس ليزيد المعترف به من قبل المسلمين في كلّ الأمصار، لذلك ركّز دعايته على عنف الأمويين وتسلّطهم وعلى عيوب يزيد ودعا إلى الشّورى. وقد تمكّن من جمع بعض المؤيّدين حوله حتّى صار يضايق الوالي عمرو بن سعيد بن العاص.

ورغم أن يزيد بن معاوية كان حريصاً على وضع حدٍّ لتحركات ابن الزّبير، فإنّه لم يكن على ما يبدو يرغب في استعمال القوّة ضدّه لأنّ ذلك يتطلّب مهاجمة الحرم الذي اتّخذه ابن الزّبير ملاذاً له، وهو عمل سيزيد في إظهار مدى تسلّط الحكم الأموي في وقت كان فيه يزيد يسعى إلى ترميم الصّورة البشعة الّتي خلّفتها مجزرة كربلاء الرهيبة وإلى تجاوز أزمة الضمير القوية الّتي خلقتها في نفوس المسلمين. ولذلك حاول استدراج خصمه باللّين والمراوغة، واستغلّ ابن الزبير بدوره هذا الوضع ليكسب مزيداً من الأنصار حوله ويقحم الحكم الأموي في مزيد من الأزمات. ولعلّ ما قام به أثناء موسم حجّ سنة ٦٢هـ دليلٌ على ذلك، إذ حرص على الانفصال مع أصحابه عن الوالي وبقيّة المسلمين أثناء أداء المناسك[2] للتّعبير عن معارضته للحكم الأموي وللبروز في هذه التّظاهرة الدينيّة العظيمة.

ولئن أقلقت تحرّكات ابن الزبير السّلطة، فإنّها لم تشكّل خطراً حقيقيًّا عليها مثلما شكّل تحرّك سكّان المدينة الذي انطلق سنة ٦٣هـ وكان منعرجاً حاسماً في مسار الأزمة.

تمثّلت ثورة سكّان المدينة في خلع الخليفة يزيد بن معاوية وطرد واليه عثمان بن محمّد بن أبي سفيان. وإذا كان سببها الرئيسي هو أخلاق يزيد التي اعتبرها الثائرون لا تتماشى مع التقاليد الإسلاميّة[3] ومع ما يتطلّبه هذا المنصب من سلوك مثالي، فإن هناك

(١) كربلاء: موقع في طرف البريّة عند الكوفة: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٤٧٩.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ٤٨٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٢٠.

أسباباً أخرى تبدو من خلال ما قام به الثائرون من أعمال منها: منعهم عامل الصّوافي من حمل ما كان يحمله إلى الشّام من حنطة وتمر[1]، وطردهم الوالي ومحاصرة من كان في المدينة من بني أمية ثم إخراجهم منها[2]. وتؤكّد هذه الأعمال تواصل معارضة التيّار الاسلامي للحكم الأموي وتمسّكه بالمبادىء التي قامت عليها الثورة ضدّ عثمان والمتمثّلة في رفض كلّ أشكال التعسّف والأسروية[3].

لم يكن أمام يزيد لما بلغه خبر هذه الثورة سوى إرسال جيش من أهل الشام يقوده مسلم بن عقبة المرّي لاخمادها وإخضاع سكان المدينة لسلطته بالقوة. ولكن قرار إرسال هذا الجيش سيكون سبباً في تعميق الأزمة وتوسيع نطاقها بدخول أطراف جديدة فيها، منهم الخوارج.

ب ـ استئناف النشاط الخارجي:

يبدأ الحديث عن تحرّك الخوارج في هذه الأزمة السياسيّة مباشرة إثر وقعة كربلاء، إذ يذكر أبو مخنف أنّه «حين قتل الحسين ثار نجدة بن عامر الحنفي باليمامة، وثار ابن الزّبير بمكّة». ثم يضيف في الرّواية ذاتها أنّه «أثناء موسم الحجّ كان الوليد بن عتبة والي يزيد بن معاوية على الحجاز يفيض من المعرف ويفيض معه عامّة الناس وابن الزّبير واقف وأصحابه ونجدة واقف وأصحابه ثمّ يفيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه ولا يفيض واحد منهم بإفاضة صاحبه»[4].

ويبدو من خلال الرّواية أن تحرّك نجدة الحنفي تمّ في مرحلتين: ففي البداية ثار في اليمامة موطنه الأصلي، لكن هذا التحرّك الذي يذكره بعض الرواة لا نجد عنه معلومات يُمكن من خلالها تحديد أسبابه أو التعرّف على نتائجه. ويُعدّ إهمال الرّواة في حدّ ذاته دليلاً على أنّ هذا التحرّك لم يشكّل خطراً كبيراً عل سلطة يزيد بن معاوية ولذلك لم يولِهِ اهتماماً. ولعلّ فشل نجدة في مضايقة الحكم الأموي وجلب انتباه الرأي العام إليه هو الذي دفعه إلى الانتقال إلى مكّة للبروز على الساحة السياسيّة، ولتتبّع الأحداث في هذه المنطقة عن قرب والبحث عن الطريقة المثلى لاستغلالها لصالحه. وقد وفّر موسم الحجّ فرصة مناسبة لنجدة للتّعبير عن معارضته للأمويين إذ انفصل بأصحابه عن بقيّة المسلمين كما فعل ابن الزّبير.

التقى نجدة بعد انقضاء موسم الحجّ بابن الزّبير وعقد معه اجتماعات عديدة «حتّى ظنّ النّاس أنّه سيبايعه»[5]. ولئن لم تُعطِ الرّوايات معلومات عن فحوى اجتماعات نجدة بابن

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج ١٢، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٥.

(٣) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 89.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص٤٧٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص٣١٨.

(٥) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٤٧٩.

الزبير والهدف منها، فالأرجح أنّ التقاء هذين الزّعيمين المعارضين للدّولة الأمويّة كان يهدف إلى توحيد الصّفوف لمواجهة العدوّ المشترك والعمل على التخلّص منه. لكن يبدو أنّ هذه الاتّصالات لم تؤدّ إلى اتّفاق، لذلك عاد نجدة إلى اليمامة من دون مبايعة ابن الزّبير الذي كان في تلك الفترة يدعو إلى الشّورى ويحاول جمع أكثر ما يُمكن من الأنصار لمحاربة أهل الشام[1].

هذه مجمل تحرّكات نجدة الحنفي الأولى في اليمامة ومكّة. ويُلاحظ المتتبع للرّوايات أنّها لا تحتوي على أيّة إشارة تثبت ارتباط نجدة بالحركة الخارجيّة إذ هي لا توفّر سوى معلومات عن انتمائه القبلي وعن مكان وزمن خروجه. إلاّ أنّ الرّجوع إلى المصادر يفيد بأنّ نجدة بن عامر الحنفي هو من كبار الخوارج يصفه المبرّد بقوله: «كان رأساً ذا مقالة مفردة من مقالات الخوارج»[2]، وهو ما يقودنا إلى التساؤل عن هويّة نجدة وخصوصاً عن علاقته بالحركة الخارجيّة. فهل هو زعيم خارجيّ كما تذكر المصادر أم مجرّد قائد لثورة قامت بها قبيلة حنيفة ضدّ الحكم الأموي لا علاقة لها بالحركة الخارجيّة كما يرى المؤرّخ محمد عبد الحيّ شعبان؟[3].

تبدو الإجابة على هذا السؤال صعبة في هذه المرحلة من البحث لعدم توافر الأدلّة الكافية لذلك. إلاّ أنّ تتبّع باقي تحرّكات نجدة والخوارج قد يفيدنا في فهم هذه العلاقة وتحديد طبيعتها.

تصمت المصادر عن ذكر نجدة الحنفي بعد هذه الأحداث، كما أنّها لا تعطي عن بقيّة الخوارج معلومات تفيد عودتهم إلى النشاط من جديد. والظّاهر أنّ الهدوء قد ساد مختلف أرجاء الأمبراطوريّة باستثناء الحجاز.

ففي العراق، مركز الخوارج، لا تتوافر سوى إشارات قليلة تتحدّث عن تواصل عمليات القتل التي كانت تقوم بها العناصر الخارجيّة من حين إلى آخر في البصرة وردّ الوالي عليها بمزيد من القمع. وهو ما يؤكّد أنّ عُبيد الله بن زياد ظلّ طيلة خلافة يزيد بن معاوية ماسكاً بزمام الأمور في هذا المصر وفي كامل العراق، وأنّ الأحداث التي جدّت سابقاً مثل مقتل الحسين أو تلك التي تدور في الحجاز لم تؤثّر على مركزه ولم تُضعف من نفوذه.

إلاّ أنّ نجاح ابن زياد في السّيطرة على الوضع في العراق بقمع الخوارج وكلّ المعارضين للحكم الأموي لم يمنع بعض العناصر الخارجيّة من التحرّك في نهاية سنة ٦٣هـ، وهي تحرّكات جاءت مختلفة عن سابقاتها إذ تمّت خارج العراق وارتبطت بعناصر

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٤/ ١، ص٣٣٨.
(٢) المبرّد، **الكامل**، ص ٢٥.
(٣) شعبان، **صدر الإسلام والدولة الأموية**، ص١٠٨.

أخرى بعيدة عن هذا الإقليم.

كان انطلاق هذه التحرّكات متزامناً مع ثورة سكّان المدينة ضدّ يزيد بن معاوية التي دفعت الخليفة إلى إرسال جيش من أهل الشّام لاخمادها. فلمّا بلغ خبر مسير هذا الجيش أهل اليمامة، قال رجاء النّمري (أو النّصري) لقوم من الشراة: «إنّ أهل الشام قد ساروا إلى المدينة ولا شكّ أنّهم يأتون مكّة إنْ ظهروا وغلبوا على المدينة. فاخرجوا نمنع مكّة ونقاتل على حرم الله وكعبته..»[1].

ويَرِدُ الحديث عن خوارج اليمامة لأوّل مرّة في المصادر. فالحركة الخارجيّة عراقيّة نشأت في الكوفة وانضمت إليها عناصر بصريّة، ثم صارت بحكم تطوّر الأحداث في بداية الخلافة الأمويّة متمركزة في البصرة. ولا يوجد ما يفيد انتقال بعض الخوارج إلى اليمامة أو غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربيّة أو قيامهم بنشر مبادىء حركتهم فيها. ولذلك، فإنّ أصل هذه الجماعة وعلاقتها بخوارج العراق غير معروف، والأرجح أنّها تكوّنت نتيجة تسرّب الفكر الخارجي إلى اليمامة انطلاقاً من البصرة باعتبار العلاقة الوطيدة التي تربط هذا المصر بشمال شبه الجزيرة ووسطها، أو من مكّة التي كان يلتقي فيها الخوارج بغيرهم من المسلمين. ولعلّ شعور الحقد الذي خلّفته حروب الردّة وعمّقته سياسة معاوية الجائرة هو الذي جعل الفكر الخارجي، باعتباره فكراً احتجاجياً، يجد صدى في تلك المنطقة ويتبنّاه بعض سكّانها.

ولئن لا توفر الرّوايات ما يفيد وجود علاقات بين هذه المجموعة وخوارج البصرة، فإنّ حرص رجاء النّمري على إشراك البصريين في عمليّة الدفاع عن الحرم أسوة بأصحابهم خوارج اليمامة[2]، يدلّ على أنّ الصّلة لم تكن منعدمة بينهم.

وتتداخل الروايات كثيراً عند حديثها عن المجموعات المشاركة في الدّفاع عن الحرم، إذْ يذكر البلاذري أنّه «استجاب لدعوة رجاء ثمانون خارجياً منهم نجدة بن عامر الحنفي وبنو بحدج حسّان وعبد الرحمن وأخ ثالث لهما وحجيّة بن أوس العطاري من بني تميم وأبو الأخنس الهزّاني وأبو مالك وأبو طالوت وعطيّة بن الأسود»[3]. أمّا مجموعة البصرة فيقحم فيها الرّواة كلّ العناصر الخارجيّة المعروفة. وتتداخل أسماء المشاركين في هذه العملية مع أسماء خوارج اليمامة، ويزداد التّداخل حدّة بذكر الروايات أسماء خوارج اليمامة مع أسماء خوارج البصرة حتّى إنّنا نجد أحياناً نصف الإسم لخارجي بصري والنصف الثاني لآخر من اليمامة. والأمثلة على ذلك كثيرة، فأبناء الماحوز وهم من خوارج البصرة

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٩٤.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ١١١.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٩٤.

من بني يربوع بن رياح من تميم تتداخل أسماؤهم مع أبناء بحدج من بني عامر بن حنيفة من اليمامة[1]. وهو ما يجعل مهمّة تحديد أسماء العناصر البصرية المشاركة في هذا التحرّك صعبة، ويعسّر علينا بالتالي فهم المرحلة المقبلة من تاريخ الحركة.

وحتّى يتسنّى لنا إلقاء مزيد من الضوء على مشاركة خوارج البصرة في عمليّة الدفاع عن الحرم، سنسعى إلى إدماج الروايات التي تبدو معلوماتها متسلسلة ومنطقيّة. وأولى هذه الرّوايات وأدقّها تلك التي يذكر فيها البلاذري خروج عيسى بن فاتك الخطّي وعميرة بن ضبيعة الرقّاشي في ستّة عشر راكباً من البصرة والتحاقهم بخوارج اليمامة وانضمامهم جميعاً لابن الزّبير[2]. ويضيف المبرّد خروج نافع بن الأزرق مع جماعة من أصحابه إلى مكّة[3]، ويعطي أبو مخنف تفاصيل عن خروج نافع كما يورد الخطبة الّتي ألقاها في خوارج البصرة يحرّضهم فيها على الالتحاق بمكّة «للدّفاع عن الحرم وجهاد العدوّ»[4].

ويبدو من خلال خطبة نافع وغيرها من أقوال الخوارج أنّ الهدف من الالتحاق بمكّة هو الرّغبة في الدّفاع عن الحرم من هجومات الجيش الشامي نظراً لأهمية هذه الأماكن المقدّسة بالنّسبة إليهم وإلى بقيّة المسلمين. لكن رغم تركيز الخوارج على الجانب الدّيني لهذه العمليّة وتأكيدهم عليه، فإنّنا نشكّ في أنّه الدّافع الوحيد لخروجهم، فقد يكون العديد من خوارج البصرة رأوا في الالتحاق بمكّة فرصة للتخلّص من محاصرة ابن زياد وقمعه الشّديد لهم، وفي الوقت نفسه البروز على السّاحة من خلال المشاركة في عمل يكسبهم مكانة عند بقيّة المسلمين ويزيد في توسيع نطاق الأزمة التي كان يتخبّط فيها الحكم الأموي. وممّا قد يؤيّد ما قلناه بروز فكرة الدّفاع عن الحرم قبل مسير الجيش الشامي إلى مكّة وقبل وقعة الحرّة[5]، وكذلك تأكيد الخوارج في خطبهم وأقوالهم على فكرة الجهاد ضدّ العدوّ.

ويضيف راضي دغفوس سبباً آخر يرى أنّه ساهم في دفع الخوارج إلى الانتقال إلى مكّة وهو احساسهم بالخطر بعد مقتل زعيمهم أبي بلال مرداس بن أديّة[6]. ورغم الفاصل الزّمني الهامّ بين الحدثين[7]، فإنّنا لا نستبعد أن يكون عنف ابن زياد قد لعب دوراً في دفع

(١) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ٣١٧.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩٥.

(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٠٧.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٤.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩٤.

(٦) DAGHFOUS (Radhi), *Le Yaman islamique des origines jusqu'a l'avenment des dynasties autonomes* (I - IIIe S/VII - IXe S), Thèse d'Etat soutenue en 1991 à Aix en Provence T. II, p. 628.

(٧) كان مقتل أبي بلال سنة ٦١هـ في حين كان انتقال الخوارج إلى مكّة سنة ٦٣هـ. انظر: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٤٧١ ـ ٥٦٤.

بعض الخوارج إلى الالتحاق بابن الزبير كما بيّنا سابقاً. وعموماً، فإنّ قرار الانتقال إلى مكة قد تعدّدت أسبابه لكن تنفيذه سيقحم هذه المجموعة في دائرة ابن الزبير وسيجعل تحرّكاتها مرتبطة به، وهو ما سيؤثّر على علاقة أفرادها ببعضهم البعض وستكون له انعكاسات كبيرة على مستقبل الحركة.

ج ـ الخوارج وابن الزبير:

كان وصول الخوارج إلى مكّة بداية مرحلة جديدة تغيّر فيها الإطار والوضع بالنّسبة إليهم، فقد وجدوا أنفسهم جنباً إلى جنب مع ابن الزبير المعارض الرئيسي للأمويين. ولئن كان يجمع الطّرفين في تلك المرحلة هدف واحد هو التّصدّي للجيش الشّامي ومنعه من دخول مكّة، فإنّ أوضاعهما كانت مختلفة. فابن الزّبير الّذي رفض البيعة ليزيد بن معاوية وانتقل إلى مكّة واحتمى فيها بالحرم، صار منذ مقتل الحسين بن عليّ أبرز المعارضين للحكم الأموي وصارت مكّة مركزاً لهذه المعارضة. ورغم أنّه كان يدعو إلى الشّورى فهو يعتبر نفسه الأحقّ بالخلافة والأجدر بها، ولذلك كان يجمع الأنصار ويحاول الاستفادة من كلّ المعارضين للحكم الأموي.

أمّا الخوارج فكانوا منقسمين إلى فريقين قدما من منطقتين مختلفتين ولم يكن بينهما على ما يبدو اتّفاق مسبق حول الطّريقة الّتي سيتعاملون بها مع ابن الزبير. فكلّ ما اتفقوا عليه وجمعوا على أساسه أصحابهم هو حماية الحرم من هجومات الجيش الشّامي، إلاّ أنّهم كانوا مع ذلك متميّزين عن بقيّة المعارضين الذين التحقوا بابن الزبير بحكم انتمائهم إلى الحركة الخارجيّة والتزامهم بمبادئها، وهو ما سيجعل طريقة تعاملهم معه مغايرة لبقيّة المعارضين.

فكيف ستكون العلاقة بين الخوارج وابن الزّبير في تلك الفترة؟

تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبة بسبب إهمال العديد من الرّواة التعرّض لأخبار هذه المجموعة وعدم التمييز في نقل الأخبار بين الخوارج القادمين من البصرة وأصحابهم الذين قدموا من اليمامة والحديث عنهم كمجموعة واحدة، بالإضافة إلى التّناقض الواضح في سرد أحداث هذه الفترة. فإذا كانت أغلب الرّوايات تؤكّد أنّ الخوارج لمّا قدموا مكّة اعتزلوا ابن الزّبير كامل فترة الحصار واكتفوا بالتصدّي لهجومات الجيش الشّامي[1]، فإنّ بعض الرّوايات تذكر أنّهم التقوا بابن الزبير وعرّفوه بأنفسهم فرحّب بهم وأظهر لهم أنّه على رأيهم حتّى أتاه الجيش الشّامي فشاركوا معه في القتال[2]. وتذهب إحدى الرّوايات إلى

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص٣٣٨ ـ ٣٤٠، ٣٤٧ ـ ٣٥٢، ج ٥، ص ٢١٧؛ المبرّد، الكامل، ص ١٠٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ٤٦٥؛ المبرّد، الكامل، ص ١٠٧.

القول إنّ الخوارج بايعوا ابن الزبير وصاروا معه[١].

ورغم هذا الاختلاف، فإنّنا نستبعد وقوع اتصالات بين الخوارج وابن الزبير قبل نهاية الحصار. فقد التزم الخوارج في مكّة على ما يبدو بتنفيذ الهدف الذي قدموا من أجله، وهو التّصدّي للجيش الشّامي ومنعه من دخول مكّة. وحتّى إنْ اتّصل بعضهم بابن الزبير فذلك لم يكن بهدف مبايعته بل للتّنسيق معه خلال العمليات العسكرية. فحرص الخوارج على الصّمود أمام الجيش الشّامي كان يُضاهي حرص ابن الزبير، لذلك كانوا ينسّقون معه ويساعدونه إذا استدعت الضرورة ذلك. وقد قاد ابن الزبير بنفسه مجموعة من الخوارج أثناء الحصار[٢]، وهو ما يؤكّد الانسجام الكلّي أثناء القتال وحرص الجميع على صدّ العدو والنّجاح في الدّفاع عن الحرم.

أمّا مسألة البيعة، فالظاهر أنّها لم تُطرح خلال هذه الفترة لأنّها على قدر كبير من الأهميّة ويتطلّب البتّ فيها بحثاً معمّقاً بين الخوارج واتّفاقاً مسبقاً بشأنها، وهو ما لم يكن بالإمكان القيام به في ظلّ الوضع السّائد في تلك الفترة. ثمّ إنّ طرح هذه المسألة على بساط البحث يُعدّ في حدّ ذاته مجازفة لأنّه قد يؤدّي إلى حصول خلافات بين الخوارج أنفسهم أو بينهم وبين ابن الزبير في وقت كانوا فيه جميعاً في حاجة إلى توافر حدّ أدنى من التّفاهم والانسجام لضمان الانتصار على العدّو.

أمّا من جانب ابن الزبير، فقد مثّل قدوم الخوارج حدثاً إيجابيًا لأنّه عزّز موقفه في مواجهة الأمويين وجعل حظوظه في الصّمود أمام الجيش الشّامي كبيرة، ولذلك «رحّب بهم وسمح لهم في القول وأظهر لهم أنّه على رأيهم وأعطاهم الرّضا من غير توقّف ولا تفتيش»[٣]. ورغم أنّ العديد من المسلمين قد انتقدوا موقفه بسبب عداوتهم الشّديدة للخوارج، فإنّ ابن الزبير قد تمسّك بهذا الموقف وأكّد لأنصاره استعداده للتّعامل «حتّى مع الشّياطين»[٤]. إذا وقفوا إلى جانبه في محاربة أهل الشّام. وهو المنطق نفسه الّذي تعامل به مع المختار الثّقفي ومع أغلب الذين ناصروه في هذه الحرب، فقد كان هدفه الأوّل هو الصّمود أمام الجيش الشّامي وعدم إتاحة الفرصة للأمويين للقضاء عليه كما قضوا على الحسين في انتظار حصول تطوّرات يمكن أن تغيّر ميزان القوى لصالحه وتُكسبه نفوذاً كافياً للتّصدّي لكلّ من يحاول الوقوف في وجهه من الخوارج أو غيرهم.

واستفاد ابن الزبير كثيراً من مشاركة الخوارج إذ بفضلهم أمكنه التصدّي لهجومات

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٤، المبرّد، الكامل، ص ١١٠.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٤، المبرّد، الكامل، ص ١١٠.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١؛ المبرّد، الكامل، ص ١١١.

الجيش الشّامي ومنعه من القيام بزحف شامل مثل الذي قام به أثناء وقعة الحرّة، وأجبره بالتّالي على البقاء خارج مكّة والاكتفاء بمحاصرة المدينة ومن فيها. وتحوّلت المواجهة بين الطرفين إلى مبارزات فرديّة أو جماعيّة أظهر فيها الخوارج رجالاً ونساءً شجاعة كبيرة سجّلها العديد من الرّوايات والأشعار. وقد تواصلت مشاركة الخوارج إلى حين فكّ الحصار عن مكّة[1] الذي تمّ مباشرة بعد وصول خبر موت يزيد بن معاوية واختلاف الشّاميين بعده. فقد رفض الجيش الشّامي مواصلة الحرب من دون خليفة وقرّر قائده الحصين بن نمير الانسحاب، فاسحاً المجال أمام ابن الزبير لإعلان نفسه خليفة[2].

أمّا الخوارج، فقد وجدوا أنفسهم في خضمّ هذه التّطورات مُجبرين على مغادرة مكّة نظراً لانتهاء المهمّة التي قدموا من أجلها. وطُرحت قبل العودة فكرة الاتّصال بابن الزبير والتعرّف على حقيقة موقفه منهم. ولئن تذكر بعض الرّوايات أنّ كلّ الخوارج قد شاركوا في هذه العمليّة وأنّهم لم يغادروا مكّة إلاّ لما أظهر لهم ابن الزبير أنّه على غير رأيهم[3]، فإنّ روايات أخرى تؤكّد عدم مشاركة بعض الخوارج في تلك الاتّصالات ومغادرتهم مكّة بمجرّد انسحاب الجيش الشّامي من الحجاز.

وتبدو رواية البلاذري أكثر دقّة إذ تذكر أنّه «بعد انقضاء الحصار، انصرفت طائفة من الخوارج إلى البصرة وأقامت طائفة وقالوا قد انصرف أهل الشّام عن مكّة وإنّما قدمنا لهم فينبغي أن نفتّش ابن الزبير عن قوله في عثمان وعلي. فإنْ كان موافقاً لنا أقمنا معه وإنْ كان لنا مخالفاً انصرفنا عنه، فأتاه عيسى الخطّي وأبو طالوت وعطيّة بن الأسود ونجدة فسألوه عن رأيه فخالفهم فولّوا أمرهم ابن بحدج وانصرفوا»[4].

ويتّضح من خلال الرّواية والأسماء الواردة فيها أنّ موقف الخوارج من ابن الزبير لم يكن منسجماً. فأغلب البصريين انسحبوا من مكّة بمجرّد انتهاء الحصار ولم يحرصوا على التّعرف على موقفه. والظّاهر أنّ فهمهم للأحداث جعلهم مقتنعين بعدم جدوى مثل هذه الاتصالات لأنّ موت يزيد واختلاف المسلمين عزّز موقف ابن الزّبير وأنهى حاجته إلى الخوارج، ولذلك لن يحاول مجاملتهم أو التّقرّب إليهم ـ كما فعل في السّابق. ويتأكّد لنا من خلال الرّسالة التي يذكر المبرّد أنّ نافع بن الأزرق بعثها إلى ابن الزبير في الفترة اللاّحقة أنّ نيّة البيعة لم تكن واردة لدى البصريين بل إنّ نافعاً هو الذي «دعا ابن الزبير إلى أمره»[5]، مشترطاً عليه التّخلّي عن مواقفه الخاطئة.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٦.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩٥.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١١٦.

أمّا الخوارج الذين بقوا في مكّة وأغلبهم من اليمامة، فقد قرّروا مبايعة ابن الزبير إنْ تبنّى مواقفهم وكفّر عثماناً وعليّاً اللّذين خالفا القرآن، ويدعو هذا الموقف إلى الاستغراب لأنّ ابن الزبير لا يتّفق مع الخوارج في الحكم على عثمان وعليّ، ولا يمكن أن يتبنّى موقفهم خصوصاً بعد أن تغيّر الوضع وانقلب ميزان القوى لصالحه بموت يزيد وانتهاء الخطر الأموي. لكن إصرارهم على ربط بيعتهم لابن الزبير بتبنّيه أقوالهم يؤكّد منطق الخوارج اللاّسياسي، أو كما يقول هشام جعيّط «غياب السّياسة كتمشٍّ يهدف إلى المصلحة أو كعملية حسابيّة تسعى إلى الرّبح»[1]. وهذا المنطق اللاّسياسي ميّز الخوارج منذ ظهورهم وهو الذي جعلهم يفشلون في التّحالف لا مع ابن الزبير فحسب بل مع كلّ الحركات المعارضة الأخرى، كما أنّه سيكون سبباً في انقسامهم وسيحول دون توحّدهم بعد ذلك.

لكن قبول خوارج اليمامة الاتّصال بابن الزّبير واظهار استعدادهم للانضمام إلى صفوفه يعدّ في حدّ ذاته أمراً جديداً لم يسبق لبقيّة الخوارج القيام به أو حتّى قبوله. ولعلّ وجود نجدة الحنفي ضمن هذه المجموعة هو الذي يفسّر قبول أفرادها فكرة الدّخول في اللّعبة السياسية، لأنّ نجدة قد أظهر منذ تحرّكاته الأولى رغبة كبيرة في التقرّب من ابن الزبير والاشتراك معه في النضال ضدّ الأمويين. لكن نجدة الذي قد يكون توصّل إلى اقناع الخوارج بهذا التّمشّي لم يكن قادراً على تغيير موقفهم المبدئي الرّافض لكلّ تعامل مع من لا يتبنّى مواقفهم ومبادئهم، ولذلك اختلفوا مع ابن الزّبير وعادوا إلى أمصارهم. وبانصراف الخوارج من مكّة ستحصل القطيعة النهائية بينهم وبين ابن الزّبير، وسيدخل الطّرفان في مواجهة ستستمر طيلة سنوات الفتنة كما ستدخل الحركة بدورها في مرحلة جديدة ومتميّزة من تاريخها. ويُمكن قبل الحديث عن تلك المرحلة طرح مسألة العلاقة بين الحركة الخارجيّة وحركة نجدة الحنفي على ضوء المعلومات المذكورة سابقاً.

لقد ظهر من خلال تتبّع تحرّكات الخوارج انقسام المشاركين في الدّفاع عن الحرم إلى مجموعتين منفصلتين، تتكوّن مجموعة البصرة من عناصر يتّفق الرّواة على انتمائها إلى الحركة الخارجيّة ونشاطها السّابق في صفوفها، مثل نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال وأبناء الماحوز وغيرهم، ولا تشير الرّوايات إلى وجود علاقة سابقة بينهم وبين نجدة الحنفي، ولذلك نستبعد دخول هذه العناصر في التحرّك مع نجدة بدافع قبلي كما يرى محمد عبد الحيّ شعبان.

أمّا مجموعة اليمامة، فيبدو من خلال تركيبتها وتتبّع تحركاتها أنّها كانت تضمّ عناصر خارجيّة ملتزمة منهم: رجاء النمري وأبناء بحدج وعطيّة بن الأسود وغيرهم، بالاضافة إلى عناصر أخرى متسيّسة يقودها نجدة الحنفي لا صلة لها على ما يبدو بالحركة الخارجيّة. وتؤكد ذلك تحرّكات قائدها السّابقة، فقد كان نشاط نجدة سنة ٦٢هـ مستقلاً عن الخوارج،

(١) DJAIT (H), *op, cit.*, p. 272.

والأرجح أنّه لم يكن سوى تحرّك قامت به عناصر من قبيلة حنيفة بزعامة نجدة للتّعبير عن رفضها للحكم الأموي كما يذكر شعبان[1]. إلا أنّ فشل تحرّكات نجدة جعلته يعود إلى اليمامة ويبقى فيها لمراقبة تطوّر الأحداث والبحث عن الفرصة المناسبة للتحرّك من جديد.

توفّرت هذه الفرصة لمّا قرّر خوارج اليمامة المشاركة إلى جانب ابن الزبير في الدّفاع عن الحرم، فقد انضمّ إليهم نجدة وأصحابه الذين شاركوا في التّحرّكات السّابقة، إلا أنّ نجدة لم يكن صاحب هذه المبادرة ولم يبرز كقائد للمجموعة كما في السّابق، فقد كانت قيادة التحرّك لأحد العناصر الخارجيّة وهو رجاء النّمري. وقد ظلّ خوارج اليمامة رغم مقتل رجاء يقودون المجموعة إلى حين فكّ الحصار عن مكّة ورجوعهم إلى اليمامة، ولم يبرز نجدة طيلة تلك الفترة، ولم يكن له دور الزعامة، وإنّما كانت مشاركته ضمن أفراد المجموعة.

ويُلاحظ المتتبّع لتحرّكات الخوارج أثناء الدفاع عن الحرم وبعده أنّ نجدة كان مندمجاً كلياً داخل المجموعة متبنّياً لمبادئها وأفكارها ويُناضل من أجل تحقيقها. قد يكون ذلك عن اقتناع كما قد يكون مجرّد غطاء يخفي وراءه الدّوافع الحقيقيّة لخروجه وهي طموحه الشّخصي ومصالح قبيلته. ويظهر تطوّر الأحداث أن نجدة قد اقتنع بأنّ تبنّي الفكر الخارجي والنّضال من أجل تطبيق مبادئه سيمكّنه من لعب دور أكبر، ولذلك انضمّ إلى الخوارج وتمسّك بمطالبهم ودافع عنها ولم يحاول الانسلاخ عنهم أو التقرّب من ابن الزبير والتزم بهذا الموقف إلى حين مغادرة مكّة.

وإجمالاً لا يمكن القول إنّ المجموعة الّتي قدمت من اليمامة كانت تضمّ عناصر خارجيّة وأنّ هدف الدّفاع عن الحرم هو الّذي قادها إلى مكّة. أمّا العناصر الأخرى غير المعروفة بانتمائها السّابق إلى الحركة والتي قد تكون انضمّت إليها بهدف تحقيق مصالح شخصية أو قبلية، فإنها لم تبرز في تلك الفترة ولم يكن لوجودها تأثير كبير. إلاّ أنّ انقسام الخوارج الذي سيحدث في الفترة اللاّحقة سيؤدّي إلى تغيير داخل المجموعة وسيكون نجدة أبرز المستفيدين منه.

٢ ـ الفتنة وانقسام الخوارج.

أ ـ موت يزيد واندلاع الفتنة:

كانت خلافة يزيد بن معاوية ـ رغم ما شهدته من أحداث خطيرة ـ فترة استقرار نسبي في الدّولة الإسلامية. فقد ظلّت السّلطة قويّة وولاة يزيد يمسكون بزمام الأمور في جلّ الأمصار ويسيطرون على الوضع سيطرة تامّة. وحتّى في الحجاز حيث ثار سكّان المدينة ضدّ يزيد وأعلن ابن الزبير معارضته للخليفة، فإنّ الجيش الشامي قد تمكّن من القضاء على

(١) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٠٨.

التمرّد الأوّل وأخضع سكان المدينة بالقوّة كما حاصر ابن الزبير في مكّة. ولولا موت يزيد المفاجىء وقرار قائد الجيش فكّ الحصار والعودة إلى الشّام لأمكن القضاء على هذه المعارضة كذلك.

كان موت يزيد هو البداية الفعلية للفتنة. فقد بدأت السّلطة تتفكّك تدريجيًا في كلّ الأمصار خصوصاً وأنّ عمليّة اختيار خليفة أموي جديد تطلّبت وقتاً طويلاً، وهو ما سمح لابن الزبير بإعلان نفسه خليفة والحصول على بيعة سكّان العديد من الأمصار والأقاليم.

بايع الشّاميون بعد موت يزيد بن معاوية ابنه معاوية بن يزيد، لكن الخليفة الجديد كان غير متحمّس للمنصب، وقد اشتدّ به المرض فما لبث أن توفّي بعد البيعة له ببضعة أسابيع. واختلف سكان الشّام بعد موت معاوية بن يزيد وانقسموا، فمال القيسيون مع ابن الزبير في حين كان موقف أغلب الشّاميين متذبذباً إذ أيّد بعضهم ابن الزّبير، بينما لزم البعض الآخر الحياد في انتظار ما سيسفر عنه تطوّر الأوضاع، ومالت مجموعة ثالثة وتتكوّن من الكلبيين إلى بني أميّة حرصاً على إبقاء الحكم فيهم وخاصةً في عائلة معاوية. إلاّ أنّ عدم وجود من يستحقّ المنصب من أبنائه لصغر سنّهم جميعاً، جعلهم ينضمّون إلى مروان بن الحكم ومن معه من بني أميّة.

لم يكن من اليسير بالنسبة إلى هذه المجموعة الاتفاق على المرشّح المناسب الذي يُرضي الجميع ويكون في مكانة ابن الزبير ووزنه[1]، ولكن الخطر الذي كان يهدّدهم جعلهم يتّفقون على اختيار مروان بن الحكم خليفة[2] نظراً لسنّه وتجربته ومكانته في بني أميّة.

وانضمّ إلى مروان بعد البيعة عدد كبير من الشّاميين، وبدأ بهذه الجموع عمليّة توحيد الشّام واخضاع قبائله الموالية للحكم الزّبيري. وكانت معركة مرج راهط التي انتصرت فيها اليمنية على القيسيّة حاسمة في تثبيت سلطة الخليفة الجديد على الشّام ودفعه إلى مواصلة اخضاع الولايات الأخرى. إلاّ أن هذه المعركة ستكون تدشيناً للصّراع القيسي - اليمني الّذي سيتواصل طيلة الفترة المتبقيّة من خلافة بني أميّة وسيكون أحد أسباب سقوطها.

أمّا في العراق، فقد كان موت يزيد بن معاوية واختلاف النّاس بعده فرصة للتخلّص من الحكم الأموي، وكان الكوفيون أوّل من أعلن خلع الوالي الأموي عُبيد الله بن زياد وطرد عامله عليهم عمرو بن حريث وتولية عامر بن مسعود الجمحي أمر الصّلاة حتّى يرى النّاس رأيهم[3] وقد مكث ابن مسعود ثلاثة أشهر قبل أن يبعث عبد

---

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٣٢ - ٥٣٦؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٤.
(٢) انظر تفاصيل البيعة لمروان في: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٣٦ - ٥٣٧.
(٣) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٢٤؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ١/٤، ص ٣٩٦.

الله بن الزّبير والياً على الكوفة[1].

أمّا في البصرة فإنّ تأثير موت يزيد بن معاوية كان مختلفاً، ذلك أنّ القبائل البصريّة قرّرت في البداية مبايعة الوالي الأموي عُبيد الله بن زياد في انتظار أن تتّضح الأمور ويجتمع المسلمون على خليفة جديد[2]. وقد حاول ابن زياد جاهداً المحافظة على مركزه، فعجّل بصرف عطاء السّكان وأرزاقهم وأرزاق ذراريهم، كما وزّع المال على بعض زعماء القبائل لاستمالتهم[3]، إلاّ أنّه لم يستطع مع ذلك السّيطرة على الوضع إذ سرعان ما ضعف نفوذه وزاد بالتوازي مع ذلك نشاط القوى المعادية له ولبني أميّة. وقد كان للصّراعات القبلية الدّامية التي انفجرت إثر قرار ابن زياد مغادرة دار الإمارة دور كبير في تقوية نشاط المعارضين من زبيريين وشيعة وخوارج.

هذه إذن مجمل الأوضاع في الأمصار الإسلامية بعد موت يزيد بن معاوية، وهي متداخلة ومضطربة ولكنّها مناسبة لتزايد نشاط الخوارج واتساع نطاقه، وهو النشاط الذي ستكون أولى نتائجه وأهمها اختلاف الخوارج في ما بينهم وانقسامهم.

ب ـ اختلاف الخوارج وانقسامهم:

تكتسي مسألة اختلاف الخوارج وانقسامهم أهميّة كبيرة في تاريخ الحركة الخارجية، لكنّها لا تزال مع ذلك من المسائل التي يكتنفها الغموض بسبب طبيعة المادّة التي توفّرها المصادر بمختلف أصنافها. ففي مصادر التاريخ العام لا نجد عن الانقسام سوى إشارات مقتضبة وغامضة. وباستثناء روايتي ابي مخنف والمدائني اللتين نجدهما في جلّ المصادر، لا تكاد تتوافر معلومات مفيدة عن هذه المسألة، والرّوايتان لا تخلوان من الالتباس والغموض.

أمّا كُتُب الأدب وكُتُب الفرق والمقالات فلا تقدّم ـ رغم تعدّد الرّوايات فيها ـ معلومات واضحة عن هذه المسألة، ولذلك يصعب تكوين فكرة شاملة ودقيقة عنها. غير أنّ دراسة الانقسام وبحث أسبابه والمراحل التي مرّ بها والمجموعات التي كان سبباً في ظهورها يبقى أمراً ضرورياً إذا أردنا التّعرّف على واقع الحركة بعد سنوات القمع والاضطهاد التي مرّت بها وخاصّة فهم المرحلة اللاّحقة من تاريخها، أو بالأحرى تاريخ التيّارات الّتي ظهرت نتيجة هذا الانقسام.

*** أسباب الخلاف ومراحله:**

إنّ أولى الأسئلة التي تتبادر إلى الذّهن عند محاولة تسليط الضوء على مسألة انقسام

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٢٩.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٣٩٦؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٤٠٢؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٠٥.

الخوارج هو كيف نشأ الخلاف داخل الحركة؟ وما هي أسبابه؟ ثم كيف تطوّر من خلاف إلى قطيعة تامّة؟

للإجابة على هذه التساؤلات نجد روايات متعدّدة تربط إحداها افتراق الخوارج بمعركة النّهروان من دون الإشارة إلى وجود خلافات داخل الحركة وتجعل عدد المتفرّقين تسعة أنفار «صار منهم رجلان إلى سجستان ورجلان إلى اليمن ورجلان إلى عمان ورجلان صارا إلى ناحية الجزيرة وصار رجل إلى تلّ موزن»(١).

ولا يمكن قبول هذه الرواية لتناقضها مع الأحداث ولطابعها الأسطوري الواضح، وهي ليست سوى رواية متأخّرة أراد مؤلّفو كتب الفرق من خلالها على ما يبدو تبرير وجود مجموعات خارجية في المناطق المذكورة.

أمّا بقيّة الرّوايات فيجمع أصحابها على القول إنّ الخلاف نشأ بين الخوارج لمّا تبنّى نافع بن الأزرق مبادىء وأحكام رفضتها عناصر من الحركة لتطرّفها ومخالفتها «أقوال السّلف من أهل النّهروان وأهل القبلة»(٢). وإذا كان أغلب الرّواة يذكرون أنّ أحكام نافع تخصّ المخالفين للخوارج ونساءهم وأطفالهم(٣)، فإنّ بعضهم يذكر أنها تخص كذلك القَعَدَة من الخوارج الذين رفضوا الالتحاق بنافع في الأهواز والمشاركة معه في الانتفاضة التي كان يستعد للقيام بها(٤).

ويتّفق الرّواة على أنّ نافع بن الأزرق لم يكن صاحب هذه الأحكام المتطرّفة وإنّما أخذها عن عناصر خارجية كانت معه. فالمدائني ينسبها إلى مولى لبني هاشم(٥)، في حين تجعل رواية الأصفهاني مصدرها زوجة نافع(٦)، ويذكر الأشعري أنّها تنسب إلى عبد ربّه الكبير أو إلى مولى آخر اسمه عبد الله بن الوضين(٧)، ويضيف البغدادي أنّ صاحبها قد يكون عبد ربّه الصّغير(٨). ويؤكّد الرواة أنّ نافعاً قد شكّ في صحّة هذه الأحكام في البداية

(١) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٤؛ الشّهرستاني، **الملل والنّحل**، ج ١، ص ١٥٩. ويذكر ابن حوقل في رواية مشابهة أنّ عبد الله بن وهب الرّاسبي وعبد الله بن إباض لجأا إلى جبل نفّوسة منذ وقت انصرافهما عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بمن سلم معهما من أهل النّهروان: ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، بيروت، بدون تاريخ، ص ٩٣.

(٢) **المصدر المنسوب إلى البلاذري**، ج ١١، ص٧٨.

(٣) المبرّد، **الكامل**، ١١١٢؛ الاصفهاني، **الأغاني**، ج ١٦، ص ١٣١ ـ ١٣٢؛ **المصدر المنسوب إلى البلاذري**، ج ١١، ص ٨٠.

(٤) الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص ٨٦.

(٥) المبرّد، **الكامل**، ص ١١١٢؛ **المصدر المنسوب إلى البلاذري**، ج ١١، ص ٨٠.

(٦) الاصفهاني، **الأغاني**، ج ١٦، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٧) الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص ٨٦.

(٨) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٥٤.

ولم يتبنّها إلاّ لمّا أيّدها أصحابها بآيات من القرآن.

ولئن تحتوي الرّوايات المذكورة ـ رغم اختلافها ـ على إشارات مهمّة يمكن أن تساعد على تحديد أسباب الخلاف وفهم خلفياته، فإنّ معلومات كثيرة أخرى تبدو غير مقبولة. من ذلك مثلاً الصّورة السّلبية التي يظهر بها نافع بن الأزرق والتي تتناقض تماماً مع الصّورة الّتي يرسمها له الرّواة أنفسهم في مواقع أخرى وفيها تأكيد على ذكائه وسعة إطّلاعه على تعاليم الإسلام ومبادىء الحركة. ولذلك فإنّ الحديث عن تأثّره بعناصر مغمورة من أتباعه، وخاصّة تردّده في قبول هذه الأفكار، لا يمكن تصديقه بسهولة. كما أن إلقاء مسؤولية الخلاف على عاتق نافع بن الأزرق وحده يبدو أمراً مستبعداً مهما كانت قيمة هذا الزعيم ومكانته داخل الحركة لأنّ مواقف عنصر واحد لا يمكن أن تحدث انقساماً إذا لم تكن هناك عناصر أخرى مساندة ومؤيّدة له.

كما أنّنا نشكّ في صحّة نسبة الأحكام المتطرّفة إلى عناصر من الموالي بسبب غيابهم شبه الكلّي عن الحركة في تلك الفترة وضعف تأثير العناصر القليلة المنضمّة إليها. ولعلّ ميل الرّواة إلى نسبة كلّ ما هو متطرّف إلى عناصر غير عربيّة، مثل عبد الله بن سبأ، هو الذي يفسّر ما ذهبوا إليه.

وثمّة مسألة أخرى تبدو كذلك غير مقبولة، وهي الطّابع المفاجىء للخلاف. فلا يوجد في الرّوايات ما يوحي بارتباط المبادىء والأحكام الجديدة التي أصدرها نافع بن الأزرق بالمرحلة السّابقة ولا بوجود أرضيّة سهّلت حدوثه، وهو أمر يصعب قبوله لأن خلافاً بمثل هذا العمق نادراً ما يحدث بصورة مفاجئة. وحتّى إنْ بدا كذلك فهذا لا ينفي ارتباطه بأحداث وتحوّلات سابقة.

إنّ كل ما ذكرناه يؤكّد أنّ مسألة الخلاف الذي عرفته الحركة الخارجية لا تخلو من التّعقيد، وأنّ الاقتصار على الرّوايات الخاصة بها في المصادر لا يكفي لكشف خلفياتها وتتبّع مراحلها. ولذلك، فإنّ الرجوع إلى تحرّكات الخوارج منذ موت يزيد أمر ضروري إذا أردنا الوقوف على كل خفايا هذه المسألة وفهم نتائجها.

كانت عودة تحرّكات الخوارج كما رأينا سابقاً مع بداية الأزمة السّياسيّة التي اندلعت في أواخر خلافة يزيد بن معاوية. وإذا كانت التّحركات قد اقتصرت على المشاركة في الدّفاع عن الأماكن المقدّسة، فإنّ موت الخليفة ودخول الدّولة الإسلاميّة في حالة فوضى شاملة قد أفسح المجال أمامهم لاستئناف نشاطهم بكلّ حريّة. وقد كانت البصرة التي تضمّ الأغلبية السّاحقة من الخوارج نقطة انطلاق هذه التّحركات والمركز الرّئيسي لها.

كانت بداية التّحرّكات بخروج أربعمائة من المحبوسين من سجن ابن زياد. ولئن يذكر

أبو مخنف أنّهم خرجوا من السّجن بعد أن كسروا أبوابه[1]، فإنّ بقيّة الرّواة يذكرون أن ابن زياد لمّا ضعف أمره كلّم فيهم فأطلقهم[2]. ويرجّح فلهوزن رواية أبي مخنف ويراها أقرب إلى الواقع لأنّ الثانية تتنافى مع موقف سكّان البصرة المعادي للخوارج[3]. وبقطع النّظر عن مدى صحّة الرّوايتين، فإنّ ما لا شكّ فيه أنّ تدهور الأوضاع السياسيّة بعد موت يزيد بن معاوية وضعف نفوذ والي البصرة قد ساعدا الخوارج على مغادرة السّجن وتكثيف نشاطهم.

ويضيف بعض الرّواة أن العناصر الّتي شاركت في الدفاع عن الحرم مثل نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفي وأبناء الماحوز وغيرهم كانوا من بين الخارجين من سجن زياد[4]. إلاّ أنّه يصعب قبول هذا القول لأنّ هذه العناصر كانت في مكّة ولم تغادرها إلا بعد وصول خبر موت يزيد وفكّ الحصار. وبذلك يكون رجوعها إلى البصرة في وقت بدأت فيه سلطة ابن زياد تضعف ولم يعد بإمكانه ولا من مصلحته القيام بحملات اعتقال ضدّ أيّ كان لأنّ ذلك سيزيد في اضطراب الأوضاع بالمصر في وقت كان يسعى فيه جاهداً إلى ضمان الهدوء. هذا إلى جانب وجود روايات تنفي قدوم نجدة بن عامر إلى البصرة، لذلك نعتقد أنّ الخارجين من السّجن هم من خوارج البصرة سجنهم ابن زياد قبل موت يزيد ولمّا اندلعت الفتنة خرجوا منه.

تكثّف نشاط الخوارج بعد اطلاق سراح المسجونين مستفيداً من الفوضى التي أخذت تسود البصرة بسبب تزايد نشاط المعارضين وخاصةً نشاط الدّاعي الزّبيري سلمة بن ذويب التّميمي وعدم قدرة ابن زياد وأشراف البصرة على الوقوف في وجه هذا النّشاط[5]. وقد اتّخذ الخوارج كهدف لتحرّكاتهم إضعاف نفوذ ابن زياد ليتمكّنوا من تكثيف نشاطهم خصوصاً وأنّه لا يوجد إجماع في البصرة على مبايعة عبد الله بن الزبير، لذلك «فشّوا في النّاس يدعون إلى محاربة السّلطان حتّى أفسدوهم فنكثوا البيعة»[6]. وضعف نفوذ ابن زياد تدريجيًا حتّى اضطرّ إلى مغادرة دار الإمارة والالتجاء إلى الأزد كما ذكرنا سابقاً.

إلاّ أنّ الحديث عن نكث البيعة لا يمكن ربطه بنشاط الخوارج وحده كما أنّه لا يشمل كلّ البصريين، فنسبة كبيرة من السكان لم يكن لها موقف واضح من هذا الصّراع. كما أنّ العديد من رؤساء القبائل كانوا يدعمون ابن زياد، ولذلك لم تكن أيّة مجموعة معارضة قادرة على السّيطرة على الوضع في البصرة بعد مغادرة الوالي دار الإمارة، وهو ما يفسّر اتّفاق

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ١١٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٤٢٠.
(٣) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٦٦.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ٤٠١.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٠٧.
(٦) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٧٩.

البصريين على تكليف اثنين من السكان بمهمّة اختيار رجل يؤمّرونه عليهم حتّى يجتمع أمر النّاس على إمام(١).

واتّفق سكان البصرة على تولية عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطّلب، الملقّب ببّة، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٦٤هـ(٢). ولكن ابن زياد لم يرضخ للأمر الواقع وحاول من مخبئه في الأزد استعادة السّيطرة على المصر بمساعدة بعض القبائل. وقد استطاع بفضل ما توافر لديه من أموال تجديد الحلف بين بكر بن وائل والأزد(٣)، منفقاً في ذلك مائتي ألف درهم على حدّ قول أبي عبيدة(٤).

وولّى عُبيد الله بن زياد بعد تجديد الحلف مسعود بن عمرو العتكي الأزدي مهمّة الاستيلاء على دار الإمارة، وهو ما حاول مسعود ورجال من قبيلته ومن بكر بن وائل وعناصر من الذين كان هواهم في بني أميّة القيام به من خلال السّيطرة على دار الإمارة. لكن تحرّك قبيلة تميم أفشل هذه المحاولة وأدّى إلى مقتل مسعود واندلاع صراع مسلّح بين القبائل البصرية(٥).

لم تكن مساهمة الخوارج في الأحداث التي عرفتها البصرة بعد انتقال ابن زياد إلى الأزد هامّة، ومع ذلك نجد العديد من الرّواة يقحمونهم في عملية قتل مسعود ويحمّلونهم مسؤولية تفجّر الصّراع القبلي الدّامي في ذلك المصر. وقد نسب بعضهم شعراً إلى نافع بن الأزرق يؤكّد قيام الخوارج بقتل مسعود(٦). ولئن تبنّى بعض المؤرّخين هذه الرّوايات وأكّدوا مسؤولية الخوارج في قتل مسعود بأمر من نافع بن الأزرق(٧)، فإنّ البعض الآخر كذّبها. وقد أثبت سليم النعيمي في دراسة استعرض فيها مختلف الرّوايات الخاصة بهذه الحادثة أنّ أغلب الرّواة مثل المدائني وعمرو بن شمر وابن الكلبي يشكّون في مشاركة الخوارج في عمليّة قتل مسعود، بينما ينفي أبو عبيدة معمر بن مثنى التّهمة نفياً قاطعاً. وينفرد المبرّد بنقل روايتين عن دور الخوارج في تلك الحادثة يذكر في إحداهما أنّهم اعتزلوا

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥١٣.
(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥١٤.
(٣) كان هذا الحلف في الجاهلية ثم تجدّد لما قدمت جماعة من الأزد واستقرّت في البصرة في أواخر خلافة معاوية وبداية خلافة يزيد. انظر: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥١٦.
(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥١٦
(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤/١، ص ٣٩٧ ـ ٤٢٤.
(٦) ينسب إلى نافع قصيد يقول في مطلعه:

فتكنا بمسعود بن عمرو لقيله   لببّة لا تخرج من السّجن نافعا

(إحسان عبّاس، شعر الخوارج، ص٦٨).
(٧) RUBINACCI (A), «Azarika», In: *L'Encyclopédie de l'Islam* T. I, p. 833.

الصّراع إلاّ أنّ نفراً منهم من بني تميم معهم عبس بن طلق الصّريمي أخو كهمس أعانوا قومهم»[1]. ويضيف في الثانية أنّ مالك بن مسمع البكري طلب من نافع بن الأزرق أن يساعد أبناء قبيلته في هذه الحرب فرفض وخرج بعد أيّام إلى الأهواز. وتنفي الرّوايتان عن الخوارج تهمة المشاركة في الأحداث وتؤكّدان أنّه لم يكن لنافع بن الأزرق وأصحابه أيّ دور فيها. وإذا كانت بعض العناصر التميميّة قد أقحمت نفسها في الصّراع فإن ذلك كان بدافع شخصي، كما أنّ مشاركتها جاءت بعد اندلاع الصّراع ولم تكن هي المتسبّبة فيه، أمّا وجود عبس بن طلق الصّريمي الّذي يذكره الرّواة وينسبونه إلى الحركة فليس دليلاً على مشاركة الخوارج في الصّراع لأنّ عبساً لم يكن خارجيًا، وتؤكّد ذلك مشاركته في الفترة اللاّحقة مع المهلّب بن أبي صفرة في قمع ثوراتهم، ولعلّ الرّواة ذكروه لانتماء أحد إخوته وهو كهمس إلى الحركة ومشاركته في انتفاضة أبي بلال مرداس. وقد فسّر سليم النّعيمي وجود الرّوايات التي تتّهم الخوارج بقتل مسعود وتحمّلهم مسؤولية الفوضى التي وقعت في البصرة بحرص التّميميين على إشاعة ذلك ليتبرّأوا من دم مسعود وقبول الأزد له لتبرير قعودهم في الأخذ بثأر رئيسهم وقبولهم الديّة[2].

وعموماً، فإنّ نفي مسؤولية القتل عن الخوارج يُمكن أن نجد لها مبرّرات عديدة لعلّ أهمّها رفض الخوارج المبدئي الدخول في الصّراعات القَبَليّة، وهو ما عبّر عنه بوضوح نافع بن الأزرق لما طلب منه مالك بن مسمع مساعدة قبيلته في هذا الصّراع[3].

لكن عدم مشاركة الخوارج في الصّراع بين القبائل لا يعني توقّف تحرّكاتهم، فقد تبيّن من خلال تتبّع الرّوايات أنّ عناصر ومجموعات خارجيّة عديدة قد كثّفت نشاطها منذ موت يزيد مستفيدة من الفتنة وانشغال السّكان بالحرب بين القبائل.

وينقل أبو مخنف رواية عن هذا النشاط يقول فيها: «إنّ الخوارج اجتمعوا فقالت العامّة منهم لو خرج منّا خارجون في سبيل الله فقد كانت منّا فترة منذ خروج أصحابنا فيقوم علماؤنا في الأرض فيكونوا مصابيح النّاس يدعونهم إلى الدّين ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون بالرّب فيكونون شهداء مرزقين عند الله أحياء»[4]. وتكتسي هذه الرّواية أهميّة كبيرة لأنّها تبيّن أنّ نظرة الخوارج إلى النضال قد تغيّرت كما تغيّرت أساليب عملهم. وإذا كانت الرّواية لا تحتوي على إشارات يمكن أن تعطينا فكرة عن أهمية هذا التّوجه الجديد داخل الحركة، فإنّ استعمال أبا مخنف كلمة «العامة» دليل على أن الاجتماع لم يقتصر على القادة

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١١٢.

(٢) النّعيمي، «الأزارقة»، مجلّة المجمع العلمي العراقي، مج ١٧، ص ٤٣.

(٣) انظر ردّ نافع بن الأزرق في: المبرّد، الكامل، ص ١٣٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧.

وإنّما شمل كذلك عناصر خارجية عادية.

وتؤكّد المقترحات التي تقدّم بها المجتمعون في البصرة هذا التّوجه الجديد، فالحرص على «خروج العلماء ليهدوا النّاس ويدعونهم إلى الدّين» يظهر الرغبة في نشر مبادىء الحركة على نطاق واسع وتعزيز صفوفها بمزيد من الأنصار، وهو أمر لم يكن الخوارج يهتمّون به في السّابق. كما يدُلّ ذكر «الخروج في سبيل الله» والتّحريض على الاستشهاد عدم تخلّي الخوارج عن العمل العسكري. لكن الافت للانتباه هو أنّ الرغبة في الاستشهاد لم تعدْ وحدها تقود تحرّكاتهم بل صاروا يرغبون في الانتصار على العدو ولذلك حرصوا على جمع شمل الخوارج وتنظيم صفوفهم قبل الخروج من البصرة. والظّاهر أنّ التجارب السّابقة قد دفعت العديد منهم إلى التفكير في مستقبل الحركة والبحث عن السُبُل المثلى لنجاح تحرّكاتها.

ولم يكن للخوارج طيلة هذه الفترة قيادة تنظّم تحركاتهم وتشرف عليها، ولذلك كان نشاطهم جماعيًا شارك فيه كل من كانت لديه رغبة في ذلك. ويؤكّد المدائني أنّ غياب القيادة قد تواصل إلى حين مقتل مسعود بن عمرو العتكي[(١)]. ولم يختر الخوارج قائداً لهم إلاّ بعد اتّفاقهم على الخروج، وكان نافع بن الأزرق هو الذي كُلّف بمهمة التنظيم والإعداد لهذه العمليّة[(٢)].

ولا يُلاحظ المتتبّع لنشاط الخوارج خلال تلك الفترة وجود خلافات داخل الحركة. فالمصادر تتحدّث عن رغبة جماعيّة في تنظيم الصّفوف واستئناف النّشاط، وليس هناك ما يوحي بوجود معارضين لهذا التّوجه. وإذا كانت بعض العناصر البصريّة الحاملة للفكر الخارجي أو لبعض مبادئه لم تشارك، فالأرجح أنّها لم تكن معارضة له، أو هي على الأقلّ لم تعبّر عن ذلك علانيّة.

غادر الخوارج بعد هذا الاجتماع البصرة بقيادة نافع بن الأزرق في شهر شوال سنة ٦٤هـ[(٣)]، واستقرّوا في الأهواز. ولئن لم تذكر المصادر الأطراف التي كانت وراء فكرة الانتقال إلى تلك المنطقة بالذات ولا دوافع اختيارها، فالظاهر من خلال الرّوايات آنفة الذكر أنّ قرار مغادرة البصرة قد إتّخذه الخوارج بصورة جماعيّة لمّا تدهور الوضع الأمني في المصر وصار بإمكانهم مغادرته بسهولة، مؤكّدين مرّة أخرى رغبتهم في الخروج ومفارقة المدينة وسكّانها الكفّار وحرصهم على القيام بتحرّكاتهم بعيداً عنهم. أمّا اختيار الأهواز، فتفسّره خاصّةً الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للمنطقة. فهي غنيّة، مداخيلها مرتفعة، كما

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٧٩.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٧٩.

أنّها قريبة من البصرة تمكّن السّيطرة عليها من تهديد سكان المصر وفرض حصار عليهم واقتحام المدينة عند الحاجة.

أمّا أنشطة الخوارج في الأهواز فقد تمثّلت في «طرد عمّال السّلطان وجباية الخراج»[1]، وهي أعمال تمّت على ما يبدو من دون عنف كبير لأن غياب سلطة قويّة في البصرة وفي مركز الخلافة قد أضعف نفوذ العمّال وأفقدهم القدرة على المقاومة وشرعية القيام بذلك، كما تولّى نافع وأصحابه «مناظرة النّاس»[2].

وباستثناء هذه الأعمال، لا يذكر الرّواة قيام المجتمعين في الأهواز بأنشطة أخرى في الأشهر الأولى لقدومهم، غير أنّ بعضهم يشير إلى تولّي نافع بن الأزرق مكاتبة الخوارج الذين لم يلتحقوا به. وينقل المبرّد رسالتين[3]، واحدة إلى خوارج البصرة والثّانية إلى نجدة الحنفي، وهي ردّ على رسالة كان بعثها نجدة اليه، في ما ينقل أبو مخنف جملة من المواقف والأحكام يذكر أنّ نافعاً ضمّنها رسالة إلى خوارج البصرة كذلك[4].

ويؤكّد الرّواة أنّ المواقف الواردة في الرسائل هي التي أثارت خلافاً بين الخوارج. ويستدعي هذا القول التّعرف على محتوى هذه الرسائل لتحديد مجمل المسائل الواردة فيها والوقوف على مدى مسؤولية نافع في حصول الخلاف.

يظهر من خلال القراءة الأليّة للرسائل أنّها متفاوتة زمنيًا، فالرّسالة التي بعثها نافع إلى خوارج البصرة ونقلها المبرّد هي الأولى أو على الأقل تسبق زمنيًا تلك التي نقلها أبو مخنف والموجّهة بدورها إلى البصريين. أمّا الرسالة الموجّهة إلى نجدة فهي متأخرة، ويدلّ على ذلك محتواها إذْ هي تتضمّن مجمل المبادىء التي تبنّاها نافع وأصحابه وصارت تميّزهم عن بقيّة الخوارج.

أمّا تحليل محتوى الرسائل فيظهر أنّ اهتمام نافع قد تركّز على مسألتين رئيسيتين هما: مسألة «القعود» التي احتلّت الحيّز الأكبر في هذه الرسائل، ومسألة «الحكم على المخالفين للخوارج». فقد ركّز نافع في الرسالة الأولى على الجهاد ولم يذكر القعود، بل اكتفى بذمّ التخلّف عن الخروج من دون أن يسمّي أصحابه المتبقّين في البصرة «القعدة». كما أنّه لم يتّخذ بشأنهم موقفاً معادياً واكتفى بترغيبهم في الجهاد وحثّهم عليه مدعّماً قوله بآيات من القرآن. أمّا المخالفون للخوارج فلم يوضّح موقفه منهم، وإنْ كان تركيزه على الجهاد

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١١٢؛ المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص ٨٨٠؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٤٠.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ١١١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٥ ـ ١١٦، ١١٧ ـ ١١٨.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

ومفارقة الكفّار دليل على أنّه لا يختلف مع أسلافه في الحكم عليهم بالكفر[1].

وتتطابق مواقف نافع الواردة في الرسالة مع مواقف بقيّة الخوارج ومع المبادىء الأساسيّة للحركة، لأنّ الدّعوة إلى الجهاد والتّحريض عليه قد صدرت عن زعماء الحركة منذ ظهورها واستمرّت ترد على ألسنة قادتهم في كلّ المناسبات كما سبق لبعض الزّعماء أن ذمّوا القعود[2]. وهذا ما يجعلنا نستبعد حصول خلاف بين الخوارج المتبقّين في البصرة وأصحابهم المجتمعين في الأهواز إثر وصول هذه الرسالة.

أمّا الرّسالة الثّانية والّتي ينقلها أبو مخنف فقد تغيّرت فيها مواقف نافع تجاه المتخلّفين عن الخروج إذ صار لا يتولاّهم ويعتبر أنّه «لا نجاة لهم»، معلناً لأوّل مرّة «براءة» خارجي من عناصر من التنظيم نفسه. كما تغيّر حكم نافع على المخالفين للخوارج إذْ حوّلهم من دائرة الكفر إلى دائرة الشرك، وحرّم الإقامة بين أظهرهم وإجازة شهادتهم وأكل ذبائحهم وقبول علم الدّين عنهم ومناكحتهم ومواريثهم[3]، مطبّقاً عليهم الأحكام ذاتها التي طبّقها الرّسول على أعدائه واضعاً نفسه وأصحابه في مكانة محمّد وصحابته. كما غيّر نافع في هذه الرسالة أسلوب اللّين والتّرغيب الذي استعمله في رسالته الأولى بآخر أكثر صرامة وشدّة.

أثارت هذه الرسالة عند وصولها الى البصرة ردود فعل في أوساط الخوارج، وكان من الطّبيعي أن يتجنّد بعضهم للردّ عليها. وقبل التعرّف على مجمل الرّدود سنحاول فهم الأسباب التي دفعت نافعاً وأصحابه إلى تبنّي هذه المواقف المتصلّبة تجاه «القعدة» وبقيّة المسلمين.

لا يمكن فهم أسباب تطرّف مواقف الخوارج المجتمعين في الأهواز إلاّ إذا ربطناها بموقف أصحابهم المتبقّين في البصرة. فالظّاهر أنّ دعوة الخروج للجهاد التي وجّهها لهم نافع في رسالته الأولى لم تجد صدى كبيراً لديهم. وإذا كان أغلب الرّواة لا يذكرون ردّ الخوارج عليها، فإنّ بعض الإشارات في رواية أبي مخنف تكفي لتأكيد ما قلناه. فهو يذكر أنّ البصريين ضيّقوا الخناق على من تبقّى من الخوارج في البصرة بعد خروج نافع حتّى التحق أغلبهم بالأهواز، إلاّ أقليّة منهم لم ترغب في الخروج من بين أفرادها عبد الله بن إباض وعبد الله بن الصفّار ورجال معهما على رأيهما[4]. وقد برّر البرّادي بقاء عبد الله بن إباض في البصرة برغبته في «سماع دوي القرّاء وترنين المؤذنين وحنين المسبّحين وعدم قدرته على مفارقة هذه الأصوات المحبّبة لديه»[5].

(١) المبرّد، الكامل، ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧.
(٥) البرّادي، كتاب الجواهر، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

وأياً تكن الأسباب المفسّرة لبقاء هؤلاء الخوارج في البصرة، فالأكيد أنهم كانوا رافضين لفكرة الخروج والمشاركة في الانتفاضة التي كان نافع بن الأزرق يستعدّ للقيام بها، ولذلك فضّلوا تحمّل أذى البصريين على الالتحاق بالأهواز ولم يغيّروا موقفهم عند وصول رسالة نافع الأولى. لكن المجتمعين في الأهواز لم يقبلوا هذا الموقف وردّوا عليه بإصدار حكمهم بالبراءة من كلّ المتخلّفين عن الخروج. ولم يكتفِ نافع بالحكم على القعدة، بل أقحم في رسالته المخالفين للخوارج كذلك وحكم عليهم بالشرك، رغبةً منه على ما يبدو في تأكيد صحّة موقفه من المتخلّفين. فقد أراد بهذا الحكم إقناع القعدة بأنّه لم يعد يتولاّهم لا لتخلّيهم عن الجهاد فحسب بل لأنّهم بقعودهم قبلوا العيش مع المشتركين والتّعامل معهم مخالفين بذلك تعاليم الإسلام وسيرة الرّسول خاصّة.

لكنّ الرّسالة الّتي ضمّنها نافع هذه المواقف والأحكام كانت سبباً في إحداث الخلاف بين الخوارج ـ كما ذكرنا سابقاً ـ واضطرّ القعدة إلى الردّ عليها وتبرير قعودهم[1]. ولم تكن ردود القعدة لترضي نافعاً وأصحابه، لذلك تصدّوا لها بمواقف أكثر شدّة وتطرّفاً دعّموها بحجج وبراهين جديدة. وقد تضمّنت رسالة نافع الموجّهة إلى نجدة الحنفي مجمل هذه المواقف، ففيها كفّر القعدة ورفض مقارنتهم كما فعل نجدة بالمتخلّفين عن الرّسول لاختلاف أوضاعهم عنهم. كما تعرّض فيها للمخالفين للخوارج فاعتبرهم مثل آبائهم وأمّهاتهم تطبيقاً لقوله تعالى على لسان نوح: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً﴾[2]. وتطرّق في خاتمة الرسالة إلى مسألة استحلال الأمانة وربطها بمواقفه السّابقة من المخالفين، فهو يستحلّ أموالهم كما يستحلّ دماءهم ولا يعتبرها أمانة بل فيء المسلمين[3].

يتأكّد من خلال هذا العرض لمحتوى الرسائل الطّابع التطوّري للخلاف، فهو لم يقع بصورة مفاجئة كما يؤكد الرّواة وإنّما تطوّر تدريجياً وارتبط بمواقف المجموعات الخارجيّة إزاء مسألة الخروج والمشاركة في الانتفاضة التي أراد نافع وأصحابه القيام بها.

أمّا مسؤولية ابن الأزرق في تفجير الخلاف والتي يركّز عليها الرّواة فثابتة لا شكّ فيها، فهو الذي أحدث بإثارة مسألة القعود شقاقاً داخل الحركة. لكن رغم الإقرار بمسؤولية ابن الأزرق، فإنّنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ هناك أسباباً أخرى ساهمت بدورها في وقوع الخلاف. ويتمثّل أول هذه الأسباب في وجود بوادر لخلافات بين الخوارج سابقة للفتنة الثانية ارتبطت بمسألة استعراض المخالفين وقتلهم. فقد استنكر بعض الخوارج عمليات

(١) المبرّد، الكامل، ص ١١٥ ـ ١١٦.
(٢) سورة نوح، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ١١٥ ـ ١١٦.

الاستعراض التي كانت تقوم بها من حين لآخر عناصر خارجيّة في البصرة، وكان في مقدمة المندّدين أبو بلال مرداس بن أديّة أحد زعماء الحركة الكبار[1]. وقد بيّنا في السّابق أنّ ملامح تيّارين مختلفين بدأت تبرز في صفوف الخوارج منذ ولاية عُبيد الله بن زياد أحدهما معتدل ينبذ العنف، والثاني متطرّف يرى أصحابه في العنف الوسيلة الوحيدة للردّ على عنف الدّولة وعلى كلّ أعداء الخوارج.

وإذا كان تضارب المواقف بشأن مسألة الاستعراض وقتل المخالفين لم يؤدّ آنذاك إلى خلافات حادّة داخل الحركة، فلأنّ الظرفيّة لم تكن ملائمة لطرحها ومناقشتها وتبنّي مواقف واضحة بشأنها. لكن هذه المسألة وغيرها ظلّت على ما يبدو تختمر في أذهان الخوارج وتتبلور مواقفهم بشأنها تدريجيًا، فلما اندلعت الفتنة وصدرت مواقف نافع وأصحابه بخصوص القعدة والمخالفين كانت الأرضية مهيأة للردّ عليها خصوصاً وأنّ الفتنة قد أتاحت للخوارج إمكانية التّعبير عن مواقفهم بحرّية. ورغم أنّ المسألة التي أحدثت الخلاف جديدة، فإنّنا لا نشكّ في تأثير الخلافات السابقة على مواقف الطّرفين بشأنها.

أمّا ثاني الأسباب الّتي جعلتنا لا نحمّل نافعاً وأصحابه وحدهم مسؤولية حصول الخلاف بين الخوارج، فهو مرتبط بطبيعة هذه الحركة التي تحمل في ذاتها بوادر الفرقة والانشقاق، ذلك أنّ فكرها القائم على قراءة معيّنة للإسلام والرافض لكلّ القراءات الأخرى لا يمكن أن يتطوّر إلاّ في اتّجاه التطرّف[2] ويفضي بالتّالي إلى الخلافات.

ويتأكّد ما قلناه من خلال ما وقع في تلك الفترة. فنافع وأصحابه لم يخرجوا عن الخطّ العام للحركة ولم تكن مواقفهم بخصوص القعدة والمخالفين سوى تطوير لمواقف أسلافهم وبالأسلوب نفسه فكل الخوارج تمسّكوا بالجهاد واعتبروه واجباً مقدساً وحثّوا أصحابهم على الخروج ورفض بعضهم القعود، كما حكم الخوارج بكفر مخالفيهم وقام العديد منهم بعمليات استعراض وقتل ذهب ضحيتها بعض المسلمين. لقد طوّر نافع هذه المواقف والأحكام فحوّل التنديد بالقعود إلى تكفير القعدة، وجعل المخالفين مشركين بعد أن كانوا كفاراً، وصيّر تبعاً لذلك مقرّ إقامتهم «دار كفر»[3] بعد أن كان «القرية الظالم أهلها»[4]. وقد أخضع نافع مثل أسلافه هذه المسائل السياسيّة للقرآن وسيرة الرّسول، واعتبر أحكامه بشأنها بمثابة القناعات الدينية التي لا تقبل النقد أو الرفض.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٥ ـ ١٨٠.
(٢) DJAIT (H), *op. cit.*, pp.. 285 - 286
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٤.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ١١٢.

وهكذا يظهر أنّ مسؤولية نافع تقتصر على تفجير الخلاف بطرح هذه القضايا، أما أسبابه العميقة فهي متعدّدة وسابقة لتلك الفترة. وحتّى إذا اعتبرنا تكفير نافع للقعدة سبباً مباشراً لهذا الخلاف، فإنّ مسؤوليته تظلّ محدودة لأنّه لم يقم سوى بتطبيق مبدأ يتّفق حوله كلّ الخوارج، وهو تكفير المخالف. والأكيد أنّ ما رفضه القعدة هو تطبيق هذا المبدأ داخل الحركة لأنّه يحوّلهم إلى كفّار، وكذلك ما أظهره نافع وأصحابه من تشدّد في تطبيقه، وهو ما لم يسبق أن قام به أحد من زعماء الحركة. والظاهر أنّ هامش الحريّة الذي توفّر لنافع بسبب الفتنة هو الذي جعله يتميّز عن أسلافه في هذا الجانب، كما قد يكون لتكوينه وتجربته السابقة دور في جعله رجل فكر وعمل يرفض الفصل بينهما.

لكن الأزارقة بتبنّيهم هذا الموقف أعطوا مفهوم الإيمان معنى جديداً سيتميّزون به عن سائر التّيارات الإسلامية وهو ربط الاعتقاد بالعمل، لأنّ الاعتقاد مهما كان صادقاً فصاحبه ليس مؤمناً حتّى يكتمل له عنصر العمل المطابق لهذا الاعتقاد[1]. وهو ما سيجعل الأزارقة يطالبون في فترة لاحقة كلّ من ينضمّ إلى صفوفهم بإجراء امتحان أو «محنة»[2] تؤكّد لهم صحّة إيمانه. كما سيطرح ربط الإيمان بالعمل مسألة أخرى هامة هي مسألة مرتكب الكبيرة التي ستكون أحد محاور الجدل بين المسلمين بعد الفتنة الثانية خاصةً.

ولم يكتفِ نافع بن الأزرق وهو في الأهواز بتحرير الرسائل إلى القعدة في البصرة واليمامة لشرح مواقفه بل وضع محاججة قويّة ومتماسكة تشبه تلك التي وضعها زعماء الحركة الأوائل لتبرير رفضهم التحكيم هدفها على ما يبدو اقناع مخاطبيه من الخوارج وغيرهم بصحّة مواقفه.

وتحتوي محاججة نافع على سلسلة من الأسئلة تتطوّر تدريجيًا وتقود المستجوب إلى تقبّل أقوال مخاطبه والاقتناع بصحّتها وبطلان ما سواها[3]، وهي تعتمد على القرآن وسيرة الرّسول التي أقحمها نافع في الجدل وجعلها مرجعاً لا يقلّ قيمة عن القرآن، معتبراً ما يقوم به مماثلاً تماماً لما قام به الرّسول سابقاً[4].

وقد فتح نافع بهذه المحاججة باب الجدل على مصراعيه وأعطى النقاشات الدّينية التي ظهرت بوادرها الأولى إبّان الثّورة ضدّ عثمان وخاصّة بعد التّحكيم دفعاً جديداً ووسع نطاقها وأقحم فيها جميع الخوارج وعدداً كبيراً من المسلمين. وستعمد كل الأطراف المعارضة انطلاقاً من تلك الفترة إلى تأويل القرآن وسيرة الرّسول بما يتماشى مع مواقفها،

---

(١) حسين مروّة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج ١، ص ٥١٠ - ٦٠٩.
(٢) المصدر المنسوب إلى البلاذري ج ١١، ص٧٨ - ٨٠.
(٣) انظر هذه المحاججة في: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ١١٥ - ١١٦؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧ - ٥٦٨.

وسيكون هذا الجدل المنطَلَق لما سيُعرف لاحقاً بعلم الكلام. وربّما لهذا السّبب ربط العديد من الباحثين ظهور البوادر الأولى لهذا العلم بالخلاف بين الخوارج وبنافع بن الأزرق بالذات.

هذه هي أهمّ أسباب الخلاف الذي عرفته الحركة الخارجية مع اندلاع الفتنة الثانية والأطوار التي مرّت بها. وإذا كنّا قد ركّزنا على طرف واحد، هو نافع بن الأزرق وأصحابه، فذلك لأهميّة الدّور الّذي لعبوه في هذا الخلاف. لكن القَعدَة قد ساهموا بدورهم فيه، وسهّلوا برفضهم الامتثال لأحكام نافع توسيع نطاقه، وهو ما سنتبيّنه من خلال ردودهم.

ترد ردود القعدة على مواقف نافع في عدّة روايات أهمّها تلك التي ينقلها الطبري عن أبي مخنف والتي ينقلها المبرّد. ورغم الاختلاف بين الروايتين في خصوص العناصر التي تولّت الردّ على أقوال نافع - وهي قضيّة سنؤجل مؤقّتاً الحديث عنها - فإنّها تتّفق في المسألة التي تمحورت حولها ردود القعدة. فقد جاء في ردّ ابن إباض قوله: «قد كذب نافع وكذّبنا في ما يقول إنّ القوم كفار بالنّعم والأحكام وهم براء من الشّرك لا يحل لنا إلاّ دماؤهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو حرام»[1]. أمّا المبرّد فينقل على لسان أبي بيهس قوله: «إنّ أعداءنا كأعداء رسول الله تحلّ لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون بمكّة... وأزعم أنّ مناكحتهم ومواريثهم تجوز لأنّهم منافقون يظهرون الإسلام وأنّ حكمهم عند الله كحكم المشركين»[2].

ويتّضح من خلال هذه الرّدود أنّ مسألة القعود لم تعد هي جوهر الخلاف لأنّ اهتمام القعدة قد تركّز على مسألة الموقف من المخالفين والحكم عليهم. ولا يعود هذا الاهتمام على ما يبدو إلى رغبة القعدة في حسم هذه القضيّة وبيان موقفهم بشأنها وإنّما لأنّهم وجدوا في طرحها الحجج والبراهين التي تبرّر قعودهم وتبطل حكم الكفر الذي أصدره نافع وأصحابه عليهم. وهذا ما يفسّر الأهمية الكبيرة الّتي اكتستها هذه المسألة وتحوّلها منذ تلك اللحظة إلى إحدى أهمّ المسائل التي سيدور حولها جدل الخوارج وعنها ستتفرع قضايا عديدة.

لكن الحكم على المخالفين الذي صدر عن بعض القعدة لم يقنع البقيّة، فتجنّدت بعض العناصر للردّ عليه. ويحملنا الاهتمام بهذه الرّدود التي بدأت تظهر في صفوف القعدة إلى تسليط الضوء على الوضع الذي صارت عليه الحركة نتيجة هذا الخلاف.

*** نتائج الخلاف: الانقسام:**

ممّا لا شكّ فيه أنّ الخلاف الّذي نشب داخل حركة الخوارج نتيجة ما تبنّاه نافع وأصحابه من مواقف متصلّبة وإصرار القعدة على رفضها وإظهار بطلانها، كانت نتيجته

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٧ - ٥٦٨.
(٢) المبرّد، الكامل، ص١١٨.

الأولى انقسام الحركة، وهو ما سيكون له تأثير كبير على مستقبل الخوارج من جهة وعلى الدّولة الإسلامية من جهة أخرى. إلاّ أنّنا سنكتفي هنا بتحديد نتائج هذا الانقسام بالنسبة إلى الحركة وحدها وفي مستويين فقط، هما المستوى السّياسي والمستوى الفكري. أي بعبارة أخرى سنحاول تحديد التيارات الخارجيّة التي تكوّنت نتيجة هذا الانقسام وما تبنّاه كل تيّار من مبادىء ميّزته عن البقية.

ليس من العسير تحديد عدد التيّارات الخارجية الّتي تكوّنت نتيجة الانقسام إذا قبلنا الرّوايات التي اهتمّت بهذه المسألة وذلك لاتّفاقها على أنّه قد أفضى منذ وقوعه إلى ظهور التيّارات الخارجية الرّئيسية وعددها أربعة حسب أغلب الرّواة. ولا توجد في الرّوايات سوى اختلافات تخصّ تسمية بعض هذه التّيارات، وينطبق ما نقوله على مصادر التّاريخ العام وعلى كتب الفرق والمقالات.

ففي الأولى تبرز رواية أبي مخنف التي تُعتبر أهمّ رواية عن الانقسام بذكرها أسماء كلّ من ابن إباض وابن الصفّار وحنظلة بن بيهس بالإضافة إلى نجدة الحنفي وابن الأزرق، وتنسب إليهم جميعاً ـ باستثناء حنظلة بن بيهس ـ مواقف تتعلّق بمسألة الموقف من المخالفين والحكم عليهم[1]. وهو ما يحمل على الاعتقاد بأنّ حركات الأزارقة والنجديّة والإباضية والصّفرية قد ظهرت في وقت واحد.

أمّا المبرّد فيذكر أنّ الخلاف أدّى إلى ظهور «ثلاثة أقاويل: قول نافع وقول أبي بيهس وقول ابن إباض، والصّفرية والنّجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن إباض»[2]. وينسب المبرّد لأبي بيهس جابر الضّبعي المبادىء والأحكام الّتي ينسبها أبو مخنف ورواة آخرون إلى ابن الصفّار. ويوجد اختلاف طفيف بين صاحب المؤلّف المنسوب إلى البلاذري والمبرّد ـ رغم أنّ مصادر أخبارهما غالباً واحدة ـ إذ يجعل الأول زعيم الصّفريّة أحد الأطراف الّتي تولّت الردّ على أقوال نافع إلى جانب ابن إباض وأبي بيهس.

ويتّفق الأشعري مع القائلين بتفرّق الخوارج إلى أزارقة وإباضيّة وصفريّة ونجديّة.[3] ويتميّز البغدادي بذكر مجموعة يسمّيها المحكّمة الأولى والأزارقة والنّجدات والصّفرية يضيف إليها العجاردة المتفرّقة فرقاً[4].

أمّا المصادر الإباضية فلا تذكر نتائج الانقسام لعدم اهتمامها بهذه المسألة. ولئن افتقرت إلى ما يشير إلى تاريخه المضبوط، فإنّ أسماء التّيارات الكبرى وزعمائها ترد في هذه

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص٥٦٨.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ١١٩.
(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٠١.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٩.

المصادر مقترنة في أغلب الأحيان بالحديث عن الخلاف بين الخوارج[1]، وهو ما قد يفيد اتّفاق أصحابها مع غيرهم من الرّواة على ظهور كلّ هذه التّيارات في وقت واحد. ولئن تميّز القلهاتي صاحب كتاب **الفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان**[2] بذكر تفاصيل عن مختلف التيّارات الإسلامية، فإنّ ما يقدّمه عن هذه المسألة لا يختلف مع ما نجده في بقية المصادر.

وعموماً، يوجد اتّفاق بين الرّواة على أنّ انقسام الخوارج قد أدّى إلى ظهور عدّة تيّارات في وقت واحد وأغلبها في المكان عينه، وهو البصرة. وقد قبل هذا القول جلّ الباحثين وإنْ كان فلهوزن قد أثار في تعليقه على رواية أبي مخنف مسألة الظّهور المفاجىء للتيّارات الأربعة «جاهزة كلّها وكاملة التكوين»[3]، لكنّه لم يذهب إلى حدّ الشكّ في صحّتها.

وإذا كان انقسام الخوارج منذ الأشهر الأولى لموت يزيد واندلاع الفتنة الثانية أمر ثابت لا شكّ فيه، فإنّه يصعب قبول فكرة ظهور تيّارات عديدة في وقت واحد بمبادئها وزعمائها وأنصارها، خصوصاً وأنّ الزّعماء الذين تنسب إليهم مثل ابن إباض وابن الصفّار وأبي بيهس يرد ذكرهم لأوّل مرة في تلك الفترة، ولا نجد ما يدلّ على نشاطهم السّابق في صفوف الحركة مثل ابن الأزرق. وحتّى إنْ افترضنا أنّهم كانوا فعلاً من الخوارج باعتبار أنّ عدم ذكرهم ليس دليلاً على عدم وجودهم، فإنّنا نستغرب تحوّلهم المفاجىء من عناصر عادية بل مغمورة إلى زعماء لتيّارات تبنّى كلّ واحد منهم جملةً من المبادىء وجمع على أساسها العديد من الأنصار حوله. ويحملنا الشكّ في هذه المسألة إلى البحث عن حقيقة ما وقع داخل الحركة من خلال تتبّع المراحل الأخيرة من الخلاف.

لقد تحدثنا في ما سبق عن وصول رسالتي نافع بن الأزرق إلى خوارج البصرة وما تضمّنتاه من مواقف وأحكام بخصوص القعدة والمخالفين، كما تعرضنا لمواقف المتبقّين في البصرة والرّافضة لهذه الأحكام، وهو الموقف ذاته الذي تبنّاه الخوارج المجتمعون في اليمامة وعبّر عنه نجدة الحنفي في رسالته إلى نافع. وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأنّ الانقسام قد أفضى في مرحلته الأولى إلى ظهور مجموعتين تضمّ واحدة المجتمعين في الأهواز، وهم الذين سُمّوا الأزارقة نسبة إلى زعيمهم نافع بن الأزرق، في حين تضمّ الثانية كلّ الرافضين للخروج أو «القعدة» بما في ذلك خوارج اليمامة الذين لم يكوّنوا رغم انفصالهم عن جماعة البصرة مجموعةً متميّزةً على المستوى الفكري.

---

(1) البرادي، كتاب الجواهر، ص ١٥٥ ـ ١٥٦؛ الشماخي، كتاب السرّ، ص ٧٩.
(2) القلهاتي، كتاب الكشف والبيان، تحقيق محمد بن عبد الجليل، تونس، ١٩٨٤، ص ٢٩٤ ـ ٣٠٣.
(3) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٦٧.

وتؤكّد انقسام الخوارج إلى تيّارين في البداية إشارةٌ في المصدر المنسوب إلى البلاذري يذكر فيها أنّ اتباع التيّار الأول خرجوا مع نافع في حين بقي أتباع التيّار الثاني في البصرة وسُمّوا «أهل الوقوف»[1]، إشارةً على ما يبدو إلى عدم تسرّعهم في تبنّي مواقف من الخلاف[2] واكتفائهم بالقعود.

وقد نشطت بعد الانقسام كلّ مجموعة على حدة. فأمّا الأزارقة فقد اتّجهوا نحو العمل العسكري. والظاهر أنّ تفرّغهم الكلّي للحروب هو الذي خلق نوعاً من الاستقرار الفكري في صفوفهم بحيث لم تظهر داخل هذه المجموعة خلافات فكرية إلى حين القضاء على الثائرين من أنصارها.

أمّا القعدة فقد اختار الموجودون منهم في اليمامة استغلال الفتنة لتنظيم تحرّك عسكري بقيادة نجدة الحنفي. ولكن النّجدية كتيّار خارجي متميّز فكرياً لن يظهر إلاّ في أواخر التّحرّك أو بعده. وأمّا قعدة البصرة فقد اهتمّوا بالنّشاط الفكري، فكثّفوا على ما يظهر نقاشاتهم ومناظراتهم مستفيدين من حالة الاضطراب التي كانت تسود البصرة خلال سنوات الفتنة. وستنبثق من وسط هؤلاء القعدة بقيّة التّيارات الخارجية الرّئيسية. فما هي هذه التيارات ومتى كان ظهورها؟

لقد ذكرنا في ما سبق أنّ الجدل الذي انطلق في البصرة بعد وصول رسائل نافع بن الأزرق هو الذي تسبّب في حصول خلاف بين القعدة، لكن الرّواة يختلفون في تحديد الأطراف المساهمة فيه والمتسبّبة بالتّالي في انقسام هذه المجموعة. فأبو مخنف يذكر أنّ الخلاف كان بين عبد الله بن إباض وعبد الله بن الصفّار[3]، وبذلك تكون نتيجته ظهور تياري الإباضية والصّفرية، ويتّفق معه المدائني في القول إنّ ابن إباض كان طرفاً في الخلاف لكنّه يجعل أبا بيهس الضّبعي طرفه الثاني[4]. وإذا كنّا سنؤجّل إلى مرحلة لاحقة البحث عن هوية الطرف الّذي يختلف بشأنه الرّواة، فإنّنا نستطيع من خلال ما سبق القول إنّ مجموعة أولى قد انبثقت من صفوف القعدة هي الإباضية.

تنسب هذه المجموعة حسب أغلب الرّواة إلى عبد الله بن إباض المرّي التّميمي. فهو الذي تولّى الردّ على أقوال نافع وصار ردّه بمثابة الركيزة الّتي انبنت عليها مبادىء هذا التيّار في الفترة اللاّحقة وبها سيتميّز عن بقية التيّارات الخارجية.

أمّا محتوى ردّ ابن إباض فيتمثّل حسب رواية أبي مخنف في قوله: «إنّ المخالفين

---

(١) المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص٧٨.
(٢) ابن منظور، لسان العربي المحيط، ج ٣، ص ٩٦٩.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص٥٦٨.
(٤) المبرّد، الكامل، ص١١٨.

كفّار بالنّعم والأحكام فحسب وهم براء من الشّرك، لذلك لا يحلّ للخوارج إلا دماؤهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو عليهم حرام»[١] ويكتسي هذا الردّ ـ إذا صحّ ـ أهميّة كبيرة لأنّه يظهر من جهة التّطور الواضح في موقع ابن إباض ومن معه من الخوارج تجاه المخالفين مقارنة بموقف أسلافهم، ويؤكّد من جهة ثانية انتماء هؤلاء الخوارج إلى التّيار المعتدل داخل الحركة واتجاه هذا التّيار نحو مزيد من الاعتدال.

أمّا تاريخ ظهور الإباضية كمجموعة مستقلّة ومتميّزة، فلا نستطيع تحديده بدقّة، ولكنّنا لا نستبعد أن يكون ذلك قد وقع في الأشهر الأولى للفتنة الثانية ليس بعيداً عن تاريخ انفصال الأزارقة عن بقيّة الخوارج. ولئن يبدو قولنا غير منطقي بالنّسبة إلى البعض باعتبار أنّ الردّ عند ابن إباض يتطلّب وقتاً للتّفكير فيه وبلورته وصياغته، فإنّنا نعتقد أنّ ما ذكرناه سابقاً عن اهتمام خوارج البصرة ببعض المسائل التي كانوا يختلفون بشأنها وتفكيرهم العميق فيها قد كوّن لديهم بعض الأفكار، فلمّا صدرت أحكام نافع ورفضها القعدة لم يجد ابن إباض عناءً كبيراً في بلورة مواقفه وصياغتها والردّ بها على نافع وعلى بقيّة الخوارج.

بقيت مسألة واحدة يكتنفها بعض الغموض بالنّسبة إلى هذا التيّار، وتتمثّل في الدّور المحدود الذي ينسبه الرّواة إلى ابن اباض والذي لا يتماشى مع مركزه كزعيم لهذه المجموعة. فالمصادر غير الخارجية لا تتضمن سوى إشارة واحدة عن مشاركته في الدّفاع عن الحرم ثم ردّه على ما جاء في رسالة نافع. ولا يختلف الأمر كثيراً في المصادر الاباضية، فهي لا تضيف سوى معلومات قليلة، منها مكاتبته عبد الملك بن مروان. لكن هذه المصادر تزخر في المقابل بالمعلومات عن زعماء آخرين وخصوصاً جابر بن زيد[٢] الذي يعتبره الشمّاخي «أصل المذهب وأُسّه الذي قامت عليه أحكامه»، ويذهب إلى حدّ القول إنّ «ابن اباض كان يصدر في أمره عن رأي جابر»[٣].

ويعود هذا التناقض بين مكانة ابن اباض في صلب الحركة وفي المصادر على ما يبدو إلى محدودية نشاطه السّياسي وابتعاده كليًّا عن النّشاط العسكري، وهي الأنشطة التي غالباً ما يهتمّ بها الرّواة ويسجّلونها. لكن محدودية دوره لم يمنع بعض خوارج البصرة من اختياره زعيماً لهم معتبرين أنّ ردّه على أقوال نافع يكفي لاحتلاله هذه المكانة لأنّه كان بمثابة وثيقة ميلاد الحركة.

أمّا تقديم جابر بن زيد ومنحه هذه المكانة المتميّزة في المصادر، فيعود على ما يبدو إلى رغبة الإباضية في ربط حركتهم بهذا الشّخص لما يتمتّع به من مكانة مرموقة لدى

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص٥٦٨.
(٢) الشماخي، كتاب السير، ص ٨٠؛ البرادي كتاب الجواهر، ص ١٥٥.
(٣) الشماخي، كتاب السير، ص ٨٠.

المسلمين استمدّها من شدّة تديّنه، واطّلاعه على تعاليم الإسلام وقدرته الكبيرة على الإفتاء، ومواقفه السّياسية الحازمة تجاه السّلطة الأموية. وقد شكّك العديد من المؤرخين القدامى في انتماء جابر إلى المذهب الخارجي وإلى التيّار الإباضي، ولا نستبعد بدورنا أن يكون روّاة الإباضية قد فخّموا في فترة لاحقة دور جابر وبالغوا في الحديث عن نضاله في صفوف الحركة حتّى صار دوره أكثر أهميّة من دور ابن إباض رغم أنّه زعيم الحركة وإليه تُنسب.

أمّا التيار الثاني الذي يذكر الرّواة ظهوره في البصرة متزامناً مع ظهور الأباضية، ويسمّيه البعض الصّفرية والبعض الآخر البيهسيّة، فهو أكثر التيّارات الخارجيّة غموضاً. ويستدعي التعرّف عليه التتبّع الدقيق للروايات الخاصّة بمجموعة القعدة في البصرة في تلك المرحلة.

إنّ أولى المسائل الّتي يتّفق فيها الرّواة هي وجود مجموعة من القعدة رفضت الأحكام الصّادرة عن ابن إباض كما سبق لها أن رفضت أحكام نافع بن الأزرق. ويذكر أبو مخنف أنّ ابن الصفّار هو الذي عبّر عن موقف هذه المجموعة، لكنّه لا ينقل لنا ردّه ويكتفي بالقول إنّه «تبرّأ من ابن إباض لأنّه قصّر ومن ابن الأزرق لأنّه غلا»[1]. أمّا المبرّد فينقل ردّ هذه المجموعة على لسان أبي بيهس وفيه يوافق قول ابن الأزرق قوله إنّ أعداء الخوارج كأعداء الرّسول لكنّه يختلف معه في رفض الإقامة بينهم[2]. وهو الموقف عينه الذي ينسبه إليه صاحب المؤلف المجهول لكنّه يضيف عن زعيم الصّفار قوله: «لا يحلّ قتل الأطفال تعمّداً ولا الاستعراض»[3]. وهذا يفيد وجود الزّعيمين معاً ومساهمتهما في الردّ على ابن إباض.

إمّا كتب الفرق والمقالات فتنسب المواقف التي ذكرناها بخصوص الحكم على المخالفين وأطفالهم ونسائهم إلى زعيم الصّفرية[4]. ورغم هذا الاختلاف فالواضح من خلال الروايات أنّ القعدة الرّافضين لمواقف ابن إباض صاروا يمثّلون مجموعة مستقلّة عن الإباضية، لكن اسمها هو الذي يبقى محلّ اختلاف، ولا يمكن التعرّف عليه إلاّ إذا تعرّفنا على الشّخص الذي تكلّم باسم أفرادها وإليه صارت تُنسب. فهل هو أبو بيهس أم ابن الصفّار؟

تبدو الأمور أقل تعقيد بالنّسبة إلى أبي بيهس لأنّه لا يوجد اختلاف أو شكّ في انتمائه

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص٥٦٨.
(٢) المبرّد، الكامل، ص١١٨ ـ ١١٩.
(٣) المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص ٨٣.
(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٠١؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٦١؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٨٤.

إلى الحركة الخارجية. لكن العديد من الروّاة ومؤلّفي كتب الفرق خاصّةً يربطون البيهسيّة بموقف زعيمها أبي بيهس من مسألة بيع الأمة الخارجية في دار التّقية[1]، وهي إحدى المسائل التي تفرّعت عن الجدل في مسألة الموقف من المخالفين، وأرجّح أنّ طرحها كان بعد انقسام الخوارج بعدة سنوات. ويدعّم هذا القول الغياب الكلّي لأبي بيهس عن مسرح الأحداث بعد هذا الظهور المفاجيء وعدم وجود ذكر للبيهسيّة كتيّار خارجي مستقلّ ولا عن خوارج ينتمون إليه في تلك الفترة.

وتحملنا هذه الملاحظات على الاعتقاد بأن أبا بيهس الخارجي حتّى وإنْ وُجد في فترة الفتنة الثانية، فالأرجح أنّه لم يلعب دوراً في الخلاف الذي عرفته الحركة، وأن بروزه كان في أواخر القرن الأول هجري وهو ما تؤكّده عدة روايات. وبالتّالي، فإنّ ظهور البيهسيّة كتيّار خارجي كان بعد الانقسام بعدّة سنوات، وأنّه تفرّع عن أحد التيّارات التي ظهرت زمن الفتنة الثانية، ولذلك لا يرد ذكره ولا ذكر أتباعه إلا في أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني هجري.

أمّا الزعيم الذي تُنسب إليه الصّفريّة، فهو الشّخصية الأكثر غموضاً في تاريخ الخوارج. فالرّواة يختلفون في اسمه فهو: عبد الله بن الصفّار المريّ التّميمي[2]، وزياد بن الأصفر[3]، وعبيدة بن قبيص[4]. ويذهب الملطي إلى القول إنّه الملهب بن أبي صفرة[5]. كما يختلفون في انتمائه القبَلي وتاريخ دخوله الحركة ومصيره بعد انقسامها. ويذهب بعض الرّواة إلى نفي وجوده أصلاً، ويرون أنّ أتباع هذا التيّار سمّوا الصّفرية لصفرة كانت تعلو وجوههم من كثرة العبادة، وينقلون شعراً يؤكّد قولهم هذا[6].

وقد استنتج نايف معروف من خلال الرّوايات أن تسمية «الصّفرية» أُطلقت على الخوارج في أوّل أمرهم لما عرفوا به من كثرة العبادة، ثم اتخذها أصحاب ابن الصفّار علماً لهم لما تحقّقه من هدف التأسّي بأسلافهم وفي الوقت نفسه تحقّق غرضهم بالانتساب إلى إمام جديد[7]. لكن هذا الافتراض لا نجد ما يؤيّده في المصادر، ولا يأخذ بعين الاعتبار

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١١٣؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٧٤؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١١، ص ١٦٩.

(٢) المبرّد، الكامل، ص ١١٩؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص٥٦٨؛ المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص ٨٢.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١١٨؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٦١.

(٤) المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص ٨٢؛ الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١١٨.

(٥) الملطي، التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع، ص ٤٢.

(٦) المبرّد، الكامل، ص ١١٩، المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٧) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ٢٣٦.

الغموض الكبير الذي يحيط بهذا «الإمام الجديد». وبصفة عامّة، فإنّ كلّ الزّعماء الذين ينسب إليهم تيّار الصّفرية مجهولون، ولذلك تبقى التسمية غامضة[1].

لكن المتمعّن في الرّوايات يُلاحظ أنّ اسم الصّفريّة يُطلق غالباً على تلك المجموعة من القعدة التي رفضت أحكام ابن إباض بخصوص المخالفين للخوارج. أمّا الزّعيم الذي تُنسب إليه فتتبّع الرّوايات يجعلنا نشكّ في وجوده. ومما يدعم هذا الشكّ الغموض الكلّي الذي يحوم حوله، وعدم وجود معلومات تفيد انتماءه إلى الحركة قبل تلك الفترة، وغيابه الكلّي بعد الانقسام، ووجود روايات تؤكد ارتباط التسمية بإحدى صفات الخوارج وهي صفرة الوجه. لكن افتراض عدم وجود زعيم لهذه المجموعة يطرح العديد من التساؤلات حول أصل هذه التّسمية والطرف الذي أطلقها وأسباب ذلك.

لا يمكن انطلاقاً من المعلومات المتوافرة تقديم إجابة صحيحة ومقنعة عن هذه التساؤلات، لكننا مع ذلك نميل إلى الاعتقاد بأنّ التّسمية قد أُطلقت على الذين اتّخذوا موقفاً وسطاً بين الأزارقة المتطرّفين والإباضية الذين بالغوا في الاعتدال، وأنّ ذلك تمّ بعد انقسام الحركة وظهور هذين التّيارين. ولا نستبعد أن تكون التسمية تحمل معنى الاعتدال بدون مبالغة الذي ميّز هؤلاء الخوارج ولا صلة لها بشخص معيّن. والأرجح كذلك أنّ الصفرية لم يكوّنوا تياراً قائماً بذاته ومنظّماً وله قيادة يلتفّ حولها أتباعه مثل الأزارقة أو الإباضية. ولذلك نُسب العديد من الخوارج في مناطق مختلفة وخصوصاً في الجزيرة الفراتية إلى الصّفرية من دون أن يعني ذلك تميّزهم بمبادىء وأحكام خاصة، وهو ما سنتبيّنه بوضوح من خلال دراسة الانتفاضات التي تُنسب إلى هذا التيار. كما يؤكد غياب تنظيم يجمع الخوارج الذين يُنسبون إلى الصّفرية انعدام المؤلّفات الخاصة بأتباع هذا التيار.

إجمالاً يمكن القول إنّ انقسام الخوارج الّذي يُعتبر حدثاً هاماً في تاريخ الحركة قد ارتبط بالفتنة. فموت يزيد بن معاوية وما تلاه من صراع على السّلطة قد أفسح في المجال أمام الخوارج لاستئناف نشاطهم بحرية خاصةً في البصرة لكن الخلافات سرعان ما أفضت إلى انقسامهم.

ارتبط الخلاف بمسألة سياسيّة طُرحت مع اندلاع الفتنة، وهي الطريقة التي يجب اعتمادها في النضال ضدّ السّلطة. لكن الخوارج سرعان ما أخضعوا هذه المسألة للقرآن ولسيرة الرسول، وحوّلوا «الخروج» أو «القعود» إلى قضيّة دينية وعنها تفرّعت قضايا أخرى تخصّ الحكم على المخالفين وأطفالهم ونسائهم.

لقد ربط كلّ الرّواة الخلاف وما انجرّ عنه من انقسام بنافع بن الأزرق باعتباره أوّل من

---

(1) LEVI DELLAVIDA (L) «Sufria», In: *L'Encyclopédie de L'Islam*, Ancienne édition, T. IV, 1934, p. 522.

طرح مسألة «الخروج» وحكم بالكفر على القعدة. لكن المتتبّع للأحداث يتبيّن أن مسؤوليّة نافع محدودة لأن الحركة كانت تعرف خلافات سابقة حول بعض المسائل، ساعدت التجربة القاسية التي مرّت بها في ولاية زياد وابنه عُبيد الله على اختمارها وتبلورها تدريجيًا فلمّا اندلعت الفتنة وصدرت مواقف نافع، برزت هذه الخلافات على السطح وتمكّن الخوارج من التّعبير عنها بحريّة وهو ما ساعد على حصول الانقسام. أمّا مسألة الخروج التي أثارها نافع وكان لها دور في حصول الانقسام، فمسؤوليته فيها لا تكمن في إخضاعها للدّين وتكفير من يخالف موقفه بشأنها، لأن ذلك أسلوب طبّقه الخوارج منذ ظهورهم، وإنّما تكمن في تطبيقه لها داخل الحركة، وهو ما أدّى إلى تكفير عناصر من الخوارج أنفسهم.

وعموماً، فمسؤولية نافع في ما عرفته الحركة في بداية الفتنة ثابتة لا شكّ فيها. لكنّها تكمن في تفجيره الخلاف بطرح مسألة حسّاسة من دون اعتبار لما عرفته الحركة من تحوّلات في السّنوات السّابقة والظّرفية الجديدة التي خلقتها الفتنة. أمّا الانقسام فلم تكن مواقفه وحدها المتسبّبة فيه.

لم يقع الانقسام بصورة مفاجئة كما يذكر الرّواة، كما أنّه لم يؤد إلى ظهور كلّ التيّارات الخارجية المعروفة في الوقت نفسه. فقد أثبت تتبّع الأحداث أنّ الخلاف تطوّر تدريجيًا وأفضى في البداية إلى ظهور مجموعتين: الخارجون إلى الأهواز مع نافع وهم الأزارقة، والمتبقّون في البصرة واليمامة وهم «القعدة»، وعن هذه المجموعة الأخيرة تفرّعت التيّارات الخارجيّة الرئيسية.

كانت الإباضية أولى التيّارات التي ظهرت في البصرة لمّا عارض زعيمها عبد الله بن إباض مواقف نافع بن الأزرق وأحكامه بخصوص المخالفين للخوارج والقعدة. أمّا الصّفرية فظهورها كتيّار خارجي متميّز له قيادة وزعيم معروف فأمر مشكوك فيه، وكل ما أمكننا استنتاجه من خلال الرّوايات هو وجود خوارج من القعدة رفضوا مواقف نافع لتطرّفها ومواقف ابن إباض لاعتدالها الشّديد أطلق عليهم الرّواة إسم «الصّفرية» لكن أصل التسمية وتاريخ اطلاقها على هذه المجموعة يبقى أمراً مجهولاً، والأرجح أنّه تمّ بعد الانقسام وارتبط بموقف الاعتدال الذي تبنّاه هؤلاء الخوارج وجاء التّمييز بينهم وبين الإباضية والأزارقة.

أمّا أتباع نجدة الحنفي فلم يكوّنوا عند الانقسام تيّاراً خارجيًا متميّزاً فكريًا وأيديولوجيًا، إذ اكتفوا بتبنّي القعود ورغم اختلافهم مع الأزارقة. فقد قرّروا مثلهم التّوجه نحو العمل العسكري، وبذلك عرفت سنوات الفتنة الثانية أكبر تحرّكات خارجيّة في شرق الامبراطورية وجنوبها.

II ـ نشاط المجموعات الخارجيّة زمن الفتنة

لم يكن انقسام الخوارج الذي تتبّعنا مراحله فيما سبق انقساماً فكريًا فحسب، بل كان

إقليميًا كذلك. إذ استقلت المجموعات الخارجيّة عن بعضها البعض، ونشطت كلّ واحدة على حدة. فقد بقي نافع بن الأزرق وأصحابه في الأهواز، في حين انحاز نجدة بن عامر الحنفي وأصحابه في اليمامة، وأقام باقي الخوارج في البصرة. وبما أن المصادر تركّز اهتمامها أساساً على الأحداث السياسيّة والتحرّكات العسكريّة، فإنّنا نجد فيها مادّة غزيرة نسبيًا عن تحركات الأزارقة وخوارج الجزيرة الفراتيّة الذين ثاروا في أواخر الفتنة بقيادة صالح بن مسرّح، كما يوفّر المصدر المنسوب إلى البلاذري بعض المعلومات عن تحرّكات خوارج اليمامة بقيادة نجدة الحنفي التي كانت شبه الجزيرة العربية مسرحاً لها. أمّا خوارج البصرة، فإنّ المصادر تصمت عن ذكرهم تماماً طيلة تلك الفترة. وصمت المصادر لا يعني عدم قيامهم بأنشطة خلال الفترة المذكورة، بل لعل أنشطتهم قد تكثّفت مستفيدةً من الاضطرابات الناتجة عن الصّراع بين الأمويين والزبيريين، ولكن الصّبغة غير العسكرية لهذه الأنشطة هي التي جعلت الرّواة يهملون ذكرها. واعتباراً لنوعيّة المادة المتوافرة في المصادر فإنّ دراستنا ستقتصر على المجموعات التي نشطت عسكريًا وكان لنشاطها تأثير على الأحداث.

١ ـ نشاط الأزارقة

قبل التعرّض لنشاط الأزارقة والتطوّرات التي عرفتها هذه الحركة خلال الفتنة، لا بدّ من الرّجوع إلى جذورها الأولى وخصوصاً إلى مؤسّسها وزعيمها نافع بن الأزرق، لأنّ الإحاطة بتاريخ نشأته والظروف التي عاش فيها تُمكنّنا من تسليط مزيد من الضوء على هذه الحركة وتُسهّل علينا فهم بعض الجوانب من تاريخها.

أ ـ نافع بن الأزرق وتكوين النّواة الأولى لتيّار الأزارقة:

ينتمي نافع زعيم الأزارقة إلى بني الدّول بن حنيفة[1] المستقرّين في البصرة. ويكتنف

(١) يختلف الوراة في تحديد انتماء نافع بن الأزرق القبلي والاجتماعي. ففي خصوص انتمائه القبلي يذكر أغلب الرّواة أنّه من بني الدّول بن حنيفة في حين ينسبه أبو مخنف وكلّ الرّواة الذين أخذوا عنه إلى قبيلة تميم، وهو ما أدّى إلى حصول الاختلاف. إلاّ أن انتماء نافع إلى بني حنيفة تؤكّده إشارات عديدة منها الرّواية التي يطلب فيها مالك بن مسمع، زعيم بكر بن وائل، من نافع مساعدة قبيلته في الحرب بين الأزد وربيعة وتميم. كما يختلف الرواة في تحديد انتمائه الاجتماعي، إذ يذكر بعضهم أنّه كان مقيماً في بني حنيفة فنُسب إليهم، في حين يذكر البلاذري في إحدى رواياته أنّ أباه عبد رومي من عبيد الطائف. وقد تبنى هذا القول بعض الدّارسين منهم صاحب مقال «الأزارقة» في دائرة المعارف الإسلاميّة رغم شك البلاذري نفسه في صحة الرّواية إذ يقول في آخرها: «ويقال إن نافع بن الأزرق الخارجي هو من بني حنيفة وإن الأزرق الذي نزل من الطائف غيره». وعموماً فإن الروايات التي تنسب نافعاً إلى بني حنيفة أكثر من تلك التي تعتبره مولى أو عبداً لهذه القبيلة. انظر: المصدر المنسوب إلى البلاذري، ج ١١، ص٧٨؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٤؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٦؛ محمّد رضا الدّجيلي، =

الغموض ماضي هذا الشخص وتاريخ انتمائه إلى الحركة الخارجيّة، إذ لا يذكر الرّواة عنه سوى اهتمامه الكبير بالقرآن وحرصه على حفظه وفهم آياته وانتقاله إلى مكّة للأخذ عن كبار الصّحابة وخصوصاً عن عبد الله بن عباس الذي كان يزوره بصورة منتظمة. وينقل المبرّد تفاصيل عن الأسئلة التي كان يطرحها نافع على ابن عباس وتهتمّ كلّها بتفسير آيات من القرآن أو شرح ألفاظ منه مع احتجاج باللّغة[1]. وقد تمكّن نافع بفضل هذه التّنقلات من الاطلاع على تعاليم الدّين الإسلامي وفهمها فهماً عميقاً وهو ما زاده اقتناعاً بالفكر الخارجي وتمسكاً بمبادئه. ولعلّ اطلاع نافع على القرآن هو الذي جعله يكتسب قدرة كبيرة على الجدل والإقناع، إذ وصفه المبرّد بقوله: «كان ذا لسان عضب واحتجاج وصبر على المنازعة»[2]، وهي الصّفات التي ستمكّنه من احتلال مكانه متميّزة داخل الحركة الخارجيّة.

يرد الحديث عن نافع بن الأزرق في صفوف الخوارج لأوّل مرّة في المصادر في ولاية عُبيد الله بن زياد إذ كان من بين أفراد المجموعة التي قبض عليها هذا الوالي وحبسها بسبب الاجتماعات التي كانت تعقدها في بني حنيفة. وقد قتل ابن زياد بعض أفرادها وكُلّم في البعض الآخر فأخرجهم[3].

والحديث عن الخوارج الذين كانوا يجتمعون في بني حنيفة ورد إبان حركة طواف بن علاق وعقبة بن الورد الجآوي سنة ٥٨هـ، إذ يذكر البلاذري أن قوماً من الخوارج كانوا يجتمعون إلى جدار في بني حنيفة فيتحدّثون عنده ويعيبون السّلطان، فأخذهم عُبيد الله بن زياد فحبسهم ثم عرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ويخلّي سبيل القتلة. وهي الحادثة التي دفعت طوّافاً وعقبة إلى الخروج تكفيراً عن الذنب الذي ارتكبوه في حقّ أصحابهم[4] كما مرّ معنا. ويُعرف أفراد هذه المجموعة في المصادر بـ«أصحاب الجذار»، وهي تسميةٌ أُطلقت عليهم على ما يبدو في تلك الفترة، والدليل على ذلك بيت شعر يرثي فيه أحد الخوارج طوّافاً والذين قُتلوا معه يقول فيه:

ما كان في دين طواف وإخوته   أهل الجدار حرّاث القطن والعنب

ويظهر من خلال الرّوايات أن أصحاب الجدار هم من الخوارج النّشيطين في البصرة. ويرى فلهوزن أنّهم أصحاب شخص اسمه «جدار» كان ابن زياد قد ضمّه مع بعض أصحابه

= فرقة الأزارقة، ص ٦٧؛ RUBINACCI (R), «Azarika», In: *L'Encyclopédie de L'Islam*, Ancienne édition, T. 1, pp. 833 - 834.

(١) المبرّد، الكامل، ص ٥٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٦.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٤) المصدر نفسه، ج ٤/١، ص١٧٨.

إلى صفوفه بعد أن فشل في تقريب كلّ الخوارج وترك البقيّة يقاتل بعضهم بعضاً فمن ظفر بأخيه فاز بالحريّة[1].

ولا يتّفق قول فلهوزن هذا مع محتوى الرّواية التي تتحدّث عن هذه المجموعة، إذ لا شيء يدلّ على حصول تقارب بين ابن زياد وأصحاب الجدار أو البعض منهم، بل إنّ عجز هذا الوالي عن القضاء على الخوارج هو الذي دفعه إلى محاولة بثّ الفرقة في صفوفهم وتشتيتهم وتحويل الصّراع الذي كان موجّهاً ضدّ السلطة إلى صراع بين الخوارج أنفسهم. إلاّ أنّ نتيجة هذا العمل كانت عكسيّة، إذ سرعان ما ثارت العناصر التي قامت بقتل أصحابها ضدّ ابن زياد.

أمّا نسبة هذه المجموعة إلى شخص اسمه «جدار» فهي مستبعدة، لأنّ الجملة في سياق الرّواية تدلّ على اسم مكان أكثر ممّا تدلّ على اسم شخص. كما أنّ غياب «جدار» كليًّا عن مسرح الأحداث وعدم إتيان الرّواة على ذكر أخباره يؤكّد عدم وجوده. وهو ما يجعلنا نستبعد رأي فلهوزن وكلّ الّذين أخذوا عنه[2]، ونميل إلى الاعتقاد بأنّ أصحاب الجدار هم جماعة من الخوارج كانوا يعقدون اجتماعات سريّة قرب جدار في بني حنيفة قبض ابن زياد على بعض العناصر بعضهم ومنهم نافع بن الأزرق.

ولا تعطي المصادر تفاصيل عن العدد الجملي لأفراد هذه المجموعة باستثناء بعض الإشارات عن عدد الّذين قُبض عليهم في المرّة الأولى، وهو أربعة وعشرون[3]، وعدد الذين استنفرهم طوّاف بعد ذلك للخروج معه، وهو سبعون رجلاً من عبد القيس[4]. أمّا المجموعة التي كان من بين أفرادها نافع، فليس لدينا ما يشير إلى عدد عناصرها.

ويتوقّف الحديث عن هذه المجموعة بعد إلقاء القبض على نافع ومن معه من أهل الجدار. لكن اجتماعات الخوارج لم تتوقّف، فالعناصر التي بقيت خارج السّجن واصلت على ما يبدو نشاطها في البصرة وفي أماكن أخرى أحاطتها بالسريّة المطلقة. ويدلّ على ذلك ما جاء على لسان خالد بن عبّاد السّدوسي لما سأله ابن زياد عن سبب تغيّبه عن محل سكناه: «كنت عند قوم يذكرون الله وأيّمة الجور فيتبرّؤون منهم». ولما طلب منه أن يدلّه عليهم رفض فقتله[5]. كما تتحدّث رواية أخرى عن اجتماع الخوارج في بيت ثابت بن وعلة الرّاسبي، أحد كبار الخوارج. ولهذه المجموعة علاقة بنافع بن الأزرق وأصحابه، إذ

(١) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٦١.
(٢) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٢٧.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص١٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ج ١/٤، ص ١٧٨.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١٠٣.

أنّ من بين أفرادها الزّبير بن علي بن الماحوز، أحد أصحاب نافع المقرّبين. وتكثّفت هذه الاجتماعات على ما يبدو بعد إطلاق سراح نافع من السّجن. وتدلّ بعض الإشارات على أن نافعاً وأبناء الماحوز قد لعبوا دوراً كبيراً في تحريض السّكان ضدّ ولاة بني أميّة[1]. والأكيد أنّ تكوين نافع الديني وقدرته الكبيرة على الإقناع قد مكّناه من القيام بهذا العمل، كما أنّ سياسة العنف الّتي توخّاها ولاة البصرة وخصوصاً عُبيد الله بن زياد قد ساهمت بدورها في تسهيل مهمة نافع إذ ساعدته على جلب أنصار جدد إلى صفوف الحركة ومكّنت من تكوين عناصر خارجيّة متمسّكة بالفكر الخارجي وبمبادىء الحركة ومستعدّة للنّضال من أجل تحقيقها.

أمّا على المستوى الفكري، فإن الرّواة لا يذكرون لنافع بن الأزرق أفكاراً تميّز بها في تلك الفترة باستثناء ما كان يقوم به من «ذمّ للسلطان وتحريض على الجهاد»[2]. لكن إحدى الإشارات تثبت أنّ موقفه كان متصلّباً تجاه المخالفين إذ رفض الصّلاة على أبيه لمّا مات[3]، لأنّه لم يكن يحمل المبادىء نفسها. كما أنّه كان محاطاً بعناصر خارجيّة سبق لها أن نشطت في البصرة وشارك بعضها في عمليات استعراض وقتل المخالفين من أمثال عبيدة بن هلال اليشكري وأبي الوازع الرّاسبي، وهو ما قد يفيد ميله إلى التشدّد من دون أن يكون ذلك واضحاً في أقواله أو أعماله. ولعلّ إحجام نافع عن إبراز مواقفه المتصلّبة وعدم الحسم في بعض المسائل التي كان يختلف بشأنها الخوارج مثل مسألة الاستعراض كان يعود إلى رغبته في جلب أكثر ما يمكن من الأنصار إلى صفوف الحركة وتفادي حصول انقسام داخلها، لأنّ هدفه في تلك الفترة كان يتمثّل في الإعداد لتحرّك كبير يقوم به خوارج البصرة. وتبدو نيّة نافع واضحةً من خلال ردّه على أبي الوازع الرّاسبي لما طلب منه الخروج متّهماً إيّاه بالخوف، فقد قال له: «كلاّ يا أبا الوازع ولكنّي أطلب الغرض فرويدك يجتمع ملأ أصحابك»[4]. ولم يخرج نافع مع أبي الوازع لاقتناعه بأنّ الأسلوب الأفضل للنضال هو القيام بتحرّك كبير يُصار إلى تنظيمه والإعداد له مسبقاً لأنّ التحرّكات الصّغيرة والعمليات الاستشهاديّة أثبتت فشلها إذ قضت على خيرة زعماء الحركة من دون أن يكون لها تأثير يُذكر على السلطة الأمويّة.

لم يتمكّن نافع بن الأزرق من القيام بتحرّكه في ولاية ابن زياد، كما أنّ المستجدّات على الساحة السّياسيّة غيّرت مجرى الأحداث وأتاحت لنافع فرصة للبروز على نطاق أوسع.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٩٣؛ المبرد؛ الكامل، ص ١٠٦.
(٢) المبرد، الكامل، ص ١٠٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٩٢.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٤، ص ٣٩٢؛ المبرّد، الكامل، ص ١٠٦.

وكان ذلك لمّا ثار سكان المدينة ضدّ والي يزيد بن معاوية وتوجّه جيش الشّام لإخماد ثورتهم، فقد قام بعمليّة جمع خوارج البصرة للدّفاع عن الحرم(١)، محاولاً على ما يبدو استغلال هذه الفرصة وتوجيهها لصالح الحركة(٢).

كانت مرحلة مكّة هامّة بالنّسبة إلى نافع فقد مكّنته من البروز أمام جموع الخوارج الذين التقوا فيها من البصرة واليمامة. ويبدو أنّه نال اعجابهم بفضل ما كان يتمتّع به من صفات، وهو ما عبّر عنه نجدة الحنفي في مقدمة رسالته إلى نافع بعد افتراقهما(٣). وقد تجسّد بروز نافع في مكّة بعد العودة إلى البصرة باختياره قائداً وتكليفه بالإعداد لعمليّة الخروج.

ويستنتج من خلال هذا العرض لحياة نافع ونشاطه في البصرة أنّ حركة الأزارقة التي ظهرت إبان الفتنة الثانية لم تبرز فجأة ومن لا شيء، بل إنّ جذورها تعود إلى الفترة السّابقة. كما لم يكن زعيمها شخصاً مغموراً فاقداً للتّجربة، بل سياسيّ محنّك تسلّح بالقرآن وناضل في صفوف الحركة الخارجيّة سنوات طويلة وإليه يرجع الفضل في تكوين النواة الأولى لهذه المجموعة وفي انطلاق نشاطها بعد الخروج من البصرة.

ب ـ نشاط الأزارقة بعد الخروج من البصرة:

أقام نافع بن الأزرق وأصحابه بعد الخروج من البصرة في الأهواز ولزموا الهدوء في انتظار أن يلتحق بهم من تبقّى من الخوارج، كما سيطروا في الوقت نفسه على المنطقة وطردوا عمال السّلطان منها وجبوا فيئها(٤). وهي أعمال تذكّرنا بما قام به الخرّيت بن راشد النّاجي إبّان ثورته ضدّ عليّ بن أبي طالب، وإنْ كان الخرّيت لم يجبِ الخراج مثل الأزارقة بل أمر بكسره. ولئن هدّدت أعمال الخرّيت نفوذ الخليفة آنذاك، فإنّ الأزارقة لم يهدّدوا السلطة باعتبار غياب الحكم المركزي في تلك الفترة واستقلال الأمصار وضعف نفوذ ولاتها. لكن السّيطرة على الأهواز كانت تمثل خسارة بالنّسبة إلى سكّان البصرة الذين يأخذون جزءاً من عطائهم من مداخيلها التي تبلغ ثلاثين ألف درهم(٥). أمّا بالنسبة إلى الخوارج، فإنّ الأهواز تشكّل قاعدة تُوفّر لهم ما يحتاجونه، ويُمكنهم انطلاقاً منها السيطرة على مناطق أخرى ومهاجمة البصرة، وهو ما حاول نافع القيام به بعد إحكام سيطرته على المنطقة ونشر عمّاله فيها(٦).

---

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٦٤.
(٢) الدّجيلي، **فرقة الأزارقة**، ص٦٨.
(٣) انظر نصّ الرسالة في: المبرّد، **الكامل**، ص ١١٤.
(٤) **المصدر المنسوب للبلاذري**، ج ١١، ص ٨٠؛ المبرّد، **الكامل**، ص ١١٢.
(٥) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ١، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٦) الاصفهاني، **الأغاني**، ج ٦، ص ١٣٥؛ **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٥٦٩.

أدخلت أعمال نافع وأصحابه الرعب في نفوس سكّان البصرة ودفعتهم إلى الالتجاء إلى الأحنف بن قيس[1] لمساعدتهم في تنظيم عملية التصدّي للخوارج. ويُعزى التجاء السّكان إلى زعيم تميم إلى غياب سلطة قويّة في المصر، فقد كانت البصرة في تلك الفترة مستقلّة عن سلطة ابن الزبير والسلطة الأمويّة ولم يكن الوالي الذي اختاره سكانها قادراً على السّيطرة على الوضع والدّفاع عن المصر، وهي وضعية أعطت الأشراف نفوذاً أكبر وجعلتهم ملاذ السكّان عند الحاجة.

قام الأحنف بن قيس بجمع عشرة آلاف مقاتل، وطلب من الوالي تعيين قائد لهذا الجيش، مؤكداً بذلك عدم قدرة السكّان بمن في ذلك الرّؤساء على تجاوز السّلطة في مثل هذه الأعمال حتّى وإن كانت ضعيفة. وعيّن عبد الله بن الحارث بن نوفل على هذا الجيش مسلم بن عبيس، وخرج البصريون لمحاربة الأزارقة في جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ[2]. كان التقاء الجيشين في مكان اسمه دولاب[3] بالأهواز، واسفرت المعارك الأولى عن مقتل مسلم بن عبيس ونافع بن الأزرق[4]. وتواصل القتال بعد ذلك كأعنف ما يكون إلى أن انتقصت الصّفوف وتغيّر أسلوب القتال، فلم يعد التّنظيم يعتمد ميمنة وميسرة بل صاروا كراديس صغيرة تقاتل بعضها بعضاً[5]. واستمات الطّرفان إلى أن أصابهما الإعياء الشّديد، وتمكّن الخوارج رغم قلّة عددهم من الصّمود أمام جيش البصرة بفضل ما كانوا يملكونه من «آلات ودروع وجواشن»[6] تحصّلوا عليها بفضل ما جمعوه من أموال من المنطقة. وقد قُتل في هذه المعارك قائدان لجيش البصرة، كما فرّ عدد كبير من المقاتلة. ورغم قلّة عدد المتبقّين، فقد عجز الأزارقة عن الانتصار عليهم بسبب الإعياء الشديد الّذي أصابهم، لكن قدوم خيل من ناحية اليمامة[7] غيّر الوضع لصالح الخوارج. فقد انهزم البصريون وتبعهم الأزارقة فألقوا أنفسهم في دجيل فغرق منهم خلق كثير وتحصّن حارثة بن بدر قائد جيش البصرة عند نهر تيرى لحماية المصر من خطر الخوارج[8] الذين اكتفوا بهذا الانتصار ولم يحاولوا دخول المصر لأنّهم كانوا منهكين بعد حوالى شهرين من المعارك المتواصلة.

هذه، على وجه الإجمال، أحداث معارك دولاب كما ترد في أغلب المصادر نقلاً

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٢٠؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٦.
(٢) المصدر المنسوب للبلاذري، ص ٨٦.
(٣) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨٥.
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٩٥؛ الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٥.
(٥) الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٦.
(٦) المبرّد، الكامل، ص ١٢١؛ الأصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٦.
(٧) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٧؛ الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٧.
(٨) الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٦.

عن الشعبي والمدائني، وإن كانت بعض المصادر تنقلها مختلفة. فالطّبري الذي اعتمد روايات عمر بن شبّة وأبي مخنف يذكر الأحداث بصورة مغايرة: فعمر بن شبّة ينقل ثلاث روايات تتداخل فيها الأحداث وتضطرب المعلومات خاصة في الرّوايتين الأولى والثانية حيث يجعل قائد المعركة عثمان بن عُبيد الله بن معمر أخي الوالي عمر بن عبيد الله بن معمر[1] الذي ولاّه ابن الزبير البصرة بعد هذه الأحداث. ولا يذكر في الرّوايتين مقتل نافع بل يشير فقط إلى وجوده كقائد للخوارج. أمّا الرّواية الثالثة فهي تتّفق مع رواية المدائني لكنّها لا تعطي تفاصيل عن مكان المعركة أو تاريخ وقوعها، كما أنّها تحتوي على معلومات خاطئة كقوله: و«قُتل ابنان أو ثلاثة للماحوز»[2] وهو ما لم يقع في تلك المعركة إذ نجد أبناء الماحوز يتولّون قيادة الحركة بعد مقتل نافع بن الأزرق وإلى حدود سنة ٧١هـ.

وتتفّق رواية أبي مخنف مع رواية المدائني لكنّها تختلف عنها في تسلسل الأحداث وفي أسماء القواد وترتيبهم[3]. ويشكّل مقتل نافع بن الأزرق بدوره إحدى المسائل التي يختلف بشأنها الرّواة، إذ يذهب البغدادي إلى القول إنّ نافعاً لم يُقتل في معركة دولاب وإنّما قُتل بعد ذلك على يدي المهلّب بن أبي صفرة[4]. ويتّفق معه في هذا القول الدّينوري[5] واليعقوبي وإنْ كان هذا الأخير يجعل مقتله في خلافة عبد الملك بن مروان[6]. وعموماً، فإنّ روايات الطبري والبغدادي واليعقوبي لا يمكن قبولها لتناقضها الواضح مع بعضها بعضاً وعدم تماشيها مع الأحداث اللاّحقة إذ لا أثر لوجود نافع بن الأزرق بعد وقعة دولاب وهو ما يرجّح مقتله في تلك المعركة.

ويختلف الرّواة كذلك في تحديد عدد المشاركين في تلك المعارك من الجانبين تحديداً دقيقاً، ولكنّهم مع ذلك متّفقون على أنّ عدد البصريين كان يفوق عدد الخوارج الذي لم يكن يتجاوز ستّمائة حسب أغلب الرّواة[7].

أفزعت هزيمة دولاب البصريين ودفعتهم إلى اتّخاذ تدابير جديدة لحماية البصرة من الخطر الخارجي. وكان أوّل عمل قام به البصريون هو مكاتبة عبد الله بن الزبير طالبين منه تعيين والٍ جديد قادرٍ على مواجهة الخوارج، مؤكّدين بذلك اقتناعهم بأنّ الدّفاع عن البصرة لا يكون ناجحاً إلاّ في ظلّ وجود سلطة قويّة تجمع البصريين وتجعلهم يشعرون أنّهم

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦١٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٥ ، ص٦١٣.
(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦١٣ ـ ٦١٤.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٥٧.
(٥) الدّينوري، الأخبار الطوال، صحّحه محمّد سعيد الرّافع، مصر، ١٣٣٠هـ، ص٢٦٨.
(٦) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٢.
(٧) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٦؛ الأصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٥.

يدافعُون عن ممتلكاتهم. واستجاب ابن الزبير إلى طلب البّصريين، فكتب إلى عمر بن عُبيد الله بن معمر بولايته على البصرة[1].

وقام الوالي الجديد بتكوين جيش كبير قوامه اثنا عشر ألف مقاتل وأمّر عليه أخاه عثمان بن عُبيد الله وأخرجه لمحاربة الأزارقة[2] المتمركزين في سوق الأهواز. وقد كانت معركة سوق الأهواز سريعة جداً انتهت بانهزام البصريين ومقتل قائدهم عثمان بن عُبيد الله[3]. ورغم محاولة حارثة بن بدر حماية مؤخرة الجيش ومنع الخوارج من التقدّم نحو البصرة، فإنّه لم يستطع الصّمود في وجههم إذ ظلوا يطاردونه حتّى هرب كلّ الّذين معه واضطرّ بدوره إلى الفرار فغرق في دجيل[4].

كانت نتائج هذه المعركة هامة جداً فقد فتحت أبواب البصرة أمام الأزارقة. عبيد الله بن الماحوز قائد الأزارقة لم يكن على ما يبدو يستعجل احتلال المصر بقدر ما كان يريد اغتنام فرصة انهزام البصريين وعجزهم عن مواجهته لبسط نفوذه على أكثر ما يمكن من الأراضي وإحكام السّيطرة عليها واستغلال ثرواتها. وقد قضى ثلاثة أشهر في الأهواز يجبي خراجها فاشتدّت شوكته وقوي نفوذه وزاد عدد أتباعه[5] إذ يذكر المبرد أنّه «اجتمع إلى الخوارج أهل الأهواز وكورها رغبة ورهبة كما أتاهم البصريون في السّفن وعلى الدّواب[6] فارتفع عددهم حتّى بلغ عشرة آلاف»[7] بعد أن كان لا يتجاوز بضع مئات.

وبعد إحكام السيطرة على الأهواز والتحاق عدد كبير من سكّانه بصفُوف الخوارج، بعث عُبيد الله بن الماحوز الزّبير بن علي بن الماحوز، أحد قادة الحركة البارزين، على رأس جيش كبير إلى البصرة فحاصرها. ويدلّ تكرّر حصار البصرة من قبل الأزارقة من دون دخولها رغم توفّر الفرصة أنّ نيّة السيطرة على المدينة لم تكن موجودة لديهم وأنّ الخوارج لا يريدون سوى ترويع السّكان.

وخاف السّكان من الخوارج خوفاً شديداً عبّر عنه الأحنف بن قيس بقوله: «هذا عدوّنا قد غلبنا على سوادنا وفيئنا فلم يبقَ إلاّ أن يحصرنا في بلدنا حتّى نموت هزلاً»[8].

وما جاء على لسان الأحنف بدأ يتحقّق، فقد أدّى احتلال الأهواز وانقطاع خراجها إلى

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٣٠، المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٩٧.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ١٣٠.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص٩٨؛ المبرد، الكامل، ص ١٣١.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٣٣؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٠١.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١٣٣؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص٨٨ ـ ٩٦.
(٦) المبرّد، الكامل، ص ١٣٣.
(٧) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٢٢.
(٨) المبرّد، الكامل، ص ١٣٣؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٩٧.

انخفاض موارد بيت مال البصرة بصورة مهولة[١]. كما أدّى انقطاع المواد القادمة من الأهواز وفارس إلى كساد التّجارة[٢] وركود الاقتصاد عامّة، وازدادت الوضعيّة سوءاً بسبب الحصار المفروض على المدينة.

ولم يستسلم البصريون للخوارج بل نشطوا في البحث عن حلّ عاجل لهذه الأزمة. وقد أثمرت تحرّكاتهم المكثّفة اتّفاقاً على تكليف المهلب بن أبي صفرة الأزدي بتكوين جيش لمحاربة الأزارقة. لكن هذا القائد ربط قبوله المهمّة بشروط قبلها أشراف البصرة وضمّنوها له في كتاب، وتتمثّل في حقّه في انتخاب من أحبّ من النّاس وله إمرة كل بلد غلب عليه وحقّه في إنفاق ما شاء في الحرب[٣]. ويضيف أبو مخنف أن المهلب وضع يده على خراج المناطق التي يحرّرها من الأزارقة لمدّة ثلاث سنوات[٤]. وانتخب المهلب من جميع الأخماس اثني عشر ألف مقاتل وجهّزهم بأموال من بيت المال وأخرى اقترضها من التجّار وخرج إلى الأهواز[٥] لمحاربة الأزارقة.

وبتولّي المهلب حرب الأزارقة تبدأ مرحلة جديدة في الصّراع بين البصريين والخوارج. وقبل التّعرف على أطوار هذا الصّراع وما تميّز به لا بدّ من الإشارة إلى ما ذكره المؤرّخ محمد عبد الحيّ شعبان كتفسير للأحداث السّابقة. فقد ربط شعبان تحرّكات الخوارج بعد مغادرتهم البصرة بهجرة أبناء قبائل حنيفة وتميم وعبد القيس التي يقول إنّها حدثت في تلك الفترة، ويرى أنّ انضمام القادمين من شبه الجزيرة إلى صفوف الخوارج هو الذي مكّنهم من السّيطرة على مساحات واسعة في فارس والأهواز وحرمان البصريين من مواردهم، كما أنّه دفع قبائل أخرى في الأنحاء الشرقيّة والوسطى من شبه الجزيرة العربيّة إلى الاقتداء بالخوارج الجدد، وهو ما جعل أعدادهم وثرواتهم وقوّتهم تبلغ حدوداً فاقت كلّ إمكانيات السيطرة عليها. إلاّ أنّه من حسن حظّ السلطة أن قبائل أخرى باقية في شبه الجزيرة قدمت بدورها إلى المنطقة وتحالفت مع أزد البصرة نظراً لانتماء أغلبها إلى بطون أزد عُمان، وهو ما سيمكّن المهلب والنّازحين الجدد من تحقيق النّصر على الخوارج الجدد[٦].

وما يذكره شعبان عن انضمام أعداد كبيرة من قبائل شبه الجزيرة من حنيفة وتميم وعبد القيس إلى صفوف خوارج البصرة المتمركزين في الأهواز، لا نجد له ذكراً في المصادر.

(١) لم يجد المهلب في بيت مال البصرة في تلك الفترة سوى مائتي ألف درهم: المبرد، الكامل، ص ١٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٣٤؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦١٦.
(٤) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٦٢١.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٦) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١١٠.

فكلّ ما نملكه حول هذه المسألة هو رواية تذكر قدوم سريّة من اليمامة ساعدت الأزارقة في معارك دولاب كان «عدد أفرادها بين أربعين ومائتين»[1]. ولئن كان دور هذه المجموعة حاسماً في تحقيق النّصر للخوارج، فإن ما يذكره شعبان عن دورها في السّيطرة على منطقة الأهواز فيه الكثير من المبالغة. فالأزارقة سيطروا على هذه المنطقة منذ خروجهم من البصرة مع نافع بن الأزرق وطردوا عمّالها وجبوا فيئها قبل قدوم مجموعة اليمامة، ولا توجد أيّة إشارة تفيد حصول أصحاب نافع على مساعدة خارجيّة خلال قيامهم بهذه العمليّة.

أمّا عن «حركة النزوح العدائي وغير المنضبط» التي تبعت انتقال الخوارج إلى الأهواز وشملت قبائل في الأنحاء الشرقيّة والوسطى من شبه الجزيرة العربيّة، فلا يوجد في المصادر ما يفيد وقوعها. وما يذكره هذا المؤرّخ عن ارتفاع عدد الأزارقة ونموّ ثرواتهم بسبب قدوم «الخوارج الجدد» غير صحيح لأنّ ارتفاع عدد أنصار الحركة يعود إلى الانضمام المكثّف لسكان المنطقة بعد معركة سوق الأهواز.

وما يُقال عن خوارج اليمامة ينطبق كذلك على أبناء القبائل الأخرى وخاصةً قبائل الأزد التي يرى شعبان أنّها هاجرت في تلك الفترة واتّفقت مع أزد البصرة على محاربة الخوارج بقيادة المهلب. فقدوم الأزد إلى البصرة صحيح لكنّه تمّ في أواخر خلافة معاوية وبداية خلافة يزيد[2]، كما أنّه لا يوجد ما يشير إلى انقسام جيش المهلب إلى نازحين قدامى وآخرين جدد، فهو يضمّ عناصر من كلّ أخماس البصرة[3] مع نسبة هامة من الأزديين.

وعموماً، فإنّ ما يذكره شعبان لا نجد ما يؤيّده في المصادر بما فيها تلك التي يذكر أنّه استمدّ منها معلوماته لكنّه يتماشى مع رأيه القائل إنّ حركة الأزارقة ليست سوى امتداد لثورة قبيلة حنيفة ضدّ الحكم الأموي التي اندلعت في اليمامة ثم امتدّت لتشمل العراق. فهو يُريد أن يثبت من خلال هذا القول وجود علاقة متينة بين ثوار البصرة واليمامة، ويؤكد الدّور الأساسي الذي قام به القادمون من شبه الجزيرة العربيّة في هذه الحركة، فهم أصحاب المبادرة وهم الذين نظّموا الهجوم على البصرة بمساعدة أبناء القبائل الأخرى من الخوارج. ويُنكر شعبان الدّور الذي ينسبه الرّواة للخوارج، معتبراً أنّ ما وقع في تلك الفترة لم يكن سوى ثورة كبرى في شبه الجزيرة العربيّة بقيادة قبيلة ذات تقاليد استقلاليّة عريقة تحالفت مصادفة مع الخوارج للقيام بحملة على العراق. ولم يكن هذا التّحالف إيديولوجيًا بل هو تحالف بين مجموعتين مستقلّتين لهما مصالح متشابهة لا متطابقة تعملان للدّفاع عنها[4].

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٧؛ الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٧.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥١٦.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٣٤؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٠٣.
(٤) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ١٠٩.

ولقد رأينا سابقاً أنّ ما وقع في اليمامة لم يكن مجرّد ثورة لقبيلة حنيفة بل هو تحرّك قام به خوارج اليمامة وانضمت إليه عناصر من هذه القبيلة منهم نجدة بن عامر، وأنّ انضمامها لم يفقد التّحرك محتواه الايديولوجي والسّياسي. كما أنّ ما قام به خوارج البصرة هو انتفاضة نظّمتها وقادتها عناصر خارجيّة ولم تلعب فيها العناصر القادمة من اليمامة سوى دور ثانوي تمثّل في تقديم مساعدة عسكريّة في معارك دولاب الأخيرة. هذا بالإضافة إلى تأكيد كلّ المصادر على حصول قطيعة تامّة بين نجدة الحنفي والأزارقة منذ خروج هؤلاء إلى الأهواز.

أما عن دور الأزد في التصدّي للخوارج فسنتعرّف عليه من خلال تتبّع سير المعارك بين الأزارقة والمهلب بن أبي صفرة.

ج ـ المهلّب بن أبي صفرة والأزارقة:

دارت أولى المعارك بين المهلب والأزارقة قرب البصرة، وكانت خطّة المهلب تقتضي إبعاد الخطر الخارجي المحدق بالمصر وإيجاد موارد لتموين الجيش وإرجاع الأموال المقترضة من التّجار. لذلك كانت العمليات العسكريّة متبوعة بعمليات جمع للخراج، فكلّما تمكن الجيش البصري من إزاحة الخوارج عن منطقة بقي فيها إلى أن يجبي خراجها[(1)]. وبذلك تمّكن المهلّب في فترة وجيزة من قضاء التّجار كما أعطى أصحابه «فأسرع إليه النّاس رغبة في مجاهدة الخوارج وطمعًا في الغنائم وللتّجارات»[(2)]، فارتفع بذلك عدد أفراد جيشه من إثني عشر ألفاً عند الخروج من البصرة إلى عشرين ألفاً، كما ارتفع عدد الفرسان بعد أن كان أغلب المقاتلة من الرّجالة[(3)].

وقام المهلب بالتّوازي مع هذه الأعمال بدسّ الجواسيس في عسكر الخوارج «ليأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم»[(4)]، وتمكّن بفضل هذه المعلومات من رسم صورة لعدوّه ستساعده في حروبه القادمة. واستعمل المهلب بالإضافة إلى الجوسسة أسلوباً آخر أكثر خطورة يتمثّل في اختلاق الأحاديث النّبويّة «ليشدّ بها من أمر المسلمين ويضعف من أمر الخوارج»[(5)]، ويبثّ الفرقة في صفوفهم. وتدلّ هذه الأعمال على كفاءة المهلب وخبرته الكبيرة في الحروب، وتفسّر سبب إجماع البصريين على اختياره قائداً للجيش ونجاحه في تحقيق الانتصار تلو الانتصار على الخوارج.

وتعطي المصادر عند سردها لأحداث تلك الفترة بعض التفاصيل عن تركيبة جيش

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٣٦؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٤٧.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ١٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٣٦؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٤٧.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١٤٠.

الأزارقة، من ذلك ما يذكره المبرّد من «أنّ جواسيس المهلب أفادوه بأنّ الخوارج هم حشوة ما بين قصّار وصبّاغ وداعر وحدّاد»[١]. وتوضّح هذه الرّواية ما ذكره الرّواة سابقاً عن انضمام العديد من سكّان الأهواز إلى صفوف الحركة بعد معارك دولاب وخاصةً بعد معركة سوق الأهواز، كما تبيّن أنّ أغلب المنضمّين في تلك الفترة كانوا من الأعاجم، أي من سكّان المنطقة وخصوصاً من ذوي المكانة الاجتماعيّة الضّعيفة. والظاهر أنّ هذه الفئات التي كانت تعاني أكثر من غيرها من الضّغط الجبائي ومن سيطرة الدّولة كانت أسرع في الانضمام إلى صفوف الخوارج لأنّها رأت في ذلك وسيلة للتّعبير عن رفضها للحكم الإسلامي الذي لم تكن قادرة بسبب ضعفها على التخلّص منه، كما قد تكون اقتنعت بالفكر الخارجي باعتباره فكراً احتجاجيًّا فتبنّته.

أمّا تحديد نسبة الأعاجم داخل الحركة ودراسة أوضاعهم في تلك الفترة، فلا تمكّن المادة المتوافرة لدينا من القيام به بسبب اهتمام أغلب الرّواة بنقل أخبار البصريين وخاصةً تحرّكاتهم العسكريّة والتّركيز في أخبار الأزارقة على ما له صلة بهذه التحركات. إلاّ أنّ تتبّعنا للعمليات العسكريّة قد يمكّننا من فهم بعض الجوانب من تاريخ هذه الحركة والتّعرف على أوضاع الفئات المنضوية تحت لوائها.

انتهت أولى المعارك بين الخوارج والمهلب بانسحاب الأزارقة تدريجيًّا من منطقة دجلة ثم من منطقة نهر تيرى ثمّ من سوق الأهواز، وانتقل معسكرهم إلى سولاف[٢] بمناذر الصغرى[٣]. وفي المنطقة المذكورة وقعت أوّل معركة كبيرة انهزم فيها جيش البصرة وفرّت أغلب عناصره، ولم يثبت سوى المهلب وابنه المغيرة وجماعة قليلة. ورغم الانتصار، فإن الأزارقة فضّلوا الانسحاب عبر نهر دجيل إلى الجهة الشرقيّة وتبعهم المهلب بعد ذلك والتقى الجيشان في سلّى وسلبّرى[٤] حيث دارت معركة كانت على درجة كبيرة من الأهميّة بالنّسبة للطرفين.

وقعت المعركة بعد نزول البصريين بأيّام، واعتمد الطّرفان التّنظيم التقليدي للجيوش. إلاّ أن جيش الخوارج كان «أحسن عدّة وأكرم خيولاً وأكثر سلاحاً من أهل البصرة. فقد كانت عليهم مغافر تضرب إلى صدورهم وعليهم دروع يسحبونها وسوق من زرد يشدّونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم»[٥]. ولم يكن جيش المهلب يمتاز سوى بكثرة العدد[٦].

---

(١) المبرّد، **الكامل**، ص ١٣٦؛ ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٤، ص ١٤٧.
(٢) سولاف: قرية في غربي دجيل من أرض خوزستان قرب مناذر الكبرى: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٣، ص ٢٨٥.
(٣) مناذر الصغرى: كورة من كور الأهواز: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ١٩٩.
(٤) المبرّد، **الكامل**، ص ١٤١.
(٥) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص٦١٨.
(٦) الدّجيلي، **فرقة الأزارقة**، ص ١٠٠.

تواقف الجيشان ثلاثة أيّام، ولم يبدأ القتال إلاّ في اليوم الثالث حيث وقعت في البداية مبارزات فرديّة تبعها هجوم واسع قام به الأزارقة أدّى إلى هزيمة البصريين وفرارهم، وتبعت خيلهم الفارّين تطلبهم في كل مكان. وكادت المعركة أن تنتهي على هذا الحال لولا الهجوم المفاجىء الذي قام به المهلّب وبعض أصحابه من الأزد مستغلّين تفرّق الخوارج وتشتّتهم مما مكّنهم من تحويل الهزيمة إلى انتصار ساحق وتكبيد الأزارقة خسائر جسيمة(١)، تمثّلت في مقتل أميرهم عُبيد الله بن الماحوز وعدد كبير من أصحابه بلغ سبعة آلاف حسب رواية الطبري(٢)، وفقدانهم السّيطرة نهائيًا على الأهواز وانتقالهم إلى أرجّان من بلاد فارس(٣). وقد كان لهذه المعركة وقعٌ كبير على الأزارقة عبّر عنه العديد من شعرائهم(٤).

وجاءت للخوارج إمدادات من البحرين(٥) إثر الهزيمة، ولا يذكر أبو مخنف الذي ينفرد بنقل هذا الخبر أي تفاصيل عن طبيعة هذه الإمدادات. والظّاهر أنّها لم تكن ذات أهميّة كبيرة لأنّ وضعيّة الأزارقة لم تتحسّن بعد وصولها إليهم.

بايع الأزارقة في أرجّان الزّبير بن علي بن الماحوز خليفة لهم(٦). ويدلّ اختيارهم للزّبير في هذا الظرف الدقيق على كفاءة هذا الشخص ومقدرته ومكانته المتميّزة. فهو من مؤسّسي الحركة ومن أبرز قادتها العسكريين، لعب دوراً هامًّا في خلافة عُبيد الله بن الماحوز حيث قاد العديد من العمليات العسكريّة وأهمّها حصار البصرة.

وأظهر الزّبير بن الماحوز مقدرة كبيرة في قيادة الحركة في تلك الفترة. فقد تمكّن رغم حالة الضّعف والانكسار التي كانت عليها من استئناف الهجومات العسكريّة ضدّ مواقع العدّو في وقت وجيز(٧)، معتمداً أسلوب قتال جديداً يتمثّل في القيام بهجومات سريعة ومفاجئة تضرب العدو في أماكن متفرّقة وتمكّن من الحصول على غنائم وافرة. ويرى الدّجيلي أن «هذه الطريقة تتّفق مع واقع الأزارقة في تلك الفترة، فهم فرسان متجوّلون

---

(١) انظر التّفاصيل الكاملة لهذه المعركة في: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص٦١٨ ـ ٦١٩؛ المبرّد، **الكامل**، ص ١٤٤ ـ ١٤٦.

(٢) لم ينجُ من معرجة سلّى وسلبّرى سوى ثلاثة آلاف من جملة عشرة آلاف. انظر: **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٦٢٢.

(٣) المبرّد، **الكامل**، ص ١٤٦.

(٤) يقول أحد الخوارج عن هذه المعركة:

بسلّى وسلبّرى مصارع فتية ... كرام وجرحى لم توسّد خدودها

(المبرّد، الكامل، ص ١٤٦).

(٥) **تاريخ الطبري**، ج ٥، ص ٦١٩.

(٦) المبرّد، **الكامل**، ص ١٤٩.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ١٥٠.

سريعو الحركة وعددهم قليل لا يتجاوز بضعة آلاف يصعب عليهم الصّمود أمام جيوش ضخمة. وحتّى إذا تمكّنوا من تحقيق النصر، فإنّ نتيجته ستكون خسائر فادحة في المقاتلين الّذين هم بأمسّ الحاجة إليهم»[1].

ولئن لم تُمكّن حرب العصابات التي توخّاها الزّبير بن عليّ من استعادة السّيطرة على الأهواز أو إلحاق هزائم بالمهلب، فإنّها مكّنت من توسيع مجال نشاط الخوارج الذي صار يمتدّ من الريّ[2] شمالاً إلى فارس وكرمان جنوباً[3]، ومن تعزيز صفوف الحركة بأنصار جدد والحصول على غنائم كثيرة استعملوها لتحسين أسلحتهم ومعدّاتهم العسكريّة، تعويضاً للنّقص في المقاتلة الذي تشكو منه الحركة[4].

واستمرت هذه الوضعيّة إلى حدود سنة ٦٧هـ. ويبدو من خلال الرّوايات أنّ المهلب لم يقمْ في تلك الفترة بمحاولات جادّة للقضاء على الخوارج، بل اكتفى بإبعادهم عن الأهواز، لأنّ شغله الشّاغل كان جمع خراج هذه المنطقة حتّى إنّه كره الرّجوع إلى البصرة حين طلب منه واليها الجديد مصعب بن الزبير ذلك، ولمّا ألحّ عليه «رجع ومعه أموال عظيمة وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة»[5].

ووجد الأزارقة بعد رجوع المهلب إلى البصرة للمشاركة في قمع ثورة المختار الثّقفي الفرصة سانحة لتكثيف نشاطهم، خصوصاً وأنّ المغيرة بن المهلّب الذي خلف أباه في هذه المهمّة لم يقم بهجومات ضدّهم لاقتصار مهمّته على ما يبدو على حماية البصرة من خطرهم[6].

وعيّن مصعب بن الزبير بعد القضاء على ثورة المختار الثقفي عمر بن عُبيد الله بن معمر أميراً على بلاد فارس وأمره بقتال الأزارقة[7] الذين كانوا يواصلون تحرّكاتهم خاصةً في فارس. كانت مهمّة عمر بن عُبيد الله تقتضي إخراج الأزارقة من فارس كما أخرجهم المهلب من الأهواز، وقد تمكّن من ذلك في مناسبات عديدة، لكن في كل مرّة كان الخوارج ينسحبون ثم يعودون من جديد بعد أن يقوّوا أنفسهم. ورغم ما بذله عمر بن عُبيد

(١) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١٠٥.
(٢) الريّ: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٦.
(٣) كرمان: ولاية مشهورة ذات قرى ومدن واسعة تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٥.
(٤) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١٠٥.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٩٥؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٥٢.
(٦) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١٠٧.
(٧) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١١١.

الله من جهدٍ، وما أظهره من كفاءة ومقدرة على محاربة الأزارقة، لم يتمكّن من إلحاق الهزيمة بهم. والظاهر أنّ الخلاف بينه وبين أفراد جيشه كان من بين الأسباب التي حالت دون تحقيق انتصارات حاسمة. وقد عبّر عمر بن عُبيد الله عن هذا الخلاف بنفسه حين قال مخاطباً أحد أفراد جيشه: «إنّما إنكم لو ناصحتموني مناصحتكم للمهلب لرجوت أن أنفي هذا العدوّ ولكنّكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدّار خيره لغيرنا فتقاتلون معي تعذيراً»[١]. ويتضّح من خلال هذا القول أنّ عدم تحمّس المقاتلة للحرب تحت قيادة عمر بن عُبيد الله هو سبب الخلاف، وقد تكون العناصر الأزديّة التي تمثّل قسماً كبيراً من هذا الجيش هي التي تقف وراء هذه العمليّة، لأنّها استفادت كثيراً من إمرة المهلّب وتريد بتلكؤها إظهار عجز هذا القائد وعدم قُدرته على التصدّي للأزارقة لتضمن عودة المهلّب من جديد.

وقد حاول عمر بن عِبيد الله كلّ ما في وسعه تجنّب هذه النّهاية، لكن ما قام به الأزارقة أظهر عدم قدرته على تتبّعهم وصدّ خطرهم. فقد قاموا بقطع أرض فارس في اتّجاه البصرة، وهذا ما أغضب الوالي مصعب بن الزبير ودفعه إلى الخروج بنفسه. ولمّا أحسّ الأزارقة أنّهم صاروا بين قوّتين قرّروا الانتقال إلى مكان آخر يسهل لهم فيه التحرّك والانسحاب عند الحاجة[٢]. اتّجه الخوارج نحو الشمال حتّى وصلوا إلى المدائن، فهرب أميرها كردم بن مرثد الفزاري، فاسحاً قي المجال أمامهم لدخولها. وقام الخوارج في المدائن بعمليات استعراض وقتل شملت الرّجال والنّساء والأطفال[٣]. ثم انتقلوا إلى سابط فقتلوا بعض سكّانها[٤]، ومنها خرجت عصابة يقودها صالح بن مخراق إلى استان العال[٥] فقتلت عاملها أبا بكر بن مخنف[٦]. ثم اتّجهت نحو الكوفة فخاف أهلها وأتوا واليها الحارث بن ربيعة المعروف بالقبّاع فخرج إليهم متثاقلاً تحت ضغط الأشراف. لكن الخوارج انسحبوا إلى الصّراة ومنها إلى المدائن، «فأتبعهم القبّاع عبد الرّحمن بن مخنف في ستّة آلاف مقاتل ليخرجهم من أرض الكوفة فإذا وقعوا في أرض البصرة خلاّهم»[٧].

وواصل الأزارقة غاراتهم على المنطقة حتّى انتهوا إلى أصبهان، فحاصروا عاملها

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٥٥.

(٢) المبرّد، الكامل، ص ١٥٧؛ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢٠.

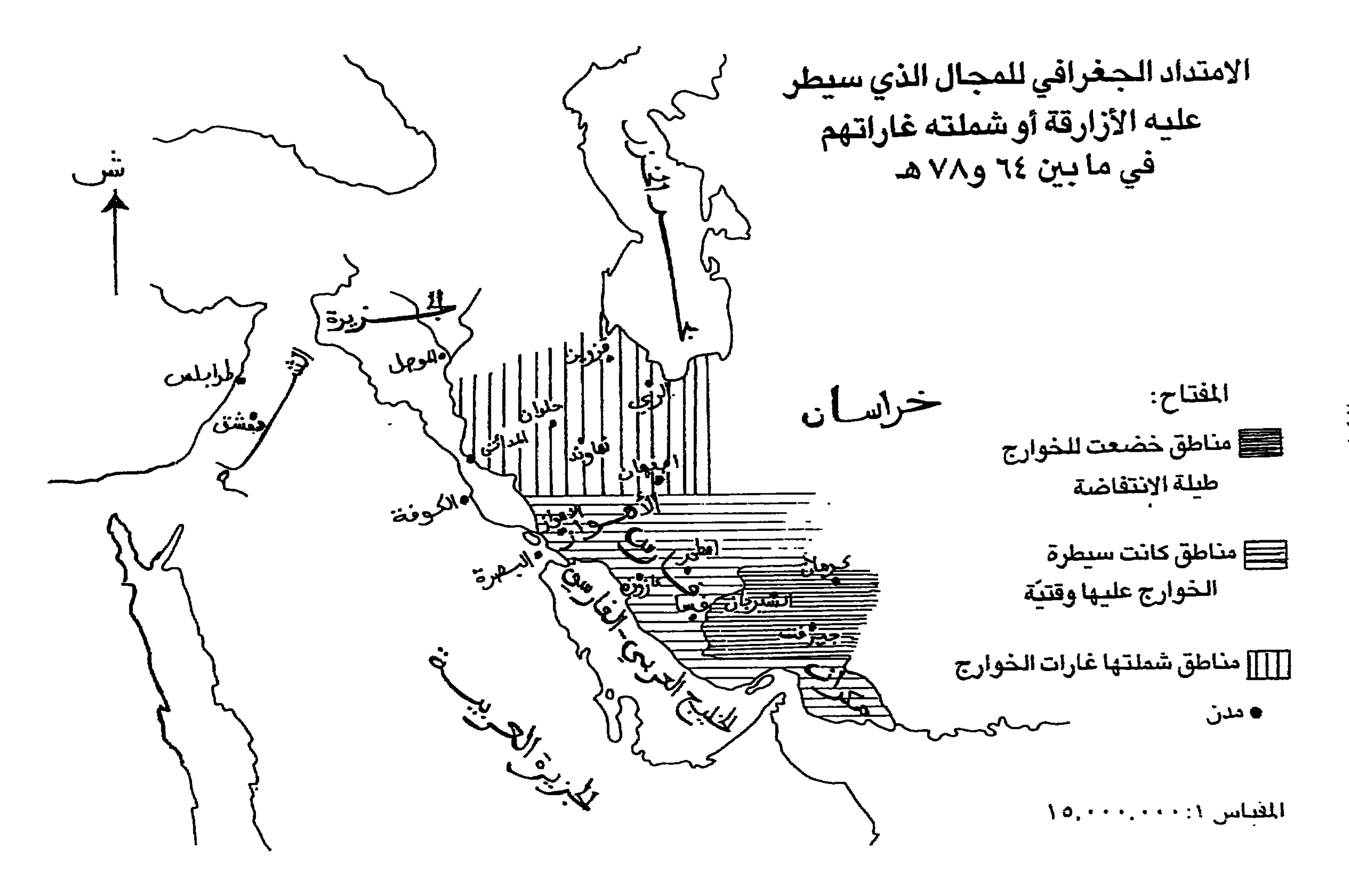
(٣) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢١؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١١٥.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢١.

(٥) استان العال: كورة في غربي بغداد: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٤.

(٦) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢٢؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١١٥.

(٧) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢٥.


الامتداد الجغرافي للمجال الذي سيطر
عليه الأزارقة أو شملته غاراتهم
في ما بين ٦٤ و٧٨ هـ
المفتاح:
مناطق خضعت للخوارج
طيلة الإنتفاضة
مناطق كانت سيطرة
الخوارج عليها وقتيَة
مناطق شملتها غارات الخوارج
مدن
المقياس ١: ١٥,٠٠٠,٠٠٠
خراسان
الجزيرة
الموصل
طرابلس
دمشق
المدائن
حلوان
نهاوند
قزوين
الري
الكوفة
البصرة
الأهواز
كرمان
جيرفت
الخليج العربي - الفارسي
الجزيرة العربية
ش

مدّة طويلة. ولمّا لم يظفروا منه بشيء انصرفوا إلى الرّي فقتلوا عاملها[1] بفضل مساعدة السّكان لهم[2]. ثمّ تراجعوا إلى أصبهان فحاصروها من جديد أشهراً طويلة، وأحسّ عاملها عتّاب بن ورقاء الرّياحي أنّ الحصار سيؤدي إلى هلاكه وهلاك من معه، ولذلك قرّر الخروج إليهم فكانت هزيمتهم ومقتل أميرهم الزّبير بن علي بن الماحوز[3].

هذه مجمل الأعمال التي قام بها الأزارقة في خلافة الزّبير بن الماحوز، وهي أعمال تتفّق المصادر على سردها بالتّسلسل ذاته تقريباً مع تركيز كبير على عمليات الاستعراض والقتل التي قام بها الخوارج. ولئن يُبرز التتبّع الدقيق للرّوايات وجود مبالغة واضحة وتهويل من قبل الرّواة وخاصةً أبي مخنف، فإنّنا لا نشك في أنّ عنف هذه الغارات قد روّع السكان ونشر الفوضى في المناطق التي شملتها وأدّى إلى مقتل العديد من المسلمين. ويدعو اندلاع العنف الخارجي في تلك الفترة إلى الاستغراب لأنها المرّة الأولى التي يقوم فيها الأزارقة بمثل هذه الأعمال ويوجّهون عنفهم ضدّ سكان مناطق بعيدة عن مجالهم. ورغم غياب ما يفسّر هذه الأعمال، فإنّنا لا نستبعد أن يكون حرص ابن الزبير على محاربة الأزارقة ونجاحه في تضييق الخناق عليهم في فارس والأهواز هو الذي دفعهم إلى القيام بمثل هذه الأعمال لتأكيد قوتهم وقدرتهم على ضرب السّلطة والسكان في كل المناطق وإظهار عجز ابن الزبير عن تتبّعهم مهما جنّد من قوّة لذلك.

انتهت هذه الغارات، كما ذكرنا سابقاً، بمقتل زعيم الأزارقة الزّبير بن الماحوز واختيار قائد جديد هو قطري بن الفجاءة[4]. ولم تتم عمليّة الاختيار بالسرعة التي تمّ بها اختيار أبناء الماحوز بل استغرقت بعض الوقت واستوجبت على ما يبدو استشارة داخل الحركة نقل أصداءها المبرّد في رواية يقول فيها إنّ الخوارج «أداروا أمرهم بينهم وأرادوا تولية أمرهم عبيدة بن هلال اليشكري»[5]. وتبدو أسباب اختيار عُبيدة بن هلال عديدة منها أسبقيّة انتمائه إلى الحركة ومشاركته في التحرّكات التي وقعت في البصرة في ولاية ابن زياد ودوره البارز في المعارك التي خاضها الأزارقة بعد خروجهم إلى الأهواز.

لم يقبل عُبيدة بن هلال المنصب وأشار على أصحابه باختيار قطري بن الفجاءة، معلّلاً اقتراحه بقوله: «إنّ قطري يطاعن في قُبل ويحمي في دُبر»[6]. وفي هذا القول تأكيد

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٥٩؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص١١٨.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٩٢.
(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٦١.
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٢؛ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢٦.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١٥٩؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٣.
(٦) المبرّد، الكامل، ص ١٦٤.

على أنّ الكفاءة العسكريّة كانت عاملاً أساسيًا في ترشيح قطري. إلاّ أنّ قطريّاً لم يكن قائداً عسكريًا فحسب بل شخصاً متعدّد المواهب سيكون لاختياره على رأس الحركة تأثير كبير عليها.

ينتمي قطري بن الفجاءة إلى بني مازن من قبيلة تميم وهو من الأشراف[١]، أمّه من بني شيبان[٢] وهي قبيلة ساهمت إلى جانب تميم بدور كبير في الحركة الخارجيّة. ولا تذكر المصادر شيئاً عن ماضي قطري إذ يرد ذكره لأوّل مرّة إبّان ولاية عبد الله بن عامر على البصرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان حيث يذكر البلاذري أنّ ابن عامر ولّى عبد الرّحمن بن سمرة سجستان فأتاها ومعه من الأشراف عمرو بن معمر التّميمي وعبد الله بن خازم السّلمي وقطري بن الفجاءة المازني والمهلّب بن أبي صفرة[٣]، ثمّ تسكت المصادر تماماً عن ذكره بعد ذلك. أمّا ضمن الحركة الخارجيّة، فيرد ذكرُ قطري في سنة ٦٥هـ إبّان معركة دولاب التي قتل فيها نافع بن الأزرق[٤]، وبهذا يكون قطري أوّل شخص يتولّى قيادة الحركة من دون أن يكون من مؤسّسيها.

بدأ دور قطري يكبر داخل المجموعة بعد معركة سلبّرى حيث نجد روايات تذكر مواقفه وآراءه ونصائحه التي كان يُسديها لزعماء الحركة والتي تدلّ على سعة اطلاعه ومقدرته العسكرية الفائقة[٥]. ولعلّ مشاركة قطري السّابقة في الفتوحات هي التي أكسبته خبرة بالأماكن والأشخاص معاً. فهو مطّلع على جغرافية المنطقة، وعلى طبيعة القواد الذين تولّوا مهمّة حرب الأزارقة وخاصّة المهلب بن أبي صفرة، وهو ما أكسبه مكانة مميّزة داخل الحركة[٦].

كما كان قطري خارجيًا متمسكاً بمبادىء الحركة، وهو ما يتّضح من خلال أقواله والأشعار العديدة المنسوبة إليه. إلاّ أنّه كان أقل تطرّفاً من القادة السّابقين، ويظهر ذلك من خلال مواقفه من المخالفين والقعدة. ففي خصوص المخالفين، يظهر تسامحه من خلال ما قام به مع الفرز العبدي الذي قبض عليه الأزارقة وأرادوا قتله، فقد اكتفى قطري بسؤاله عن أقاويل الخوارج فلمّا أجابه إليها خلّى سبيله[٧]. أمّا موقفه من القعدة فيظهر من خلال

(١) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨.
(٢) المسعودي، **مروج الذّهب**، ج ٣، ص ٣٤٤.
(٣) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨؛ **تاريخ خليفة بن خياط**، ج ١، ص ١٨٩.
(٤) المبرّد، **الكامل**، ص ١٢٣.
(٥) المبرّد، **الكامل**، ص ١٥٥؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١١٢؛ ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٤، ص ١٦١.
(٦) المبرّد، **الكامل**، ص ١٥٣ ـ ١٥٤؛ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٤، ص ١٦١.
(٧) المبرّد، **الكامل**، ص ١٥٥.

الأشعار التي بعث بها إلى اثنين من الخوارج بالبصرة وهما أبو خالد القنّاني وسمرة بن الجعد الذي كان سميراً للحجّاج وفيها يقول:

أبا خالد أنفر فلست بخالدٍ . وما جعل الرّحمنُ عُذراً لقاعِدِ[1]

كما يقول لسمرة بن الجعد:

لشتّان ما بيْن ابن جعْدٍ وبيْنَنَا إذا نَحْنُ رُحْنَا في الحَديدِ المظاهرِ

نجالد فرسان المهلّب كُلّنَا صبورٌ على وقْع السيوف البواتِرِ

وراح ابنُ جعْدٍ نحو أميره أميرٍ بتقوى الله غير آمر[2]

وفي هذه الأشعار يعاتب قطري سمرة وأبا خالد ويحثّهما على الالتحاق بالرّفاق الذين يتكبّدون مشاق الحرب، لكنّه لا يهدّدهما ولا يتّهمهما بالكفر لقعودهما بل لا يعتبر القعود كفراً وإنّما ذنبٌ يمكن لصاحبه أن يتوب عنه. وقد أكّد ذلك لابن الجعد في القصيدة ذاتها حيث يقول:

وتبْ توبة تُهدى إليك شهادة فإنّك ذو ذنب ولست بكافر[3]

وتُعدّ مواقف قطري بن الفجاءة كما تبْدو من خلال هذه الرّوايات والأشعار تحوّلاً كبيراً بل تراجعاً عن بعض مبادىء الحركة، لأنّ الأزارقة يعتبرون القاعد كافراً والمخالف لهم مشركاً يحلّ قتله، ولا يمكن قبوله ضمن المجموعة إلاّ إذا اجتاز المحنة التي تثبت صحّة إيمانه، وهو ما لم يقم به قطري مع الفرز العبدي.

وممّا يدلّ على اعتدال هذا الزّعيم الخارجي وتسامحه الغياب الكليّ لعمليات الاستعراض والقتل طيلة فترة خلافته. ولم يقتصر تسامحه على العرب بل شمل الأعاجم كذلك، وهو ما تؤكّده رواية نقلها الدّجيلي عن البلاذري يذكر فيها أن ملاّحي قطري كانوا ينادون إخوانهم من الأعاجم للانضمام إليهم قائلين: «تعالوا إلى قطري إلى خير النّاس وأوفاهم»[4]. وقد يكون هذا الاعتدال سبباً في انضمام أعداد كبيرة إلى صفوف الحركة في تلك الفترة.

أمّا أسباب اعتدال قطري فتعود على ما يبدو إلى طباعه، فهو شاعر رقيق حسّاس لا يميل إلى العنف خارج حدود تطبيق مبادىء الحركة والدّفاع عنها. كما قد يكون انضمامه المتأخّر إلى صفوف الخوارج من الأسباب التي جعلته لا يتأثّر كثيراً بالأفكار المتصلّبة لبعض زعمائها الأوائل.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤٤.
(٤) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١١٣.

ومن ناحية أخرى، تميّز قطري بن الفجاءة عن الزّعماء السّابقين للحركة بتأثّره بالعصبيّة القبليّة، ويتجلّى ذلك من خلال الأشعار المنسوبة إليه[١]. فلأوّل مرّة نجد في الشّعر الخارجي إشارات إلى القبائل بأسمائها[٢]. وقد فسّرت سهير القلماوي تأثّر قطري بالعصبية القبليّة بالموقع الممتاز الّذي يحتلّه في قبيلته[٣]، كما قد يكون لهيجان العصبيّة زمن الفتنة خاصةً في البصرة دورٌ في بروز هذا الشعور. إلاّ أنّ قوّة الشعور القبلي لم تؤثّر كثيراً على سلوك قطري وتصرّفاته خلال فترة تولّيه لقيادة الحركة، وهو ما سنتبينه من خلال تتبّع سياسته والتطورات التي عرفتها الحركة تحت قيادته.

تقتصر دراستنا لحركة الأزارقة في فترة خلافة قطري بن الفجاءة على مصدرين أساسيين هما: **تاريخ الطبري** و**الكامل** للمبرّد، لأنّ ما نجده في المصادر الأخرى ليس سوى إعادة لما ينقله هذان المصدران. أمّا المصدر المنسوب للبلاذري والذي كان أحد المصادر الأساسيّة لدراسة هذه الحركة حتّى الآن، فإنّه يتوقف عن سرد تحركات الأزارقة مباشرة بعد تولّي قطري القيادة، وإنْ كان اهتمامه بأحداث خلافة عبد الملك بن مروان جعله يتعرّض لذكر الأزارقة أحياناً. وعموماً، فإنّ كتاب المبرّد يُمكن أن يعوّض هذا المصدر باعتبار أنّ ما نقله سابقاً مماثلٌ لما ينقله المبرّد، والظّاهر أنّ المؤرِّخَيْن نقلاً عن الرّواة نفسهم وخصوصاً عن المدائني الذي خصّص للخوارج كتاباً كاملاً[٤].

تتشابه المعلومات التي ينقلها الطبري والمبّرد فيما يخصّ الأحداث، لكنها تختلف كثيراً في تسلسلها الزّمني. فالطبري الذي يعتمد كليًا على أبي مخنف يورد الأحداث ذاتها التي ينقلها المبرّد لكن بتسلسل معكوس. هذا بالإضافة إلى اختلافه معه في تحديد بعض التواريخ والأماكن. ويبدو من خلال تتبّع الأحداث ومقارنتها، وبالرّجوع إلى الإشارات المتفرّقة وخصوصاً إلى بعض الأشعار المعاصرة لهذه الأحداث، أنّ الأخبار التي ينقلها المبرّد هي أقرب إلى الصحّة، ولذلك اعتمدناها في دراسة تلك الفترة لكن من دون أن نهمل روايات أبي مخنف لاحتوائها على تفاصيل هامّة لا نجدها في المصادر الأخرى.

---

(١) من الأشعار التي تُنسب إلى قطري قوله يوم دولاب:

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدّها ... وأحلافها من يحصبُ وسليم

(المبرّد، الكامل، ص ١٢٣).

(٢) سهير القلماوي، أدب الخوارج، ص ٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٤) فؤاد سزكين، تاريخ التّراث العربي، مج ١، ج٢، ص ١٤٢.

كانت بداية تحرّكات الأزارقة مباشرةً بعد تولّي قطري قيادة الحركة سنة ٧١هـ. فقد انسحبت المجموعة من أصفهان إلى الأهواز، وكان هدفها دخول البصرة بعد خروج مصعب بن الزبير منها[١]. لكن قدومها أفزع البصريين ودفعهم إلى مطالبة مصعب بتولية المهلب حرب الأزارقة، وربطوا خروجهم معه لمحاربة عبد الملك بن مروان بخروج المهلب إلى الأهواز[٢]. ولمّا قدم المهلّب، انسحب قطري إلى كرمان فأقام بها «حتّى اجتمعت إليه جموع كثيرة وأكل الأرض واجتبى المال وقوي»[٣]، ثمّ عاد من جديد فحاربه المهلّب ونفاه إلى رام هرمز[٤]. وقد تزامنت هذه الحروب مع الحرب بين مصعب بن الزّبير وعبد الملك بن مروان التي انتهت بهزيمة ابن الزبير ومقتله وعودة العراق إلى الحكم الأموي من جديد.

أقرّ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان المهلّب بن أبي صفرة في مركزه، وأمر والي البصرة الجديد خالد بن عبد الله ابن أسيد أن يبقيه على حرب الأزارقة ويستشيره في كلّ ما يهمّ أمرهم[٥]. ويبدو أنّ عبد الملك كان يولي هذه المسألة أهميّة كبيرة، إذ بالإضافة إلى التّعليمات التي أصدرها إلى والي البصرة كتب إلى والي الكوفة بشر بن مروان يطلب منه إرسال خمسة آلاف مقاتل من هذا المصر لمساعدة البصريين في القضاء على الخوارج[٦]. وكانت هذه المرّة الأولى التي يُشارك فيها جيش الكوفة في الدّفاع عن الأراضي التّابعة للبصرة. فقد كان المقاتلة يعتبرون أن مسؤولياتهم تقتصر على الدفاع عن الأراضي التّابعة لمصرهم، ولذلك كانوا كلّما كلفوا بالقضاء على انتفاضة يقومون بذلك في حدوده فإذا انتقل العدوّ إلى أراضي المصر الآخر تركوه. ولكن عبد الملك بن مروان أراد أن يستغلّ إمكانيات المِصْرَين باعتبار أنّ أيّ تحرّك في البصرة أو الكوفة أو أيّ مكان آخر هو تهديد لسلطة الدّولة يجب تجنيد كل الإمكانيات للقضاء عليه، وهو ما سيدفعه في المستقبل إلى استعمال جيش الشام والاعتماد عليه في قمع ثورات المناطق الأخرى وخصوصاً العراق.

لم ينفّذ والي البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد أوامر عبد الملك، فقد عزل المهلّب

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٦٤.
(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٣٢.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٢٧.
(٤) رام هرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج وليس ذلك بغيرها من مدن خوزستان: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٧١.
(٦) المبرّد، الكامل، ص ١٦٧؛ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٧١.

وتولّى حرب الأزارقة بنفسه[1]، لكنّه تكبّد في الأهواز هزيمة نكراء كادت أن تقضي على جيشه كلّه لولا تدخّل المهلّب في الوقت المناسب[2]. وينقل الدّجيلي عن ابن الأعثم قوله: «إنّ خالداً أراد أن يوري أهل البصرة غناه عن المهلّب وأن يسقط منزلته في عيون النّاس»[3]، وهو قول يتّفق مع ما جاء على لسان خالد وأخيه عبد العزيز في مناسبات عديدة[4]. فهما يريدان إثبات قدرتهما على الانتصار على الأزارقة بدون المهلّب. ويظهر أنّ ما كان يتحصّل عليه هذا الأخير من حروبه بحكم الاتفاق السّابق بينه وبين أهل البصرة هو الذي يُفسّر إصرار هذا الوالي على الاستغناء عنه.

وبعد هزيمة خالد كانت هزيمة أخيه عبد العزيز الذي أرسله إلى الأزارقة على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف رجل[5]، وقد تزامنت مع هزيمة أخ ثالث لهما هو أميّة بن عبد الله بن أسيد أمام أبي فديك الخارجي في البحرين[6]. وأدّت هذه الهزائم المتتالية إلى عزل خالد بن عبد الله عن ولاية البصرة واستبداله ببشر بن مروان الذي صار والي العراق كلّه[7] في وقت صار فيه الأزارقة يسيطرون على فارس والأهواز ويهدّدون بدخول البصرة.

لم يكن موقف بشر بن مروان من المهلّب يختلف عن موقف سلفه منه، لكنّه لم يكن قادراً على مخالفة أوامر عبد الملك الصّارمة. لذلك ولاّه أمر الأزارقة وعمد في الوقت نفسه إلى الاعتراض على خروج عدد كبير من المقاتلة الذين انتخبهم المهلّب بقصد إضعاف قدرته العسكريّة[8]. كما حاول إحداث خلاف داخل الجيش من خلال محاولة إقناع عبد الرحمن بن مخنف قائد جيش الكوفة «بمخالفة أوامر المهلّب وإفساد رأيه»[9]. وتمكن المهلّب، رغم كل العوائق، من إبعاد الأزارقة عن المناطق المحيطة بالبصرة وعن سوق الأهواز بسهولة، لكن لما وصل إلى رام هرمز بلغه موت بشر بن مروان، فاضطرب الجيش وانسحب أغلب عناصره عائدين إلى أمصارهم حتّى إنّه «لم يبق في مواجهة الخوارج سوى المهلّب وقواده وابن مخنف في عدد قليل»[10].

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(٣) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١١٩.

(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٦٩؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٧٣.

(٥) المبرّد، الكامل، ص ١٦٩.

(٦) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٧٤.

(٧) المبرّد، الكامل، ص ١٧٥؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٧٩.

(٨) المبرّد، الكامل، ص ١٦٧.

(٩) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٩٦؛ المبرّد، الكامل، ص ١٧٧.

(١٠) المبرّد، الكامل، ص ١٧٨. ويقول كعب الأشقري الأزدي أحد المقاتلة في جيش المهلّب ذاكراً هذه الأحداث:

حتّى إذا خلّفوا الأهواز واجتمعوا   بِرَامَهرمز وافاهم بها الخبر =

ولم يكن ما قام به أفراد هذا الجيش جديداً فمنذ سنوات عديدة بدأ المقاتلة يُظهرون عدم تحمّسهم للمشاركة في قمع الانتفاضات. وقد انهزمت نتيجة لذلك جيوش كبيرة أمام مجموعات صغيرة من الخوارج وهو ما لم يقع طيلة خلافة عليّ بن أبي طالب لاقتناع المقاتلة بأن قتال المعارضين واجبٌ مقدسٌ بما أنّ هدفه تحقيق وحدة الأمة. وقد ازداد كره المقاتلة المشاركة في هذه الحروب في فترة الفتنة، ويبدو ذلك واضحاً في البصرة حيث أظهر العديد من البصريين عدم استعدادهم للخروج لمحاربة الأزارقة رغم الخطر الّذي يهدّدهم، وغاب الحماس والاندفاع أثناء القتال ولم يعد التّراجع والفرار من العدو عملاً مخجلاً كما كان في السّابق. كما ضعفت لحمة الجيوش وصار ولاء المقاتلة لزعيم القبيلة أقوى من الولاء لقائد الجيش أحياناً. ويبرز هذا بوضوح في جيش البصرة الذي يقوده المهلب إذ كان الأزديون أكثر حماساً واستماتة في القتال إرضاءً للمهلب، وهو ما مكّنه من تحقيق انتصارات عديدة وتجنّب الكثير من الهزائم، ويفسّر هذا الوضع تلكؤ جيش البصرة في القتال لمّا تولّى قيادته عمر بن عُبيد الله بن معمر.

أمّا الأسباب المفسّرة لهذا الضعف، فيبدو أنها عديدة لعلّ من أهمّها سياسة الأمويين المبنية على المحاباة والمحسوبيّة والتي أقنعت المسلمين أن محاربتهم للثائرين لم تعدْ في سبيل واجب مقدس بل في سبيل حماية دولة تميّز في المعاملة بين المسلمين خاصةً في توزيع المال وتخدم مصالح فئات دون أخرى. وقد تدعّم شعور اللاّمبالاة لدى المقاتلة بسبب الصراع على السّلطة بين الأمويين وابن الزبير، وغياب سلطة قوية تجبرهم على القتال دفاعاً عنها. ويظهر أن هذا الشعور لم يتغيّر بعد عودة العراق إلى الحكم الأموي.

كان موت بشر بن مروان نهاية مرحلة تميّزت بالتّذبذب نتيجة إصرار ولاة البصرة على إبعاد المهّلب وتعيين قادة يجهلون جغرافيّة المنطقة وأسلوب الخوارج في القتال. وقد كان الأزارقة أوّل المستفيدين من هذه السياسة إذْ تمكّنوا من تحقيق انتصارات عديدة سهّلت عليهم إعادة السّيطرة على منطقتيْ فارس والأهواز والحصول على موارد ضخمة مكّنتهم من تعزيز قدراتهم العسكريّة[1].

كما استفاد المهلّب بدوره من سياسة ولاة البصرة لأنّها أكّدت للجميع أنّه القائد الوحيد القادر على التصدّي للأزارقة ولا يمكن للدّولة الاستغناء عنه للقضاء على هذه

نعي بشر فجال القوم وانصدعوا إلاّ بقايا إذا ما ذُكر ذُكروا

(تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٠٥).

(١) وصف كعب الأشقري قوّة الأزارقة في تلك الفترة بالقول:

كنّا نهوّن قبل اليوم شأنهم حتّى تفاقم أمراً كان يحتقر

(تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠٥).

الانتفاضة. وقد عبّر الحجّاج بن يوسف الثقفي، والي العراق الجديد، عن حاجة الدولة إلى المهلّب في أول رسالة بعثها إليه إذ يقول: «أمّا بعد فإن بشراً رحمه الله استكره نفسه عليك وأراك غناه عنك وأنا أريك حاجتي إليك فأرني الجدّ في قتال عدوّك»[١]. ولم يكتفِ الحجّاج بتولية المهلّب حرب الأزارقة، بل قام بحشد كلّ مقاتلة البصرة والكوفة الّذين انسحبوا بعد موت بشر بن مروان وإلحاقهم بالمهلّب. وتُطنب المصادر كثيراً في حديثها عن هذه العمليّة وتذكر بالخصوص الشدّة التي أظهرها الحجّاج في معاملة كلّ من حاول التلكّؤ في الخروج حتّى إنّه «لم يبقَ أحد من أصحاب المهلّب إلاّ لحق برام هرمز»[٢]. ويبدو أنّ الحجّاج قام كذلك بتعزيز صفوف جيش المهلّب بعددٍ كبير الكوفيين والبصريين من غير المقاتلة[٣]. كما عمد إلى الخروج بنفسه في عدد كبير من أهل البصرة والكوفة إلى رستقباذ[٤]، معتبراً أنّ وجوده ضروري لتشجيع المقاتلة. ويؤكّد الرّواة ذلك بالقول إنه خرج «ليشدّ ظهر المهلب وظهور أصحابه بمكانه». ولا نستبعد أن يكون حرص الحجّاج على منع المقاتلة من الفرار هو الدّافع الرئيسي لخروجه وتمركزه خلف الجيش. ولذلك قرّر أن لا يبرح المكان حتّى ينهزم الخوارج[٥]. لكن ثورة أشراف البصرة بزعامة عبد الله بن الجارود وثورة الزّنج دفعتاه إلى العودة إلى العراق[٦] والاكتفاء بمتابعة القتال عن طريق الرّسائل والوفود التي كان يرسلها للمهلّب بصورة مكثّفة.

أمّا عن المعارك بين الجيشين، فتذكر الرّوايات بعضها وتعطي تفاصيل عنها كما توفّر قصيدة كعب الأشقري، أحد المشاركين في هذه الحروب مع المهلّب، معلومات مفيدة عن مجمل الوقائع[٧]. ويمكن من هذه المصادر تكوين فكرة عن مراحل الصّراع ونتائجه.

لقد تمكن المهلّب في البداية من إزاحة الخوارج عن رام هرمز في شعبان سنة ٧٥هـ[٨] من دون عناء كبير. ثمّ انتقلت العمليات العسكريّة إلى منطقة سابور[٩]، وبالتّحديد

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٨٠.

(٢) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٢٧٥؛ تاريخ الطبري، ج ٦، ص٢٠٨ - ٢١٠؛ المبرّد، الكامل، ص ١٨ - ١٧٩.

(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٨٠؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١، ص ٢٧٧؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٨٤.

(٤) رستقباذ: موضع بينه وبين الأهواز ثمانية فراسخ: المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٢٧٧.

(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٢٧٧؛ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٠.

(٦) انظر تفاصيل الثورتين في: المصدر المنسوب للبلاذري، ج١١، ص ٢٨٠ - ٢٩٠، ٣٠٣ - ٣٠٧.

(٧) نجد هذا القصيد كاملاً في: تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠٤ - ٣٠٨.

(٨) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١١.

(٩) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٦٧.

إلى كازرون[١]، مع بداية شهر رمضان. وهنا قام الخوارج بهجوم ليلي مفاجىء أدّى إلى هزيمة جيش الكوفة ومقتل قائده عبد الرحمن بن مخنف. وقد أبلت في هذه المعركة مجموعة من القرّاء من أنصار عليّ بن أبي طالب ومن أصحاب ابن مسعود كانوا في جيش الكوفة[٢].

وأدّت هذه الهزيمة إلى تعيين عتّاب بن ورقاء الرّياحي التّميمي قائداً جديداً لجيش الكوفة. وظهرت في تلك الفترة بوادر انقسام داخل الجيش بسبب خلاف بين المهلّب وعتّاب كادت تؤدّي إلى نشوب صراع بين تميم من جهة وبكر بن وائل والأزد من جهة أخرى[٣]. وقد حسم الحجّاج هذا الصراع لصالح المهلّب، إذْ قام بنقل عتّاب إلى الكوفة للمشاركة في الحرب ضدّ شبيب بن يزيد الخارجي وتعيين المغيرة بن المهلّب مكانه.

وتواصلت المواجهات في سابور ثمانية عشر شهراً[٤] من دون أن يتمكّن المهلّب رغم ضخامة جيشه من إزاحة الخوارج عن هذه المنطقة، وهو ما أغضب الحجّاج ودفعه إلى إرسال المزيد من الوفود والرسائل يستحث فيها المهلّب على مناجزة القوم ويتّهمه بالمماطلة وتعمّد تطويل الحرب لاستغلال ثروات المنطقة[٥]. وفي قول الحجّاج هذا بعض الصحّة. فالمهلّب لم يكن حريصاً على إنهاء هذه الحروب بسرعة، ولذلك كان لا يُقاتل إلاّ إذا تعرّض لهجوم أو أحسّ أنّ الفرصة مناسبة لتحقيق انتصار على الخوارج. أمّا في ما عدا ذلك فهو متحصّن في مركزه، مخندق على نفسه، حريص على سدّ كلّ الثغرات التي يُمكن للأزارقة استغلالها وإلحاق الهزيمة به. وقد أكّد ذلك بنفسه حين قال مخاطباً أبناءه أثناء هذه الحروب: «لا تبدؤوهم بقتال حتّى يبدؤوكم فيبغوا عليكم»[٦]، وهو يشبه ما جاء على لسان قطري بن الفجاءة واصفاً المهلّب وكان قد بلغه أنّه تولّى قيادة حرب الأزارقة بعد عمر بن عبيد الله بن معمر: «إنْ رُدّ المهلّب فهو من قد عرفتموه إذا أخذتم بطرف الثوب أخذ بطرفه الآخر يمدّه إذا أرسلتموه ويرسله إذا مددتموه، لا يبدؤكم إلاّ أن تبدؤوه إلاّ أن يرى فرصة فينتهزها»[٧]. ولم تكن فكرة المطاولة غائبة عن أصحاب المهلّب، فقد قال له أحدهم: «أيّها الأمير، إنّه ليس برأي قتل هذه الأكلب. والله لئن قتلتهم لتقعدنّ في بيتك ولكن

---

(١) كازرون: مدينة من كورة سابور خصبة وكثيرة الثمار: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٢؛ المبرّد، الكامل، ص ١٨٤.

(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٩١ ـ ١٩٢؛ تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٣.

(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٩٢؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٩٦.

(٥) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠١؛ المبرّد، الكامل، ص ١٨٥.

(٦) المبرّد، الكامل، ص ١٩٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

طاولهم وكل بهم»[1]. ويمكن أن نجد لرغبة المهلّب في تطويل القتال ما يبرّرها. فهو يستفيد بحكم اتّفاقه السّابق مع البصريين من مداخيل المناطق التي حرّرها من الأزارقة طالما أنّ الحرب متواصلة معهم، خصوصاً وأنّ هذه المناطق غنيّة بها زراعة مزدهرة وصناعات ومداخيلها مرتفعة بحكم ظروف الفتح.

ولئن كانت عمليّة تطويل الحرب مقصودة، فإنّها لا تفسّر وحدها هذا الوضع. فعمليّة القضاء على هذه المجموعة لم تكن بالسّهولة الّتي يتخيّلها الحجّاج لأن الخوارج مقاتلون أكفّاء أثبتوا في كلّ المناسبات قدرتهم على إلحاق الهزائم بالجيوش الضّخمة. لذلك فإن محاربتهم والانتصار عليهم يتطلّبان إضافة إلى القوّة العسكرية الخبرة والحنكة والصّبر وهو ما يتوفّر في المهلّب بحكم تجربته الطويلة في محاربتهم.

ويبدو أنّ مواجهات سابور كانت متواصلة وعنيفة خصوصاً بعد مُضي عتّاب بن ورقاء وقد استماتت الخوارج في الدّفاع على هذه المنطقة الغنيّة التي تمركزوا فيها منذ ما يزيد عن خمس سنوات (من ٧٢هـ إلى ٧٧هـ) واتّخذوها «دار هجرتهم»[2]. ويظهر عنف معارك سابور من خلال أشعار كعب الأشقري الذي يقول عن هذه الحروب:

حتّى اجتمعنا بسابور الجنود وقد ... شبّت لنا ولهم نار لها شررُ
نلقى مساعير أبطال كأنّهم ... جنّ نقارعهم ما مثلهم بشر
نُسقى ونسقيهم سماً على حلق ... مستأنفي الليل حتّى أسفر السّحر[3]

كما يقول في قصيدة أخرى:

تساقوا بكأس الموت يوماً وليلة ... بسابور حتّى كادت الشمس تطلع[4]

انتهت هذه المواجهات بمعركة كبيرة تعرف بـ«يوم البستان»[5] انهزم فيها الأزارقة وانسحبوا إلى اصطخر[6] ثم انتقلوا منها إلى كرمان فتبعهم المهلّب[7]. وكانت معارك كرمان الأولى في السّيرجان[8]، ثمّ انتقلت إلى جيرفت[9]. وهنا اختلف الأزارقة

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٧٨.
(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٥٨.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠٦.
(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص١٦٨.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٦٤.
(٦) اصطخر: من أقدم مدن فارس وأشهرها: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢١١.
(٧) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠١.
(٨) السّيرجان: مدينة بين كرمان وفارس: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٥.
(٩) جيرفت: هي مدينة كبيرة جليلة من أعيان مدن كرمان وأنزهها وأوسعها بها خيرات كثيرة ونخل وفواكه =

وانقسموا[1]، وكانت بذلك بداية النهاية بالنّسبة إليهم.

د ـ انقسام الأزارقة ونهاية الانتفاضة:

لم يكن الانقسام الذي عرفته حركة الأزارقة في كرمان سوى المرحلة النهائيّة لسلسلة من الأحداث تطوّرت تدريجيًا حتّى أفضت إلى القطيعة. ولئن اهتمّ أغلب الرّواة بهذه المسألة، فإنّ المبرّد تميّز عنهم بكثافة معلوماته عنها ولا سيما بتركيزه على الجانب المرحلي والتّطوري لها، ولذلك اعتمدناه كمصدر أساسي لدراسة تلك الفترة من تاريخ الحركة بالإضافة إلى أشعار الخوارج التي تعرضت لهذا الخلاف أو أشارت إليه.

يذكر المبرّد في أوّل إشارة إلى الخلاف أنّه بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً من مقام المهلّب بسابور، اختلفت الأزارقة وكان سبب ذلك أنّ حدّاداً من الأزارقة كان يصنع نصالاً مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلّب، فرُفع ذلك إلى المهلّب فوجّه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم وأمره بإلقائها في عسكر قطري. وجاء في الكتاب: «أمّا بعد، فإنّ نصالك قد وصلت إليّ وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النّصال». فرفع الكتاب والدّراهم إلى قطري، فسأل عنها الحدّاد فنفى علمه بها فقتله. وقد أثارت الحادثة سخط بعض الخوارج واستنكارهم، منهم عبد ربّه الصّغير مولى بني قيس بن ثعلبة. ورغم أنّ قطريّاً حاول تبرير ما قام به فإنّ عبد ربّه «تنكّر له في جماعة معه دون أن يفارقوه»[2].

ولمّا بلغ المهلّب أصداء هذا الخلاف دسّ لقطري رجلاً نصرانيًا وأمره بالسّجود له فكان ذلك سبباً في قتله على يدي أحد الخوارج ممّن أنكروا هذا العمل، فغضب قطري لقتل الذمّي بدون ذنب وزاد الخلاف حدّة بسبب هذه الحادثة[3].

ولم يكتفِ المهلّب بذلك بل عمد إلى إرسال رجل من جيشه ليسأل الأزارقة عن حكمهم في رجلين خرجا مهاجرين فمات أحدهما في الطريق ولم يجز الثاني المحنة، فاختلفوا إذْ اعتبر بعضهم الميّت مؤمناً والثاني كافراً حتّى يجيز المحنة، في حين قال آخرون وإنّهما كافران حتّى يجيزا المحنة، فكثر الاختلاف واستفحل[4].

ولئن لا تذكر المصادر تأثير هذا الخلاف على سير المعارك، فالواضح من خلال تتبّع الأحداث أنّ المهلّب استغلّه لشنّ هجوم كبير كانت نتيجته هزيمة الأزارقة في معركة «يوم

= وفيها نهر يتخلّل البلد: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص١٩٨.

(١) المبرّد، الكامل، ص ٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٩٣؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٩٧.

البستان» وانسحابهم إلى اصطخر التي لم تدمْ إقامتهم فيها طويلاً بسبب الحصار الذي فرضه عليهم جيش المهلّب، «فقد ضاق عليهم المكان وانقطعت المادّة الّتي كانت تأتيهم من فارس وبعدت ديارهم عنهم»[1]، فقرّروا الخروج إلى كرمان.

ولم تكن هزيمة «يوم البستان» حدثاً عاديًا، بل نقطة تحوّل في الصّراع بين الأزارقة والمهلّب. فهي التي أفقدتهم السّيطرة على منطقة سابور الغنيّة وجعلتهم يتراجعون نحو اصطخر ثمّ كرمان. ولم يكن سبب ذلك سوى الخلافات الّتي اندلعت في سابور وأدّت إلى قطيعة تواصلت بعد خروجهم إلى اصطخر شهراً كاملاً[2].

ولئن يؤكّد المبرّد أنّ مكائد المهلّب هي التي تسبّبت في حصول الخلاف، فإنّنا نشكّ في أنّها السّبب الوحيد لاستفحاله بهذا الشكل خصوصاً وأنّ المهلّب قد سبق له أن استعمل حيلاً أخرى لا تقلّ خطورة عنها مثل اختلاق الأحاديث النبويّة من دون أن يؤثر ذلك على وحدة الحركة وانسجامها. وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد في حصول تحوّلات داخليّة جعلت الأرضيّة خصبة لتزدهر فيها الخلافات وتتطوّر بسرعة لتفضي إلى قطيعة كادت في البداية أن تكون نهائيّة لولا تدخل صالح بن مخراق العبدي[3].

ورغم أنّه يصعب من خلال ما يتوافر لدينا من معلومات التعرّف على الأوضاع داخل الحركة والوقوف بالتّالي على حقيقة ما جدّ فيها، فإنّ تتبّع الرّوايات آنفة الذكر يثبت وجود مجموعة معارضة لقطري داخل الحركة يقودها عبد ربّه الصّغير ظهرت إثر مقتل الحدّاد أبزى من خلال انتقادها للعمليّة والتّنديد بها. ولئن يصعب تحديد هويّة أفرادها وأسباب معارضتهم لقطري، فإنّ تتبّع بقيّة أطوار الخلاف قد يفيدنا في فهم ذلك.

برزت هذه المجموعة من جديد في جيرفت إبّان الخلاف الذي وقع بسبب عبيدة بن هلال اليشكري الذي اتّهمه بعض الخوارج بامرأة رجل حدّاد رأوه مراراً يدخل منزله بغير إذن وأرادوا إقامة الحدّ عليه إذا ثبت تورّطه. ورغم أنّ عبيدة بن هلال تمكّن بفضل نصائح قطري من إثبات براءته وإقناع الخوارج ببطلان التّهمة، فإنّ عبد ربّه الصّغير رفض أقواله وتمسّك بإقامة الحدّ عليه، ولمّا فشل في مسعاه جمع العديد من الأنصار حوله وأخذ البيعة منهم خفية[4]. ولئن لا يذكر المبرّد شيئاً عن أصحاب عبد ربّه ولا عن الهدف الذي بايعوه

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠١.

(٢) وصف عمرو القنا هذا الخلاف بقوله:

ألم تر أنّا ثلاثون ليلة قريب وأعداء الكتاب على خفض

(المبرّد، الكامل، ص ١٩٤).

(٣) المبرّد، الكامل، ص ١٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

من أجله، فالواضح من خلال الرواية أنّه كانت هناك رغبةٌ في إثبات التّهمة لخلق أزمة داخل الحركة باعتبار أنّ عُبيدة بن هلال كان من زعمائها الكبار ومن أقرب أصحاب قطري، وقد يكون لإثبات مثل هذه التّهمة عليه وقعٌ كبير داخل المجموعة ممّا قد يفقد الثّقة في زعمائها ويفسح في المجال أمام المعارضين لتكثيف الدعاية ضدّهم.

كما نشبت في جيرفت خلافات أخرى تمحورت كلّها حول أقوال قطري وأعماله، منها الخلاف بسبب الدّهقان الذي استعمله قطري فظهرت له أموال كثيرة. فقد طالب بعض الخوارج بمحاسبته كما كان يفعل عمر بن الخطاب مع عمّاله للوقوف على مصدر الأموال التي صار يمتلكها، فرفض قطري طلبهم لعلمه أنّ الدّهقان كان يملك ضياعاً وتجارات قبل أن يستعمله، وهو ما أغضب الخوارج وزاد في نقمتهم عليه[1]. أمّا الخلاف الرّئيسي والذي أدّى على ما يبدو، إلى حصول القطيعة، فسببه قرار قطري تولية المقعطر العبدي أمر الأزارقة وهو ما رفضه أغلب الخوارج وخلعوه بسببه[2]. ولئن لا يوجد ما يؤكّد دور عبد ربّه وأصحابه في هذه الأحداث فإنّ تركيز المعارضين على قطري وحرصهم على تتبّع أخطائه والتّنديد بها دليلٌ على أنه كان لهم الهدف نفسه وهو عزل قطري، ولذلك لا نستبعد انتماءهم إلى المجموعة ذاتها.

ولم يكن المعارضون لقطري الذين نشطوا كثيراً في تلك الفترة يتصرّفون بصورة عفويّة، بل وضعوا على ما يبدو خطّة عمل تسير في اتجاهين اثنين: يتمثّل **الأوّل** في تتبّع أقوال قطري وأعماله ومحاولة الاستفادة منها في الدعاية ضدّه. وقد تمكّنت من استغلال بعض الهفوات التي ارتكبها قطري، من ذلك أنّهم شنّوا حملة كبيرة عليه لأنّه قرّر ذات يوم عدم الخروج لمحاربة المهلّب ثمّ تراجع عن قراره وخرج معتبرين تراجعه كذباً وارتداداً[3]. وأعطت المسألة بعداً دينيًا كبيراً واستغلّوها في تأليب الخوارج عليه، أمّا الثاني، فقد تمثّل في افتعال المشاكل والخلافات بين الخوارج ومطالبة قطري بحلّها باعتباره قائد الحركة وذلك للحصول على سبب مقنع لخلعه وربّما لقتله. وقد تمكّنت المجموعة بفضل هذه الأعمال من خلق جوٍّ من التوتّر، كما جلبت العديد من الخوارج إلى صفوفها وصارت تشكّل خطراً على قطري حتّى إنّه خرج ذات يوم فتبعه بعضهم وأحسّ بالشرّ فدخل داراً مع جماعة من أصحابه[4].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٢) يذكر الطبري رواية مخالفة للتي يذكرها المبرّد يقول فيها إنّ المقعطر قتل رجلاً من الخوارج فطالب بعضهم قطرياً بتمكينهم من المقعطر لقتله، فرفض فكان ذلك سبب خلعهم له: **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٣٠٣.

(٣) المبرّد، **الكامل**، ص ٢٠١.

(٤) المبرّد، **الكامل**، ص ٢٠١؛ ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٤، ص ٢٠٣.

وشملت حملة المعارضة بالإضافة إلى قطري عناصر أخرى من القيادة مثل عُبيدة بن هلال والمقعطر. ورغم أنّ قطرياً قد دافع عن أصحابه، مذكّراً خاصةً بسابقتهم وفضلهم وجهادهم في صفوف الحركة، فإنّ المعارضين لم يتردّدوا في توجيه التّهم إليهم، مؤكّدين أنّ هذه الاعتبارات لا قيمة لها عندهم، أو هي على الأقلّ لا تمنعهم من توجيه النّقد إليهم وتسليط العقوبات عليهم إن ثبت تورّطهم[١].

وقد تكون هذه الخلافات المتواصلة هي التي دفعت قطريًا إلى البحث عن حلّ يُنهي الأزمة ويُجنّب الحركة خطر الانقسام والتشتّت في مثل هذه الفترة الحاسمة. وبما أنّ الحملة التي كان يشنّها المعارضون قد استهدفته شخصيًّا، فقد رأى أنّ يعزل نفسه ويختار شخصاً آخر يتولّى قيادة الحركة، وهو حلّ قد يكون أرضى المعارضين لولا إصرار قطري على تولية المقعطر[٢].

ويبدو واضحاً من خلال النّقاشات التي دارت بين قطري وصالح بن مخراق، أحد المعارضين، أنّ الخلاف حول هذه المسألة قد احتدّ كثيراً واتّسع نطاقه. فقد قال لقطري لمّا أصرّ على تولية المقعطر: «إنّ النّاس قبلنا قد ساموا عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيداً بن العاص ففعل»[٣]، وفي هذا القول تأكيد على أنّ المعارضين قد عمّقوا النّقاش حول مسائل الخلاف وأعادوا قراءة أحداث الفتنة وبحثوا فيها عن مبرّرات تدعّم مواقفهم. وتبدو مقارنة قطري بعثمان بن عفّان في غاية الأهميّة، فبالإضافة إلى وضعها قطري في مكانة عثمان الخليفة الذي ارتكب أخطاء كثيرة حتى قُتل، فإنها جعلت عثماناً أفضل منه لأنّه لبّى رغبة المسلمين فعزل سعيد بن العاص، في حين أصرّ قطري على إبقاء المقعطر. كما أنّها تمثّل في الوقت نفسه تهديداً لقطري بأنّه سيلقي حتماً مصير عثمان إذا تمسّك بموقفه ورفض الرضوخ لمطالب الرعيّة.

كما يظهر من خلال الرّوايات أنّ الخلافات كانت سبباً في طرح العديد من المسائل الخطيرة، من بينها المسألة الخاصة بأسلوب الحكم، وحُدود سلطة الحاكم، ودور الرعيّة في تسيير شؤون المجموعة.. وغيرها. ولعلّ ما يؤكّد تطرّق الخوارج إلى هذه المسائل، التّركيز عليها من قبل طرفَيْ الخلاف في العديد من المناسبات. فقد جاء على لسان قطري قوله بعد قتله الحدّاد: «إن قتل رجل في صلاح الناس غير منكر وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً وليس للرعية أن تعترض عليه»[٤]. كما جاء على لسان صالح بن مخراق لمّا رفض

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(٣) المبرّد، الكامل، ص ٢٠١؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٩٣.

قطري عزل المقعطر قوله: «يجب على الإمام أن يعفي الرعيّة ممّا كرهت»[1]. وتظهر هذه النقاشات بوضوح أنّ المسائل التي طرحها القرّاء إبان الثورة على عثمان كانت لمّا تزلْ مطروحة، وأنّ الخوارج لم يتمكنوا بعد من تصوّر نظام سياسي يحدّد مهام ومسؤولية كل الأطراف، أي أنّهم لم يستطيعوا ابتكار مؤسسات يُمكنهم من خلالها مراقبة تصرفات الخليفة والتصدّي لتجاوزاته عند الحاجة[2]. ولذلك اندلعت الخلافات وزاد في استفحالها جدال الخوارج المتواصل ونقدهم المستمرّ لقادتهم.

ولعلّ ما زاد في اتّساع نطاق الخلافات أنّ أغلب النّاقمين على سياسية قطري كانوا من القرّاء[3] المشتبّثين بتعاليم الإسلام والذين لا يشكّون في صحّة موقفهم بما أنّ مرجعهم هو القرآن. والظاهر أنّ اعتماد المعارضين على القرآن والتأكيد على أنّ مطالبهم دينيّة شرعية أعطى معارضتهم أهميّة كبيرة وجلب إلى صفوفهم العديد من الأنصار. وتدفعنا الإشارة إلى وجود القرّاء في صفوف المعارضة إلى البحث عن هويّة المعارضين وأسباب معارضتهم لقطري وأصحابه وانفصالهم عنهم.

يذكر المبرّد عند حديثه عن الانقسام أنّ مقطريّاً لمّا أصرّ على تولية المقعطر «خلعوه وولّوا عبد ربّه الصّغير، وانفصل مع عبد ربّه أكثر من الشّطر جلّهم من الموالي والعجم»[4]. واعتماداً على هذه الرّواية، فسّر جلّ الدّارسين انقسام الأزارقة بأنه خلافٌ داخلي بين العرب والأعاجم، واعتبر فلهوزن «أنّ العرب والموالي لم يحتمل أحدهما الآخر فانقسموا، وبذلك ظهر أنّ مفعول الطبيعة أقوى من مفعول المبدأ»[5]. أمّا الدّجيلي فقد رأى في الانقسام محاولةً من قبل الأعاجم للسّيطرة على الحركة بعد أن أصبح عددهم يفوق عدد العرب بكثير من دون أن يغيّر ذلك من أوضاعهم شيئاً إذ ظلّ مركز العرب أعظم وأخطر[6].

ويبدو هذا التفسير للانقسام مقبولاً. فبالإضافة إلى وجود روايات تذكره، تؤكد الأحداث بدورها إمكانية قيامه لأنّ الفترة التي قضاها الأعاجم في صفوف الحركة لم تكن كافية للقضاء على المشاعر العرقيّة لدى الطّرفين. كما أنّ وضعيّة الأعاجم داخل الحركة لم تكن تتماشى مع وزنهم العددي ودورهم فيها، فقد صاروا يمثّلون منذ انتقال الخوارج إلى الأهواز قسماً مهماً داخل الحركة، وتمكّن العديد منهم من لعب دور كبير خاصة على

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(٢) DJAIT (H), *op, cit.*, p.

(٣) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٤) المبرّد، الكامل، ص ٢٠٢؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٥) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٨٩.

(٦) الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١٥٠.

المستوى العسكري بينما ظلّت القيادة السّياسية بيد مجموعة من العرب، منهم عبيدة بن هلال والمقعطر وقطري.. وغيرهم، وهي وضعية قد تكون ساهمت في إبقاء المشاعر العنصريّة حيّة وكانت أحد الأسباب الرئيسيّة للخلاف. وبالإضافة إلى السّبب العرقي، توجد أسباب أخرى تقف على ما يبدو وراء اندلاع الخلاف وهي التي تفسّر وجود أربعمائة من العرب في صفوف المعارضة يقودهم عمرو القنا التّميمي[1]، أحد مؤسّسي الحركة وأحد أبرز قادتها. وقد تفطّن محمد عبد الحيّ شعبان إلى هذه المسألة، فذكر أنّ الّذين انحازوا مع عبد ربّه هم من العرب والموالي وغير المسلمين، مفسّراً الانقسام بأنّه يمثّل ثورة أهالي كرمان بقيادة عبد ربّه ضدّ الخوارج القادمين من المناطق الأخرى، أمّا سببه فهو خوف الكرمانيين من انتقام الدّولة منهم بعد القضاء على الحركة[2].

ويصعب قبول تفسير شعبان لسبب بسيطٍ وهو عدم خوف هذه المجموعة التي ثارت بزعامة عبد ربّه من انتقام الدّولة، والدلّيل على ذلك عدم التحاقها بالمهلّب بعد الانقسام ومواصلتها الحرب ضدّه إلى آخر لحظة[3]. كما تؤكّد أقوال عبد ربّه والعديد من أصحابه عدم تراجعهم عن مبادىء الحركة وإصرارهم على مواصلة الحرب حتّى النهاية[4]. ويبدو أنّ الأمر اشتبه على شعبان، فخلط بين الخوارج المنشقين عن قطري وأهالي المنطقة من غير الخوارج. فهؤلاء هم الذين كانوا على ما يبدو خائفين من عقاب الدّولة، لذلك كانوا يتجسّسون على الأزارقة لحساب المهلّب، وهو ما يتّضح من خلال رواية المبرّد التي يذكر فيها «أن قطريًا هدم مدينة اصطخر لأن أهلها كانوا يُكاتبون المهلّب بأخباره وأراد مثل ذلك بمدينة فسا فاشتراها منه آزاد مرد بن الهربذ بمائة ألف درهم»[5].

وعموماً، يُمكن القول إنّ قوّة المشاعر العنصريّة قد لعبت دوراً رئيسيًا في اندلاع الخلاف، إلاّ أنها لم تكن السّبب الوحيد. بل انضافت إليها على ما يبدو أسباب أخرى سياسيّة بالدرجة الأولى، وتتمثّل في النّقمة على سياسة قطري التي يبدو أنّها لم تراع مصالح فئة من الخوارج تضمّ العجم وبعض العرب. ولا نستبعد أن تكون الأزمة الاقتصاديّة التي انجرّت عن فقدان الخوارج السيطرة على المناطق الغنيّة قد ساهمت بدورها في إبراز عيوب سياسية قطري في تلك الفترة، وساعدت بالتالي على الثورة ضدّه. كما يمكن أن يكون الطموح الشخصي لبعض القادة مثل عمرو القنا التّميمي قد لعب دوراً في تقوية الخلافات.

(١) المبرّد، **الكامل**، ص ٢١٠.
(٢) شعبان، **صدر الإسلام والدولة الأموية**، ص ١١٧.
(٣) المبرّد، **الكامل**، ص ٢١٠؛ ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٤، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

إلاّ أنّ الذين قادوا حركة المعارضة ضدّ قطري لم يركّزوا على سياسته بقدر تركيزهم على الأخطاء التي ارتكبها ويُعاقب عليها الشرع مثل قتله الحداد الأبزى، وعدم إقامة الحدّ على الزاني.. وغيرها، مؤكّدين بذلك أهمّية العامل الدّيني بالنسبة لهم.

كما تُطرح عند دراسة هذه المرحلة من تاريخ الحركة مسألة أخرى تخصّ تطوّر الأحداث بعد الانقسام. فالرّوايات بشأنها متعدّدة لكنّها مختلفة إلى درجة يصعب معها ترجيح رواية على أخرى. فالمبرّد مثلاً يذكر أن الخلاف أدّى إلى انقسام الأزارقة إلى مجموعتين: واحدة مع عبد ربّه الصّغير، والثانية مع قطري بن الفجاءة، وهما متساويتان من حيث العدد تقريباً[1]. ويوافق أبو مخنف المبرّد في انقسام الأزارقة إلى مجموعتين، غير أنه يختلف معه في اسم زعيم المجموعة المنشقّة على قطري وعدد أفرادها، إذ يذكر أن المنشقّين بايعوا عبد ربّه الكبير وأنّ الذين بايعوا قطريًّا عصابة تضمّ نحواً من رُبعهم أو خُمسهم[2].

أمّا اليعقوبي والبغدادي فيتّفقان على ذكر رواية أخرى تتحدّث عن انقسام الأزارقة إلى ثلاث مجموعات: واحدة مع عبد ربّه الصّغير، والثانية مع عبد ربّه الكبير، والثالثة مع قطري بن الفجاءة[3]. ويوضّح البغدادي أنّ عدد الذين كانوا مع عبد ربّه الكبير سبعة آلاف رجل، وعدد الّذين انسحبوا مع قطري بضعة عشر ألف رجل، أمّا مجموعة عبد ربّه الصّغير فلا تضمّ سوى أربعة آلاف رجل[4]. ويختلف البغدادي هنا مع اليعقوبي الذي يجعل عدد أتباع قطري اثنين وعشرين ألفاً[5].

ولا تعطي أشعار الأزارقة التي تطرقت لهذا الخلاف الاسم الكامل للزعيم أو الزعماء المنشقّين عن قطري، فهو «عبد ربّه» أو «عبد ربّ» حيناً، و«الصّغير» أحياناً أخرى[6].

---

(١) المبرّد، **الكامل**، ص ٢٠٢؛ ابن أبي حديد، **شرح نهج البلاغة**، ج٤، ص ٢٠٤.
(٢) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٣٠٣.
(٣) **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢، ص ٢٧٤؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٥٨.
(٤) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٥٨.
(٥) **تاريخ اليعقوبي**، ج ٢، ص ٢٧٥.
(٦) يقول قطري عن هذا الخلاف:

فـفـرّق أمـري عـبـد ربّ وصـحـبـه ... أدار رحـى مـوتٍ عـلـيـه مـديـرهـا

ويقول عبيدة بن هلال اليشكري مخاطباً قطري:

أفـرّق الـدّهـر بـيـنـنـا قـطـريّ ... ورمـانـا بـفـتـنـة الـدّجـال
وأرى عـبـد ربّـه تـرك الـحـقّ ... فـهـذان فـي الـرّدى والـضـلال

ويقول في قصيدة أخرى:

ذكـرت الـصّـغـيـر وأشـيـاعـه ... فـيـا لـك هـمّـا إلـيـنـا سـرى

(إحسان عبّاس، **شعر الخوارج**، ص ٩٨، ٩٩، ١١٩).

ويقودنا هذا التّناقض الواضح في سرد أحداث هذه الفترة وتحديد أسماء الزّعماء المنشقّين عن قطري إلى البحث عن عدد المجموعات المنجرّة عن الانقسام وعن زعمائها.

يبدو من خلال تتبّع الأحداث ومقارنة الرّوايات أن ما ذكره البغدادي واليعقوبي وبعض الرّواة الآخرين هو الأقرب إلى الصحّة. فالحركة انقسمت على ما يبدو إلى ثلاث مجموعات: واحدة مع قطري، والثانية مع عبد ربّه الكبير، والثالثة مع عبد ربّه الصغير. وبما أنّ عدد أفراد هذه الأخيرة كان محدوداً، فقد تمّ القضاء عليها بسهولة وانحصر الخلاف بذلك بين المجموعتين الأُخريين الرئيسيتين. وقد يفسّر غياب مجموعة عبد ربّه الصغير عن الساحة مبكّراً عدم إتيان العديد من الرّواة على ذكرها في الحروب التي دارت بين المهلّب والأزارقة بعد الانقسام والتّركيز على عبد ربّه الكبير وأصحابه. وحتّى المبرّد الذي لا يذكر سوى عبد ربّه الصّغير كمعارض لقطري وزعيم للمجموعة المنشقّة عنه، فهو يشير عند تعرّضه لهذه المعارك إلى قائد الأزارقة باسم «عبد ربّه»[1]، وهو اسم يُمكن أن ينطبق على الزعيمين معاً. ونستبعد أن يكون المبرّد قد أراد الاختصار لأنّه كان دائم الحرص على ذكر اسم هذا الزعيم كاملاً واسم قبيلته في أغلب الأحيان. والظاهر أنّ الأمور قد اشتبهت عليه، فالتجأ إلى استعمال الاسم ناقصاً حتّى يتجنّب الخلط ولا يقع في تناقض مع ما ذكره سابقاً. وقد تعمّد العديد من الرّواة وخصوصاً المتأخرون منهم الاقتصار على اسم «عبد ربّه» أو «عبد ربّ» للدّلالة على زعيمَيْ الأزارقة اللذين خرجا على قطري بن الفجاءة من دون تمييز بين الشخصين.

أمّا عن سير الأحداث بعد الانقسام، فيظهر أن الحرب ما لبثت أن نشبت بين الأزارقة من دون أن يتدخّل المهلّب[2] رغم إلحاح مبعوثي الحجّاج عليه. وقد كتب موضّحاً موقفه في رسالة يقول فيها: «لست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم بعضاً وينقص بعضهم عدد بعض. فإنْ تمّوا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وإنْ اجتمعوا لم يجتمعوا إلاّ وقد رقّق بعضهم بعضاً، فأناهضهم على تفيئة ذلك وهم أهون ما كانوا وأضعفه شوكة»[3].

انتهت الحرب بين الأزارقة بهزيمة قطري بن الفجاءة وأصحابه واستيلاء عبد ربّه الكبير على مدينة جيرفت. ويذكر المبرد أن قطريّا لما انهزم خرج من كرمان حتّى لا يكون بين عدوّين: المهلّب وعبد ربّه، وأن المهلّب هو الذي دسّ إليه من ينصحه بذلك حتّى ينفرد بباقي الخوارج[4].

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ٢٠٢ ـ ٢١٠.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ٢٠٢؛ ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٤) المبرّد، الكامل، ص ٢٠٢.

وبعد انتقال قطري، حاصر المهلّب عبد ربّه الكبير في جيرفت. ولما طال الحصار أراد الأزارقة الانسحاب فمنعهم، ووقعت بين الجيشين معارك عنيفة انتهت بهزيمة الخوارج ومقتل عبد ربّه وأغلب من كان معه. وكانت حصيلة اليوم الأخير وحده أربعة آلاف قتيل على حدّ قول المبرّد. وبهذه الهزيمة انتهت سيطرة الأزارقة على كرمان التي امتدّت ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة سنة من ٦٦هـ إلى ٧٨هـ.

أمّا قطري وأصحابه، فقد انتقلوا إلى طبرستان. فأرسل إليهم الحجّاج الجيش الشّامي بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي، وهو الذي تولّى قمع انتفاضة خوارج الجزيرة الفراتيّة بقيادة شبيب الشباني. وقد دعّم الحجّاج هذا الجيش بفرقة عسكرية كوفيّة كانت مقيمة في الرّي. وتمكّن هذا الجيش من تتبّع الخوارج الذين تفرّقوا في المنطقة وقتلهم[١]. ولئن لا يذكر أبو مخنف، الذي ينقل عنه الطبري أخبار قطري وأصحابه، أسباب تفرّق الخوارج، فإنّ بعض الرّواة يشيرون إلى اختلافهم وانفصال بعضهم بقيادة عبيدة بن هلال عن قطري بسبب تنقّلاته المتواصلة والتي اعتبرها بعضهم هروباً من الموت. وإذا كنّا لا نستبعد وقوع مثل هذه الخلافات بين الخوارج، فالأكيد أنّ قوّة الجيش وتحمّس الشاميين للقتال كانا عاملاً حاسماً في القضاء على هذه المجموعة من الخوارج.

يُستنتج من خلال دراسة تحرّكات الأزارقة إبّان الفتنة أنّ هذه المجموعة التي تكوّنت نتيجة الانقسام كانت متميّزة عن بقيّة المجموعات الخارجيّة. وإذا كنّا قد تطرقنا بإسهاب إلى ما تبنّته من مبادىء وأفكار وما طوّرته من أقوال السّلف، فإنّنا سنحاول في ما يلي التعرّف على ما تميّزت به على المستويين الاجتماعي والسّياسي.

لقد تكوّنت النّواة الأولى لحركة الأزارقة في البصرة. ولا تذكر المصادر من أتباعها سوى العناصر التي نشطت في ولاية عُبيد الله بن زياد وكان لها دور في الذفاع عن الحرم، مثل عُبيدة بن هلال اليشكري وعمرو القنا وأبناء الماحوز التّميميون ونافع بن الأزرق، وهو الّذي قاد عمليّة الخروج إلى الأهواز.

لم يكن عدد أفراد المجموعة في البداية يتجاوز ثلاثمائة وخمسين نفراً[٢] ثمّ ارتفع ليصل إلى ستمائة في معارك دولاب[٣] أغلبهم من البصريين خرجوا مع نافع أو التحقوا به[٤]. وإذا كنّا نجهل الانتماء القَبَلي لأفراد المجموعة في تلك الفترة، فإنّ بعض الرّواة

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٢) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٧٩.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٦؛ الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٥.
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٦.

الذين نقلوا أخبار دولاب ركّزوا على دور أبناء تميم وسدوس فيها[1]، وهو ما يؤكّد ارتفاع عددهم في صفوف الحركة، ويتّفق هذا مع الإشارات الخاصّة بالانتماء القَبَلي لبعض المشاركين في هذه المعارك، إذ من جملة عشرة عناصر أمكن تحديد انتمائهم القَبَلي، كان ثمة خمسة من تميم وحدها.

وقد شهد عدد المنضمّين إلى صفوف الأزارقة من العرب ارتفاعاً بعد معارك دولاب أغلبهم من البصريين، بالإضافة إلى مجموعة اليمامة التي قدمت أثناء المعارك. وقد تواصل انضمام العرب إلى صفوف الحركة طيلة نشاطها، وازداد بالتوازي مع تكثّف تحرّكاتها واتّساع رقعة المناطق التي تسيطر عليها حتّى بلغ في أواخر الثورة ثمانية آلاف حسب المبرّد[2].

كما انضمّ إلى صفوف الأزارقة الأعاجم من موالٍ وأهل ذمّة وعبيد. وتُعدّ الفترة التي تلت معارك دولاب بداية الانضمام المكثّف إلى تلك الفئات الاجتماعيّة[3]. ولا نجد في المصادر تفسيراً لهذه العمليّة سوى ما يذكره المبرّد من أنّ النّاس انضمّوا إلى صفوف الأزارقة «رغبةً ورهبةً»[4]. وإذا كان هذا القول يعني الأعاجم والعرب على حدّ السواء، فإنّنا نستبعد أن تكون الرّهبة هي الّتي دفعت هذه الفئات إلى الالتحاق بصفوف الحركة، لأنّ الخوارج اشتهروا بحسن معاملتهم للفئات المغلوبة وتمسّكهم بتطبيق تعاليم الإسلام في التعامل معها. ولذلك لن تكون أوضاع الرّافضين منهم الالتحاق بصفوفهم أسوأ ممّا هي عليه في ظلّ الحكم الإسلامي، خصوصاً وأنّ سكان هذه المناطق كانوا يخضعون لضريبتي الجزية والخراج[5]. ولذلك فنحن نميل إلى الاعتقاد بأنّ الرغبة كانت الدافع الرئيسي لانضمام أغلب الأعاجم، خصوصاً وأن الخوارج كانوا يفرضون لمن يلتحق بصفوفهم ويعتنق مبادئهم خمسمائة[6]، كما كانت غاراتهم المتواصلة تدرّ غنائم كثيرة يستفيد منها الجميع. ويؤكد تتبّع أسماء المشاركين في الانتفاضة ارتفاع نسبة الأعاجم إلى حوالى الثُلث.

ويبدو من خلال تقارير جواسيس المهلب عن الأزارقة أن أغلب المنضمّين إلى صفوف الحركة في الفترة الأولى كانوا من ذوي المكانة الاجتماعيّة الضّعيفة[7] الذين كانوا أكثر عُرضةً للاستغلال. كما انضمّ إلى صفوف الأزارقة بعض الأغنياء الذين يرد ذكرهم في

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٨٦؛ الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٥.
(٢) المبرّد، الكامل، ص ٢٠٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣.
(٤) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٣٣ ـ ٥٥٢.
(٦) المبرّد، الكامل، ص ١٧٠.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

فترة متأخرة، ومنهم المجوسي الذي أراد شراء أمّ حفص زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد بسبعين ألفاً، والدّهقان الذي استعمله قطري وكان يملك ضياعاً وتجارات[١]. ويؤكّد موقف هذه العناصر أنّ الوضع الاجتماعي لا يُفسِّر وحده الانضمام إلى صفوف الخوارج. فهذه العناصر التي حافظت في ظلّ الحكم الإسلامي على مكانتها ونفوذها الاجتماعي من خلال تولّيها مهمّة جمع الضرائب وتأطير المجتمع، لم تكن تشعر على ما يبدو بالرضى، ولذلك التحقت بصفوف الأزارقة. إلاّ أنّ انضمام الأعاجم على أهميته لم يشمل كل سكان المناطق التي سيطر عليها الخوارج. وإذا كنّا نجهل موقف بقيّة الأعاجم من الخوارج والكيفيّة التي تعاملوا بها معهم، فإنّ بعض الإشارات تشير إلى تعاون سكان بعض المدن، كمدينتي اصطخر وفسا[٢]، مع المهلّب من خلال التجسّس عليهم ومكاتبته بأخبارهم. ورغم أنّنا لا نملك ما يؤكّد قيام الأعاجم بهذه الأعمال دون غيرهم من السكّان، فإنّنا لا نستبعد أن يكون بعضهم قد قام بذلك لينال حظوة لدى السّلطة ويتجنّب عقوبات الدولة التي عادةً ما تكون أكثر عنفاً ضدّ الأعاجم. ويظهر أنّ هذا الموقف المُعادي للخوارج قد ظهر في الأشهر الأخيرة للتحرك لمّا بدأت جيوش المهلّب تستعيد السيطرة على المناطق الخاضعة للأزارقة وصار السكّان يخشون انتقام الدولة منهم.

أمّا وضعيّة الموالي وأهل الذمّة داخل الحركة، فلا نجد عنها معلومات كثيرة. ويبدو من خلال الإشارات القليلة المتوافرة أن الأزارقة كانوا يُعاملونهم معاملة حسنة، وقد تولّى بعض الموالي قيادة العمليات العسكريّة، مثل صالح بن مخراق وواقد مولى آل أبي صفرة. وقرّب قطري إليه بعض العناصر، منها عبد ربّه الصغير وعبد ربه الكبير، فكان يستشيرها قبل البتّ في المسائل الهامة[٣]، كما كلّف عناصر أخرى خاصة من الأرستقراطية بجمع الضرائب. إلاّ أنّ انضمام هذا العدد الكبير من الأعاجم لم يؤدّ على ما يبدو إلى تغييرات هامّة، والدّليل على ذلك بقاء القيادة بين المسلمين العرب. وهذا ما يجرّنا إلى البحث في وضعية هذه الفئة داخل الحركة.

لم يكن لكلّ العرب المنضمّين إلى صفوف الأزارقة دورٌ في قيادة الحركة. فالعناصر التي يرد ذكرها في المصادر قليلة لا تتجاوز أربعين نفراً. أمّا الذين كان لهم نشاط هام ودور في القيادة فلا يتجاوزون نصف هذا العدد، وأغلب هؤلاء من البصريين، ومنهم كان يُختار قادة الحركة.

لم تكن عمليّة اختيار القادة تتم بطريقة مضبوطة ومتّفق عليها. فنافع بن الأزرق،

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٠ ـ ٢٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٣) ابن الأعثم، الفتوح، ورقة ٢/١٦٨أ. نقله الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

الذي اختاره خوارج البصرة لقيادة تحركاتها، هو الذي عيّن عُبيد الله بن الماحوز خلفاً له أثناء معارك دولاب[1]. أمّا الزبير بن علي بن الماحوز فيذكر المبرّد أنّ الأزارقة اختاروه بعد مقتل عُبيد الله بن الماحوز[2]، إلاّ أنّ ابن أبي حديد يذكر أنّ الزبير بن عليّ كان يُخاطب بالإمرة لمّا كان عبيد الله يُخاطب بالخلافة[3]، وهو ما قد يدلّ على ترشيحه للمنصب قبل مقتل سلفه. أمّا عمليّة اختيار قطري بن الفجاءة فقد جاءت بعد مشاورات طويلة بين قادة الحركة ذكرناها سابقاً[4].

ويدلّ تتبّع عمليّة اختيار القادة على أنّ المشاركة في تأسيس الحركة كانت أحد الشروط الرئيسية في الاختيار. فباستثناء قطري بن الفجاءة الذي لا تذكر المصادر تاريخ انضمامه إلى الحركة ونشاطه السّابق في البصرة، فإنّ كلّ قادتها من المؤسّسين وقطري نفسه لم يكن مرشحاً لهذا المنصب لولا اختياره من قبل عُبيدة بين هلال الذي اتّفقت المجموعة على توليته في البداية. ولا يوجد في الرّوايات ما يوحي بحصول خلافات بين الأزارقة حول الطريقة المعتمدة في اختيار القادة. والظاهر أنّ هذه المسألة لم تكن مطروحة، وأن الخوارج ما كانوا يملكون تصوّراً واضحاً لها أو بديلاً عنها. ولكنّنا مع ذلك لا نستبعد أن تكون هذه المسألة قد حرّكت بعض المعارضين لقطري، ولا سيما عمرو القنا الذي قد يكون رأى نفسه أقرب إلى منصب القيادة من قطري باعتبار دوره في تأسيس الحركة، ولذلك ثار وانضمّ إلى الخارجين على قطري من الموالي رغم أنّه تميمي مثله.

لم يكن قطري بن الفجاءة التميمي الوحيد الذي تولّى قيادة الحركة، بل إنّ كل الذين قادوها باستثناء نافع بن الأزرق هم من هذه القبيلة، ويبرز من بين هؤلاء أبناء الماحوز الذين تولّى اثنان منهم القيادة. إلاّ أنّ الاعتبارات القَبَليّة لم تكن على ما يبدو هامّة في اختيار القادة، والدّليل على ذلك ترشيح الأزارقة بعد مقتل الزّبير بن عليّ عُبيدة بن هلال اليشكري البكري وانتماء العناصر المقرّبة من السّلطة خاصّةً في خلافة قطري إلى قبائل متعدّدة. ولو أنّنا لا نستبعد أن تكون الاعتبارات القَبَليّة قد لعبت دوراً ولو محدوداً في اختيار قطري، فهو من أشراف تميم التي يوجد في صفوف الحركة عددٌ كبيرٌ من أبنائها، ولذلك قد يكون بقاء القيادة فيها عامل استقرار داخل الحركة.

لم يكن دور زعماء الأزارقة يقتصر على العمليات العسكريّة بل صار منذ انتقالهم إلى الأهواز يشمل إدارة شؤون المجموعة التي ارتفع عدد أفرادها. وقد كوّن الأزارقة بعد

---

(١) المبرّد، الكامل، ص ١٢٠؛ الاصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٣٥.

(٢) المبرّد، الكامل، ص ١٤٩.

(٣) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٤٤.

(٤) المبرّد، الكامل، ص ١٦٤.

سيطرتهم على مناطق شاسعة «دولة خارجيّة» اختاروا كرمان مقراً لها. ويظهر أن اختيار المكان جاء في الأشهر الأولى لاندلاع الثّورة، والأرجح أنّه تمّ منذ أن تولّى المُهلّب حرب الأزارقة وبدأ يسترجع بعض مناطق الأهواز من سيطرتهم. وقد اختار الخوارج كرمان لأنّها بعيدة عن البصرة وغنيّة جدّاً بزراعتها ومواشيها[1]، ولها مداخيل ضخمة تمكّنهم من توفير ما يحتاجون إليه من مؤونة وعتاد. ورغم سيطرة الأزارقة على مناطق أخرى، فقد ظلت كرمان طيلة سنوات الثورة ملجأ الخوارج يقصدونها كلما احتاجوا إلى الاستراحة وتجديد قوّتهم.

لا نملك معلومات كثيرة عن «دولة» الأزارقة، وتدلّ الإشارات القليلة المتوافرة على أنّها لم تكن تختلف كثيراً عن الدّولة الإسلاميّة من حيث التنظيم. فالسّلطة العليا كانت بيد الخليفة الذي يحمل لقب أمير المؤمنين، وتتمثّل مهامه في تعيين القاضي والعمّال وتغييرهم أو عزلهم ومحاسبتهم عند الاقتضاء كما يقود العمليات العسكريّة.

ويُساعد الخليفة في إدارة شؤون الدولة بعض المقرّبين منه يستشيرهم في المسائل الهامّة. ويظهر من خلال الأسماء القليلة المذكورة أنّ أغلبهم كان من النّخبة البصريّة التي شاركت في تأسيس الحركة. وتفيد رواية ابن أبي حديد بخصوص الزّبير بن عليّ بوجود خطّة أمير داخل هذا التنظيم لم نتوصل إلى معرفة تاريخ إحداثها ودور المكلّف بها وشروط اختياره والأشخاص الذين تولّوها بعد الزبير بن علي. إلاّ أننا نميل إلى الاعتقاد بأنّ إحداثها كان بعد تأسيس دولة الأزارقة، وهي تقليد للتنظيم الإسلامي الذي يحمل فيه الولاة هذا اللّقب. ويدلّ تنظيم الدّولة على أن الأزارقة قد حافظوا على النّموذج الإسلامي ولم يُحدثوا مؤسسات جديدة يمكنهم من خلالها المشاركة في إدارة شؤون دولتهم كما كانوا يرغبون.

ولم تكن العناصر القيادية للأزارقة هي التي تباشر إدارة شؤون المجموعة بحكم تنقلاتها الدائمة وانشغالها المتواصل بالحروب والمعارك. لذلك كان العمّال يتولّون مختلف الأعمال إلى حين عودة القادة التي كانت تتمّ من حين لآخر وتدوم فترات متفاوتة تبلغ أحياناً عدّة أشهر[2]. ويتمّ عند عودة القادة على ما يبدو البتّ في المسائل الهامّة.

ولعل الأمر اللافت للانتباه عند دراسة هذه الحركة ما يذكره الرّواة عن تسامح الأزارقة في تعاملهم مع بعضهم البعض، إذ يذكر المدائني أنّهم كانوا لا يكفّرون من أهل الكبائر في دار هجرتهم إلاّ القاتل[3]، في حين أنّهم يكفّرون أهل الكبائر من بقيّة المسلمين ويحكمون بخلودهم في النّار. كما أنّهم أسقطوا الرّجم على الزاني وحرّموه لعدم وجوده في القرآن[4].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٤.

(٢) المبرّد، الكامل، ص ١٦٩.

(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ٩٤.

(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٥٧؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٦٤.

ولم يقيموا الحدود على من قذف المحصنين من الرجال وأقاموا على من قذف المحصنات من النّساء فقط[١]. وقد ميّزت هذه الأعمال وغيرها الأزارقة عن سائر الخوارج وخصوصاً عن نجدة الحنفي وأصحابه.

٢ ـ نشاط خوارج اليمامة بقيادة نجدة الحنفي:

تواجه الدّارس لتحرّكات الخوارج في شبه الجزيرة العربية التي تزعّمها نجدة بن عامر الحنفي والتي تُعرف في المصادر بـ«النّجدات» أو «النجديّة» مشكلة تتمثّل في قلّة المعلومات. فالمصادر، وعلى رأسها الطبري، أهملت التعرّض لهذه الحركة، وتبعتها في ذلك أغلب المصادر المتأخرة الّتي أخذت عنها. ويُعتبر المصدر المنسوب للبلاذري المصدر الرّئيسي الذي خصّص قسماً كاملاً للحديث عن نجدة الحنفي ونشاطه في شبه الجزيرة العربية إلى حدود مقتله سنة ٧٢هـ[٢]. أمّا كتب الفرق والمقالات فلئن ذكرت كلّها «النّجدات» كفرقة من فرق الخوارج، فإنّها ركّزت أساساً على ما تميّزت به من مبادىء وما عرفته من خلافات.

ويرى فلهوزن أنّ عدم اهتمام المصادر بهذه الحركة يعود إلى قصر عمرها وانحصارها في بيئة صغيرة[٣]. وهو تفسير منطقي ومقبول لكنّه لا يمكن أن يبرّر وحده تجاهل الرّواة لنشاط نجدة وأتباعه الذي تواصل أكثر من خمس سنوات وكان له الأثر الكبير على الأحداث في شبه الجزيرة العربية. ويبدو أنّ اعتماد المصادر الأساسية، وخاصة الطبري، على رواة عراقيين مثل أبي مخنف، جعل أغلب الرّوايات تهتمّ بأحداث البصرة والكوفة والمناطق الشرقيّة للامبراطورية ولا تذكر من أخبار بقيّة الأقاليم إلاّ ما كان له تأثير مباشر على العراق.

وتظهر انعكاسات هذا العائق الكبير بوضوح على مستوى الدراسات التي اهتمّت بهذه الحركة. فقد اكتفت في أغلبها بإعادة الرّوايات الواردة في المصدر المنسوب للبلاذري[٤]،

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٨٩.

(٢) أخذ عن هذا المصدر بعض الرّواة المتأخرين مثل ابن الأثير في كتابه، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣، ٣٥٤.

(٣) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٦٨.

(٤) لا توجد دراسات خاصة بالنجدات، أو النجدية، لكن الدارسين للحركات الخارجية تعرّضوا لها وأفردوا قسماً خاصًا بها مثل بقيّة المجموعات الخارجيّة. ونذكر من بين هؤلاء فلهوزن ونايف معروف. كما تعرّض لها عبد الكريم النجم في دراسته الخاصة بالبحرين وحاول ربطها بواقع المنطقة الاقتصادي والاجتماعي والقبلي. واهتمّ الأستاذ دغفوس بانتفاضة نجدة كذلك في إطار دراسته للأوضاع في جنوب شبه الجزيرة في خلافة ابن الزبير. انظر: عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، بغداد، ١٩٧٣؛ DAGHFOUS (R), *op. cit.*, T. II, pp. 629 - 640.

ولذلك لم تتمكّن من إلقاء الضوء على مختلف جوانبها وظلّت العديد من نقاط الاستفهام الخاصة بنشأتها وتطوّرها وانقسامها مطروحة إلى حدّ الآن.

ويبقى توضيح هذه النقاط والإجابة عليها رهناً بتوافر الدّراسات الخاصة بشبه الجزيرة العربية والتّحوّلات التي شهدتها في تلك الفترة، ووضع القبائل فيها وعلاقات بعضها ببعض وبالسّلطة، ودورها في مختلف الأحداث التي شهدتها المنطقة. ورغم أنّ عدد هذه الدّراسات ما زال محدوداً، فإنّ ما هو متوافر يمكّن من رسم صورة ولو تقريبية لهذه الحركة ولمختلف التطوّرات التي عرفتها إبّان الفتنة.

أ ـ نجدة الحنفي يجمع خوارج اليمامة ويقود تحركاتهم:

تذكر المصادر عند تعرّضها لنشأة الحركة الخارجية في المناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية أن الخوارج الذين انتقلوا من اليمامة إلى مكّة للدّفاع عن الحرم عادوا من جديد بعد موت يزيد بن معاوية فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت ثمّ أجمعوا على نجدة بن عامر الحنفي فبايعوه وخلعوا أبا طالوت[1]. وهذه الرّواية مقتضبة جداً وغامضة لا تعطي أيّة تفاصيل عن الظروف التي تمّ فيها اختيار أبي طالوت زعيماً للمجموعة ولا عن الأسباب التي أدّت إلى عزله ومبايعة نجدة مكانه. ويستدعي توضيح هذا الغموض تتبّع تحرّكات خوارج اليمامة منذ عودتهم من مكّة سنة ٦٤هـ إلى حين اختيار نجدة سنة ٦٦هـ.

لقد بيّنا سابقاً أنّ الخوارج الذين قدموا إلى مكّة للدّفاع عن الحرم من هجومات الجيش الشّامي عادوا إلى بلدانهم بعد فكّ الحصار. وإذا كانت مجموعة البصرة قد عادت إلى مصرها متوحّدة[2] نظراً للعلاقة المتينة التي تربط بين أفرادها، فإنّ مجموعة اليمامة عادت مشتّتة ومتفرّقة. ولا يعود هذا التشتّت على ما يبدو إلى اختلافات إيديولوجيّة بل إلى ضعف الصّلة التي كانت تربط أفرادها. فالعناصر الخارجية التي استنفرها رجاء النّمري من اليمامة للدفاع عن الحرم لم تكن تربطها علاقات متينة في الفترة السّابقة، لذلك تفرّقت بانتهاء المهمّة التي قدمت من أجلها. ولا يظهر من خلال الرّوايات أن خوارج اليمامة استغلّوا فرصة وُجودهم في مكّة للتّنسيق فيما بينهم والتخطيط للقيام بعمل منظّم في المستقبل. ولعلّ عدم قيامهم بتحرّكات سابقة وضعف تجربتهم النضاليّة هو الذي جعلهم لا يملكون تصوّراً واضحاً للعمل في المستقبل.

كان أبو طالوت سالم بن مطر أحد أبرز العناصر الخارجيّة التي عادت إلى اليمامة ونشطت فيها. فقد قام بعد عودته بالدّعوة إلى نفسه[3]، «فبايعه خمسون على أنّهم إن

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٦٧.

(٣) المبرّد، الكامل، ص ١١٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.

وجدوا من هو خير لهم منه بايعوه وبايعه معهم»[1]. وإذا كانت هذه الرواية تهمل ذكر هويّة الأشخاص الذين بايعوا أبا طالوت وعلاقتهم به وبالحركة الخارجيّة، فإنّها تذكر معلومات في غاية الأهميّة. فالطّريقة التي تمّت بها البيعة والشروط التي فرضت على أبي طالوت بعيدة كلّ البعد عن تقاليد الخوارج في اختيار زعمائهم. فالمعروف أن هؤلاء عندما يقرّرون تنظيم صفوفهم يختارون من يقودهم، فلا يدعو المرشّح لنفسه بل المجموعة هي التي تختار من تراه كفئاً لمنصب القيادة[2]. كما يُعدّ ربط البيعة بشرط العزل إذا توافر الأفضل عملاً لا مثيل له في تقاليد الخوارج وفي التقاليد العربية والإسلامية. فالبيعة المشروطة معروفة عند المسلمين[3]، لكن الشّروط تقتصر على الالتزام ببعض الأعمال كتطبيق تعاليم الإسلام وسيرة السّلف وغيرها، ولا يكون العزل إلاّ إذا أخلّ القائد بما التزم به، وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ الأشخاص الذين بايعوا أبا طالوت ليسوا من الخوارج. والأرجح أنّهم من سكّان اليمامة النّاقمين على الوضع التفّوا حول أبي طالوت ظرفيّاً في انتظار توافر من يحظى برضاهم ويقود ثورتهم ضدّ الأمويين والزّبيريين.

انتقل أبو طالوت بعد حصوله على البيعة إلى الخضارم[4] في سنة ٦٥هـ[5]، فاستولى على أرض فيها لبني حنيفة كان أخذها معاوية بن أبي سفيان وجعل فيها رقيقاً، فقسّم أبو طالوت الرقيق على أصحابه وأقام فيها أشهراً، فأتاه النّاس وكثر أتباعه[6]. ولا شكّ في أن الاستفادة من الغنائم التي كان يتحصّل عليها أنصار أبي طالوت كانت الدّافع الأساسي للمنضمّين الجدد.

أمّا المجموعة الثّانية الّتي عادت من مكّة إلى اليمامة فتتكوّن من عناصر أخرى شاركت في الدّفاع عن الحرم يقودها نجدة الحنفي. ويذكر بعض الرّواة أنّ نجدة كان مع نافع بن الأزرق في البصرة ثمّ «فارقه مع قوم فارقوه لمّا تبنّى مواقفه المتصلّبة من القعدة والمخالفين»[7]. لكن أغلب الرّواة يؤكّدون عودته من مكّة إلى اليمامة مباشرةً واستقراره فيها[8].

---

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٦؛ المبرّد، الكامل، ص ١١٣.

(٢) انظر الطريقة التي تمّت بها البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي وحيان بن ظبيان السلمي في: تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٧٥ ـ ١٧٥.

(٣) كانت البيعة لعثمان بن عفان مرتبطة بشروط، هي: كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر: تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٣٨.

(٤) الخضارم: وادٍ بأرض اليمامة أكثر أهله بنو عجل: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٧٦.

(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٦) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٧) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٨) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٦.

ولا تتوافر لدينا أيّة معلومات عن عدد أتباع نجدة ولا عن الظروف التي تمّ فيها اختياره زعيماً لهذه المجموعة. والأرجح أنّ أتباعه من بني حنيفة التفّوا حوله لمّا أعلن عصيانه لبني أميّة وحاول التقرّب من ابن الزبير سنة ٦٢هـ، وقد يكونون بايعوه قائداً لهم آنذاك وظلّوا إلى جانبه يُشاركونه في تحرّكاته.

أمّا المجموعة الثّالثة من خوارج اليمامة فقد عادت من مكّة إلى البصرة بصحبة خوارج هذا المصر. ويُظهر تتبّع الأسماء أنّها تضمّ عناصر بارزة مثل أبي فديك وعطيّة بن الأسود الحنفي وغيرهما[١]، وهو ما يدلّ على تميّزها واختلافها عن المجموعتين السّابقتين. فهي تضمّ عناصر معروفة بانتمائها للحركة الخارجيّة فضّلت على ما يبدو العودة إلى البصرة بصحبة خوارجها للمشاركة في النضال إلى جانبهم، خصوصاً وأنّ هذا المصر كان طيلة السّنوات السّابقة معقل الخوارج والمركز الرئيسي لنشاطهم ضدّ السّلطة. إلاّ أنّ إقامة هذه الجماعة لم تدم طويلاً إذ إنّ هيجان العصبيّة القبليّة في البصرة والخلافات التي دبّت بين الخوارج بعد قرار نافع وأصحابه بالخروج إلى الأهواز قد دفعا أفرادها إلى العودة إلى اليمامة.

التقى نجدة الحنفي في اليمامة بالمجموعة العائدة من البصرة، «وكان ينوي الالتحاق بمعسكر نافع لكنّه تراجع عن قراره لمّا أُخبر بما أحدثه نافع من أقوال»[٢]، معتبراً أنّ ما صدر عنه غير مقبول، فحصل بذلك الاتّفاق بينه وبين الخوارج العائدين من البصرة فبايعوه وسمّوه أمير المؤمنين في سنة ٦٥هـ[٣].

وقام نجدة بعد حُصوله على البيعة بمكاتبة نافع بن الأزرق طالباً منه الرجوع عن مواقفه نظراً لمخالفتها لتعاليم الإسلام والمبادىء الأولى للحركة[٤]. ويظهر أنّ حصوله على بيعة العناصر الخارجية المعروفة هو الذي أعطاه شرعية التكلّم باسم الخوارج والدفاع عن مبادىء الحركة.

وتسكت المصادر عن ذكر نشاط نجدة وخوارج اليمامة في الفترة المتبقية من سنة ٦٥هـ، إذ لا نجد سوى إشارة واحدة إلى التحاق مجموعة من الخوارج بالأزارقة في دولاب عدد أفرادها بين أربعين ومائتي شخص. وعلاقة هذه المجموعة بنجدة غير ثابتة ولا يُوجد ما يفيد حصول تنسيق بين الأزارقة وخوارج اليمامة. والأرجح أنّ هذه المجموعة التحقت

---

(١) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٥٨ ـ ٥٩؛ الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ١، ص ١٦٥.
(٢) الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص ٨٩ ـ ٩٠؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٥٩.
(٣) **المصدر المنسوب للبلاذري**، ج ١١، ص ٨١.
(٤) انظر نص رسالة نجدة إلى نافع بن الأزرق في كتاب المبرّد، **الكامل**، ص ١١٤ ـ ١١٥؛ وفي **المصدر المنسوب للبلاذري**، ج ١١، ص ٨٣ ـ ٨٤.

بالأزارقة لمساعدتهم في حروبهم ضدّ جيش البصرة من دون أن يكون ذلك بأمر من أحد.

يعود الحديث عن نشاط نجدة سنة ٦٦هـ لمّا قام صحبة أنصاره باعتراض طريق قافلة قادمة من البحرين تحمل مالاً لابن الزبير فاستولوا عليها وأتوا بها الخضارم، فقسّم نجدة المال على أتباع أبي طالوت ونصحهم بردّ الرقيق الذي كان قد وزّعه عليهم أبو طالوت قبل ذلك واستعماله في خدمة الأرض[١] أسوةً بما قام به الخليفة عمر بن الخطاب الذي جعل ملكية الأرض للدولة دون الأفراد[٢].

وأعجبت هذه الأعمال أنصار أبي طالوت فقرّروا خلعه ومبايعة نجدة[٣]. ويبدو واضحاً من خلال الرّواية أنّ ما قام به نجدة لا يعدو أن يكون عمليّة ذكيّة هدفها احتواء مجموعة أبي طالوت وضمّها إلى صفوفه. ويكمن ذكاء نجدة في استعماله أسلوب التقرب بالمال والنصائح للحصول على البيعة، وهو ما تمّ له بالفعل، «إذ بايعه أتباع أبي طالوت على ما يبايع عليه الخلفاء لا يُخلع إلاّ عن جور ظاهر، ولم يبايعوه على ما بايعوا عليه أبا طالوت»[٤]، كما طلبوا من أبي طالوت نفسه مبايعته. وبالإضافة إلى أنصار أبي طالوت ضمّ نجدة «قوماً من الخوارج كانوا بالعرمة»[٥]، وصار بذلك قائداً لكلّ خوارج اليمامة ومن تابعهم لأسباب عقائديّة أو سياسيّة أو قبليّة. وتُطلق المصادر وخصوصاً كتب الفرق على هذه المجموعة اسم «النّجدات»، نسبةً إلى قائدهم نجدة الحنفي. وإذا كان بالإمكان الحديث عن النّجدات كمجموعة معارضة في تلك الفترة، فإنّه لا يمكن الحديث عنها كفرقة متميّزة عن بقيّة الخوارج الموجودين في البصرة لأن نجدة لم يتبنَّ إلى حدود سنة ٦٦هـ مواقف وأحكاماً خاصة به، ولم يجمع حوله الأنصار بناء على مبادىء جديدة ومتميّزة إذ اقتصرت دعايته على استنكار أقوال نافع بن الأزرق وبيان تنافيها مع تعاليم الإسلام ومبادىء الحركة الخارجيّة.

ب ـ توسّع نطاق نشاط خوارج اليمامة في شبه الجزيرة العربيّة:

أقام نجدة إثر حصوله على البيعة باليمامة فكثر عدد أتباعه[٦]، وتكثّف نشاطه حتّى إن عبد الله بن الزبير هدّد سراج بن مجّاعة الحنفي الذي قدم إليه ليأخذ أماناً لقومه بأنّه سيرسل لبني حنيفة جيشاً كبيراً انتقاماً منهم للأعمال التي كان يقوم بها نجدة وأصحابه[٧]. وانطلق

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٢) عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص ١٢٩.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٧؛ المبرّد، الكامل، ص ١١٣.
(٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٢٧ ـ ١٢٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٥) المبرّد، الكامل، ص ١١٣.
(٦) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٨.
(٧) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٢٨.

نشاط نجدة من اليمامة ليشمل المناطق القريبة منها. وكانت البحرين أولى المناطق الّتي تعرّضت لغارات الخوارج، إذ أرسل إليها نجدة فرقتين تعدّ كل واحدة منها ثلاثمائة رجل يقود الأولى نصر بن مالك الحنفي والثّانية قُدامة بن المنذر بن النعمان[1]. وقد ركّزت هذه الجيوش غاراتها على مدينة القطيف[2]، فسبت وغنمت من دون أن تتمكّن من إخضاعها بسبب تصدّي يزيد بن معاوية، عامل البحرين، لهذه الجيوش[3] وانسحابها السّريع من المنطقة بأمر من نجدة الذي أراد التّصدّي لغارات بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة على بني جرم بن قيس بن ثعلبة في سوق ذي المجاز[4]. ويرى عبد الكريم النجم أنّ العصبية القبليّة هي التي دفعت نجدة إلى التدخّل في هذا الصّراع إلى جانب بني جرم. ويمكن أن نضيف أنّ رغبة نجدة في إظهار قوّته قد تكون كذلك من بين دوافع هذا التدخّل. ومهما يكن هدف نجدة، فإن انتصار الخوارج في هذه الغارة جعل عدد أنصار الحركة يرتفع ليصل إلى ثلاثة آلاف رجل[5] بعد أن كان لا يتجاوز بضع مئات.

وعاد نجدة بعد هذه الغارات إلى اليمامة، لكن إقامته بها لم تدمْ طويلاً إذ قرّر سنة ٦٧هـ الانتقال إلى البحرين. ويذكر الرّواة أنّ نجدة اتخذ قرار الانتقال خوفاً على أهل اليمامة من هجوم محتمل تقوم به جيوش ابن الزّبير عليهم[6] ردّاً على الأعمال التي كان يقوم بها أتباعه في شبه الجزيرة العربية. إلاّ أنّنا لا نشكّ في أنّ الأهميّة الاقتصاديّة والاستراتيجيّة للبحرين كانت العامل الأساسي الذي يُفسّر حرص نجدة على السّيطرة على تلك المنطقة.

وأدّى قدوم نجدة إلى البحرين إلى انقسام قبائله بين مؤيّد ومعارض. فقد قرّرت الأزد مسالمته، في حين «اجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين من غير الأزد على محاربته»[7]، وهذا ما سهّل عليه دخول المنطقة بعد هزيمة عبد القيس في القطيف وقتل وسبي عدد كبير من سكّانها[8].

أمّا سبب الانقسام، فتذكر الرّوايات أنّه مجرّد اختلاف في المواقف بين القبيلتين تجاه نجدة بسبب انتمائه للمذهب الخارجي. فالأزد رحّبت به لأنه «منكر للجور وولاتهم

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٨.
(٢) القطيف: هي مدينة بالبحرين من أعظم مدنها: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٨.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٨.
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣١؛ ابن الأثير الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٦) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣١.
(٧) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٨) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٢.

يجوّزونه»[١]، في حين رفضته عبد القيس لأنّه حروري مارق[٢]. ولا يمكن أن يفسّر هذا السّبب وحده موقف القبيلتين، فالأكيد أنّ خلفياته أعمق ممّا يذكره الرّواة.

يبدو أنّ قبيلة عبد القيس المسيطرة على البحرين رفضت حكم نجدة لأنّه سيكون على حساب مصالحها إذ سيفقدها مكانتها المتميّزة ويجعلها خاضعة له ولأتباعه من بني حنيفة. أمّا الأزد فقد أيّدوا نجدة لأنّهم رأوا في ذلك فرصةً لتدعيم مركزهم في تلك المنطقة التي يمثّلون فيها الأقليّة[٣]، ومناسبةً للمشاركة في الغارات التي كان يقوم بها الخوارج والاستفادة من الغنائم. ويضيف النّجم أنّ الروح المحليّة تفسّر بدورها هذا الموقف، فقد قاومت البحرين محاولات خوارج اليمامة السّيطرة عليها بدافع الحفاظ على شخصيتها واستقلالها[٤].

أقام نجدة وأتباعه في البحرين التي أصبحت منذ ذلك الحين مقرّ «دولة» الخوارج وشرعوا في تنظيم الغارات على المناطق المجاورة[٥]، مستفيدين من حالة الفوضى والتشتّت التي كانت تسود شبه الجزيرة العربية بسبب اهتمام ابن الزّبير بمحاربة الثّائرين عليه في المناطق الأخرى، وخصوصاً المختار الثّقفي في الكوفة والأزارقة في فارس والأهواز وعدم وجود قوة عسكريّة في شبه الجزيرة العربيّة قادرة على التّصدي لهم. لكن تزايد غارات الخوارج دفع والي البصرة مصعب بن الزبير إلى إرسال جيش كبير، على رأسه عبد الله بن عمر اللّيثي[٦]، تمكّن نجدة من إلحاق هزيمة نكراء به مما كان له تأثير كبير على الطّرفين. فقد أوقف بعدها ابن الزّبير حملاته العسكريّة ضدّ الخوارج لمدّة طويلة[٧]. في حين استغلّها نجدة لتوسيع مجال تحرّكاته والقيام بحملات عسكريّة منظّمة بالإضافة إلى الغارات الصّغيرة.

اتّجهت أولى الحملات إلى عُمان وكان يقودها عطيّة بن الأسود الحنفي[٨]، أحد الخوارج البارزين. كما اتّجهت في الوقت نفسه مجموعات صغيرة إلى البوادي لأخذ

---

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٢) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢.
(٣) CASKEL (W), «Abd - al Kays», In: *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, 1960, T. I, p. 75.
(٤) عبد الكريم النّجم، البحرين في صدر الإسلام، ص ١٣٠.
(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٦) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١١٧؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٣.
(٧) وقعت الحملة الأولى سنة ٦٩هـ. ولم يرسل ابن الزبير إلى الخوارج جيوشاً أخرى إلاّ بعد مقتل نجدة الحنفي سنة ٧٢هـ. انظر: المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٣.
(٨) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

الصّدقة من أهلها بعد دعوة سكّانها[١]. وقد رفضت بعض القبائل دفع الصّدقة للخوارج، فكان ذلك سبباً في حصول مواجهات كالتي وقعت في كاظمة[٢] بين بني تميم وأنصار نجدة[٣]. ويبدو أنّ عدم تخصيص الخوارج لقوّة عسكريّة مهمّة في عمليات جمع الصّدقات هو الذي جعل بعض القبائل تتجرأ على رفض الخضوع لأوامرهم، متسبّبة في إرسال قوّات أخرى تغير على الرافضين وتخضعهم بالقوّة. وقد دفعت هذه الغارات العديد من القبائل إلى التحالف في ما بينها لتتمكّن من التّصدّي للخوارج، من ذلك مساعدة أهل طويلع لبني تميم، وانتقام الخوارج منهم بقتل أكثر من ثلاثين رجلاً وسبي مجموعة أخرى وإجبار البقيّة على دفع الصّدقة[٤]. ويبدو لمتتبع هذه الغارات أن القبائل كانت تتصدّى وحدها لغارات الخوارج بسبب ضعف نفوذ عمّال ابن الزبير وعدم قدرتهم على السّيطرة على الوضع في تلك المناطق، الأمر الذي يُفسِّر نجاح الخوارج في إخضاع المناطق المحيطة بالبحرين والوصول إلى الأطراف الشماليّة الشرقيّة لشبه الجزيرة العربية.

خرج نجدة بعد هذه العمليات بنفسه إلى صنعاء فبايعه أهلها. ويذكر المدائني أنّهم بايعوه لخوفهم من أن يكون وراءه جمع كبير، فلمّا أقام أيّاماً ولم يروا مدداً يأتيه ندموا على بيعته[٥]. لكنهم لم يثوروا لافتقادهم على ما يبدو للقوّة التي تتطلّبها هذه المواجهة. فقد كانت صنعاء وسائر بلاد اليمن تعيش حالة من الضّعف والتهميش منذ حروب الردّة، وخاصّةً منذ انطلاق الفتوحات وخروج العديد من رجالها للمشاركة فيها واستقرارهم في المناطق المفتوحة. كما أن عدم الاستقرار السّياسي وضعف ولاة ابن الزبير قد أفقدها القدرة على التصدّي لأيّ عدوان تتعرّض له[٦]. ووجّه نجدة من صنعاء إلى حضرموت أبا جديل، فجبى صدقات أهلها[٧]. وبذلك صارت كامل السّواحل الشّرقية والجنوبيّة لشبه الجزيرة العربيّة خاضعة لسيطرة الخوارج.

---

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٣.

(٢) كاظمة: تقع على سيف البحر في طريق البحر من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٣١.

(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٣.

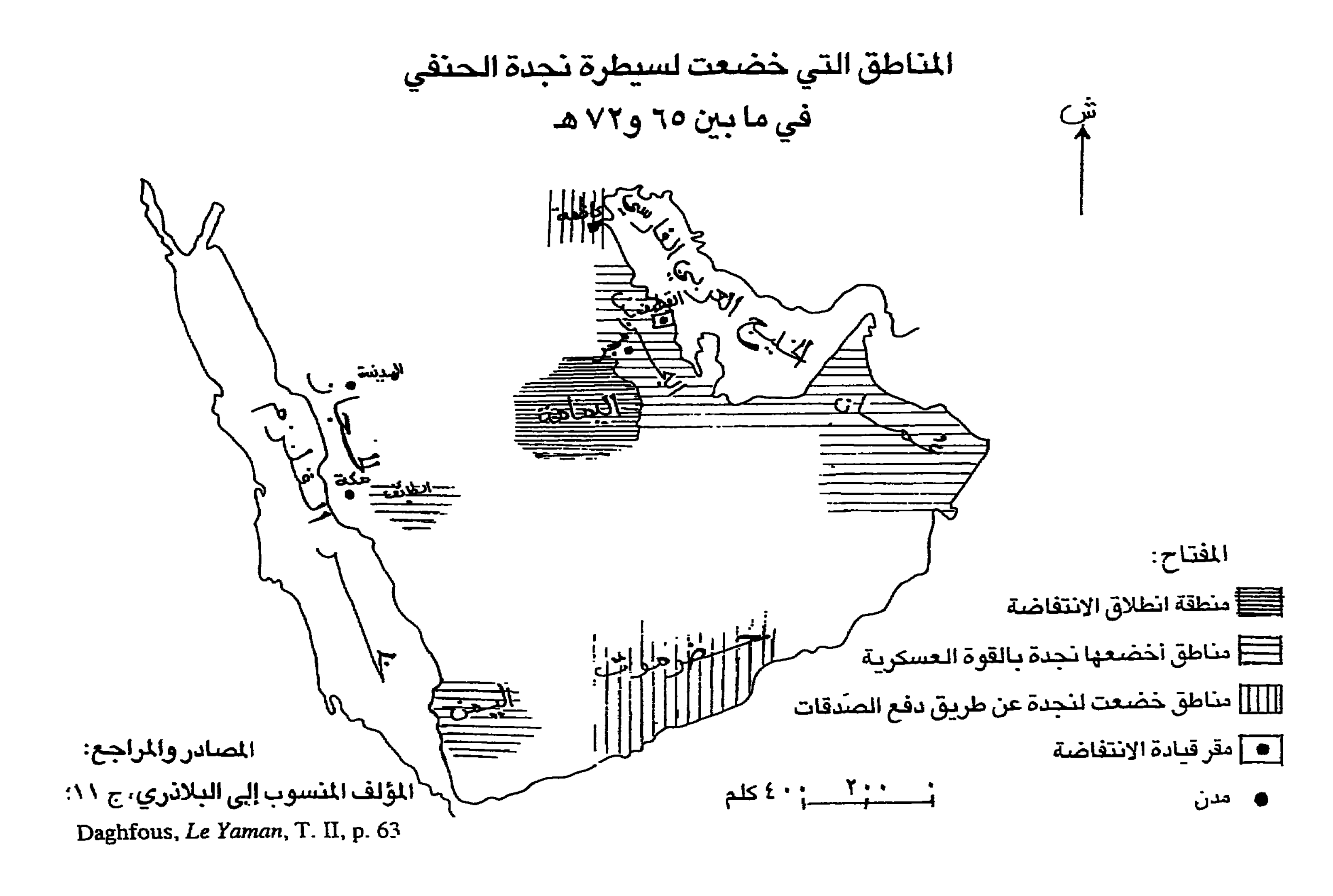
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٣٧.

(٦) عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص ١٣١؛ وينقل دغفوس عن الخزرجي قوله إنّ وهب بن منبه قد يكون حاول جمع الصنعانيين لمحاربة النّجدات، لكن نقص الإمكانيات العسكرية والخوف من وقوع مذبحة لا طائل من ورائها جعل سكان صنعاء يقترحون على الخوارج إبرام معاهدة سلم مقابل دفع مائة ألف دينار تمّ جمعها من سكّان الأقاليم المجاورة: DAGHFOUS (R), *op. cit.*, T. II, p. 634.

(٧) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٧.

المناطق التي خضعت لسيطرة نجدة الحنفي في ما بين ٦٥ و٧٢ هـ



المصادر والمراجع:

المؤلف المنسوب إلى البلاذري، ج ١١؛

Daghfous, *Le Yaman*, T. II, p. 63

ويتبيّن للمتتبّع لمجمل تحرّكات نجدة وأتباعه أنّها كانت تسير طبق مخطّط واضح هدفه في تلك المرحلة السّيطرة على أطراف شبه الجزيرة المحيطة بالحجاز وتقوية الحركة ودعمها ماديًّا وبشريًّا قبل الدخول في مواجهة محتملة مع ابن الزبير. وقد لاحظ دغفوس أنّ المجال الذي سيطر عليه نجدة مطابقٌ للمجال الذي كان تحت سيطرة الفرس[1]، وهو ما قد يدلّ على أهميّة هذه المناطق. وقد توخّى نجدة في تلك المرحلة أسلوبين اثنين: يعتمد **الأول** على الدعوة السّلميّة، وقد استعمله لإخضاع البوادي من خلال مطالبة سكّانها بدفع الصّدقات اعترافاً بسلطته عليهم. ولم يلتجىء نجدة إلى القوّة في إخضاع سكّان البوادي إلاّ لمّا رفض بعضهم دفع الصّدقات، وهو ما حصل مع بني تميم وبني هلال ونمير[2]. ويبدو أنّ نجدة لجأ إلى هذا الأسلوب السلمي لافتقاده إلى قوّة عسكرية كافية تمكّنه من غزو كل المناطق والسّيطرة عليها بالقوّة. وربّما كذلك لاعتقاده في نجاعته، إذ سبق أن استعمله الرّسول وتمكّن بفضله من إخضاع قبائل شبه جزيرة العربية.

أمّا **الثاني** فيعتمد على القوة العسكرية، وقد استعمله نجدة للسيطرة على المدن الكبرى وبعض المناطق مثل البحرين واليمن. ويعود حرص نجدة على السيطرة على هذه المناطق إلى أهميتها الاقتصاديّة والاستراتيجية، فهي مزدهرة فلاحيًّا يمكن للخوارج الاستفادة من مداخيلها من الزّكاة والصّدقات وغيرها من الضرائب. كما يمكّن موقعها بين الخليج والمحيط الهندي من جهة وبين الحجاز والعراق من جهة أخرى من مضايقة ابن الزبير والانسحاب إلى خارج الجزيرة عند الحاجة[3].

توجّه نجدة بعد هذه العمليات العسكرية إلى مكّة في جمع من أصحابه بهدف الحجّ[4]. ثمّ قصد المدينة بعد انقضاء الموسم وأراد دخولها وهو ما جعل سكّانها يستعدّون لمواجهته حتّى إنّ عبد الله بن عمر بن الخطاب لبس سلاحه[5]. ولمّا بلغت نجدة أصداء هذه الاستعدادات تراجع عن قراره واتّجه إلى الطائف ومنها إلى تبّالة[6] والسّراة[7]، حيث

(1) DAGHFOUS (R), *op. cit.*, p. 634.
(2) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٩.
(3) DAGHFOUS (R), *op. cit.*, T. II, p. 640
(٤) يختلف الرواة في تحديد السنة التي حجّ فيها نجدة، فالطبري يذكر الخبر ضمن أحداث سنة ٦٨هـ، في حين يذكر ابن الأثير أنّ ذلك تمّ سنة ٦٨هـ أو سنة ٦٩هـ. أما المصدر المنسوب للبلاذري، فينقل عن المدائني قوله إنّ نجدة حجّ في سنة ٦٨هـ ويقال في سنة ٧٠ـ وهو الثّبت. انظر: تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٣٨؛ المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص ٣٥٣.
(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج١١، ص ١٣٧.
(٦) تبّالة: موضع من أرض تهامة في طريق اليمن: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٩.
(٧) السّراة: تقع بين تهامة ونجد أدناها الطّائف وأقصاها قرب صنعاء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٥.

استعمل عمّاله ثمّ عاد إلى البحرين[١]. ويعود تراجع نجدة عن دخول المدينة، حسب فلهوزن إلى موقف عبد الله بن عمر الذي كان «الخوارج يوقّرون أباه عمراً توقيراً شديداً»[٢]. ويضيف النّجم أنّ نجدة تراجع لإدراكه أنّ خروج ابن عمر يدلّ على أنّه سيلقى مقاومة من المتديّنين ومن ذوي المكانة عند المسلمين، وفي هذا خطر لأنه سيؤدّي إلى إثارة المسلمين ضدّ الخوارج[٣]. وبقطع النّظر عن مدى صحّة هذه التّفسيرات وعن الأسباب التي جعلت نجدة يتراجع عن دخول المدينة في آخر لحظة، فالأكيد أنّ ما قام به في شبه الجزيرة وفي الحجاز قد أرهب المسلمين وجعلهم يخشون قوّة الخوارج وبأسهم. وليس أدلّ على ذلك ما قام به عامل الطّائف عاصم بن عروة بن مسعود الذي أتى نجدة فبايعه عن قومه ليتجنّب دخول الخوارج مدينة الطائف بالقوّة[٤].

وعموماً، فإنّ تحرّكات نجدة في شبه الجزيرة وخصوصاً في الحجاز أكّدت عجز ابن الزّبير المطلق عن التصدّي للخوارج رغم قلّة عددهم وعدّتهم وذلك لانشغاله بالحروب التي كانت تدور في المناطق الأخرى وخاصة في العراق، وإلى عدم وجود قوّة عسكريّة في شبه الجزيرة قادرة على صدّ الخوارج. وهو ما يؤكّد أنّ الأمصار قد ظلّت ـ رغم عودة الخلافة إلى الحجاز ـ مركز الثّقل الحقيقي، فيها تتمركز القوّة العسكرية والبشرية الّتي تتحكّم في مصير الامبراطورية الإسلامية. ولذلك أولاها ابن الزبير كلّ اهتمامه، لكن إهماله ما يجري في الجزيرة ساعد نجدة على السّيطرة على مجال واسع فاق في مساحته مجال ابن الزبير نفسه.

ولم يكتفِ نجدة بما قام به في الحجاز، بل عمد بعد عودته إلى البحرين إلى «قطع الميرة عن أهل الحرمين من اليمامة والبحرين»[٥]، متسبّباً في حرمانهم من كل ما يأتيهم من هذه المنطقة من طعام وغيره. والظّاهر أنّ عدم تمكّن نجدة من دخول المدينة ورغبته في مضايقة ابن الزبير وإظهار عجزه قد دفعاه إلى فرض هذه العقوبات التي ألحقت أضراراً جسيمة بسكّان الحرمين حتّى إنّ عبد الله بن عبّاس اضطرّ إلى مكاتبة نجدة طالباً منه إرجاع الميرة[٦].

---

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٣.
(٢) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٧١.
(٣) عبد الكريم النّجم، البحرين في صدر الإسلام، ص ١٣١.
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٩.
(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٣.
(٦) كتب ابن عباس إلى نجدة أن ثمامة بن أثال لمّا أسلم قطع الميرة عن أهل مكّة وهم مشركون، فكتب إليه الرسول ﷺ أنّ أهل مكة أهل الله فلا تمنع عنهم الميرة فجعلها لهم وإنّك قطعت الميرة عنّا ونحن مسلمون فجعلها نجدة لهم: المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٥.

وتصمت المصادر عن نقل أخبار نجدة وتحرّكاته بعد هذه الحادثة، ولا تعود إليها إلاّ سنة ٧٢هـ في إطار حديثها عن الخلاف الذي نشب بين الخوارج وأدّى إلى انقسامهم ومقتل زعيمهم نجدة.

ج ـ اختلاف الخوارج ومقتل نجدة:

حظيت مسألة الخلاف بين أتباع نجدة الحنفي باهتمام كبير من قبل الرّواة، فقد أسهبت المصادر وخصوصاً كتب الفرق في الحديث عن الانقسام وأعطت تفاصيل كثيرة عنه. لكن رغم كثافة المادّة، فإنّ الأسباب الحقيقيّة للخلاف تبدو غامضة لغياب الدقّة في سرد الأحداث. فالرّوايات كثيراً ما تستعمل عبارات عامة مثل قولها: «ونقم على نجدة أصحابه» من دون أن تحدّد أسماء هؤلاء الأصحاب أو عددهم أو موقعهم داخل الحركة. كما أنّها لا تعتمد المرحليّة في سرد وقائع الخلاف وتهمل كليًّا ذكر التّواريخ حتّى يُخيّل للقارىء أنّ كلّ أتباع الحركة قد عارضوا نجدة وخرجوا عليه في وقت واحد. ويفرض هذا الغموض توخّي الدقّة الكاملة عند قراءة الرّوايات وتتبّع الأحداث ومحاولة ربط بعضها ببعض.

تجمع المصادر على أنّ سبب الخلاف داخل الحركة يعود إلى نقمة الخوارج على نجدة لأعمالٍ قام بها ومبادىء تبنّاها. وتركّز كُتب الفرق بصورة خاصة على مواقف نجدة وتجعلها المنطلق للأزمة التي انتهت بمقتله وانقسام أتباعه. ومن أهمّ ما نُسب إلى نجدة قوله: «إنّ الجاهل معذور بجهله»[1]. وكان سبب تبنّيه هذا المبدأ أنّه بعث ابنه المطرّح مع جند من عسكره إلى القطيف فأغاروا عليها وسبوا منها النّساء والذريّة، وقوّموا النّساء على أنفسهم ونكحوهنّ قبل إخراج الخُمس من الغنيمة. وعندما علم نجدة ما فعلوا أنكر ذلك، فاعتذروا منه لجهلهم به فعذرهم معلّلاً موقفه بالقول: «إنّ الدّين أمران أحدهما معرفة الله ومعرفة رُسُله وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والإقرار بما جاء من عند الله جملةً فهذا واجب معرفته، وما سواه فالنّاس معذورون بجهله حتّى تقوم عليهم الحجّة. فمن استحلّ باجتهاده شيئاً محرّماً فهو معذور»[2]. كما ينسب إلى نجدة قوله إنّ «من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة ثمّ أصرّ عليها فهو مشرك، وإنّ من زنى وسرق وشرب الخمر غير مصرّ فهو مسلم»[3]. كما أنه عطّل حدّ الخمر[4]، وتولّى أصحاب الحدود والجنايات من موافقيه[5].

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩٠؛ البغدادي الفرق بين الفرق، ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩٠؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩١؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٦٠.
(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٤؛ الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩١.
(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩١؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٦٠.

لم تعجب هذه الأحكام بعض الخوارج لمخالفتها مبادىء الحركة وتعاليم الإسلام الواردة في القرآن وبسببها خالفوا نجدة وانشقّوا عنه. غير أنّ المتتبّع للرّوايات يُلاحظ أنّ هذه الأحكام ليست وليدة الفترة التي وقع فيها الانقسام، بل يعود أغلبها إلى الأشهر الأولى التي تلت نشوء الحركة. فوقعة القطيف التي كانت السّبب في تبنّي نجدة لمبدئه الأساسي القائل: «إنّ الجاهل معذور بجهله» قد وقعت سنوات طويلة قبل حدوث الانقسام[١]، ولم يثر تبنّي نجدة لهذا المبدأ آنذاك أيّ ردّ فعل داخل الحركة. والظّاهر أنّ الخوارج تبنّوه بدورهم، إذ يذكر الأشعري أن «نجدة لمّا عذر ابنه المطرّح وأصحابه بجهالتهم، بايعه على ذلك أصحابه وعذروا بالجهالات»[٢]. وينطبق هذا على معظم أقوال نجدة المتفرّعة عن هذا المبدأ الأساسي، وهو ما يفسّر التفاف الخوارج حوله وبقاء الحركة متماسكة سنوات طويلة بعد حادثة القطيف.

ويجرّنا هذا الاستنتاج إلى التساؤل عن الأسباب الحقيقيّة التي كانت وراء اندلاع الخلاف داخل الحركة.

تذكر كتب التّاريخ العام أنّ من بين أسباب الخلاف مكاتبة عبد الملك بن مروان نجدة الحنفي يدعوه إلى طاعته مقابل أن يهدر له ما أصاب من الأموال والدّماء ويولّيه اليمامة وما حولها[٣]. فقد اعتبر بعض الخوارج أنّ عبد الملك ما كاتب نجدة إلاّ لاقتناعه بإمكانية جلبه إلى صفوفه[٤]، وهو عمل يرفضه الخوارج بسبب عدواتهم الشديدة للأمويين. وترتبط بهذه المسألة حادثةٌ أخرى كانت بدورها سبباً في حصول خلافات بين نجدة وبعض أتباعه على رأسهم عبد الرحمن بن بحدج وتتمثّل في تعمّده اشتراء ابنة لعمرو بن عثمان بن عفّان من أموال الحركة وردّها إلى عبد الملك[٥]، وكان ابن بحدج هو الذي أصابها في إحدى الغارات[٦]. ولم تكن هذه أوّل مرة يقوم فيها نجدة بأعمال من هذا القبيل، فقد سبق له أن

(١) تعود هذه الحادثة إلى سنة ٦٦هـ، وهي الفترة الّتي أغارت فيها جيوش نجدة على منطقة البحرين، ولا يمكن أن تتجاوز سنة ٦٧هـ لأنّ المطرّح بن نجدة بطل الحادثة قُتل خلال هذه الغارات: المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٢.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩٠؛ الشهرستاني، الملل والنّحل، ج ١، ص ١٦٥.

(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٤٣.

(٥) ثمة اختلاف كبير بين الرّواة في خصوص هذه الحادثة، فبعضهم يذكر أنّ نجدة ردّ ابنة عمرو بن عثمان إلى ابن الزبير، في حين يرى البعض الآخر أنه ردّها إلى عبد الملك. وإذا كنّا لا نستطيع ترجيح رواية على أخرى، فإنّنا نستبعد إرجاعها إلى ابن الزبير نظراً للعداوة بين الطرفين وعدم قدرة ابن الزبير على الانتقام من نجدة من أجل هذه المرأة.

(٦) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٧.

أعطى من أموال الحركة لأشخاص لا صلة لهم بها مثل مالك بن مسمع زعيم بكر بن وائل الذي منحه عشرة آلاف درهم وحمله على ناقة وحمل ابنه على فرس[١]، كما فرّق الأموال بين الأغنياء وحرم ذوي الحاجة منهم[٢]، وميّز في الرزق والعطاء بين المقاتلة[٣].

يبدو أنّ مناورات نجدة السياسيّة وتجاوزاته المختلفة هي التي كانت وراء اندلاع الخلاف الذي تطوّر تدريجيًا حتّى أدّى إلى القطيعة. لكنّ المعارضين لنجدة لم يركّزوا في حملتهم على ما يبدو على هذه التّجاوزات فحسب، بل كذلك على ما تبنّاه من مبادىء وأحكام وذلك لإعطاء الخلاف بُعداً دينيًا وإظهار نجدة بمثابة المُداهن في الدّين[٤] والمخالف لمبادىء الحركة وتعاليم الإسلام. وهو ما يفسّر تركيز كُتُب الفرق والمقالات على أقوال نجدة واعتبارها مصدر الخلاف ونقطة انطلاقه.

أمّا المعارضون لنجدة فهم عديدون، غير أنّ معلوماتنا عنهم قليلة لأنّ أغلب الرّواة يتحدّثون عنهم بصيغة الجمع ويُظهرونهم بمثابة المجموعة المتجانسة التي يقودها هدف واحد هو رفض تجاوزات نجدة. إلاّ أنّه يُمكن من خلال بعض الإشارات تحديد هويّة أبرز هذه العناصر والتّعرف على أسباب معارضتها.

تبرز من وسط المجموعة المعارضة لنجدة ثلاثة عناصر هي: عطيّة بن الأسود، وعبد الرحمن بن بحدج من بني حنيفة، وعبد الله بن ثور المعروف بأبي فديك من قيس بن ثعلبة. وتشترك هذه العناصر في قدم انتمائها إلى الحركة الخارجيّة ومشاركتها في الدفاع عن الحرم ودورها في تأسيس هذه الحركة. وقد تكون هذه المكانة المتميّزة هي التي أكسبتها شرعيّة حمل لواء المعارضة ضدّ نجدة والتصدّي لتجاوزاته. لكن هذه العناصر لم تتحرّك في وقت واحد ولم تنسّق مواقفها قبل إعلان معارضتها. فقد كان عطيّة بن الأسود الحنفي أوّل الخارجين على نجدة وكان لخروجه صدى كبير يبدو واضحاً من خلال تركيز العديد من الرّواة عليها[٥]. إلاّ أنّ عطيّة لم يفلح في زعزعة نفوذ نجدة رغم «تأليبه النّاس عليه»، ولم يتمكّن من السّيطرة على منطقة عُمان كما كان يريد، لذلك اضطرّ إلى الانسحاب إلى كرمان حيث يذكر بعض الرّواة وجوده في صفوف الأزارقة[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٤٣ ـ ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٣) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٣؛ الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩١؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٥٩.
(٤) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٣.
(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٥٤.
(٦) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٦٢؛ كما ينقل الدّجيلي عن ابن الأعثم قوله إنّ عطيّة انضمّ إلى الأزارقة وبقي معهم إلى أن وقع الخلاف بينهم: الدّجيلي، فرقة الأزارقة، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

ولم يكن عبد الرحمن بن بحدج الحنفي الذي ثار بعد عطيّة أوفر حظًّا من سلفه، فقد انتهت ثورته بانسحابه إلى فارس مع بعض أتباعه حيث تلقّتهم جيوش عبيد الله بن معمّر، عامل مصعب بن الزبير على فارس، وقضت عليهم[1].

أمّا ثورة أبي فديك، فتبدو مختلفة عن سابقتيها لأنّها حدثت في ظروف مغايرة وجمعت عدداً أكبر من أفراد الحركة، فكانت بذلك ثورة مجموعة لا ثورة أفراد. ولم يكن لهذه الثورة أسباب خاصة بها، فكلّ ما تذكره المصادر هو أنّ الثائرين نقموا على نجدة لما قام به من أعمال ولما أحدثه من مقالة، فطلبوا منه أن يتوب. فلما تاب ندم قوم على استتابته وطلبوا منه أن يتوب عن توبته، فكان ذلك سبباً في حصول خلافات داخل الحركة انتهت بخلعه وانتخاب أبي فديك[2]. ويضيف عبد الكريم النّجم أنّ التّنافس القبلي بين حنيفة وقيس بن ثعلبة قد يكون من بين الأسباب التي دفعت أبا فديك وأصحابه إلى خلع نجدة.

ولا يعود نجاح أبي فديك في إزاحة نجدة إلى ارتفاع عدد أنصاره فحسب، بل خاصةً إلى الظرف الّذي قام فيه بالعمليّة، فقد استغلّ غياب أصحاب نجدة المقرّبين الذين كانوا متفرّقين في الضّواحي للغزو لخلعه ثمّ قتله بأقصى السّرعة. ولئن مكّن الانقلاب الذي قام به أبو فديك من القضاء على حكم نجدة، فإنّه شتّت كذلك الائتلاف الذي كوّنه، إذْ انقسمت الحركة بعده بين مؤيّدين لأبي فديك وهم «الفديكيّة»، ورافضين لقتل نجدة وهم «النّجديّة»[3]. ولا تحمل هذه التسميات في طيّاتها على ما يبدو مضامين فكريّة، ولا تعدو أن تكون نسبةً إلى زعماء هذه المجموعات، إذْ لا نجد في المصادر ما يفيد تبنّيها مبادىء جديدة تميّزها بعضها عن بعض. ويؤكّد الأشعري ذلك عند حديثه عن «الفديكيّة» إذ يقول: «ولا نعلم عنهم أنّهم تفرّدوا بقول أكثر من إنكارهم على نافع ونجدة ما حكيناه عنهم»[4]. وينطبق هذا القول على أصحاب عطيّة بن الأسود الذين صاروا بعد انفصالهم عن نجدة يُسمّون «العطوية»[5].

ولا تذكر المصادر شيئاً عن نشاط أنصار نجدة أو «النّجدات» بعد الانقسام. ويُعدّ صمت المصادر في حدّ ذاته دليلاً على توقف نشاطهم العسكري. إلاّ أنّ هذا لا يعني نهاية الوجود الخارجي في منطقة اليمامة التي ينتمي إليها أغلب أصحاب نجدة المقرّبين بل تحوّله على ما يبدو إلى حركة فكريّة دينيّة.

---

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٩.
(٢) تفاصيل هذه العمليّة تجدها في العديد من المصادر منها: المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٣.
(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩٢؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٥٩.
(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩٣.
(٥) المصدر المنسوب للبلاذري، ج ١١، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

أمّا «الفديكيّة» فقد استأنفوا نشاطهم مباشرة بعد الانقسام وكثّفوه إلى درجة جعلت الأمويين يخشون خطرهم ويعملون جاهدين للقضاء عليهم بمجرّد عودة العراق إلى حكمهم سنة ٧٢هـ.

كان أوّل جيش أموي أرسل إلى أبي فديك هو جيش أُميّة بن عبد الله بن أسيد الذي مُني بهزيمة نكراء تتحدّث عنها كل المصادر(١). وقد كان من نتائج هذه الهزيمة تعزيز صفوف الحركة بأنصار جدد، إذ ارتفع عدد أفرادها من سبعمائة رجل إلى اثني عشر ألفاً منهم عدد كبير من الأعراب انضمّوا إليها طمعاً في الغنائم(٢). وتؤكد رواية ابن الأثير هذا الانضمام المكثّف إلى صفوف الخوارج من خلال عدد القتلى في تلك المعركة الذي بلغ ستة آلاف شخص حسب هذا الرّاوي(٣).

أمّا بالنسبة إلى الأمويين، فقد أكّدت لهم الهزيمة خطورة هذه المجموعة وضرورة التّعجيل بالقضاء عليها قبل استفحال خطرها. وهو ما دفعهم إلى إرسال جيش ضخم يقوده عمر بن عُبيد الله بن معمر تمكّن من إلحاق الهزيمة بأبي فديك وإنهاء سيطرة الخوارج على اليمامة والبحرين التي تواصلت عدّة سنوات.

وتعتبر المصادر وخصوصاً كُتُب الفرق هزيمة أبي فديك بمثابة النهاية الفعليّة لحركة الخوارج في تلك المنطقة، ولذلك تتوقّف عن سرد أخبارهم ونشاطهم. إلاّ أنّ تشتّت الحركة ومقتل أبي فديك وعدد كبير من أنصاره لم ينهِ الوجود الخارجي، والدّليل على ذلك قيام العديد من الانتفاضات الخارجية انطلاقاً من تلك المنطقة وخصوصاً من البحرين وامتدادها سنوات طويلة من حكم بني أميّة.

في ختام هذا البحث الخاص بخوارج اليمامة وتحركاتهم إبّان الفتنة يُمكن القول إنّ الشرارة الأولى لهذه الحركة المعارضة قد انطلقت من اليمامة بزعامة نجدة وبعض العناصر من قبيلة حنيفة. ولئن لم تكن لهذه المجموعة علاقة بالحركة الخارجيّة في البداية، فإنّ مشاركة نجدة إلى جانب خوارج هذه المنطقة في الدفاع عن الحرم جعلته يبرز ومكّنته فيما بعد من الحصول على بيعة العديد من العناصر الخارجيّة المعروفة مثل أبي فديك وأبي طالوت وابن بحدج وعطيّة بن الأسود الحنفي وغيرهم، وهو ما أضفى على تحركه محتوى إيديولوجيًا وجلب إلى صفوفه بقيّة خوارج شبه الجزيرة والعديد من المعارضين للحكم الأموي أو الزبيري بالإضافة إلى عناصر حنيفة التي انضمّت إلى نجدة منذ البداية.

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ١٧٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٠.
(٢) نقل هذه الرواية عبد الكريم النجم عن البلاذري. انظر: النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص ١٣٤ - ١٣٥.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٨.

لم يستنّ نجدة وأصحابه في البداية مبادىء جديدة، فكلّ ما كان يجمعهم هو تمسكهم بالمبادىء الأولى للحركة الخارجية ورفضهم ما تبنّاه نافع بن الأزرق من أحكام في خصوص القعدة والمخالفين. وقد جاء موقف نجدة وأتباعه من هذه المسائل مُطابقاً تماماً لموقف خوارج البصرة، ولذلك فإنّه لا يمكن الحديث في هذه المرحلة عن «النّجدات» كمجموعة متميّزة فكريًا عن بقيّة الخوارج باستثناء الأزارقة. إلاّ أنّ تطوّر هذه الحركة وتكثّف نشاطها أدّى إلى وقوع أحداث عديدة جعلت نجدة يُصدر أحكاماً ويتبنّى مواقف كوّنت فيما بعد المبادىء الأساسيّة لهذه المجموعة، ولعلّ أبرزها مبدأ «الجاهل معذور بجهله» السابق ذكره والذي تفرعت عنه مبادىء أخرى.

أمّا المبادىء الخارجيّة التي تبناها نجدة وأكّد التزامه بها ودفاعه عنها في الرّسالة التي بعثها إلى نافع بن الأزرق، فلا يرد في الرّوايات ما يفيد تطبيقه لها. ولعلّ عدم تشبّع نجدة بالفكر الخارجي ورغبته في تقوية حركته والسّيطرة على شبه الجزيرة بأسرع ما يمكن جعلاه لا يتقيّد كثيراً بهذا الفكر ويجتهد عند الضرورة بتبنّي مبادىء أخرى تكون أكثر ملاءمةً لواقع الحركة ومصالحها. ومن هنا جاءت مجمل أحكام نجدة ومبادئه التي ذكرناها سابقاً والتي كانت أحد أسباب ثورة الخوارج عليه. أمّا المبدأ القائل بجواز عدم وجود إمام، الذي تذكر كتب الفرق أنّ النجدات تبنّوه وتميّزوا به عن سائر الخوارج، فلا يوجد ما يشير إلى تبنّيهم له خلال الفترة المذكورة. والأرجح أنه ظهر في مرحلة متأخّرة، وقد يكون أنصار نجدة الّذين انشقوا عن أبي فديك هم الذين تبنّوه، إذْ إنّهم لم يختاروا قائداً لهم بعد مقتل زعيمهم نجدة.

أمّا على المستوى القَبَلي، فقد جمعت الحركة عناصر من قبائل مختلفة إلاّ أنّ سيطرة قبيلة حنيفة كانت واضحة. إذْ من جملة عشرين شخصاً أمكن تحديد انتمائهم القَبَلي ثمة تسعة منهم من بني حنيفة، وهو ما يجعل نسبة مشاركة هذه القبيلة تُقارب النّصف. أمّا العناصر الأخرى فهي من باقي قبائل بكر بن وائل مثل سدوس ويشكر، بالإضافة إلى عبد القيس وقيس بن ثعلبة. ولعلّ ما يلفت الانتباه هو الغياب الكلّي لقبيلة تميم التي شكّلت دائماً العمود الفقري للحركة الخارجية في العراق. إذ لم يبقَ أبناء تميم في شبه الجزيرة خارج الحركة فحسب، بل تصدّوا لها وحاربوها رغم روابط الدم التي كانت تجمعهم بنجدة، كما تصدّى لهذه الحركة أبناء قبائل أخرى مثل طيء.

ويظهر أن التنافس القبلي هو أحد الأسباب المفسِّرة لهذا الموقف. فقد رأت بعض القبائل في سيطرة الخوارج عليها مباشرة أو بواسطة دفع الصّدقات خضوعاً لقبيلة حنيفة، وهو موقف دعّمه نجدة بتصرّفاته التي كانت أقرب إلى تصرّفات شيخ قبيلة منها إلى تصرّفات زعيم سياسي. فقد قرّب أبناء حنيفة وولاّهم المناصب والقيادات العسكريّة، كما قرّب أشخاصاً لا علاقة لهم بالحركة وحاول كسب ولائهم بالأموال.

ولم تُبعد هذه التصرّفات عن الحركة بعض القبائل فحسب، بل جعلت عدد أتباعها محدوداً لم يتجاوز في أحسن الحالات ثلاثة آلاف شخص كان بعضهم لا يدين بالولاء لمبادىء الحركة بل لنجدة شخصيًّا، وهو ما جعل اللّحمة التي تجمع أفرادها ضعيفة، وسهّل بالتالي انقسامها وتشتّتها. ولعلّ تأثير العامل القَبَلي هو الّذي جعل نجدة يحيد عن المبادىء الخارجيّة بسهولة. وهنا يكمن وجه الاختلاف بينه وبين زعماء التيّارات الأخرى مثل نافع بن الأزرق وصالح بن مسرح التّميمي، زعيم خوارج الجزيرة الفراتيّة.

٣ ـ انتفاضة خوارج الجزيرة الفراتية

يُعدّ تحرّك الخوارج الذي شهدته منطقة الجزيرة الفراتيّة آخر التحركات الخارجيّة المنظّمة التي شمل نشاطها مناطق شاسعة، وتطلّب القضاء عليها مجهودات كبيرة من قبل الدّولة الإسلامية في القرن الأول هجري. وتبدو هذه الانتفاضة مختلفة عن سابقاتها، فهي لم تنبثق من وسط التكتّل الخارجي الذي تكوّن إبّان حصار مكّة في خلافة يزيد بن معاوية، كما جاء اندلاعها في فترة متأخّرة وفي ظروف سياسيّة مختلفة عن السّابقة. فقد اندلعت الانتفاضات الخارجية السّابقة زمن الفتنة، وتوسّع نشاطها نتيجة الاضطرابات والحروب التي وقعت في تلك الفترة، أمّا خوارج الجزيرة فقد اندلعت انتفاضاتهم بعد مقتل عبد الله بن الزّبير وتوحيد الإمبراطوريّة وعودة الأمويين إلى الحكم من جديد. لكن رغم هذه الاختلافات فالمتتبّع للروايات يبدو له واضحاً أنّها لم تكن منفصلة تماماً عن الأحداث السّابقة كما لم يكن اندلاعها بعيداً عن جوّ الفتنة. فالصّراع الخطير الذي كان يشقّ الأمّة الإسلامية وانتهى بمقتل ابن الزبير، المُعارض الرئيسي للأمويين، لم يمنع من تواصل النزاع المسلّح بين المسلمين خاصةً في طرفي الإمبراطوريّة الشرقي والغربي. كما أنّ لحمة الأمّة التي أضعفتها الصراعات المتواصلة لم تكن قد التئمت بعد، لذلك رأينا إدراج دراسة هذه الانتفاضة ضمن بقيّة الانتفاضات التي اندلعت ونشطت زمن الفتنة.

أمّا المصادر الخاصة بدراستها، فتكاد تقتصر على كتاب الطبري[1] الذي يضمّ روايات عديدة تحتوي على تفاصيل دقيقة وضافية عنها. غير أنّ هذه المعلومات تظلّ رغم وفرتها غير كافية للقيام بدراسة موضوعيّة ومتكاملة، وذلك لسببين على الأقلّ: **أوّلهما**، عدم اهتمامها بمختلف الجوانب وتركيزها أساساً على الوقائع العسكريّة، **وثانيهما** اعتمادها على مصدر أساسي هو أبو مخنف المعروف بكرهه للخوارج. إلاّ أنّ ما قد يحدّ من الشكّ في صدق هذه الرّوايات هو أنّ أغلبها منقول عن عناصر خارجيّة شاركت في هذه الانتفاضة. أمّا كُتُب الفرق والمقالات، فمعلوماتها عن هذه المجموعة قليلة لا تتعدّى بعض الرّوايات

(١) أخذ عن الطبري أغلب الرّواة المتأخرين، لذلك نجد الروايات نفسها بالتسلسل ذاته تقريباً في كتاب ابن الأثير، **الكامل**، ج ٤، ص ٤١ ـ ٦١، وكتاب ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٩، ص ١٠ ـ ٢٠.

المتداخلة والمتناقضة مع ما نجده في كتاب الطبري، وهو ما يجعل دراسة نشاطها يعتمد أساساً على كُتُب التاريخ العام وخصوصاً تاريخ الطبري.

إنّ أولى الرّوايات التي تتحدّث عن وجود مجموعة من الخوارج في منطقة الجزيرة الفراتيّة يوردها الطبري ضمن أحداث سنة ٧٥هـ ويذكر فيها بداية تحرّك بعض أفراد هذه المجموعة بقيادة صالح بن مسرّح[١]. إلاّ أنّ تتبّع بقيّة الروايات يثبت وجود هذه المجموعة منذ سنوات طويلة وانتماء أفرادها إلى دارا[٢] ونصيبين والموصل[٣] وغيرها من مدن الجزيرة وارتباطها بصالح بن مسرّح أحد كبار الخوارج. وإذا كانت المصادر لا تولي هذه المجموعة في حدّ ذاتها أهمية، فإنّ اهتمامها بنشاط قائدها يُساعد على تكوين فكرة عنها. فصالح بن مسرّح هو أحد زعماء الخوارج اشتهر بالزّهد والتنسّك وكثرة العبادة[٤]، وهي صفات يذكر الرّواة تميّز أغلب الخوارج بها وخصوصاً الأوائل منهم. أمّا عن نشاطه السّابق ومكانته داخل الحركة الخارجية، فلا تذكر المصادر سوى ارتباطه بخوارج الكوفة وتنقلاته المستمرّة بين هذا المصر وبقيّة مدن الجزيرة خاصةً الموصل وما حولها. ويظهر ذلك من خلال إشارة وردت على لسان أحد القادة الذين أُرسلوا للقضاء على هذه الانتفاضة يقول فيها واصفاً ابن مسرّح: «إنّه زعيم الخوارج منذ عشرين سنة»[٥]. وإذا صحّ هذا القول، فإن بروز صالح وانطلاق نشاطه يكون ما بين سنتي ٥٥ و٥٦هـ أي بعد موت والي العراق زياد بن أبي سفيان وحصول تغييرات هامة في الكوفة بسبب التعاقب السريع للولاة على هذا المصر. فقد يكون هامش الحرية الذي توفّر للخوارج في تلك الفترة مكّن صالح بن مسرّح من تكثيف نشاطه والبروز كزعيم في الكوفة والجزيرة.

صار صالح ينتقل بين الكوفة ودارا ونصيبين وماردين[٦] والموصل وغيرها ويتّصل ببعض الخوارج، «فيقرؤهم القرآن ويفقّههم ويقصّ عليهم»[٧]. وهو ما مكّنه من تكوين

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٥.

(٢) دارا: بلدة في كف جبل بين نصيبين وماردين من بلاد الجزيرة ذات بساتين ومياه جارية: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٨.

(٣) الموصل: مدينة قديمة على طرف دجلة هي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يُقصد إلى أذربيجان: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٢٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٠.

(٦) ماردين: قلعة مشهورة على قمّة جبل الجزيرة مشرفة على دارا ونصيبين: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩.

(٧) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٦.

مجموعات من الأتباع تسميهم المصادر «أصحاب صالح»[1]، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن التفافهم حوله كان لأسباب فكريّة إيديولوجيّة.

أمّا القصص التي كان صالح يقصّها على أصحابه، فيظهر من خلال ما أورده أبو مخنف[2] أنّها شبيهة بخطاب تتداخل فيه الجوانب الدينيّة والسياسيّة. ففي بدايتها نجد آيات من القرآن مصحوبة بدعاء، ثمّ تليها قراءة للأحداث السّابقة منذ ظهور الإسلام مع تركيز على فترة النبوّة وأعمال الخلفاء الأوائل وسيرتهم، وتقييم لمختلف الفترات حيث يمجّد صالح أعمال الشّيخين ويُدين تجاوزات عثمان وتحكيم عليّ الرجال في الصّراع بينه وبين معاوية ويتبرّأ منهما. وينتهي الخطاب بالتّحريض على الثّورة و«جهاد الأحزاب المتحزّبة وأيمة الضلال الظّلَمة» مع التركيز على الاستشهاد وترغيب الناس فيه.

كان صالح يجمع بهذه القصص الأنصار حوله ويعدّهم للخروج، لكنّ الأحداث التي شهدتها الدّولة الإسلامية وخصوصاً إبّان الفتنة تظهر أنّه لم يكن رغم عمله المتواصل ينتظر الفرصة المناسبة للثورة. فالوضع السياسي الذي ساد بعد موت يزيد بن معاوية وحالة الفوضى التي عرفتها الامبراطورية الإسلاميّة لم تحرّك هذه المجموعة ولم تدفعها إلى الخروج مثل المجموعات المعارضة الأخرى. ويدعو هذا الموقف إلى التّساؤل عن الأسباب الّتي جعلت صالحاً وأصحابه لا يعلنون انتفاضتهم إبّان الفتنة؟

لئن يصعب من خلال الرّوايات تقديم إجابة صحيحة ومقنعة عن هذا السّؤال، فالظّاهر أنّ صالحاً لم يكن يرى ضرورة للخروج طالما أنّ وضعية أصحابه غير مهدّدة بصورة مباشرة، وأنّ هناك إمكانية للنشاط بدون مشاكل وضغوطات. ويذكّرنا موقف صالح بن مسرّح بموقف القعدة من خوارج البصرة، مثل أبي بلال بن مرداس الذي كان يرفض الخروج ولا يراه ضرورياً رغم ظلم الولاة الأمويين واستبدادهم. إلاّ أن موقف القعود الذي تبناه صالح بن مسرّح لم يثنِهِ عن مواصلة نشاطه أثناء الفتنة وفي السنوات الأولى التي تلت عودة العراق والجزيرة إلى الحكم الأموي وإلى حدود سنة ٧٥هـ[3]، تاريخ انطلاق ثورته، وهو ما قد يفيد حصول تحوّلات دفعته إلى الخروج. فما هي هذه التحولات يا ترى؟

أ ـ أسباب تحرّك خوارج الجزيرة:

يقول أبو مخنف عن سبب الخروج: «إنّ صالحاً حجّ سنة ٧٥هـ ومعه شبيب بن يزيد وسُويد والبطين وأشباههم». وحجّ في الموسم نفسه عبد الملك بن مروان، فهمّ شبيب بالفتك به. وبلغ عبد الملك خبرهم فكتب إلى الحجّاج يأمره بطلبهم، فلمّا طلب الحجّاج

(١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١٨.
(٢) انظر محتوى هذه القصص في: تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤١.

صالحاً فرّ من الكوفة[1] وخرج بعد ذلك بقليل. ويضيف في رواية ثانية يستهلّ بها أحداث سنة ٧٦هـ سبباً آخر لخروج صالح وأصحابه، ألا وهو تفشي الجور والظلم وابتعاد الولاة الأمويين عن الحقّ[2].

وتبدو هذه الأسباب رغم أهميّتها غير كافية لتفسير قرار الخروج لأنّ طرد صالح من الكوفة ليس له تأثير كبير على نشاطه نظراً لعدم إقامته فيها ووجود أغلب أصحابه في الجزيرة. كما أنّ ما يذكره عن ظلم الولاة الأمويين وجورهم ليس جديداً إذْ عرف السّكان مثيلاً له في ولاية زياد وابنه عُبيد الله، بالإضافة إلى عدم وجود ما يفيد تعرّض الخوارج دون غيرهم لهذا الجور. ولذلك، فإنّ هذه الأسباب لا تفسّر وحدها خروج صالح وأصحابه، والأرجح أنّ هناك أسباباً أخرى.

يبدو أنّ التعديلات الإداريّة الجديدة التي أدخلها عبد الملك بن مروان على ولاية الجزيرة كانت من بين الأسباب التي دفعت الخوارج للثورة. فهذه المنطقة التي شهدت إبّان الفتنة اضطرابات خطيرة بسبب الصّراع القَبَلي الحادّ بين قيس وتغلب[3] والتحرّكات البيزنطيّة على حدودها[4]، كانت أولى المناطق التي تدخّلت السّلطة الأمويّة لإعادة تنظيمها بهدف إقرار الأمن فيها. وقد اتّخذ عبد الملك لهذا الغرض جملةً من الاجراءات أهمّها تعيين محمّد بن مروان والياً على الجزيرة مع ضمّ مدينة الموصل إلى هذه الولاية. ويرى محمد عبد الحيّ شعبان أنّ التنظيم الجديد الذي لم يعترض عليه أحد من الكوفة رفضه الخوارج لأنّه أفقدهم حريّة التحرّك في تلك المنطقة، ودفعهم بالتالي إلى اعلان الثورة ضدّ السّلطة الأمويّة[5]. ولئن ضايقت هذه الإجراءات الخوارج ومنعتهم من مواصلة نشاطهم بحريّة في منطقة الجزيرة وخاصة في الموصل، فالأكيد أنّ تعيين الحجّاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق قد زاد في تضييق الخناق عليهم ومنعهم من مواصلة الاتّصال بأصحابهم في الكوفة. فالوالي الجديد الذي عيّنه عبد الملك بن مروان خصيصاً لتنظيم العراق وإحكام السيطرة عليه كان يدرك أنّ نجاح مهمّته رهن بالسّياسة التي سيتّبعها، لذلك عمد منذ اللّحظة الأولى إلى توخّي أسلوب الشدّة والقمع إزاء كلّ المخالفين من دون استثناء لتجميد كلّ تحرّك أو نشاط للمعارضة الخارجيّة أو غيرها. والظّاهر أنّ هدف الحجّاج من وراء هذه السّياسة لم يكن تجميد نشاط المعارضين فحسب بل إخماده نهائيًا، ومن هنا جاءت مراقبته لتحرّكات

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢١٥؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج ٤، ص ٤١.
(٢) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢١٨.
(٣) انظر تفاصيل هذا الصّراع في كتاب البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٣٠٩ ـ ٣٣٢.
(٤) **المصدر نفسه**، ج ٥، ص ٣٣٥.
(٥) شعبان، **صدر الإسلام والدولة الأموية**، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

صالح بن مسرّح في الكوفة ومحاولة إلقاء القبض عليه.

ويبدو من خلال ما سبق أنّ التطوّرات التي حصلت بعد عودة الجزيرة والعراق إلى الحكم الأموي لم تكن في صالح الخوارج، وأنّ تعيين الحجّاج على رأس ولاية العراق قد زاد في تضييق الخناق عليهم، وهو ما دفعهم إلى الخروج.

سبقت عمليّة الخروج فترة إعداد قام خلالها الخوارج بأمر من زعيمهم صالح بإعلام أصحابهم في المناطق الأخرى بالقرار ودعوتهم إلى المشاركة معهم. وهو القرار عينه الذي أبلغه صالح بن مسرّح إلى شبيب بن يزيد الشيباني، أحد أصحابه المستقرين في الكوفة[1]. ويظهر من خلال الرسائل المتبادلة بين الرجلين أنّ شبيباً كان يحتلّ مكانة متميّزة داخل المجموعة، وأنّ صالحاً كان حريصاً على إبلاغه قرار الخروج واستشارته في كلّ التفاصيل الخاصة بهذه العمليّة[2]. وهذا ما يُفسر الدّور الكبير الذي سيلعبه في الفترة اللاحقة.

قدم شبيب من الكوفة إلى دارا. مقرّ إقامة صالح، ومعه جمع من أصحابه من القرّاء منهم أخوه[3] وتمّ الاتّفاق على تحديد موعد الخروج، «واجتمع بعضهم إلى بعض وتهيّأوا»[4].

كانت قيادة التحرّك لصالح بن مسرّح الذي كان يحمل لقب «أمير المؤمنين»[5]. ولئن لا تذكر المصادر شيئاً عن ظروف اختياره أميراً للمجموعة، ولا عن تاريخ ذلك، فالظاهر أنّ العمليّة لم تقع في تلك الفترة، والأرجح أنّها لم تقع أصلاً، لأنّ سنّ صالح وقِدمَ انتمائه إلى الحركة ونشاطه السّابق في الكوفة وخارجها ودوره في جمع الخوارج، كل ذلك مكّنه من احتلال مركز الزّعامة، وجعل الجميع يعتبرونه قائدهم الأول بدون منازع، وهو ما تؤكّده رسالة شبيب إلى صالح والتي يقول فيها: «كُنتَ دعوتني إلى ذلك - أي إلى الخروج - فاستجبت لك. فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك منّا أحداً»[6].

أمّا عدد الخارجين مع صالح، فتذكر الرّوايات أنّه مائة وعشرون أو مائة وعشرة[7]. ولا ندري ما إذا كان هذا العدد يُمثّل كلّ أنصار صالح في الجزيرة والكوفة أم أنّ هناك عناصر أخرى لم تُشارك في عمليّة الخروج. ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا العدد يُعتبر ضعيفاً

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٨.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١٩.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١٩..
(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١٩..
(٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١٨.
(٧) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٠.

جدًا بالمقارنة مع الوقت الطويل والمجهود الكبير الذي بذله صالح بن مسرّح في نشر المبادىء الخارجية وجمع الأنصار. ولعلّ انحصار الفكر الخارجي وعدم انتشاره على نطاق واسع في تلك المنطقة يعود إلى منافسة الفكر الشّيعي له خصوصاً في الكوفة، معقل الشيعة الأول، وفي نصيبين التي صارت بعد القضاء على ثورة المختار الثقفي المركز الرئيسي لتجمّع أنصاره الفارين من الكوفة[1].

ينتمي أغلب المشاركين في هذا التحرّك إلى قبائل ربيعة وخصوصاً إلى بني شيبان، إحدى قبائل بكر بن وائل المشهورة. وتؤكّد هذا الانتماء الروايات التي تذكر أسماء بعض العناصر وانتمائها القبلي. ويتطلّب البحث في أسباب مشاركة عناصر عديدة من ربيعة، وخاصةً من شيبان، دراسة الأوضاع الاجتماعية والقَبَليّة لهذه العناصر، وهو ما يصعب إنجازه بالاعتماد على ما توفّره المصادر لدينا من معلومات. كما لا تفيدنا دراسة أوضاع هذه القبائل في التعرّف على أسباب انضمام هذه العناصر، لأنّها ستمكّننا من التوصّل إلى استنتاجات عامّة لا تهمّ الخوارج فحسب بل كلّ المنتمين إلى تلك القبائل وأغلب هؤلاء لم ينضمّوا إلى الحركة في تلك الفترة بل إنّ بعضهم وقف ضدّها وحاربها.

ب ـ انطلاق الانتفاضة وامتداد مجال تحرّكات الخوارج بين العراق والجزيرة:

تحرّك الخوارج في الموعد المحدّد، وكان أوّل عمل قامت به المجموعة هو مهاجمة دواب والي الجزيرة محمد بن مروان والاستيلاء عليها[2]. وإذا كان الهدف من هذه العمليّة حسب ما ورد على لسان صالح بن مسرّح هو تمكين الخوارج من دواب «ليقوموا بها على عدوّهم لأنّ معظمهم كان من الرّجالة»[3]، فإنها تؤكّد في الوقت نفسه أنّ السّلطة هي العدّو الأول للخوارج وأنّ هناك تصميماً على مواجهتها.

وجاء ردّ فعل الوالي سريعاً على هذه العمليّة إذْ أرسل جيشاً بقيادة عدي بن عدي بن عميرة الكندي قوامه ألف رجل[4]. ويظهر من خلال الرّوايات أنّ محمد بن مروان كان في البداية مستخفًا بأمر هذه المجموعة لقلّة عدد أفرادها، لكن الهزيمة النّكراء التي ألحقها الخوارج بهذا الجيش جعلته يُعطي المسألة أهميّة أكبر ويُرسل جيشاً آخر يعدّ ثلاثة آلاف رجل[5]. ولم يتمكّن هذا الجيش رغم تفوّقه العددي من إلحاق الهزيمة بالخوارج، لكن عنف القتال وسقوط عدد كبير من الضحايا دفعا أنصار صالح إلى الانسحاب من الجزيرة

(١) وداد القاضي، الكيسانية في التّاريخ والأدب، ص ١٤٠.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٠.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٠.
(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢١.

والتوجّه إلى الدّسكرة[1]. وبدخول الخوارج أراضي العراق صار أمر مواجهتهم من مهمات واليه الحجاج بن يوسف[2].

كان أوّل جيش جهّزه الحجّاج للخوارج هو جيش الحارث بن عميرة الهمداني[3]. وقد التقى في قرية المدبّج بين الموصل وجوخى حيث وقعت معركة كبيرة انتهت بهزيمة الخوارج ومقتل زعيمهم صالح بن مسرّح وفرار البقيّة إلى حصن في المنطقة وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٦هـ[4].

لم تكن هذه الهزيمة عائقاً أمام مواصلة الخوارج للثّورة، فقد تمكّنت العناصر المتبقيّة من إعادة تنظيم صفوفها بسرعة كبيرة والعودة إلى المواجهة من جديد بزعامة شبيب بن يزيد الشيباني.

كان اختيار شبيب مباشرةً بعد الهزيمة. ويذكر أبو مخنف أن شبيباً هو الذي اقترح على أصحابه تولية قائد جديد لمواصلة التحرّك، فكان اتّفاقهم على البيعة له[5]. ولا يرد في الرّواية ما يدلّ على وجود اتّفاق مسبق بين الخوارج على اختيار شبيب لهذا المنصب. كما أنّ البيعة له لم تثر رُدود فعل داخل المجموعة، لكن بعض الرّواة الذين تعرّضوا لهذه المسألة أكّدوا أنّ صالح بن مسرّح هو الّذي استخلف شبيباً قبل موته، وأنّ مبايعته لم تكن سوى تنفيذ لهذا القرار. ويذكر البغدادي أنّ صالحاً أعلم أصحابه بذلك قبل موته وبرّره بقوله: «أعلم أنّ فيكم من هو أفقه منه، لكنّه رجل شجاع مهيب في عدوّكم، فليعنه الفقيه منكم بفقهه. ثمّ مات»[6].

وسواء حدثت عمليّة الاستخلاف أم لم تحدث، فالأكيد أنّ وصول شبيب إلى مركز القيادة كان أمراً متوقّعاً، فهو يتمتّع بمكانة متميّزة داخل الحركة جعلته من أقرب المقرّبين لصالح بن مسرّح يستشيره ويعتمد على آرائه. ويظهر هذا بوضوح من خلال الرّسائل التي بعث بها إليه قبل الخروج إذ يقول له في إحداها: «لم يمنعني من الخروج الاّ انتظارك، فاقبل إلينا، ثمّ اخرج بنا متى ما أحببت، فإنّك ممّن لا يُستغنى عن رأيه ولا تقضى الأمور

(١) الدّسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر الملك من غربي بغداد: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥٥.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٣.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٢٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٤؛ ابن كثير، البداية والنّهاية، ج ٩، ص ١٣.
(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٧٦.

دونه»[١]. لكن العلاقة المتينة التي تربط الرّجلين لم تكن السّبب الوحيد في اختيار شبيب على رأس الحركة، فالواضح أنّ مقدرته العسكرية الفائقة كان لها دور في هذا الاختيار، وهو ما يذكره صالح في الرواية التي ينقلها البغدادي وتؤكّده أعمال شبيب بعد تولّيه قيادة الحركة.

انتقل شبيب بعد حصوله على البيعة إلى أرض الموصل. وهناك انضمّت إلى صفوفه عناصر جديدة من بكر بن وائل، كما دعا صاحبه وهو سلامة بن سيّار الشيباني إلى الانضمام إلى التحرّك. وقد قبل هذا الأخير شريطة أن يساعده ببعض الرجال يُغير بهم على أخواله بني عنزة انتقاماً منهم لقتلهم أخاه فضّالة الذي ثار قبل ذلك وكان من كبار الخوارج[٢]. كما أغار شبيب بدوره على بني تيم بن شيبان عشيرته، فقتل ثلاثين من شيوخهم وحمل أمّه لتكون معه في جيشه[٣]. ولا تذكر المصادر سبب هذه الغارات، والظاهر أنّ انتقام شبيب من عشيرته يعود إلى موقفها المعادي للخوارج، وهو ما تؤكّده الروايات الّتي تتحدّث عن غارات مماثلة قام بها في فترة متأخّرة[٤]. بعد هذه الترتيبات الدّاخليّة استأنف شبيب تحرّكاته في منطقتَيْ العراق والجزيرة، فكان يغير على المناطق التي يمرّ بها، فينهب دور المال ويكسر الخراج ويأخذ الدّواب[٥] وينتقل بسرعة كبيرة من منطقة إلى أخرى. وكان الحجّاج حريصاً على القضاء على هذا التمرّد بأسرع ما يُمكن، لكن العمليّة لم تكن سهلة لأنّ شبيباً كان رغم ضعف عدد أصحابه يملك قدرة فائقة على القتال، ولذلك ألحق بكلّ الجيوش التي أُرسلت إليه هزائم نكراء.

ويذكر أبو مخنف كلّ التفاصيل عن المعارك التي دارت بين الخوارج وجيوش الكوفة. ومن خلالها يبدو واضحاً أنّ شبيباً كان بالإضافة إلى شجاعته الكبيرة يتمتّع بكفاءة عسكريّة خصوصاً في الحروب الخاطفة التي تعتمد التنقّل السّريع من مكان إلى آخر وضرب العدو في الوقت المناسب. ويُعدّ الأسلوب الذي اعتمده شبيب الأفضل بالنسبة إلى هذه المجموعة نظراً لقلّة عددها وعدم قدرتها على مواجهة جيوش ضخمة في معارك تقليدية تعتمد التنظيم المعروف للجيوش.

ويبدو أنّ معرفة شبيب بجغرافيّة المنطقة التي اكتسبها خلال مشاركته في المغازي[٦]

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٩.

(٢) يذكر أبو مخنف قيام بعض الخوارج بتحرّك في الجزيرة قبل سنة ٧٥هـ قاده فضالة بن سيّار الشيباني وقمعه السكان وقتلوا قائده تقرّباً من عبد الملك بن مروان، إلاّ أنّه لا يذكر أية صلة لهذا التحرّك بصالح بن مسرّح وأصحابه: تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، ٢٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٤.

كانت عاملاً مساعداً له في اختيار مواقع القتال المناسبة بحيث يصعب على أعدائه كسب المعركة. كما كان يفرّ أمام الجيوش ويُجبرها على ملاحقته في مسالك وعرة حتّى يرهقها فتصبح غير قادرة على المواجهة. وهو ما قام به خاصة مع الجيش الذي كان يقوده عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث(1).

وكان شبيب إلى جانب اتقانه فنون القتال يتقن الحرب النفسيّة فيعمد إلى إنهاك المقاتلة حتّى يحطّم معنوياتهم، كما كان يلجأ إلى الصياح بقوّة أثناء المعارك ويأمر أصحابه بذلك فيُربك الأعداء ويُفزعهم ويدفعهم إلى الفرار بدون قتال. وقد وصف أحد شعراء الخوارج هذه الصيحة بقوله:

إذا صَاحَ يَوْماً حَسِبت الصّخرَ مُنْحدراً   والريّح عاصِفةٌ والمَوْجُ يَلتَطِمُ(2)

ولم يكتفِ شبيب بشنّ غاراته على البوادي والتجمّعات السكنيّة الصّغيرة بل حاول دخول الكوفة وتمكّن من ذلك في مناسبتين. وقد ذكر جلّ الرّواة عمليّة دخوله في المرّة الأولى واعتبروها من أبرز الأحداث التي وقعت في سنة ٧٦هـ وسردوا تفاصيلها بدقّة(3)، كما خلّدها شعراء الخوارج(4) وغيرهم(5). ويعود التّركيز على هذا الحدث إلى وقوعه في وقت كان فيه الحجّاج يسلّط على العراقيين أقصى أنواع القمع ويُحاول أن يثبت لهم قدرته على قطع دابر كلّ من يحاول التمرّد على سلطته، لذلك بدت لهم عمليّة دخول هذه المجموعة الكوفة في حضوره وقيام أفرادها بعمليات قتل للمصلّين وغيرهم قمّة التحدّي لا للسّلطة في حدّ ذاتها بل للحجّاج شخصيّاً. ويبدو أنّ كره العراقيين لهذا الوالي هو الذي جعلهم يولون الحادثة كلّ هذه الأهميّة، ولا نستبعد أن تكون بعض التفاصيل قد تمّت إضافتها أو تفخيمها خصوصاً تلك التي تصوّر جبن الحجّاج وخوفه الشّديد من غزالة زوجة شبيب التي تُظهرها في قمّة الشجاعة.

أمّا سبب دخول شبيب الكوفة، فهو حسب الرّوايات تمكين غزالة من الإيفاء بنذر كانت نذرته على نفسها وهو الصلاة في مسجد الكوفة وقراءة سورتَيْ البقرة وآل عمران

(1) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٣٣ - ٢٥١.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٢٩.

(3) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٤٠ - ٢٤٢؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٦ - ٣٤٧؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٩، ج ٢، ص ٤٥٤.

(4) يقول عمران بن حطان السّدوسي مخاطباً الحجّاج:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة   فتخاء من صفير الصّافر

(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٥).

(5) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٤.

فيه[1]. لكن يبدو أنّه لم يكن السّبب الحقيقي لهذه العمليّة، والدليل على ذلك أنّ شبيباً حاول مرّات أخرى دخول الكوفة، وقد تمكّن من الإقامة في أحوازها في الفترة الأخيرة من تحرّكه حيث بنى مسجداً يحمل اسمه[2].

ويدفعنا هذا الاستنتاج إلى البحث عن الدوافع الحقيقيّة لهذه الأعمال. فهل كان شبيب يريد الاستيلاء على الكوفة للإقامة مع أصحابه فيها؟ أم كان يريد تحدّي الحجّاج وإظهار عجزه فقط؟

يبدو أنّ فكرة الاستيلاء على الكوفة كانت تراود شبيباً، إذ يذكر أبو مخنف في إحدى رواياته أنّ الحجاج جهّز جيشاً كبيراً عليه مجموعة من الأمراء لمحاربة الخوارج في وقت كان فيه جيش آخر يُحاربهم. ولمّا هزم شبيب الجيش الأول قال لأصحابه: «إنّ هزيمتنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأمراء والجنود التي بُعثت في طلبكم، فاقصدوا بنا قصدهم. فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون الحجّاج من شيء وأخذ الكوفة إن شاء الله»[3].

لكن تحقيق هذا الهدف لم يكن سهلاً، فشبيب لا يستطيع عمليًا السّيطرة على هذا المصر والبقاء فيه بهذه المجموعة الصغيرة من المقاتلة لأنّ ذلك يتطلب قوّة ماديّة وبشريّة قادرة على الدفاع عن هذا المركز والتصدّي للجيوش الكبيرة، وهو ما كان يفتقده شبيب وكان بسببه دائم التنقّل، هذا بالإضافة إلى عداء الخوارج الكبير للمدن وحرصهم على الخروج منها والقيام بتحرّكاتهم بعيداً عنها. وقد ظهر ذلك في انتفاضاتهم السّابقة وخصوصاً انتفاضة الأزارقة التي حاصر الخوارج خلالها البصرة عدّة مرّات وكان بإمكانهم دخولها والسّيطرة عليها لكنهم أحجموا عن ذلك. وهذا ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأنّ شبيباً كان حريصاً على دخول الكوفة لا للبقاء فيها وإنما لتحدّي الحجّاج وإظهار عجزه وربّما للإغارة كذلك على هذه المدينة لأنّها رمز السّلطة والتسلّط.

كانت الانتصارات المتتالية التي حقّقها الخوارج على الجيوش العديدة التي كوّنها الحجّاج قد جعلتهم مصدر خوف ورعب للجميع. فقد كان المقاتلة الذين يُرسلون إليهم كثيراً ما يصيبهم الفزع والهلع قبل المواجهة، «فيقبلون نحو شبيب وكأنّما يساقون إلى الموت»[4]. وقد بلغ الخوف بهم حدًّا جعل مقاتلة أحد هذه الجيوش يفرّون من المدائن إلى الكوفة بمجرّد سماعهم خبر قدوم شبيب الذي كان في تكريت[5] بعيداً عن المدائن[6].

---

(١) المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٣، ص ٣٤٧؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٢، ص ٤٥٤.
(٢) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٦٩.
(٣) **المصدر نفسه**، ج ٦، ص ٢٤٤.
(٤) **المصدر نفسه**، ج ٦، ص ٢٢٠ ـ ٢٣٦.
(٥) تكريت: بلدة مشهورة تقع بين بغداد والموصل: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج ٢، ص ٣٨.
(٦) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٣٠.

وأصاب الشعور نفسه بقيّة السكان الذين صاروا يتحصّنون ويحتمون كلما بلغهم خبر قدوم الخوارج. ويظهر أنّ أعمال شبيب أدّت كذلك إلى اضطراب الحركة التجارية بسبب إحجام التجّار عن ارتياد أسواق المناطق التي يُمكن أن يمرّ منها الخوارج. وهو ما جعل شبيباً يبعث إلى أهل سوق في بغداد فيؤمّنهم «لأنه بلغه أنّهم يخافونه فأحبّ أن يؤمّنهم لأن أصحابه يريدون أن يشتروا من السّوق دواباً وثياباً وأشياء أخرى»[1]. ولا تذكر الرّوايات أسباب خوف السكّان من الخوارج، وتؤكّد أنّ شبيباً وأصحابه لم يقوموا طيلة تحرّكهم بعمليات استعراض أو قتل كما فعل الأزارقة. وباستثناء ما حدث في الكوفة من قتلٍ لبعض المصلّين، فإنّ أصحاب شبيب لم يقتلوا من السكان إلاّ من تجنّد لمحاربتهم. ويبدو أن الغارات السّابقة على بني تيم بن شيبان كانت سبب فزعهم وخوفهم، كما قد تكون أعمال العنف التي قام بها الأزارقة في السنوات السابقة في تلك المنطقة وخصوصاً في المدائن قد أثّرت بدورها عليهم. وعموماً، فقد زرعت أعمال الخوارج الفوضى ونشرت الرّعب في صفوف السكّان، لذلك قرّر الحجاج تجنيد كلّ الوسائل لإنهاء الانتفاضة.

ج ـ هزيمة الخوارج ونهاية الانتفاضة:

كان أوّل عمل قام به الحجّاج هو الاستنجاد بالجيش الشامي، فقد كتب إلى عبد الملك بن مروان يقول: «أمّا بعد فإني أخبر أمير المؤمنين أنّ شبيباً قد شارف المدائن وإنّما يريد الكوفة. وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة في كلّها يقتل أمراءهم ويفلّ جنودهم. فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليّ أهل الشام فيقاتلوا عدوّهم ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام»[2]. ولم تكن عمليّة استخدام القوات الشاميّة لقمع التّحركات المناهضة للدّولة خارج الشام من ابتكار الحجّاج، فقد سبقه إليها يزيد بن معاوية إبّان ثورة سكّان المدينة، لكنّها ستصبح بعد عودة الأمويين إلى الحكم تقليداً يتكرّر باستمرار، وسيكون العراق أكثر الأقاليم التي سيتدخّل فيها الجيش الشامي نظراً لتصاعد المعارضة وتعدّد التّحركات فيه.

ولم يمنع انتظار قدوم الجيش الشامي الحجّاج من مواصلة مجهوداته السّابقة لإخماد هذه الانتفاضة[3]. فرغم أن شبيباً أوقف كلّ عملياته العسكرية بسبب الحرّ[4]، فإن الحجّاج كثّف نشاطه وأعدّ جيشاً جديداً لمواجهة الخوارج عند عودتهم جمع فيه كل مقاتلة الكوفة وعيّن على رأسه أحد قادتها البارزين وهو عتّاب بن ورقاء الرّياحي الذي شارك مع المهلّب

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥٩.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥٧.

في حرب الأزارقة. ويذكر أبو مخنف أنّ هذا الجيش كان يعدّ أربعين ألفاً من المقاتلة وعشرة آلاف من الشباب[1]. ولم يدعْ الحجّاج قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب إلاّ أخرجه[2]. هدفه من ذلك ضمان أوفر الحظوظ لتحقيق الانتصار، لأنّ الأشراف إضافةً إلى تأثيرهم المعنوي على المقاتلة كانوا يستحيون من الفرار وإذا ثبتوا ثبت معهم رجال من قبائلهم. إلاّ أنّ كل هذه التّدابير والاحتياطات لم تمنع وقوع الهزيمة، فقد تمكّن شبيب من قتل عتّاب بن ورقاء وعدد كبير من المقاتلة في حين فرّت المجموعة المتبقّية[3]. ويؤكد انتصار الخوارج على هذا الجيش الضّخم مدى ضعف الجيش الإسلامي وتغيّر عقليّة المقاتل العربي الذي فقد الحماس والاستماتة في الدفاع عن الدولة.

وقصد شبيب بعد هذا الانتصار الكوفة، فنزل قرب السّبخة وأقام بجيشه. ولم يُخرج الحجاج رغم ذلك الجيش الشّامي، بل عمد إلى تكوين مجموعات صغيرة من مواليه وغلمانه وشرطته وأرسلهم لمحاربة شبيب[4]. وقد تمكّن الخوارج من الانتصار عليها بسهولة، ويبدو أنّ الحجاج أراد من خلال هذه المعارك الصغيرة إرهاق جيش شبيب في انتظار المعركة الكبرى التي سيخوضها الجيش الشّامي.

كان الحجّاج يُدرك أهميّة هذه المعركة ويعرف أنّها ستكون حاسمة إذ على نتيجتها يتوقّف مصير هذا المصر وما حوله. فانتصار شبيب سيؤدّي إلى سيطرة الخوارج على الكوفة والمناطق المحيطة بها بعد سيطرتهم على المدائن، إحدى أهمّ المدن القريبة منها[5]، وسيجعل من الصّعب على الدولة القضاء على هذه الانتفاضة خصوصاً وأنّ انتفاضات أخرى كانت ما زالت تهزّ مناطق قريبة وتستنزف ثرواتها المادية والبشريّة. لذلك حرص الحجّاج على ضمان أوفر حظوظ الانتصار، فقرّر قيادة المعركة بنفسه، كما قرّر دعم الجيش الشامي بمجموعة من الكوفيين لم تشهد المعارك السابقة عيّن عليها خالد بن عتّاب بن ورقاء الرّياحي[6].

ويختلف الرّواة في سرد وقائع هذه المعركة وتفاصيلها، فأبو مخنف يتحدّث عن قيام الجيش الشامي بهجومات كبيرة لم يستطع الخوارج الصّمود أمامها، كما يتحدّث عن هجوم مفاجىء قام به خالد بن عتّاب من خلف عسكر الخوارج أدّى إلى مقتل مصّاد أخي شبيب وغزالة زوجته وحسم المعركة لصالح الحجّاج[7]. في حين لا يذكر عمر بن شبّة أيّ دور

(١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٦٢.
(٣) انظر تفاصيل هذه المعركة في: تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٥) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٦٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٦) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٧٥.
(٧) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

للجيش الشامي في العمليات العسكرية، ويركّز في المقابل على دور الكوفيين بقيادة خالد بن عتّاب. ورغم ما يظهره الرّواة العراقيون من حرص على التقليل من دور الجيش الشامي، فإنّنا لا نشك في أنّه كان حاسماً في تحقيق الانتصار. وأمّا عن سير المعركة، فيذكر أنّها كانت في البداية لصالح شبيب، لكن حدوث خلاف مفاجىء بينه وبين أحد أصحابه أدّى إلى تفرّق جيشه وتسبّب بالتالي في هزيمته[1].

وأعطى الحجّاج بعد الهزيمة الأمان لكلّ من قدم إليه من الخوارج، كما طلب من عمّاله أن يقوموا بذلك»[2]. فكان كلّ من ليست له تلك البصيرة ممّن قد هدّه القتال يجيء فيؤمّن»[3]. وبذلك لم يبقَ مع شبيب سوى بعض أصحابه الموالين له والمقتنعين بمبادىء الحركة وبضرورة مواصلة هذه الانتفاضة حتى النصر أو الاستشهاد.

وأرسل الحجّاج في أثر هذه المجموعة المتبقيّة حبيب بن عبد الرحمن الحكمي في ثلاثة آلاف من أهل الشّام[4]. والتقى الطرفان في الأنبار، لكن شدّة التّعب وكثرة الجراح حالت دون تمكّن أيّ طرف من تحقيق الانتصار، لذلك عاد حبيب بن عبد الرحمن إلى الكوفة في حين قطع شبيب أرض جوخى في اتجاه الأهواز ومنها انتقل إلى فارس ثمّ إلى كرمان[5].

ويعود اختيار شبيب الالتحاق بكرمان على ما يبدو إلى بُعد هذه المنطقة عن جيوش الحجّاج وإلى عدم خضوعها لسلطة الدّولة آنذاك نظراً لسيطرة الأزارقة عليها. لكن رغم وجود شبيب في كرمان وحالة الضّعف التي كان عليها جيشه، فإنّه لم يحاول الاتصال بالأزارقة ولم يحرصْ على التّحالف معهم كما فعل مع المطرّف بن المغيرة بن شعبة، عامل الحجّاج على المدائن وأحد الخارجين على السّلطة الأمويّة آنذاك[6].

والظاهر أنّ الخلافات الايديولوجية هي التي حالت دون التفكير في التّقارب، كما حالت من قبل دون تقارب الأزارقة والنّجدات وجعلت التنسيق بين المجموعات الخارجيّة منعدماً، وساعدت بالتالي الدولة في القضاء على ثوراتهم رغم قوّتها وعنفها، وكانت أحد مواطن الضّعف الرئيسيّة في العمل السّياسي للخوارج.

---

(١) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٧٧.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٧٧.
(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٦) حاول شبيب إقامة تحالف مع المطرّف بن المغيرة الذي أعلن ثورته على الحجاج، وجرت اتصالات بين الطرفين لهذا الغرض انتهت بحصول خلاف بسبب إصرار المطرّف على إبقاء الشورى في قريش ورفض شبيب ذلك. انظر التفاصيل الكاملة لهذه الاتصالات في: **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

دامت إقامة شبيب وأصحابه في كرمان حوالى شهرين تمكّنوا خلالها من مداواة جراحهم واسترجاع قوّتهم ثمّ اقبلوا عائدين[1]. وعند وصولهم الأهواز اعترضهم الجيش الشامي بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي وجيش بصري يعدّ أربعة آلاف مقاتل[2]. ودارت بين الطرفين معركة عنيفة استمرّت حتّى المساء لم يتمكّن خلالها أيّ طرف من تحقيق الانتصار، لذلك قرّر شبيب عبور جسر دجيل إلى الضفّة الأخرى في انتظار استئناف القتال في اليوم التالي، ولكن حصانه تدحرج فسقط في النّهر وغرق وكانت نهاية الانتفاضة.

ويختلف الرّواة في تحديد أسباب حادث غرق شبيب وخلفياته. فأمّا أبو مخنف فيقدّم روايتين مختلفتين تفيد الأولى أنّ سقوطه كان ناتجاً عن جفل حصانه بسبب وجود فرس أمامه[3]، في حين تجعل الثانية قطع الجسر من قبل مجموعة من أتباعه من بني شيبان أرادوا الثأر منه لقتله رجالاً من عشائرهم سبباً لسقوطه في النهر[4] ويميل أبو مخنف إلى تصديق الرواية الأولى لأنّ مصدرها شخصان شهدا الحادثة، أحدهما من الجيش الشامي والثاني من أتباع شبيب. ويؤكّد شكّه في صحّة الرواية الثانية باستعمال لفظة «زعموا»، وينهيها بقوله: «وناسٌ من رهط شبيب يذكرون هذا - أي قطع الجسر - أمّا حديث العامة فالحديث الأول»[5].

أمّا بقيّة الرّواة، فمنهم من ذكر الحادثة من دون الإشارة إلى وجود مؤامرة[6]، ومنهم من نسب عمليّة قطع الجسر إلى الجيش الشامي[7]. وقد انعكس اختلاف الرّواة على الدّراسات، إذ رأى فلهوزن أنّ الرّواية الّتي تتحدثّ عن وجود مؤامرة أقرب إلى التصديق من الرواية الأسطورية التي تزعم أن الحصان نفر لوجود فرس أمامه، ويعلّل رأيه بوجود خلافات داخل المجموعة بين شبيب وبعض أصحابه[8]. أمّا نايف معروف فقد مال إلى تصديق الرواية الأولى التي تعتبر موته مجرّد حادث لا دخل لأحدٍ فيه[9].

ولئن يبدو البتّ في هذه المسألة من الأمور الصّعبة، فإنّنا لا نشكّ في أنّ الخلافات

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٧٩؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢٧٤.
(٢) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٧٩.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٠.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨١.
(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨١.
(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٧؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢٧٥؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٥.
(٧) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٧٥.
(٨) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص ٩٨.
(٩) نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٦٨.

التي كانت تعرفها الحركة قد أثّرت على مصير الانتفاضة ومصير شيبان كذلك. فما هي أسباب هذه الخلافات؟ وما تأثيرها على الانتفاضة؟

يرد الحديث عن الخلافات داخل المجموعة في كُتُب التاريخ العام في رواية واحدة ينقلها الطبري عن ابن شبّة يذكر فيها أنّه أثناء المعركة التي دارت في الكوفة برز أحد الخوارج، وهو مصقلة بن المهلهل الضبّي، وأخذ بلجام دابّة شبيب وسأله عن موقفه من صالح بن مسرّح وبما يشهد عليه. ورغم أنّ شبيباً استنكر ما قام به مصقلة في هذا الظرف الدقيق، فإنّه لم يجد مفراً من إجابته بإعلان براءته من صالح. وكان هذا سبباً في انسحاب مصقلة وعددٍ من الخوارج بحيث لم يبقَ مع شبيب سوى أربعين نفراً تمكّنت جيوش الحجّاج من إلحاق الهزيمة بهم[1].

وتبرز هذه الرّواية رغم اقتضابها أمرين هامّين: **أوّلهما** امتداد جذور الخلاف في الفترة السابقة؛ **وثانيهما** تمحوره حول شخص صالح بن مسرّح. إلاّ إهمالها ذكر الأسباب الّتي تقف وراء هذا الخلاف جعله غامضاً في تاريخ الطبري وفي جلّ مصادر التاريخ العام. ولعلّ كتاب الأشعري هو المصدر الوحيد الذي تعرّض لمجمل الوقائع الخاصة به.

يذكر الأشعري عند حديثه عن صالح بن مسرّح أنّ بعض الخوارج من أصحابه نقموا عليه لأعمال قام بها، منها قتله رجلاً جاء ينظر إلى عسكره رغم ادعائه بأنّه مسلم، وعدم استتابته لرجل من الخوارج قال لصاحبه «يا عدو الله»، وأخيراً احتباسه من الغنائم حصاناً كان أصحابه يقترعون إذا أرادوا ركوبه. وقد تبرأت هذه المجموعة من صالح ورجعت عنه ولذلك سمّي أتباعها «الرّاجعة»[2].

وإذا كان الأشعري لا يوضّح تأثير هذا الخلاف على الحركة، فإنه يذكر أنّ أكثر الخوارج صوّبوا رأي صالح كما عاد الرّاجعة بدورهم إلى قوله وصوّبوه، وهو ما يفيد عدم حصول انقسام في صفوف المجموعة. وقد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلت المصادر تهمل ذكره وإنْ كان الطبري قد أشار إلى انفصال طائفة من الخوارج عن شبيب بعد موت صالح، غير أنّ شدّة اقتضاب روايته جعلها غير واضحة[3].

ولعلّ اللافت للانتباه في هذه المسألة هو موقف الحياد المنسوب لشبيب والذي عبّر عنه بقوله: «لا ندري ما حكم به صالح كان حقاً أم باطلاً»[4]. وقد يعود هذا الموقف إلى رغبة شبيب في الحفاظ على وحدة المجموعة وتجنّب حصول تصدّع داخلها خصوصاً وأنها

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٧٥.
(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٢٣.
(٣) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٢٠.
(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٢٣.

كانت في حالة مواجهة مع العدوّ، غير أنّ الحرص على وحدة الصفّ لم يمنع على ما يبدو من بقاء الخلاف كامناً إلى حدود معركة الكوفة حيث فجّره مصقلة بن المهلهل الضّبي أثناء القتال فتسبّب في إضعاف الخوارج وسهّل هزيمتهم. وقد فسّر فلهوزن سبب إحياء مصقلة الخلاف في تلك اللّحظة بالحقد والحسد الذي كان يشعر به بعض الخوارج من أمثال مصقلة تجاه شبيب بسبب انتصاراته المتتالية وتفوّق شخصيّته[١].

غير أنّ انسحاب المهلهل ومن معه لم يكن السّبب الوحيد للهزيمة. فانضمام عناصر جديدة إلى صفوف الخوارج غير مقتنعة بالفكر الخارجي وغير متحمّسة للقتال[٢]، وضخامة الجيش الذي جنّده الحجّاج، ووقوع المعركة في مكان غير ملائم بالنّسبة للخوارج، كل ذلك ساهم بدوره في وقوع هزيمة الكوفة التي مهّدت الطريق للقضاء على الانتفاضة. أمّا غرق شبيب فلا نستبعد أن تكون الخلافات داخل الحركة قد لعبت دوراً في دفع بعض العناصر إلى تدبير العمليّة.

يجرّنا الحديث عن الخلاف داخل هذه الحركة إلى البحث عن علاقته بالتّسميات التي تطلقها بعض المصادر على أتباعها مثل «الصالحيّة» و«الشبيبيّة»[٣]، وصلة هذه التّسميات بالتيّار الصّفري الذي ينسبها بعض الرواة إليه[٤]. يتطلب إلقاء الضوء على هذه المسائل البحث في الانتماء الفكري لهذه الحركة والمضامين الأيديولوجيّة لمختلف التسميات التي أطلقت على أتباعها. وهي عمليّة تكتسي بعض الصعوبة بسبب طبيعة المادة المتوافرة في المصادر، إذ لا تقدّم كُتُب التاريخ العام معلومات كثيرة عن هذا الجانب سوى ذكر بعضها انتماء صالح إلى المذهب الصّفري. في حين لا تذكر كُتُب الفرق والمقالات ـ التي تصنّف الخوارج حسب مبادئهم ـ جماعة صالح وشبيب ضمن أيّة فرقة من الفرق الخارجيّة المعروفة، بل يؤكد بعضها أنّ صالحاً لم يحدث قولاً تفرّد به وأنّه لا مذهب له.[٥] إلاّ أنها تشير إلى أنّ هناك من ينسبه إلى الصّفريّة، مؤكّدة في الوقت ذاته أنّه لم يكن صفرياً ولا أزرقياً.[٦] ويذهب الشهرستاني إلى القول إنّ شبيباً كان بيهسياً.[٧] وهذه المصادر هي التي

(١) فلهوزن، **أحزاب المعارضة**، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) يقول أبو مخنف إنّ شبيباً لما أوقف العمليات العسكرية في فصل الصّيف أتاه أناس كثيرون ممّن يطلبون الدّنيا حتى صار عدد من معه نحواً من ثمانمائة رجل ثم ارتفع ليصل إلى ألف بعد دخول الخوارج المدائن: **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢.

(٣) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٧٥؛ الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص ١٢٣.

(٤) **تاريخ الطبري**، ج ٦، ص ٢١٥.

(٥) الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص ١١٨؛ الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ١، ص ١٧٢.

(٦) البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٧٥.

(٧) الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ١، ص ١٧٢.

تطلق على أتباع الحركة اسم «الصّالحيّة» أحياناً و«الشبيبيّة» أحياناً أخرى. ويدفعنا هذا التّداخل الكبير في تحديد هويّة الحركة والتّسميات المختلفة التي تطلق على أتباعها إلى البحث عن المبادىء الأساسيّة الّتي قامت عليها من خلال تتبع أقوال زعمائها وأفعالهم وخصوصاً صالح بن مسرّح.

لقد ركّز صالح بن مسرّح في قصصه على مبدأ أساسي هو الخروج للجهاد[1]، وهو مبدأ نادى به كلّ الخوارج وعليه قامت حركتهم ومنه استمدّت أبرز أسمائها. كما دعا شبيب إلى تطبيق مبدأ الشّورى الموسعة في اختيار الخلفاء[2] لمّا أراد الدُخول في حلف مع المطرّف بن المغيرة، أحد الثائرين على الحجّاج.

وبالإضافة إلى هذين المبدأين، ثمة إشارات تخصّ موقف صالح من المخالفين. فهو يكفّرهم مثل سائر الخوارج، لكنّه حريص على حُسن معاملتهم. فقد ألحّ على أصحابه بضرورة دعوتهم قبل القتال وعدم محاربة من لا يحاربهم منهم حتّى يكونوا بذلك مثالاً للانضباط والاستقامة والتّسامح[3]. وقد طبّق شبيب أقوال صالح بعد تولّيه قيادة الحركة، فكان يُطلق سراح الأسرى بمجرد قولهم: «لا حُكم إلاّ لله»[4]، ويلحّ على الرافضين منهم الاستجابة لطلبه حتّى يتجنّب قتلهم[5]. ولم يكن عنيفاً مع المخالفين سوى مرّات معدودات[6]، كما عامل أهل الذّمة معاملة حسنة[7]. ولذلك يمكن القول إنّ مبادىء هذه المجموعة منسجمة تماماً مع المبادىء الأولى للحركة الخارجية، وإنْ كان زعيمها أكثر ليناً وتسامحاً من أسلافه. ولعلّ صفات صالح الشخصية وتجربته السّابقة والأوضاع السائدة في تلك الفترة هي التي ساهمت في اعتدال مواقفه.

ويتنافى هذا الاستنتاج مع ما تذكره بعض المصادر عن انتماء هذه الحركة إلى الصّفرية، لأنّ مقارنة مبادئها بتلك التي تُنسب في كتب الفرق إلى هذا التيّار تظهر بوضوح الاختلاف بينهما. كما لا نجد في المصادر التي أوردت أسماء كبار زعمائه ذكراً لصالح أو

(١) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢١٧.
(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٠.
(٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٥.
(٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٤٣.
(٦) لا تذكر المصادر عمليات قتل قام بها شبيب سوى الهجومين اللذين قام بهما على أبناء عشيرته. وقد وصف الملطي سيرة شبيب بقوله: «كان لا يقتل أحداً ولا يسبي ولا يستحلّ شيئاً ممّا حرّم الله إلاّ ما يستحلّ من الحجّاج وأصحابه»: الملطي، التنبيه والردّ، ص ٤١.
(٧) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٥٢.

شبيب[1]، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأنّ حركة صالح بن مسرّح ليست سوى حركة خارجية عادية لا علاقة لها بالمذهب الصّفري. وأقرب الظن أنّها نُسبت إليه في فترة متأخرة لمّا تطوّر الفكر الخارجي وتبلورت مبادىء مختلف التّيارات. وقد يكون تصنيف الرّواة لخوارج الجزيرة الفراتية ضمن التّيار الصّفري هو الذي جعلهم يعتبرون صالحاً أوّل الخارجين منهم. أمّا تسميات مثل «الصالحية» و«الشّبيبية». فلا علاقة لها بالصّفرية ولا تحمل مضامين إيديولوجية، وهي لا تعدو أن تكون نسبةً إلى زعيميْ الحركة صالح وشبيب، ولا صلة لها على ما يبدو بالخلاف الذي عرفته الحركة. والتسمية الوحيدة التي ارتبطت بهذا الخلاف هيّ «الرّاجعة»[2] وتخصّ الذين اختلفوا مع صالح.

إلاّ أن عدم تميّز حركة خوارج الجزيرة الفراتيّة فكريًا لا ينفي تميّزها في جوانب أخرى، لعل أهمها الدّور الكبير الذي لعبته المرأة في الانتفاضة وما أدخله أتباعها من تقاليد الوقوف على قبور شهداء الحركة والبكاء عليهم.

لم تكن مساهمة المرأة الخارجيّة في النضال جديدة بل تعود إلى بداية الحكم الأموي[3] حيث شاركت العديد من النساء في التحرّكات. كما ساهمت بعضهنّ في نشر المبادىء الخارجيّة في أوساط المسلمين وفي تأليب الناس على الحكّام الأمويين وولاتهم.[4] إلاّ أن هذا الدّور كان أكثر أهمية في تحرك خوارج الجزيرة الفراتيّة إذ شاركت إمرأتان في قيادته، هما زوجة شبيب غزالة وأمّه جهيزة. ويركز الرّواة كثيراً على دورهما، وخصوصاً على دور غزالة التي شاركت في عمليّة اقتحام الكوفة وصلّت في مسجدها في وقت كان فيه الحجاج مختفياً في دار الإدارة. وقد واصلت غزالة وجهيزة النّضال حتّى قُتلتا. ولعلّ أعمالهما البطوليّة قد جعلتهما محلّ إعجاب نساء المنطقة، ولا نستبعد أن يكون هذا الإعجاب وراء المشاركة المكثّفة لنساء الجزيرة الفراتيّة في انتفاضة الضّحّاك التي ستندلع في أواخر الحكم الأموي[5].

أمّا ظاهرة زيارة القبور والبكاء، فقد دشّنها خوارج الجزيرة الذين كانوا «قبل الخروج يزورون مصارع إخوانهم في النّهروان فيبكون عندها ويطيلون البكاء»[6]. ثم صاروا بعد

---

(١) يذكر البغدادي أنّ الزعيم الأوّل للصّفرية هو أبو بلال مرداس بن أدية ويليه عمران بن حطّان السّدوسي: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٦٢.

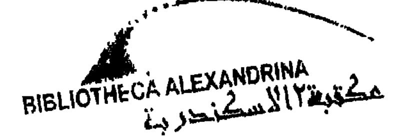
(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ١٢١.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٦٧.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤/١، ص ١٨٠ ـ ١٨١؛ المبرّد، الكامل، ص ٨١.

(٥) كان عدد النساء اللاّتي قُتلن مع الضحاك الشّيباني ثمانمائة امرأة: تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٦) تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٢٢٩.



مقتل صالح بن مسرّح يقفون على قبره ويحلقون رؤوسهم[1]. ويبدو أن خوارج الجزيرة قد تأثروا بأعمال الشّيعة الذين صاروا منذ حركة التوّابين يقفون على قبر الحسين ويبكون عنده. لكن البكاء على القبور لم يصبح من العناصر الحسيّة لدى الخوارج مثلما صار عند الشّيعة، كما أنّه لم يشمل على ما يبدو الخوارج المنتشرين في جميع أنحاء الإمبراطورية.

أمّا عمليّة حلق الرأس، فالظّاهر أنّها تدخل، كما في الجاهلية، في إطار التعبير عن الحزن العميق الذي يشعرون به. إلاّ أنّ مشاركة النساء في هذه العمليّة بحلق رؤوسهن قد يكون لها مغزى آخر غير التعبير عن الحزن العميق، وهو على ما يبدو الرغبة في التّخلي عن الشّهوات والابتعاد عن اللّذات الحسيّة والتفرّغ كليًّا للنّضال. والمغزى نفسه نجده عند سكان الشرق القديم وعند رجال الدّين المسيحيين خاصةً[2]. وما يجعلنا نميل إلى تصديق هذا الافتراض وجود بعض الأشعار لنساء من الخوارج عبّرن فيها بوضوح عن هذا الزّهد وهذه الرغبة في الابتعاد عن ملذّات الدنيا[3].

ما نستنتجه في نهاية هذا الفصل هو أنّ تحركات الخوارج إبّان الفتنة الثانية قد تكثّفت مستفيدة من الأحداث التي عرفتها الدّولة الإسلامية بعد موت يزيد بن معاوية. ورغم الانقسام المبكّر الذي شهدته الحركة، فإنّ العديد من المجموعات الخارجيّة نجحت في تنظيم صفوفها والقيام بتحركات ضخمة.

كانت انتفاضة الأزارقة التي شهدتها المناطق الشرقيّة للإمبراطورية أكثر التحركات أهميّة، فقد تمكّنت - رغم تطرّف مبادئها وعنف قادتها - من استقطاب عدد كبير من الأنصار من العرب والأعاجم خصوصاً من سكان المناطق التي كان لها نشاط فيها. أمّا انتفاضة الخوارج في شبه الجزيرة العربية بقيادة نجد الحنفي فقد كان عدد المشاركين فيها محدوداً اقتصر على سكان بعض المناطق وخصوصاً اليمامة والبحرين. لكن ذلك لم يمنع القائمين بها من السيطرة على مناطق شاسعة وتهديد نفوذ ابن الزبير في الحجاز. ولم تستقطب انتفاضة خوارج الجزيرة الفراتية التي اندلعت في أواخر الفتنة بدورها سوى عدد محدود من الخوارج من بني شيبان خاصة، لكنها نجحت في توسيع مجال نشاطها ليشمل بالإضافة إلى الجزيرة الفراتية مناطق شاسعة داخل العراق.

استمرت هذه الانتفاضات الخارجية عدّة سنوات، واستفاد الثائرون من اضطراب الأوضاع في الدولة الإسلامية بسبب الصّراع بين ابن الزبير والأمويين فكثّفوا نشاطهم ووسّعوا نطاقه. ولم تنجح الجيوش التي أرسلت إليهم - رغم ضخامة عددها وحنكة قادتها -

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٤١٠.

(٢) CHEVALIER (J) & GHEERBRANT (A), *Dictionnaire des symboles*, Paris, 1982, pp. 955 - 956.

(٣) إحسان عبّاس، شعر الخوارج، ص ١٢٨.

في إخماد هذه الانتفاضات طيلة فترة الصّراع الزبيري ـ الأموي.

ولمّا تغيّرت الأوضاع السياسيّة بعد استرجاع الأمويين للعراق ثمّ لكامل الدولة الإسلاميّة، أولى الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان أهميّة كبيرة لقمع هذه الانتفاضات، وسخّر لذلك كل الإمكانيات وخاصةً الجيش الشامي الذي أصبح طرفاً رئيسيًا في عمليات القمع. ولئن نجحت الدولة في إخماد الانتفاضات الواحدة تلو الأخرى، فإنّ ذلك لا يعود إلى القوة التي سخّرتها بقدر ما يعود إلى خلافات الخوارج الدّاخلية.

كانت الخلافات داخل المجموعات الخارجية السّمة البارزة لهذه الانتفاضات والقاسم المشترك بينها. وإذا كان سببها اختلاف المواقف وتضارب المصالح بين الأفراد والجماعات داخل كل حركة، فإنّ تدخّل الخوارج المستمر في إدارة شؤون المجموعة التي ينتمون إليها وإصرارهم على إخضاع قادتهم للرّقابة والنّقد المستمرّ هو الذي جعل خلافاتهم تستفحل بسرعة وتتحوّل إلى قضايا دينية وفكرية. وقد ساهم تطرّف الخوارج ورفضهم للمواقف المخالفة في تحويلها إلى قطيعة وصراع دام أحياناً.

ويبدو لمتتبع هذه الخلافات أنّ الخوارج لم يتمكّنوا رغم تبلور أفكارهم في السّنوات السّابقة وتعدّد تجاربهم من تصوّر نظام حكم قائم على مؤسسات يُمكنهم بواسطتها ممارسة حقّهم في إدارة شؤونهم. لذلك فشلت هذه المجموعات في المحافظة على وحدتها واستقرارها وبرهنت على عدم قدرة الخوارج على قيادة أية مجموعة حتّى وإنْ كانت خارجيّة.

الفصل الثالث

أنشطة الخوارج بعد الفتنة الثانية: فتور في المركز وحيويّة في الأطراف

عرفت السّنوات الأولى التي تلت مقتل عبد الله بن الزبير كما بيّنا سابقاً تواصل الانتفاضات ولا سيما في أطراف الإمبراطورية. ولئن ركّزت الدّولة مجهوداتها على إخماد تلك الانتفاضات، فإنّها أولت كذلك عنايةً للمناطق التي كانت خاضعة للحكم الزبيري حتّى تتجنّب قيام تحركات فيها. وقد حظي العراق باهتمام خاصّ باعتبار أنّه أكثر الأقاليم قابليّة للانفجار ضدّ الأمويين. وقد كانت الرغبة في إحكام السّيطرة على هذا الإقليم وراء تعيين والٍ اشتهر بالشّدة والقسوة وهو الحجّاج بن يوسف الثقفي. وإذا كان عنف الحجّاج ومن تلاه من الولاة لم يمنع قيام بعض التحركات[1]، فإنّه أدخل الرّعب في نفوس السكان حتّى صار أغلبهم يخشى القيام بنشاط علني ضدّ السلطة، فتراجعت بذلك حدّة الانتفاضات في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني هجري. ومال أغلب الخوارج الموجودين في هذا الإقليم بدورهم إلى الهدوء مفضّلين التعبير عن معارضتهم للأمويين بأشكال أقلّ خطورة من العمل العسكري، وهي النشاط الفكري والدّعوة السريّة. إلاّ أن هذا الهدوء لم يمنع خوارج المناطق الأخرى خاصةً الجزيرة العربيّة والجزيرة الفراتيّة من القيام ببعض التحركات العسكريّة، كما مكّن نشر الفكر الخارجي في بعض مناطق الأطراف من قيام انتفاضات فيها.

ويمثّل تتبّع مختلف أنشطة الخوارج خلال تلك الفترة وبيان تأثيراتها المختلفة موضوع هذا الفصل. وهي عمليّة لا يُمكن القيام بها اعتماداً على مصادر التاريخ العام وحدها لأنّ

(١) أبرز الانتفاضات التي وقعت في العراق خلال ولاية الحجّاج هي انتفاضة أشراف البصرة بقيادة عبد الله بن الجارود سنة ٧٦هـ، وانتفاضة الزّنج، وانتفاضة المطرّف بن المغيرة بن شعبة التي تزامنت مع تحركات خوارج الجزيرة الفراتيّة، وأخيراً ثورة ابن الأشعث التي تواصلت أكثر من سنتين ولعلّها أكبر الثورات وأهمّها على الإطلاق. انظر تفاصيل كلّ هذه الثورات في: المصدر المنسوب للبلاذري، ج١١، ص٢٨٠ - ٢٩٠، ص ٣٠٣ - ٣٥٩؛ وكذلك في: تاريخ الطبري، ج٦، ص٢١٠ - ٢١١، ص ٣٣٦ - ٣٧٤.

أغلبها[1] تتوقّف عن سرد أخبار الخوارج وتتبّع نشاطهم بعد سنة ٧٩هـ، تاريخ انتهاء تحرّكات الأزارقة وخوارج الجزيرة. ولا تعود إليها إلاّ في السنوات الأخيرة من الحكم الأموي إبّان انتفاضات الضحّاك الشيباني في الجزيرة الفراتيّة، وطالب الحقّ في اليمن، وشيبان بن سلمة في خراسان. أمّا كُتُب الفرق والمقالات فحديثها عن انقسام الخوارج يدلّ على وجود نشاط فكري أدّى إلى حصول هذا الانقسام. إلاّ أنّ طريقتها في تقديم التيّارات الخارجيّة وترتيب الفرق المتفرّعة عنها يجعل من الصّعب تحديد زمن هذا الانقسام وفهم الظروف التي أحاطت بظهور هذه التيّارات وتسبّبت في انقسامها، وبالتالي يعسر علينا تتبّع نشاطها الفكري.

إلاّ أنّ ما توفّره كُتُب الأدب[2] من معلومات عن نشاط بعض العناصر الخارجيّة المعروفة تعدّ ـ رغم اقتضابها الشّديد وتفرّقها ـ في غاية الأهميّة، لأنّها كثيراً ما تكون مصحوبة بإشارات يُمكن من خلالها ضبط تواريخ بعض الأحداث وتحديد أسبابها وملابساتها.

أما المصادر الخارجيّة، فإنّها تقتصر على مؤلفات الإباضيّة وخصوصاً كتاب السيَر للشماخي الذي يحتوي على معلومات تخصّ أنشطة كبار زعماء الحركة في البصرة، وخاصّة دورهم في نشر الفكر الإباضي في أطراف الإمبراطورية.

واعتماداً على كلّ هذه المعلومات سنحاول رسم صورة عن واقع الخوارج وأنشطتهم المختلفة في تلك الفترة، وخصوصاً علاقاتهم بعضهم ببعض وبالسّلطة وبالتيارات المعارضة الأخرى. وهي صورة تقريبيّة ومنقوصة لكنها ضروريّة لفهم الأحداث التي استجدّت في نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العباسي.

I ـ الخوارج بين العمل العسكري والنشاط الفكري والدّعائي

١ ـ تشتّت التحرّكات في المركز وقوّتها في الأطراف

كان امتداد نشاط الخوارج خلال الفتنة الثانيّة خارج العراق قد ساهم في اقتحام الفكر

(١) أبرز المصادر تاريخ الطبري الذي لا يذكر من أخبار الخوارج خلال تلك الفترة سوى بعض الروايات الخاصة بتحركَيْ بسطام المعروف بشوذب الخارجي والبهلول بن بشر اليشكري. وبما أنّ أغلب المصادر المتأخرة قد أخذت عن الطبري فإنّها أهملت بدورها الحديث عن نشاط المجموعات الخارجيّة الأخرى. وينفرد خليفة بن خياط بذكر بعض الرّوايات عن تحركات الخوارج إبّان الحكم المرواني إلاّ أنها شديدة الاقتضاب. ويظهر أنّ البلاذري قد اهتمّ بدوره بهذه التحرّكات ونقل تفاصيل عنها في الأجزاء ٦ و٧ و٨ من كتاب الأنساب، وهي أجزاء مخطوطة لم يتسن لنا الاطلاع عليها.

(٢) أبرز هذه الكتب: كتاب الكامل للمبرّد، والبيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه.

الخارجي لمناطق جديدة خاصّة في شرق الإمبراطورية وجنوبها. كما كان للنشاط الدّعائي الذي قامت به بعض المجموعات الخارجيّة وخاصّةً الإباضيّة انطلاقاً من البصرة دور كبير في نشر هذا الفكر في بعض المناطق منها بلاد المغرب. وبانتهاء الفتنة الثانية ستعرف كلّ هذه المناطق اندلاع انتفاضات كانت مشتّتة وفاترة في المناطق القريبة من قلب الإمبراطورية، وضخمة وقويّة في الأطراف.

أ ـ تحرّكات الخوارج في البحرين:

انطلقت أولى تحرّكات الخوارج العسكريّة من البحرين بعد سنوات قليلة من مقتل أبي فديك وأصحابه وإخماد أكبر انتفاضة خارجيّة عرفتها المنطقة الشرقيّة لشبه الجزيرة العربيّة، وقد امتدت هذه التحرّكات على كامل الفترة الفاصلة بين سنة ٧٨هـ تاريخ اندلاع انتفاضة بني محارب بن عبد القيس[١]، وسنة ١٠٥هـ تاريخ القضاء على تحرّك سعيد بن أبي زينب المحاربي وعون بن بشر الحنفي[٢]. ولئن كانت أغلب هذه التحرّكات صغيرة لم يستطع القائمون بها تحقيق طموحاتهم في السّيطرة على منطقة البحرين وتخليصها من الحكم الأموي، فإنّ إحداها وهي انتفاضة مسعود بن أبي زينب قد مكّنت الخوارج من التحكم في مناطق من البحرين مدّة تسع سنوات متتالية[٣].

كان اندلاع هذه التحرّكات في مناطق متفرّقة من البحرين، فقد خرج الريّان النكري من قرية يُقال لها الطاب[٤] من الخط[٥]، في حين خرج داود بن محرز من القطيف[٦]،

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٦، ورقة ٤٢أ (نقله عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص ١٣٥).

(٢) لا يوجد في المصادر تاريخ مضبوط لهذا التحرّك. إلاّ أنّ انطلاقه مباشرة بعد إخماد ثورة مسعود بن أبي زينب سنة ١٠٥هـ وانتهاءه بسرعة بسبب الخلاف بين قائديه جعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن انطلاقه كان في السنة ذاتها، **تاريخ خليفة بن خياط**، ج١، ص٢٧٦ ـ ٢٧٧؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٦، ورقة ٢٥أ (نقله عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص١٣٦).

(٣) يختلف الرّواة كثيراً في تحديد تاريخ خروج مسعود حيث يجعله البلاذري سنة ٨٦هـ بينما يؤكّد ابن خياط أنه وقع سنة ٩٦هـ. ويتّفق البلاذري مع ابن خياط على القول إنّ مسعوداً سيطر على البحرين تسع عشرة سنة وكان مقتله سنة ١٠٥هـ. إلاّ أنّ الإشارة إلى وجود الأشعث بن عبيد الله بن الجارود عاملاً على البحرين من قبل يزيد بن المهلّب والي العراق لسليمان بن عبد الملك تجعلنا نرجّح التاريخ الذي يقدّمه ابن خياط كبداية للتحرّك أي سنة ٩٦هـ. انظر: **تاريخ خليفة بن خياط**، ج١، ص٣٤٤؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٧، ورقة ٢٥أ (نقله عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص١٣٦)؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص١٩٠.

(٤) طاب: قرية بالبحرين: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٣.

(٥) **تاريخ خليفة بن خياط**، ج١، ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٦) يذكر ابن خياط أنّ قائد هذا التحرّك هو داود بن عامر بن الحارث: **تاريخ خليفة بن خياط**، ج١، ص٢٧٨.

وثار سعيد بن أبي زينب في هجر[1]. ويعود قيام هذه التحرّكات إلى اقتحام الفكر الخارجي لهذه المنطقة منذ انتفاضة نجدة الحنفي التي اتخذت من البحرين مركزها الرئيسي. إلاّ أنّ انتشار الفكر الخارجي لم يقتصر على البحرين، فمناطق أخرى مثل اليمامة وعُمّان قد عرفت بدورها انتشار هذا الفكر، ولم يتحرّك أغلب خوارجها خلال تلك الفترة والتحق الرّاغبون منهم في الثورة بالبحرين وشاركوا مع الخارجين في هذه المنطقة، من ذلك انضمام ميمون الحروري القادم من عُمان في جمع من أصحابه إلى الريّان النكري[2]، ودخول عون بن بشر الحنفي في تحرّك سعيد بن أبي زَينب المحاربي[3]. واقتصار التّحركات على البحرين قد يدلّ على اختلاف أوضاع هذه المنطقة وأوضاع الخوارج فيها عن غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية. وإذا كنّا غير قادرين على التعرّف على أوضاع المجموعات الخارجيّة في مختلف هذه المناطق بسبب غياب المعلومات عنهم، فإنّ تسليط الضوء على أوضاع البحرين قد يفيدنا في فهم أسباب تعدّد التحرّكات الخارجيّة فيه.

تعدّ البحرين إحدى المناطق الهامّة استراتيجيًا واقتصاديًا، فموقعها على ساحل الخليج مكّنها من لعب دور تجاري هام كمنطقة عبور بين الشرق والغرب، كما مكّن وجود الماء من ازدهار الزراعة. وانتشرت بالإضافة إلى ذلك الصناعات اليدوية مثل النّسيج، وتكوّنت بعض المراكز الصّناعيّة. ويُفسِّر هذا الازدهار الاقتصادي تعدّد المدن والقرى في البحرين وارتفاع عدد سكان المنطقة قبل الإسلام[4].

كان سكّان البحرين خليطاً يضمّ بعض المجموعات من الفرس والهنود واليهود والمجوس[5]، بالإضافة إلى العرب الذين يمثّلون الأغلبيّة الساحقة وهم ينتمون إلى بعض عشائر الأزد وبكر بن وائل وتميم، بالإضافة إلى عبد القيس التي يُمثّل أبناؤها العنصر المسيطر في أغلب مدن البحرين وقراه. وإذا كان العديد من السكان مستقرين، فإنّ مجموعات أخرى من الرّعاة والرحّل خاصةً من بكر بن وائل وتميم كانت تعيش في المنطقة. ولم تكن قبائل البحرين موحدة، فالسّاسانيون الذين ضعفت سيطرتهم على المنطقة قبيل الإسلام صاروا يعتمدون على العرب في الإدارة حسب التنظيمات القَبَلية، وهو

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٧ ورقة ٢٥أ (ذكره عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص١٣٦).

(٢) **تاريخ خليفة بن خياط**، ج١، ص٢٧٧.

(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٧ ورقة ٢٥أ (ذكره عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص١٣٦).

(٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص١٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٧.

ما ساعد على تقوية الحميّة القَبَلِيّة وتعدّد النزاعات بيْن القبائل[1]. وتفسر هذه الانقسامات توجه الرسول إلى قبائل البحرين وشخصياته بصورة منفصلة[2].

ولئن ارتدت قبائل البحرين بعد موت الرّسول، فإن عبد القيس سرعان ما قبلت بفضل نفوذ زعيمها الجارود الرجوع عن ردّتها وساعدت جيش العلاء بن الحضرمي على قتال المرتدّين. وصارت البحرين بعد الفتح الإسلامي تابعة للمدينة ثم أُلحقت في خلافة عثمان على ما يبدو بالبصرة. وقد شهدت تلك الفترة هجرة العديد من أبناء البحرين إلى العراق وخاصةً إلى البصرة.

كان لمجمل هذه الأحداث تأثير كبير على أوضاع البحرين. فربط المنطقة بالبصرة حرم سكانها من عائدات منطقتهم التي صارت تنقل إلى هذا المصر وتوزّع على مقاتلته[3]. كما أن تولّي البصريين مهمّة فتح فارس والمناطق الموجودة شرقي الخليج حرم البحرين من عائدات الفتوحات، ويُمكن أن نضيف إلى هذا ما قد يكون لتأسيس البصرة وتحوّلها إلى أهم مركز تجاري مع الهند[4] من تأثيرٍ على هذا النشاط في البحرين. وإذا كنّا لا نملك معلومات كثيرة عن هذا التأثير، فإن ما يذكره صالح العلي عن كساد تجارة دارين[5]، أحد أهم موانىء البحرين، يدلّ على أن ازدهار تجارة البصرة لم يكن في صالح المنطقة، والأرجح أنّه كان على حسابها. كما قد تكون صناعة النسيج تأثرت بدورها بهذه التحوّلات بما أن بعض سكّان المناطق التي كانت تروّج فيها منسوجات البحرين صاروا يُفضّلون المنسوجات القادمة من العراق ومن المناطق الشرقيّة للإمبراطورية[6]. إلاّ أنّ البحرين لم تفقد مكانتها الاقتصاديّة نهائيًا. فإلى حدود الفتنة الثانية كانت ما برحت تموّل الحجاز بالبضائع والمواد الفلاحيّة، ولذلك لما قطع نجدة الحنفي الميرة عن الحجاز من البحرين واليمامة، اشتكى سكّان الحرمين إلى ابن عبّاس فاضطّر إلى مكاتبة نجدة طالباً منه إرجاع الميرة[7]، كما مرّ معنا آنفاً. وعموماً يمكن القول إنّ البحرين بدأت منذ الفتح الإسلامي تفقد مكانتها الاقتصادية تدريجياً، وهو ما أثر على أوضاع من تبقى من سكّانها خصوصاً المستقرين منهم والمهتمّين بالأنشطة الحضرية، وهذا ما قد يُفسّر قيام تحركات الخوارج في أهمّ مدن البحرين، وهي القطيف وهجر.

---

(١) عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص١١٨.

(٢) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص١٠٧؛ عبد الكريم النجم، **البحرين في صدر الإسلام**، ص١١٨.

(٣) **تاريخ اليعقوبي**، ج٢، ص٢٣٣.

(٤) صالح أحمد العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة**، ص٢٥٨.

(٥) **المرجع نفسه**، ص٢٥٨.

(٦) **المرجع نفسه**، ص٢٥١.

(٧) **المصدر المنسوب للبلاذري**، ج١١، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

غير أنّ هذه التّحولات لم تخلق على ما يبدو لحمة بين القبائل إذ ظلّت الانقسامات حيّة. وظهر ذلك بوضوح إبّان انتفاضة نجدة الحنفي، فقد عارض أبناء عبد القيس وعناصر قَبَلية أخرى دخول الخوارج البحرين في حين أيّده الأزديون ورحّبوا به[١].

كما يظهر هذا الانقسام من خلال انتفاضات خوارج البحرين التي اندلعت في تلك الفترة. فقد قاد كلّ هذه التحركات أبناء عبد القيس، وكان أغلب المشاركين فيها من هذه القبيلة. ولئن كان عدد الخارجين محدوداً، فإنّ مساندة عبد القيس لهم كانت هامّة إذ كان رفض العبديين طلب عامل البحرين محمّد بن صعصعة المشاركة في إخماد تحرّك الريّان عاملاً حاسماً في انتصار الخوارج وفرار ابن صعصعة. ولم تتمكن الدّولة من إخماد هذه الانتفاضة واستعادة السّيطرة على البحرين إلاّ لمّا تدخّل الجيش الشّامي[٢]. كما ساعد أبناء عبد القيس داود بن محرز على إنزال جثة الريّان وأصحابه المصلوبين ودفنهم[٣].

أمّا قبيلة الأزد، فقد كان موقف أبنائها مناقضاً تماماً لموقف عبد القيس إذ عارضوا تحرّكات الخوارج، وساهم العديد منهم إلى جانب الدّولة في القضاء عليها. فقد كوّن منهم محمّد بن صعصعة جيشاً يقوده عبد الله بن عبد الملك العوذي للقضاء على تحرّك الريّان[٤]، كما قاد عبد الرحمن العوذي بدوره جيشاً لمحاربة داود بن محرز[٥].

ولا يُمكن تفسير تضارب مواقف قبائل البحرين وخاصةً قبيلتَيْ الأزد وعبد القيس بالتنافس القَبَلي وحده. فالأكيد أنّ الحميّة القَبَليّة التي لم تضعف كثيراً في البحرين رغم الولاء للدّولة كانت ما زالت تؤثّر في مواقف السكان، إنما توجد أسباب أخرى تفسّر بدورها هذه المواقف المتباينة، منها تضارب مصالح القبيلتين: فعبد القيس لمّا رفضت دخول نجدة الحنفي البحرين لم يكن ذلك بدافع العداء لحنيفة فحسب بل كذلك لحرصها على المحافظة على مكانتها في المنطقة باعتبارها أهمّ قبائلها. أمّا الأزد فقد رحّبوا بنجدة وانضموا إلى صفوفه ليتمكّنوا من تعزيز موقفهم ويحدّوا من طموح أبناء عبد القيس.

ولمّا تمّ القضاء على انتفاضة نجدة وانتهت الفتنة لم يغيّر حكّام بني أميّة الجُدد على ما يبدو سياستهم في البحرين. وأحسّ السكان أنّ أوضاعهم ستزداد تدهوراً فثار بعضهم ضدّ الأمويين متبنيّن الفكر الخارجي الذي يدعو إلى الثورة ضدّ الظّلم والاستغلال.

(١) المصدر المنسوب للبلاذري، ج١١، ص١٣١.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص٢٧٧.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٦، ورقة ١٤٢أ (ذكره عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص١٣٦).
(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص٢٧٧.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٨.

إلاّ أنّ اقتصار التحرّكات الخارجيّة على أبناء عبد القيس قد أبعد عنها بقيّة الخوارج من البحرين والمناطق المجاورة وأفشل كل محاولات النضال المشترك التي وقعت بين خوارج عبد القيس وأصحابهم المنتمين إلى قبائل أخرى مثل التي وقعت بين الريّان النكري وميمون الحروري القادم من عُمان[1]، أو بين سعيد بن أبي زينب وعون بن بشر الحنفي[2]. كما أنه أذكى المنافسات القَبَليّة فدفع الأزد إلى الوقوف إلى جانب الدولة وجعل حنيفة تتصدّى لمسعود بن أبي زينب لمّا حاول دخول اليمامة[3]، وكان هذا سبباً من أسباب فشل هذه التحركات.

وتوجد أسباب أخرى تفسّر فشل انتفاضات خوارج البحرين منها التشتّت الكبير للمجموعات الخارجيّة وغياب التنسيق الكلّي بينها وعدم قدرتها على تجنيد كل النّاقمين على الحكم الأموي بما في ذلك أبناء عبد القيس الذين كانت مساندتهم رغم أهميتها محدودة ورمزية أحياناً لم تمكّن الخارجين من السّيطرة على المنطقة وتخليصها من الحكم الأموي. كما يمكن أن نضيف سبباً آخر لفشل هذه الانتفاضات، ألا وهو اندلاعها في وقت كانت فيه الدّولة قد جندّت قوّة من الشاميين مهمتها قمع الانتفاضات في العراق والمناطق المجاورة له.

وإجمالاً يُمكن القول إن الفكر الخارجي الذي تسرّب إلى البحرين وانتشر خلال سنوات الفتنة قد وجد فيه بعض سكان المنطقة سلاحاً للثورة ضدّ الدّولة التي أضرّت بمصالحهم وأفقدت منطقتهم المكانة الاقتصاديّة التي كانت تتمتع بها، إلاّ أنّ توقيت اندلاع هذه الانتفاضات وتشتّتها واقتصارها على عناصر من قبيلة واحدة كان من بين أسباب فشلها. ولئن لم تنجح انتفاضات سكّان البحرين خلال الحكم الأموي، فإن تدهور أوضاع المنطقة سيجعلها خلال الحكم العباسي مسرحاً لثورات كبيرة لم تكن خارجيّة ولكن بعضها تأثر بفكر الخوارج[4].

ب ـ تحرّكات خوارج الجزيرة الفراتيّة:

نشط الخوارج في عهد الخلفاء المروانيين في الجزيرة الفراتية كذلك. ويعدّ نشاطهم في هذا الإقليم مهمّاً بالمقارنة مع المناطق الأخرى، إذ إنّ أغلب الانتفاضات التي وقعت في

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٦، ورقة ٤٢أ (ذكره عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص١٣٥)؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص٢٧٧.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٧، ورقة ٢٥أ (نقله عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص١٣٦).

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص١٩٠.

(٤) أحمد علبي، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، بيروت، ١٩٩١، ص٥٨،

العصر الأموي المتأخر انطلقت من هذه المنطقة[1]. وإذا كانت تحرّكات خوارج الجزيرة كثيرة، فإنّها لم تكن ذات أهميّة لتشتّتها وقلّة المشاركين فيها، وهو ما سهّل على الولاة التغلّب عليها ولذلك لم يذكرها أغلب الرّواة. ولا نجد باستثناء بعض الإشارات العابرة معلومات يُمكن من خلالها حصرها أو تحديد أسباب اندلاعها والنتائج المنجرّة عنها. وتُعتبر انتفاضة بسطام اليشكري في خلافة عمر بن عبد العزيز وانتفاضة البهلول بن بشر الشيباني في خلافة هشام بن عبد الملك من أبرز انتفاضات الجزيرة. ومن خلالهما سنحاول تسليط الضوء على وضعية خوارج هذه المنطقة وما تميّزت به تحرّكاتهم. أمّا انتفاضة الضحّاك الشيباني التي ستعرفها هذه المنطقة في نهاية الحكم الأموي، فسنفرد لها جزءاً خاصًا في آخر هذا الفصل لارتباطها بأحداث وقعت في تلك الفترة.

كان اندلاع انتفاضة بسطام المشهور بشوذب إثر تولّي عمر بن عبد العزيز الخلافة[2]. ولئن لا يذكر الرّواة سبباً لاندلاعها، فالظاهر أنّ لها صلة بالتحوّلات التي عرفتها الدّولة الإسلاميّة إثر وصول عمر إلى السّلطة وما أبداه هذا الخليفة من رغبة في إصلاح ما أفسده الخلفاء الأمويّون. فقد يكون قرار بسطام وأصحابه الخروج في تلك الفترة بمثابة الاختبار لصدق نوايا عمر الإصلاحيّة، ورغبة في التعرّف على مدى استعداده لرفع المظلمة التي سلّطها الأمويون على المعارضين وخصوصاً الخوارج.

اختلف ردّ فعل عمر بن عبد العزيز إزاء هذا التحرّك عن ردّ فعل أسلافه. فقد كتب لمّا بلغه خبر خروجهم إلى واليه على العراق يطلب منه أن يرسل جيشاً إلى الخوارج لا يحاربهم «إلاّ إذا سفكوا دماً أو أفسدوا في الأرض»[3]. كما كتب إلى بسطام يسأله عن خروجه ويدعوه إلى مناظرته. فلم يحرّك بسطام شيئاً وكتب إلى عمر يقول: «قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يُدارسانك ويُناظرانك»[4].

ويختلف الرّواة عند تعرّضهم للمواضيع التي دار حولها النّقاش بين عمر ومبعوثَيْ بسطام. إذ يذكر ابن عبد الحكم أنّ الرّجلين وضعا شرطاً واحداً لإنهاء التحرّك، وهو «أن يبرأ عمر من أهل بيته السّابقين ويلعنهم»[5]، في حين يذكر أبو عبيدة أنّ النّقاش دار حول

---

(١) فلهوزن، أحزاب المعارضة السياسية، ص١٠١.

(٢) كان خروج بسطام سنة ١٠٠هـ بعد أشهر من وصول عمر بن عبد العزيز إلى السّلطة: **تاريخ الطبري**، ج٦، ص٥٥٥.

(٣) **تاريخ الطبري**، ج٦، ص٥٥٥ ـ ٥٥٦؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص١٥٥.

(٤) ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**، مصر، ١٩٥٤، ص١٠٨ ـ ١٤٢؛ **تاريخ الطبري**، ج٦، ص٥٥٦.

(٥) ابن عبد الحكم، **سيرة عمر بن عبد العزيز**، ص١٠٩.

مسألة العهد ليزيد ومحاولة الخوارج إقناع عمر بضرورة التخلّي عنه، ويضيف أنّ هذا الطلب هو الذي دفع الأمويين إلى قتل عمر خوفاً من أن يخلع يزيداً ويُخرج الخلافة منهم[١].

وبقطع النظر عن مدى صحّة هذه الرّوايات، فالأكيد أنّ مسألة الخلافة كانت من بين المسائل المطروحة أثناء هذا النّقاش، وأن مبعوثَيْ بسطام قد ركّزا عليها بصفة خاصة باعتبارها المشكل الأساسي والمفتاح لحلّ المشاكل الأخرى. ويبدو أنّ تخوّف الخوارج من عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه بعد خلافة عمر هو الذي جعلهم يطلبون منه عدم تنفيذ الوصيّة التي تقضي بانتقال الخلافة بعده إلى يزيد بن عبد الملك. ولا ريب في أنّ ما أظهره هذا الخليفة من تفهّم وما قام به من محاولات لإصلاح الوضع قد شجّعهم على مطالبته بهذا العمل. إلاّ أنّنا نستبعد أن يكون عمر قد قبل النظر في هذا الطلب أو أنّ إمكانيّة قبوله له كانت واردة كما توحي بذلك رواية أبي عبيدة، لأن عمراً كان يعرف جيداً أنه لا يستطيع خلع يزيد لأن ذلك سيكون بمثابة الطعنة في الصميم للشرعيّة الأمويّة القائمة على احترام ولاية العهد، وهو أمر يرفضه كل أفراد البيت الأموي بما في ذلك عمر نفسه. ومهما كان موقفه من الحكّام الأمويين، فالأكيد أنه لم يكن يرى الإصلاح بالتراجع عن مبدأ الوراثة في الحكم.

لم تؤدِّ المفاوضات بين الخليفة ومبعوثَيْ بسطام إلى اتّفاق. ثمّ جاء موت عمر المفاجىء ليُبعد كل إمكانية لإنهاء هذا التحرّك بالطرق السلميّة، فقد أمر والي العراق الجيش الذي بعثه إلى بسطام بقتال الخوارج منذ أن بلغه خبر موت عمر[٢]، «لينال بذلك حظوة لدى الخليفة الجديد»[٣]. إلاّ أنّ جيش الكوفة لم يتمكّن من الصمود أمام الخوارج الذين ألحقوا به هزيمة نكراء وطاردوه إلى مشارف الكوفة. وقد قام والي العراق بإرسال جيوش عديدة عجزت كلّها عن إلحاق الهزيمة ببسطام وأصحابه رغم أن عددهم لم يكن يتجاوز عند الخروج ثمانين فارساً[٤] على حدّ قول أبي عبيدة. وقد أدخلت انتصارات الخوارج المتتالية الرّعب في نفوس سكّان الكوفة ودفعتهم إلى الالتجاء إلى مسلمة بن عبد الملك الذي أرسل جيشاً كبيراً يقوده سعيد بن عمرو الحرشي قضى على هذه الانتفاضة سنة ١٠١هـ[٥].

أما تحرّك البهلول بن بشر الشيباني الملقب بكثارة، فيبدو مختلفاً عن السّابق من حيث أسباب اندلاعه والظروف التي أحاطت به. فقد تميّز الوضع الداخلي في الإمبراطورية الإسلاميّة عند اندلاع هذا التحرك سنة ١١٩هـ[٦] بالهدوء بفضل سياسة هشام بن

(١) تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٧٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٥٥.
(٥) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٧٧.
(٦) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٣١.

عبد الملك التي تميّزت بشدّة قمعها للمعارضين، ودور خالد بن عبد الله القسري في السيطرة على منطقة العراق وما حولها.

أمّا عن أسباب هذا التحرّك، فتذكر الروايات أنّ البهلول لمّا كان في طريقه إلى الحجّ بعث غلامه ليبتاع له خلاً فجاءه بخمر فأمره بردّها واسترجاع النقود، فلم يُجب إلى ذلك، فاشتكى إلى عامل القرية فلم ينصفه. فلمّا كان بمكّة، «لقي من كان على مثل رأيه»، واتّفقوا على الخروج بقرية من قرى الموصل وأمّروا عليهم البهلول[1]. ويبدو من خلال الرّواية أنّ فكرة الخروج لم تكن واردة لدى البهلول لولا الحادثة التي تعرّض لها. إلاّ أنّ مطالب أصحاب البهلول تثبت أنّ أسباباً أخرى دفعتهم إلى الثورة، وأنّ ما وقع للبهلول لم يكن سوى تعلّة لتبرير الخروج، فقد ألحّوا عليه أن لا يبدأ بقتل عامل القرية لأنّ ذلك سيجعل خبرهم يصل إلى الوالي خالد القسري فيفلت منهم مؤكدين بذلك أنّ قتل الوالي كان أحد أهدافهم. وقد برّر أصحاب البهلول حرصهم على قتل خالد بسياسته التي تميّز بين الفئات الاجتماعيّة وخصوصاً بين المسلمين وأهل الذمّة، فقد «كان يهدم المساجد ويبني البيع والكنائس ويولّي المجوس على المسلمين ويُنكح أهل الذمّة المسلمات»[2].

ويتميّز تحرّك البهلول عن تحركات سابقيه كذلك بمكانة زعيمه البارزة في الجيش والتي جعلت الخليفة نفسه يعرفه. فقد كتب هشام بن عبد الملك إلى عامل الموصل لمّا بلغه خبر هذه الانتفاضة وعجز الكوفيين عن القضاء عليها: «وجّه إليهم كثارة بن بشر»، فكان ردّ العامل: «إن الخارج هو كثارة»[3].

ويدلّ ما ورد في رسالة هشام على أنّ قوّة البهلول وشدّة بأسه جعلتا الخليفة يقحمه في الجيش ويعتمد عليه في المهمّات الصّعبة مثل قمع الثورات. لكنّنا لا نعرف ما إذا كان هشام على علم بانتمائه إلى الحركة الخارجيّة.

لا يوجد في الرّوايات ما يؤكّد معرفة الخليفة بحقيقة البهلول، لكن ثمّة إشارات عديدة تدلّ على أنّه كان خارجيًا، بل هو من الخوارج المعروفين. فقد ذكر أبو عبيدة «أنّ البهلول كان يتألّه»[4]، و«كان له أصحاب يرون رأيه في منطقة الموصل وفي الكوفة»[5]. كما تؤكّد مرثية الضحّاك الشيباني أنّ للبهلول وأصحابه علاقة بخوارج الجزيرة[6] الذين

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٣١.
(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٣١.
(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٣٢.
(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٠.
(٥) المصدر نفسه، ج٧، ص١٣٢.
(٦) قال الضحّاك بن قيس الشيباني يرثي البهلول وأصحابه:

سيتزعّمون أكبر انتفاضة في أواخر الحكم الأموي. ولا نستبعد أن يكون الضحّاك أو بعض أصحابه قد شاركوا في تحرّك البهلول ونجوا من القتل. وتثبت الأشعار المنسوبة إلى البهلول(١) بدورها انتماءه إلى الحركة الخارجيّة.

يتّضح من خلال هذه الإشارات أنّ البهلول لم يكن شخصاً عاديًّا مثل بقيّة أفراد الجيش. ولا نستبعد أن يكون الخليفة نفسه على علم بانتمائه للحركة الخارجيّة، وأنّه قرّبه وأقحمه في الخدمة العسكريّة ليستميله ويتجنّب بالتالي خروجه عليه. لكن ما قام به البهلول يثبت أنّ دخول بعض الخوارج في خدمة الدّولة وانصهارهم في المجتمع لم يمنعهم من الخروج والثورة أحياناً.

لم يكن أمر مواجهة هذه المجموعة الخارجة مع البهلول سهلاً رغم أنّ عدد أفرادها لم يتجاوز في البداية أربعين نفراً(٢). فقد كوّن خالد جيشاً من شُرَط الكوفة وضمّ إليه قسماً من جيش الشام كان في طريقه إلى الهند(٣). لكن الخوارج هزموهم جميعاً كما هزموا غيرهم. ويبدو أنّ الانتصارات المتتالية التي حقّقها البهلول هي التي شجّعته على التوجه إلى الشام، فقد قال لأصحابه: «إنّا والله ما نصنع بابن النصرانيّة شيئاً - يعني خالداً - فلمَ لا نطلب الرأس الذي يسلّط خالداً وذوي خالد. فتوجّه يريد هشاماً»(٤). إلاّ أنّ قرار المسير إلى الشام عجّل بإنهاء هذا التحرّك. فقد خاف العمّال من هشام إنْ تركوا الخوارج يجوزون بلدانهم، لذلك سيّر خالد جنداً من أهل العراق وجنّد عامل الجزيرة جُنداً، ووجّه هشام بدوره جنداً من أهل الشام(٥). ودارت معركة كبيرة بين الخوارج وهذه الجيوش قرب الموصل انتهت

= بدلت بعد أبي بشر وصحبته — قوماً عليّ مع الأحزاب أعوانا
كأنهم لم يكونوا من صحابتنا — ولم يكونوا لنا بالأمس خلانا
يا عين أذري بالدموع منك تهنانا — وابكي لنا صحبة بانوا واخوانا
خلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها — وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

(**تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٣٣؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص٢٣٢)

(١) من الأشعار المنسوبة للبهلول هذا البيت الذي يمجّد فيه الموت قائلاً:

من يكره أن يلقى المنيّة — فالموت أشهى إلى قلبي من العسل

(إحسان عباس، **شعر الخوارج**، ص٢٠١)

(٢) ارتفع عدد المشاركين في التحرّك إلى سبعين نفراً في آخر معركة. انظر: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٣٠ - ١٣٣؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص٢٣١ - ٢٣٢.

(٣) **تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٣١.

(٤) **تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٣٢؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص٢٣٢.

(٥) **تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٣٢؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص٢٣٢.

بهزيمة البهلول وأصحابه ومقتل أغلبهم[1].

وتلت هذه الانتفاضات تحرّكاتٌ أخرى صغيرة منها تحرّكُ الصّحارى بن شبيب الخارجي الذي جمع ثلاثين نفراً من تيم اللاّت بن ثعلبة[2] تزامن مع تحرّكات أخرى في العراق أهمّها: تحرك العنزي صاحب الأشهب وكان في ستّين نفراً[3]، وتحرّكُ الوزير السّختياني في منطقة الحيرة الذي تميّز بعنفه الشديد[4]. ولا نستبعد أن تكون عناصر من خوارج الجزيرة قد شاركت في تحركات العراق باعتبار العلاقة المتينة بين خوارج المنطقتين والحركيّة الكبيرة التي تميّز بها خوارج الجزيرة.

ويُستخلص من كلّ ما تقدّم أنّ تحركات الخوارج في الجزيرة والموصل كانت رغم ارتفاع عددها قليلة الأهميّة لم تشكّل خطراً حقيقيًا على الدولة بسبب ضعف عدد المشاركين فيها وغياب التّنسيق بينهم وارتباطها بظروف المجموعات الخارجيّة. كما كان قرب المنطقة من مركز الخلافة وانحصارها بين العراق والشام من العوامل التي ساعدت الدولة على إخمادها. إلاّ أنّ قيام هذه التّحركات يثبت عدم تخلّي خوارج هذه المنطقة عن فكرة الخروج والثورة رغم القمع الشديد الذي كان يواجه به حكّام بني أميّة كل الذين يظهرون معارضتهم للدولة.

ج ـ انتفاضات خوارج اليمن وإفريقية:

لم تعرف منطقة اليمن انتفاضات خارجيّة شبيهة بتلك التي وقعت في البحرين أو في الجزيرة الفراتيّة في أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني هجري. وباستثناء تحرّك عبّاد الرّعيني الذي جرى سنة ١٠٧هـ ضدّ الوالي يوسف بن عمر الثّقفي[5]، لا نجد ذكراً لتحركات أخرى إلى حدود سنة ١٢٩هـ تاريخ اندلاع ثورة طالب الحق، ولا يتوفّر عن انتفاضة عبّاد في الطبري سوى رواية مقتضبة جداً لا يمكن من خلالها تحديد أسباب اندلاعها أو هويّة القائمين بها ومطالبهم. أمّا المصادر اليمنيّة فأهمّ ما توفّره عن هذه الانتفاضة هو اللّقب الذي أسند لعبّاد الرّعيني، وهو «منصور حمير». وقد اعتبر دغفوس أنّ منح رواة اليمن هذا اللّقب لعبّاد قد يكون دليلاً على أن الهدف من تحركه هو تخليص سكّان المنطقة من الهيمنة الأموية[6]. غير أنّ عنف الوالي الثّقفي جعله يفشل في تحقيق هذا الهدف، إذ سرعان ما أخمد هذا التّحرك وقتل عبّاد وأصحابه وعددهم ثلاثمائة نفر.

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٣٢.
(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص١٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص١٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص. ١٣٤
(٥) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٠.
(٦) DAGHFOUS (R), *op. cit.*, p. 644.

ولم تكن انتفاضة طالب الحق التي اندلعت في جنوب شبه الجزيرة شبيهة بتحرّك عبّاد، فقد قامت في ظروف مختلفة وشملت عدداً أكبر من سكان اليمن، لذلك سنخصّص لها مكاناً في أواخر هذا الفصل.

أما ثورات الخوارج في بلاد المغرب، فإنّ معلوماتنا عنها وافرة نسبيًا نقل أغلبها مؤرّخون مغاربة مثل ابن خلدون وابن عذاري المرّاكشي وغيرهما، كما نجد تفاصيل عنها في المصادر الإباضية. وقد انطلقت هذه الثورات في العشريّة الأخيرة من الحكم الأموي، وارتبط اندلاعها بالظروف الداخليّة لهذه الولاية وسياسة السلّطة المركزيّة فيها. لذا تستدعي دراستها إلقاء نظرة ولو سريعة على الأوضاع في تلك الولاية.

فتحت إفريقيّة كما هو معروف في خلافة معاوية بن أبي سفيان[1]. ورغم أنّ المسلمين لم يتمكّنوا خلال الحملات الأولى من بسط نفوذهم إلاّ على المناطق الشرقيّة، فإنّ تأسيس القيروان على يدي عقبة بن نافع كان عاملاً حاسماً في تركيز العرب المسلمين في هذه المنطقة. كما ساهم تواصل الفتوحات في اتجاه المناطق الغربيّة في انتشار الإسلام في أوساط بعض سكّان هذه المنطقة من البربر حتى إنّ عدداً منهم قد يكونون شاركوا إلى جانب المسلمين في الحملات الأولى التي قادها عقبة بن نافع وخلفه أبو المهاجر دينار[2]. ولئن لم يستكمل المسلمون فتح المنطقة بسبب انشغالهم بأحداث الفتنة الثانية، وهي أحداث استغلّها البربر بدورهم للتخلّص من الحكم العربي[3]، فإنّ مقتل عبد الله بن الزبير وتوحيد الإمبراطورية شهد عودة القوات الإسلامية إلى بلاد المغرب لإخضاع البربر ومواصلة الفتح. وقد قاد الحملة التي وقعت سنة ٧٤هـ حسّان بن النعمان، وكان من أبرز نتائجها انهيار المقاومة المسلحة للبربر بالقضاء على التكتّل القَبَلي الذي كانت تقوده الكاهنة وانخراط اثني عشر ألفاً من سكّان المنطقة في الجيش للمشاركة إلى جانب العرب في إخضاع من تبقّى من الروم والبربر[4]، وإلى هؤلاء يرجع الفضل في فتح إسبانيا.

(١) سبق عمليات الفتح التي وقعت في خلافة معاوية حملات عديدة كان أشهرها تلك التي قادها عبد الله بن أبي سرح والي مصر في خلافة عثمان. لكن المشاركين في هذه الحملة لم تكن لديهم نيّة الاستقرار في تلك المنطقة، ولذلك عادوا إلى مصر ولم يولّ عبد الله على أهل إفريقيّة أحداً ولم يتخذ بها قيرواناً. انظر: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، بيروت، ١٩٦٤، ص٣٦ ـ ٤٥؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨، مج٤، ص٣٩٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٣، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

DJAIT (H), «La Wilaya d'Ifrigiya au II/VIIIè siècle, Etude Institutionnelle», In: *Studia Islamica*, N° XXVII, Année 1967, pp. 106-107.

(٣) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، ١٩٤٨، الجزء ١، ص٣٠ ـ ٣١؛ ابن خلدون، كتاب العبر، مج٤، ص٤٠٠.

(٤) الرّقيق القيرواني، كتاب إفريقيّة والمغرب، تونس، ١٩٦٨، ص٦٤ ـ ٦٩ ـ ١٧٤؛ ابن عبد الحكم، فتوح =

صارت إفريقيّة بعد موت والي مصر عبد العزيز بن مروان ولاية مستقلّة[1] على رأسها موسى بن نصير، وتمّت في تلك الفترة السيطرة على بلاد المغرب. أمّا الإسلام واللّغة العربيّة فقد ظلّ انتشارهما محدوداً رغم ما ينسبه الرّواة من مجهودات لابن نصير[2] في نشرهما. ويُمكن في هذا المجال التّمييز بين الأرياف والمدن، فهذه الأخيرة كانت مجالاً لانتشار الإسلام واللغة العربيّة نظراً لسيطرة العرب عليها، أمّا الأرياف فقد اعترف شيوخ البربر فيها بسيادة الدولة الإسلاميّة مقابل اعتراف الفاتحين الجدد بسلطتهم على السكّان. وبذلك تمّ الفتح، لكن إسلام أغلب البربر لم يكن سوى اعتراف بسيادة الخليفة وربما لم يمسّ هذا الاعتراف معظم المغرب الأقصى[3]. أمّا البربر الذين دخلوا الإسلام واندمجوا مع الفاتحين الجدد، فلم يتمكّنوا من الحصول على الامتيازات نفسها التي كان يتمتّع بها العرب المسلمون. فباستثناء المنخرطين في الجيش الذين كانوا معفين من الضرائب ويأخذون العطاء والغنائم، كان البقيّة يدفعون الضرائب الباهظة بما في ذلك الجزية ويُعاملون معاملة سيئة من قبل الولاة[4]، الأمر الذي ولّد لديهم شعوراً بالنّقمة والسّخط تزايد بمرور الأيام. ورغم محاولة عمر بن عبد العزيز إصلاح هذا الوضع، فإنّه لم يطرأ أي تحسّن على أوضاع البربر، لأنّه سرعان ما تمّ التراجع عن الإجراءات التي أقرّها هذا الخليفة لصالحهم. ولعلّ إدخال مزيد من البربر إلى حظيرة الإسلام[5] هو الإنجاز الوحيد الذي تمّ تحقيقه.

وعادت الأوضاع في إفريقيّة إلى ما كانت عليه مع خلافة يزيد بن عبد الملك، بل ازدادت سوءاً بسبب احتداد الخصومات القَبَليّة بين الولاة القيسيين واليمنيين وما انجرّ عنها من عمليّات انتقام وتصفية حسابات وما أظهره هؤلاء من لهفة على جمع الأموال لإرضاء الخلفاء وإشباع رغباتهم، وهو ما دفعهم إلى التعسّف وسوء السّيرة[6]. وبالإضافة إلى الولاة كان العمال بدورهم يبتزّون السكّان، فهذا عمر بن عُبيد الله المرادي، عامل طنجة لابن الحبحاب، قد «أساء السّيرة وتعدّى في الصّدقات العشر وأراد أن يخمّس البربر رغم أنّهم

= **إفريقية**، ص٧١؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص٣٢؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٣٨.

(١) الرّقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية**، ص٦٨؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٤١؛ Djaït (H), «La Wilaya...», *Studia Islamica*, op. cit., p. 107.

(٢) الرّقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية**، ص٧٠؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٤٢؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٦، ص٢٢٠.

(٣) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، الدّار البيضاء، ١٩٩٢، ص١١٤ ـ ١١٦.

(٤) ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٤، ص٤٠٣.

(٥) الرّقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية**، ص٩٧؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ص٤٨؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٤، ص٤٠٣.

(٦) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٥٢.

من المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله»[1]. ولم يكتفِ الولاة بما يجمعونه من ضرائب، بل كانوا يجهّزون الحملات العسكريّة البريّة والبحريّة للسّلب والنّهب، وكان البربر الضحيّة الأولى لهذه الحملات إمّا لتعرّضهم للنّهب أو لمشاركتهم فيها ودفع نفقاتها.

ولم يقتصر ظلم ولاة بني أميّة على سائر البربر، بل تجاوزهم ليشمل المنخرطين منهم في الجيش. فقد صاروا محرومين من العطاء ومن الغنائم التي يتحصّلون عليها خلال الحملات العسكريّة[2]. كما لم تعطِ عمليّة توطين الفاتحين في إسبانيا للبربر مكاناً يتماشى ودورهم في عمليّة الفتح. فقد تمّ تركيز العرب في الأراضي المنخفضة الخصبة، في حين تمّ توطين البربر في أراضٍ مرتفعة وأقلّ خصباً[3]. ولم يكتفِ الأمويون بذلك بل عملوا على منع تدفّق مزيد من البربر إلى إسبانيا. كما لم يعدْ الجيش الذي كان في السّابق وسيلة سهلة للارتقاء الاجتماعي يلعب ذلك الدّور إثر توقّف الفتوحات[4].

وتبرز كلّ هذه الأعمال رغبة السّلطة في استنزاف ثروات المنطقة والتراجع عن الامتيازات المتواضعة التي كانت تُعطى للبربر المنخرطين في الجيش وسدّ الآفاق أمام بقيّة السكان. ويرى محمد عبد الحيّ شعبان أنّ الإجراء المتمثّل في منع البربر من الانتقال إلى إسبانيا هو الذي أشعل نيران الثورة سنة ١٢٢هـ[5]. وفي هذا جانب من الصحّة، باعتبار أنّ العناصر البربريّة، التي كانت منخرطة في الجيش وخاصة من قبيلة مطغرة التي يذكر ابن خلدون مشاركة أبنائها في فتح الأندلس[6]، قد لعبت دوراً هاماً في قيام هذه الثورة. لكن هذا الإجراء لا يفسّر وحده ما وقع في المغرب الأوسط والأقصى باعتبار أنّ الظروف والأحداث التي كانت تشهدها المنطقة قد ساهمت بدورها في اندلاعها. فولاية عبيد الله بن الحبحاب التي جرّت الوبال على كلّ سكان إفريقيّة كانت أشدّ وطأة على قبائل هذه المنطقة. فقد كان عامل ابن الحبحاب على طنجة وما تلاها مثالاً لسوء السّيرة والاستغلال، وهو الذي أراد تخميس البربر رغم إسلامهم[7]. ولم يكن عامل السّوس

(١) الرّقيق القيرواني، تاريخ إفريقية، ص١٠٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج١، ص٥١ - ٥٢؛ ابن خلدون، كتاب العبر، مج٤، ص٤٠٥.

(٢) انظر ما قاله وفد البربر الذي انتقل إلى دمشق لمقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك في: تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) DJAIT (H) «La wilaya..», *Studia Islamica*, op. cit., p. 109.

(٤) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص١٢٨.

(٥) محمد عبد الحيّ شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٦٨.

(٦) ابن خلدون، كتاب العبر، مج٦، ص٢٣٩.

(٧) الرّقيق القيرواني، تاريخ إفريقيّة، ص١٠٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج١، ص٥١ - ٥٢؛ ابن

الأقصى أفضل من زميله، فقد استبدّ بدوره بالبربر وكثر عبثه بنسائهم[1]. وطبيعي أن تثير هذه التّصرفات غضب السكّان ونقمتهم، خصوصاً إذا كانوا ينتمون إلى قبائل ذات شوكة مثل زناتة ومكناسة التي كانت منذ القرن الخامس ميلادي وربّما قبل ذلك قد «قطعت الصّلة بأية سلطة وحاربت كلّ حكم مركزي نظامي غير بربري حاول السّيطرة عليها»[2].

وقد وجد أبناء هذه القبائل وكلّ المتضررّين من الحكم الإسلامي في المبادىء الخارجيّة، التي نقلتها بعض العناصر البربريّة من القيروان، ما يُساعدهم على التخلّص من ظلم ولاة بني أمية وقهرهم ويحقّق لهم رغبتهم القويّة والدائمة في الاستقلال. لذلك التفّوا حولها وتبنّوها، فكانت ثوراتهم متسلّحة بالفكر الخارجي وقد نسبها الرواة إلى التيّار الصّفري.

إلاّ أنّ إجماع الرّواة على ربط ثورات البربر بالمذهب الخارجي لم يمنع محمد عبد الحي شعبان من نفي الصّلة بينها وبين الحركة الخارجية، مؤكداً أنّ كلّ محاولة للربط بين الحركتين لا تقوم على أي أساس ولا تؤيّدها المصادر، معتبراً «أنّ الدّلائل المتوفرة في ما يسمّى بالمصادر الإباضيّة يجب أن لا تؤخذ بجديّة لأنّ هذه المصادر هي تصوير رومنطيقي مبالغ فيه لتاريخ فئة ضئيلة الأهميّة». وقد حاول شعبان إيجاد تفسير لهذا الربط، وتوصّل إلى أن البربر بصفتهم مسلمين متمرّدين على الحكومة لا بدّ أن يُنظر إليهم من قبل معارضيهم كخوارج، وهم أنفسهم قابلون بذلك حتى إنهم شجّعوا عليه لأنه يعني مساواتهم بإخوانهم العرب المسلمين[3].

ويصعب قبول ما ذهب إليه شعبان لعدم اتّفاقه مع ما تذكره المصادر. فكلّ الرّواة الذين نقلوا أخبار تلك الفترة نظروا إلى ثورات البربر على أنها ثورات خارجيّة. ولا يوجد ما يشير إلى أنّ الصلّة بين الحركتين هي من صنع مؤرّخي الإباضيّة كما يذهب إلى ذلك شعبان. ولا نعرف المصادر التي اعتمدها هذا المؤرّخ وتوصّل من خلالها إلى هذا الاستنتاج. ولعلّ المصدر الوحيد الذي لم يُسمِّ هذه الحركة الخاصة بالبربر ثورة خارجيّة هو الطبري، وإنْ كان هذا المؤرّخ نفسه يذكر في إحدى الرّوايات التي يصف فيها سكّان إفريقيّة إنّهم «ما زالوا من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك حتى دبّ إليهم دعاة أهل العراق، واستثاروهم فشقّوا عصاهم وفرّقوا بينهم إلى اليوم»[4]. وفي هذا

= خلدون: كتاب العبر، مج٤، ص٤٠٥.

(١) ابن خلدون، كتاب العبر، مج٦، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص١٢٨.

(٣) محمد عبد الحيّ شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٦٩.

(٤) تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٥٤.

الكلام إشارة إلى دعاة الخوارج الذين قدموا من الشرق ونقلوا المبادىء الخارجية ونشروها في أوساط البربر، وهي المبادىء التي قامت عليها ثوراتهم.

وأخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الثورة الأولى التي اندلعت ابتداءً من سنة ١٢٢هـ، لم تكن إباضيّة كما يرى شعبان، بل تنسب إلى الصفرية[١]. وممّا قد يؤكّد عدم ارتباطها بالمذهب الإباضي، انعدام الصلة بين القائمين بها وزعماء هذا التيّار الموجودين في البصرة وعدم اهتمام رواة الإباضية بها.

أمّا عن الثورة في حدّ ذاتها، فقد سبقت اندلاعها عمليّة إعداد قام بها زعماء القبائل البربريّة المشاركة فيها وخصوصاً مطغرة ومكناسة وزناتة وبرغواطة[٢]. فبعد أن كوّنوا اتحاداً قَبَليًا[٣]، أرسلوا وفداً إلى دمشق يتزعمه ميسرة زعيم مطغرة للتعرّف على حقيقة موقف الخليفة من أعمال ولاته. وقد عاد هذا الوفد من دون أن يتمكّن من مقابلة هشام، وكان ذلك كافياً لتبرير خروجهم على السلطة. إلا أنّ اندلاع الثورة لم يأتِ مباشرة بعد عودة الوفد من الشام، لأنّ حرص الثائرين على إنجاح تحركهم جعلهم يبحثون عن الفرصة المناسبة للخروج، وقد توافرت هذه الفرصة بانتقال جيش إفريقيّة إلى صقليّة سنة ١٢١هـ.

قاد البربر الثائرين في البداية ميسرة المطغري الذي بويع بالخلافة وتسمّى «أمير المؤمنين»[٤]. وتمكّنت جيوشه من السّيطرة على طنجة ثم السوس ثم بقيّة مناطق المغرب الأقصى بعد معارك كثيرة[٥] تكبّدت فيها جيوش الدولة هزائم ثقيلة. ورغم الخلاف الذي طرأ بين ميسرة وأصحابه وأدّى إلى عزله ثمّ قتله[٦]، فقد واصل البربر زحفهم في اتجاه الشرق بقيادة خالد بن حميد الزّناتي[٧].

وأمام الانتصارات المتتالية التي حقّقها البربر، أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك جيشاً ضخماً يقوده كلثوم بن عياض القيسي[٨]. إلاّ أنّ هذا الجيش لم يتمكّن رغم ما توافر

---

(١) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقيّة**، ص٩٨؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٤، ص٤٠٥.

(٢) ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٤، ص٤٠٥؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٥٢ - ٥٣.

(٣) محمّد بن حسن، **القبائل والأرياف المغربيّة في العصر الوسيط**، تونس، ١٩٨٦، ص٨٢.

(٤) الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية**، ص١١٠؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٤، ص٤٠٥.

(٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٥٢.

(٦) يتفق الرّواة على القول إنّ خلع ميسرة كان إثر المعركة التي وقعت بين البربر وجيش الدولة الذي كان يقوده خالد بن حبيب الفهري قرب طنجة وأنّ سبب ذلك هو إنكار البربر على ميسرة سوء سيرته وتغيّره عمّا كانوا بايعوه عليه، فقتلوه: ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقيّة**، ص٩٥؛ الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية**، ص١١٠؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٥٣.

(٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج١، ص٥٥.

(٨) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، ص٩٦.

لديه من إمكانيات ماديّة وبشريّة من إلحاق الهزيمة بالبربر لسببين اثنين: أولهما، الخلافات القائمة بين قواده؛ وثانيهما، ما أظهره البربر من اندفاعٍ واستبسالٍ في القتال.

واندلعت في الوقت الذي كان فيه جيش كلثوم يواجه البربر في الغرب انتفاضة أخرى في الشرق بقيادة عكاشة بن أيوب الفزاري[1]، استولى القائمون بها على قابس وانضمّت إليهم صفريّة زناتة وهوارة التي كان يقودها عبد الواحد الهواري[2]، واتّجهت هذه المجموعة نحو القيروان، وحاولت الاستيلاء عليها. ولئن تمكّن حنظلة بن صفوان قائد الجيش الثاني الذي أرسله هشام إلى إفريقيّة من إنقاذ المدينة من السقوط في أيدي الصّفريّة ومن قتل زعيمَيْ هذا التحرّك، فإنّه لم يتمكّن من إنقاذ المنطقة الغربيّة من أيدي البربر الذين استولوا عليها وقطعوها نهائيًا عن القيروان.

لكن رغم نجاح البربر في انتزاع استقلالهم، فإنهم فشلوا في تكوين «الدولة القومية» التي كانوا يطمحون إلى إقامتها[3] بسبب الخلافات التي ما لبثت أن انفجرت بين زعماء التكتّل القَبَلي المشارك في الثورة. وقد تواصلت تحرّكات الخوارج في الفترة المتبقيّة من الحكم الأموي، وستزداد الأوضاع اضطراباً بدخول الخوارج الإباضيّة في الصّراع في الوقت الذي استولى فيه عبد الرحمن بن حبيب على القيروان مستغلاً انشغال الأمويين بالصّراع على السلطة في الشام.

إجمالاً، يظهر من خلال تتبع تحركات الخوارج بعد نهاية الفتنة الثانية أنّ العمليات العسكريّة لم تتوقف نهائيًا ولكنّها انتقلت إلى خارج العراق واختلفت عن تلك التي وقعت في الفترة السّابقة كما اختلفت من منطقة إلى أخرى. ففي المناطق القريبة من قلب الإمبراطورية مثل الجزيرة الفراتية والبحرين كانت صغيرة ومشتّتة أمكن القضاء عليها بسهولة، أمّا في بلاد المغرب فقد كانت أكثر اتساعاً وقوّة، لذلك فشلت الدّولة في إخمادها واسترجاع سيطرتها على المناطق التي شملتها.

وتشترك هذه الانتفاضات - رغم اختلافها - في العديد من الجوانب منها ارتباطها بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها المناطق التي اندلعت فيها، وهو ما يفسّر انسجام القائمين بها قَبَليّاً وإقليميًا وعرقيًا. كما تشترك في ضعف تركيز القائمين بها على المسائل الدينية وغياب ما يدلّ على تشدّدهم مثل أسلافهم في تطبيق مبادىء الحركة. وهو ما يؤكد أنّ مسعى الخوارج الجدد صار سياسيًا وعسكريًا بالدرجة الأولى في حين ضعف

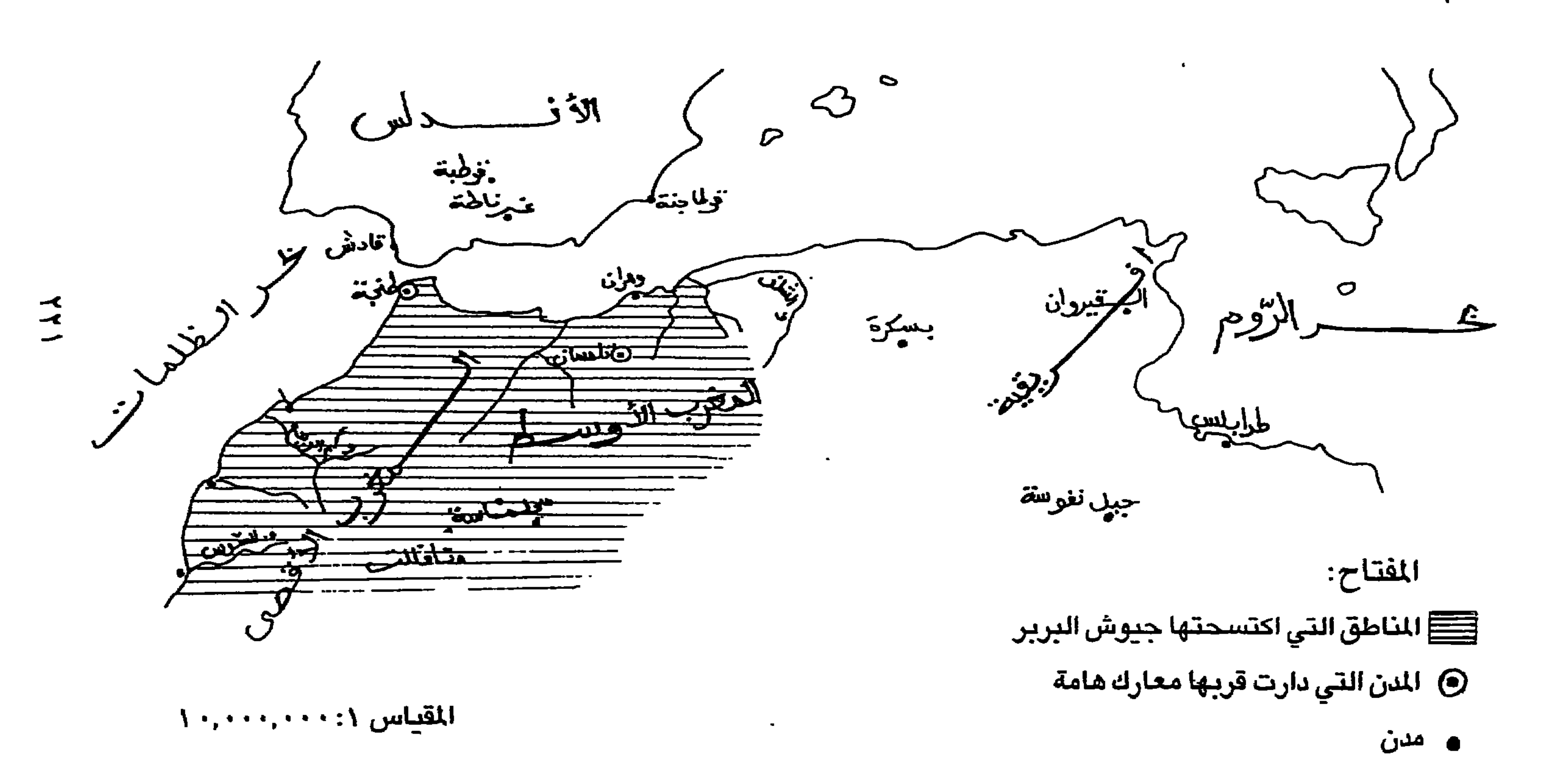
---

(١) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، ص٩٦.

(٢) ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، ص٩٦ - ١٠٢؛ محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، الجزائر، ١٩٨٤، ص٨١.

(٣) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ص١٣٥.

مجال تحركات المجموعات الخارجية في المغرب الأوسط والأقصى في ما بين ١٢٢ و١٣٢ هـ



اهتمامهم بالمسائل الدينية والفكرية. ولعلّ الدعاة الذين نشروا الفكر الخارجي ولا سيما في بلاد المغرب هم الذين لم يولوا هذه المسائل أهميّة كبيرة، واقتصر هدفهم على تكوين مجموعات معادية للأمويين تناضل من أجل التخلّص من حكمهم تجمع بينها المبادىء الخارجيّة الأساسيّة، في حين ظلّت المسائل الفكرية تحظى باهتمام القعدة في البصرة خاصة.

٢ ـ نشاط الخوارج الفكري

لم يكن النشاط الفكري للخوارج وليد الفترة التي نحن بصدد دراستها ولا هو مرتبط بانحصار نشاطهم العسكري[1]. فالخوارج الذين انبثقوا من وسط القرّاء، أظهروا منذ حروراء قُدرةً كبيرة على الجدل، ويبرز ذلك من خلال المحاجّة التي وضعوها ضدّ التحكيم، ثم زادت مجادلاتهم في سنوات الفتنة الثانية وتوسّعت لتشمل مسائل عديدة. وقد تواصل هذا النشاط خلال الفترة المتبقية من الحكم المرواني، وانشغل به قعدة الخوارج كما شارك فيه العديد من علماء المسلمين. وزاد انحصار النّشاط العسكري في توسيع نطاق الجدل وانضمام عدد كبير من الخوارج إليه ومشاركتهم فيه.

إلاّ أنّ دراسة محاور هذا النشاط ودور مختلف الأطراف فيه وتأثيراته على الخوارج يكتسي بعض الصعوبة بسبب نقص المعلومات عنه. فكُتُب التاريخ العام لا تولي هذا النشاط أيّة أهميّة لاقتصارها على تتبّع الأحداث السياسية والتحرّكات العسكرية. أما كُتُب الفرق والمقالات فهي توفّر مادّة غزيرة عن مختلف المجموعات الخارجيّة وتطوّر عقائدها. لكنّ المنهج الذي اتّبعه مؤلّفوها في تصنيف المجموعات وتركيبها وتعديد الطوائف المتفرعة عنها لا يُمكّن من التعرّف على ظروف هذا النشاط والأسباب الحقيقيّة التي تفسّر اختلاف مواقف الخوارج حول بعض المسائل. حتّى إنّه يبدو لمتتبّع أخبارهم من خلال تلك المصادر أنّ خلافاتهم نظريّة بحتة لا صلة لها بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي كانت تعيشه المجموعات الخارجيّة. هذا بالإضافة إلى الاضطراب والغموض الذي ساد نشأة العديد من الفرق والطوائف.

أمّا المصادر الخارجيّة، فتقتصر على بعض مؤلّفات الإباضيّة[2] التي تحتوي على

(١) يذهب نايف معروف إلى القول إنّ الخوارج لم يكونوا أصحاب فكر وفلسفة. ويرجّح أن يكون ذلك عائداً لانشغال زعمائهم وقادة الرأي عندهم بالخروج والجهاد، وهو ما حال دون إعمال نظرهم في مسائل الفكر المجرّد. ويربط معروف اهتمام الخوارج بدراسة الإسلام بتوقف تحركاتهم العسكرية. انظر: نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص١٨٦.

(٢) أهم المصادر الإباضيّة: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب لأبي العباس الدّرجيني، وكتاب السّير للشمّاخي. أمّا البقيّة فقد ركّز مؤلّفوها على الأحداث في بلاد المغرب، لذلك جاءت أخبار خوارج المشرق مقتضبة جداً.

معلومات قيّمة تخصّ هذا النشاط إلاّ أنّها تقتصر على أتباع هذا التيّار، لذلك لا يُمكن من خلالها تكوين فكرة واضحة عن نشاط بقيّة المجموعات الخارجيّة.

وعموماً، تحتوي مختلف المصادر المذكورة ـ رغم نقائصها ـ على معلومات مفيدة في دراسة نشاط الخوارج الفكري وتسليط الضوء على بعض جوانبه، علماً بأننا سنركّز قدر الإمكان على ما وقع في الخلافة الأمويّة وذلك بالاقتصار على المسائل التي ارتبطت بأحداث طرأت خلالها. إلاّ أنّ تجاوزنا لهذه الفترة أمر غير مستبعد بسبب غياب الأدلّة التي يمكن من خلالها تحديد زمن بعض الأحداث المذكورة تحديداً دقيقاً.

كانت مدينة البصرة المركز الرئيسي لنشاط الخوارج الفكري، ويُعزى ذلك إلى وجود أكبر عدد من الخوارج فيها منذ بداية الحكم الأموي. ولئن غادرها أغلبهم مع بداية الفتنة الثانية والتحقوا بالأهواز للمشاركة في انتفاضة الأزارقة، فإنّ العناصر المتبقيّة تزعّمت النشاط الفكري واهتمّت به ووسّعت نطاقه.

ولم يكن وجود الخوارج السبب الوحيد لتطوّر هذا النشاط واتّساع نطاقه. فالحركيّة الفكريّة التي بدأت تشهدها البصرة في أواخر القرن الأول هجري ساهمت بدورها في جعل هذا المصر يتحوّل تدريجيًا إلى أحد أبرز الأقطاب الفكرية والعلميّة في الدولة الإسلامية[١] منذ بداية القرن الثاني هجري إذ كانت حلقات الدراسة في مساجده عديدة ومتنوعة تحضرها أعداد كبيرة من البصريين وغيرهم، ولم تكن دروس المساجد تقتصر على تعليم القرآن واللغة بل تُثار فيها مسائل عديدة ومتنوّعة[٢].

وقد أفرز هذا النشاط الفكري العديد من العلماء الكبار، منهم: أنس بن مالك، وابن سيرين، والحسن البصري وهو أشهرهم على الإطلاق كانت له حلقة معروفة يؤمّها عدد كبير من المسلمين من سكان المصر وغيرهم وتُطرح فيها المسائل الدينيّة والسياسيّة والفكريّة. وهو ما يبدو واضحاً من خلال قول ابن سعد عن الحسن البصري: «هو من رؤوس العلماء في الفتن والدّماء»[٣]، إشارة إلى مساهمته الكبيرة في الجدل الفكري الذي دار بين المسلمين حول الفتن ومسؤولية مختلف الأطراف فيها. وقد تكوّن في حلقة الحسن البصري العديد من العلماء الذين لعبوا دوراً أساسيًا في تطوير الفكر العربي الإسلامي.

كان للخوارج في هذا الوسط البصري نشاط فكري مكثف طيلة خلافة بني مروان، وينقل الدّرجيني والشمّاخي أصداء هذا النشاط في الوسط الإباضي. كما توجد إشارات عديدة إلى اهتمام الخوارج في الكوفة والجزيرة الفراتيّة وفي شرقي الإمبراطورية بمثل هذا

(١) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٨٥.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص٤٤١؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٨٣.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، ص١٦٣.

النشاط[1]. إلاّ أنّ مشاركتهم كانت على ما يبدو محدودة ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبصرة، إذ يذكر ابن عبد ربّه قدوم خوارج من الجزيرة ليسألوا أحد كبار زعماء المذهب عن أمور يختصمون فيها[2]. كما يذكر الشماخي قدوم بعض خوارج الكوفة إلى البصرة ليذاكروا أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة في مسألة القدر[3]. أما مظاهر هذا النشاط، فيُمكن التعرّف عليها من خلال ما ينقله الرّواة من أخبار تخصّ تحركات زعماء الإباضيّة وأنشطتهم المتنوّعة داخل البصرة.

تتمثّل أولى هذه الأنشطة في قراءة القرآن وتفسير آياته وشرح معانيه واستنباط الأحكام منها[4]، وهو نشاط وُجد في الأمصار الإسلاميّة مع وجود المسلمين، وأدّى إلى تكوين مجموعات القرّاء خاصةً في العراق والشام، وساهم في بروز العديد من العلماء الكبار. كما كان لزعماء الإباضية اهتمامٌ بالافتاء في المسائل التي يختلف فيها النّاس من أتباعهم أو من عامّة المسلمين. وتوجد روايات عديدة عن هذا النشاط وعن المسائل التي كانت تُعرض على هؤلاء العلماء للنظر فيها[5].

ومع دراسة القرآن والإفتاء، كان الخوارج يقصّون على الناس الأخبار والقصص. ويظهر أن اهتمام الإباضيّة بالقصص لم يكن من باب تسلية الناس بأخبار الأمم السابقة كما كان يفعل بقيّة القصّاصين بل للتّذكير بما حدث للمسلمين وما شهدته الأمّة من فتن واستخلاص العبرة منها[6] واستغلالها لنشر مبادىء حركتهم وجذب مزيد من الأنصار إلى صفوفها. وكان للخوارج الإباضيّة إلى جانب هذه الأعمال مناظرات ونقاشات مع أتباع التيّارات الأخرى من الخوارج أو غيرهم[7] ساهمت إلى حدّ كبير في تطوّر الفكر الخارجي خاصةً، والفكر العربي الإسلامي عامّة.

كانت هذه الأنشطة المتنوعة تتمّ في مجالس يقيمها الخوارج الإباضية وهي عديدة في البصرة، منها: مجلس أبي سفيان قنبر[8]، ومجلس أبي محمد النّهدي الذي كان يذكر ويحدّث ويقصّ فيه. ويظهر من خلال الروايات أنّ أبا محمد كان يتطرّق في مجلسه كذلك

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٤ ـ ٩٥.
(٢) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٢، تحقيق طلال القنا، بيروت، ١٩٥١، ص٢٦.
(٣) الشماخي، كتاب السّير، ص٨٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٩٣.
(٥) الدّرجيني، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاّي، الجزائر، ١٩٧٤، ج٢، ص٢٣٩ ـ ٢٤٣؛ الشماخي، كتاب السّير، ص٨٩.
(٦) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٥٦؛ الشماخي، كتاب السّير، ص٨٣.
(٧) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٤٦؛ الشمّاخي، كتاب السّير، ص٧٧.
(٨) الشماخي، كتاب السّير، ص٩٢ ـ ٩٣.

إلى سياسة الحكّام الأمويين «فينتقدهم ويدعو على خالد بن عبد الله القسري وهشام بن عبد الملك حتّى تضايق منه عامل البصرة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري وطلب منه الكفّ عن ذلك»[1].

ولم تكن هذه المجالس حكراً على الرّجال بل تحضرها النساء كذلك حيث خُصّصت لهنّ غرفٌ يستمعن منها إلى النقاشات[2]، وهو ما يؤكّد مواكبة المرأة الإباضيّة للأحداث وحرصها على المشاركة في هذا النشاط. وقد برزت من نساء الإباضيّة عاتكة بنت المهلب وحليمة المهلبيّة[3].

وبالتوازي مع هذا النشاط العلني، كان للإباضيّة نشاطٌ سرّي يتمثّل في عقد اجتماعات في أماكن تُحاط بالسرية التامة ولا يحضرها سوى زعماء الحركة أو العناصر المقربة منهم. وينقل الدّرجيني والشمّاخي صورة عن أحد هذه الاجتماعات التي تمّت في منزل حاجب الطائي، وفيها وصف دقيق لمختلف مراحل الاجتماع وخصوصاً تدخّلات الحاضرين التي تواصلت كامل الليل.

ولئن لا تعطي الرواية تفاصيل عن محتوى التدخلات يُمكن من خلالها التعرّف على الهدف من عقد هذه الاجتماعات، فإنّ اقتصار الحضور على هذه النّخبة من أتباع الحركة والتآمها في كنف السريّة المطلقة دليل على أنّها كانت مخصّصة لدراسة مسائل تهمّ الحركة، ويشكّل اطّلاع السلطة أو بقيّة المسلمين عليها خطورة بالنسبة لها. وعموماً تمثّل هذه الاجتماعات جانباً من نشاط الإباضيّة يتكامل مع الجانب العلني الذي تحدثنا عنه سابقاً.

أمّا عن المحاور الرئيسية التي كان يدور حولها جدل الخوارج فهي متعدّدة، إلاّ أن أغلبها لم يكن سوى امتداد للمحور الرئيسي للخلاف بينهم والمتعلّق بمسألة «القعود» وما تفرّع عنها من مسائل، مثل الموقف من المخالفين الذي انشغل به القعدة وكان السبب الرئيسي في انقسامهم إلى مجموعات منها الإباضية.

شكّلت مسألة الموقف من أطفال المخالفين أحد المحاور الرئيسية للجدل خلال تلك الفترة. فبعد أن حكم الأزارقة بكفرهم وخلودهم في النار مثل آبائهم ورفض بقيّة الخوارج هذا الحكم، تواصل الجدل في هذه المسألة وتعمّق وأدّى إلى ظهور فرقة كبيرة هي «العجاردة» نسبة إلى عبد الكريم بن عجرد تميّز أتباعها بالقول إنّه «يجب البراءة من الطفل

---

(١) يذكر الدّرجيني أنّ لأبي محمّد النّهدي مسجداً في البصرة: الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٥٧؛ الشماخي، كتاب السّير، ص٩٧.
(٢) الشماخي، كتاب السّير، ص٩٣.
(٣) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٦٤؛ الشمّاخي، كتاب السّير، ص٨٨ ـ ٨٩، ١٩٧.

حتى يدرك فيُدعى إلى الإسلام»[1]. وقد تفرّعت عن العجاردة مجموعات عديدة ربط مؤلّفو كتب الفرق ظهورها باختلاف مواقف زعمائها من هذه المسألة[2]، منها خاصةً «الثعالبة» و«الصّلتية». وقد كفّرت كل مجموعة منها باقي المجموعات وتبرّأت من أتباعها.

واختلف أتباع هذه المجموعات كذلك في مسألة دخول أطفال المخالفين إلى الجنّة أو عدم دخولهم وازداد انقسامهم بسبب ذلك[3]. ولعل ما يلفت الانتباه هو أنّ الجدل في مسألة الموقف من أطفال المخالفين جرى خاصةً بين خوارج المناطق الشرقية للإمبراطورية إذ لا نجد له صدى كبيراً في البصرة أو غيرها من المناطق.

كما أثارت مسألة بيع الأمة المؤمنة إلى غير المؤمنين بدورها جدلاً كبيراً بين الخوارج، إذ أيّد بعضهم عمليّة البيع واعتبرها حلالاً في حين رفضها آخرون وحرّموها، ووقفت مجموعة ثالثة حيرى إزاء هذه المسألة فسميت «الواقفة»[4]. وتذكر كُتُب الفرق أنّ أبرز المتكلّمين في هذه المسألة أبو بيهس هيصم بن جابر الضّبعي الذي تبنّى الموقف الأول وتبرّأ من القائلين بتحريم بيعها ومن الواقفة وكفّرهم جميعاً[5]. وقد كان الجدل حول هذه المسألة في البصرة خاصةً.

كما حظيت مسألة «التقيّة» باهتمام الخوارج، رغم أنّ الموقف منها كان قد حُسم منذ بداية الخلاف إذْ أنكر الرّافضون للقعود التقيّة وحرّموها في حين أجازها القعدة لأنّها عنصر متمّم للقعود. غير أنّ الحسم في هذه المسألة بهذا الشكل لم يمنع من تواصل الجدل حولها، وهو ما أدّى إلى قول نجدة وأتباعه بجواز التقيّة في القول والعمل في حين عارضتها مجموعة أخرى بالقول إنها تجوز في القول دون العمل. وارتبط بمسألة التقيّة مكان الإقامة، فقد سمى القعدة مكان إقامتهم «دار التقيّة»، في حين سمّاه الرافضون لها «دار الكفر». وطوّر الإباضيّة موقفهم من هذه المسألة إذ سمّوها «دار التّوحيد» لقولهم إنّ مُخالفيهم موحّدون، واستثنوا معسكر السّلطان الذي أطلقوا عليه اسم «دار البغي».

ولم يكن الخوض في هذه المسائل وغيرها مقتصراً على الخوارج بل شارك فيه العديد من علماء المسلمين الذين تجنّدوا للردّ على أقوال أنصار هذه الحركة منذ ظهورهم وتبنيهم

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٣؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٣؛ الشهرستاني، الملل والنّحل، ج١، ص١٧٣.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٧؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٦ ـ ٦٨؛ الشهرستاني، الملل والنّحل، ج١، ص١٧٧.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١٠٠؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٥.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١١٠؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٧٤.

(٥) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١١٣؛ الشهرستاني، الملل والنّحل، ج١، ص١٦٩؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٧٤.

مواقف متصلّبة تجاه المعارضين لهم. وقد ازدادت مشاركة العلماء منذ أن تبنّى نافع بن الأزرق وأصحابه القول بتكفير المخالفين وكلّ مرتكبي الكبائر وحكموا بخلودهم في النّار. ويظهر من خلال رواية البغدادي ارتباط الجدل في مسألة مرتكب الكبيرة بأقوال الأزارقة إذ يذكر «أنّ الناس قد اختلفوا في أصحاب الذنوب من الأمّة في زمن فتنة الأزارقة»[1]. وقد شغل الجدل في هذه المسألة جميع العلماء والعديد من المسلمين وتواصل سنوات طويلة وأدّى إلى ظهور تيار فكري كبير هو تيّار الاعتزال.

ولم تكن مسألة مرتكب الكبيرة التي أثارها الخوارج المسألة الوحيدة للجدل والمجادلة بين المسلمين، بل طُرحت في خضمّ هذه النقاشات قضايا أخرى ارتبطت بأحداث الفتنة التي انشغل المسلمون بإعادة قراءتها، من أهمها قضيّة الجبر والاختيار التي اتخذ الجدل حولها بُعداً فكريًا بعد أن كان دينيًا في السابق[2]. وقد أثارت هذه المسألة جدالاً كبيراً بين الخوارج في البصرة والمناطق الأخرى. ويذكر الأشعري في هذا الإطار أنّ شعيباً وميموناً ـ وهما من الخوارج العجاردة ـ اختلفا في مسألة القدر إذ قال ميمون بالاختيار في حين قال شعيب: «إن أعمال العباد مخلوقة لله» وبرىء من ميمون. وتابع أناس ميموناً وتابع أناس شعيباً فكتبوا إلى عبد الكريم بن عجرد وهو في حبس خالد بن عبد الله القسري يعلمونه بقول ميمون وشعيب، ولم يكن جواب ابن عجرد واضحاً فاختلفوا وانقسموا إلى فرقتين هما: «الميمونيّة» و«الشّعيبيّة»[3]. ويذكر رواة الإباضيّة بدورهم قدوم حمزة الكوفي إلى أبي عبيدة زعيم الإباضيّة ليُذاكره في أمر القدر. وتعطي الروايات تفاصيل الحوار الذي دار بينهما واختلاف حمزة مع أبي عبيدة وبعض أصحابه[4]. وتذكر كُتُب الفرق والمقالات أسماء العديد من المجموعات التي انقسمت بسبب اختلاف مواقف أتباعها من مسألة القدر.

وتعطي الروايات التي تصف النقاشات التي دارت بين الخوارج حول مسألة الجبر والاختيار فكرة عن الكيفيّة التي كان يتمّ بها الانقسام داخل المجموعات الخارجيّة من خلال ما وقع بين الإباضيّة القائلين بالجبر وأصحابهم القائلين بالاختيار. فقد بلغ زعماء الحركة أنّ حمزة الكوفي الذي تبنّى القول بالاختيار «مشى إلى النّساء والضّعفاء فكلّمهم في مسألة القدر، فأمر أبو عبيدة أحد أصحابه وهو حاجب الطائي فجمع له الناس فأعلمهم أنّ حمزة وعطيّة قد أحدثا أحداثاً. فمن آواهما أو أنزلهما أو جالسهما فهو خائن متّهم فتفرّق عنهما

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٨١.
(2) حسين مروة، النزعات المادية، ج١، ص٦١٩ ـ ٦٢٠.
(3) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٣ ـ ٩٥؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٤.
(4) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ الشماخي، كتاب السّير، ص٨٤ ـ ٨٥.

الناس وطُردا من المجالس»[1]. وقد أدّى تحريض زعماء الإباضيّة لأتباعهم ضدّ حمزة إلى خروجه من البصرة إلى الموصل، لكن ذلك لم ينهِ الخلاف بينهما إذ إن أبا محفوظ أحد الإباضية تتبّع القرى يحذّر من حمزة ويخبر أنّه على خلاف المسلمين[2].

وتؤكّد هذه الرّوايات أن الخلاف داخل المجموعات الخارجيّة لم تكن تنتهي بانقسام أتباعها وانقطاع الصلّة بينهم بل كان يتواصل الصّراع في شكل حرب نظريّة يحاول كل طرف من خلالها إثبات صحّة موقفه، مثلما فعل زعماء الإباضيّة مع أصحابهم القائلين بالاختيار.

هذه باختصار مختلف أوجه النشاط الفكري للخوارج والمحاور الرئيسيّة التي دارت حولها نقاشاتهم وما ترتّب عنها من انقسامات. وإذا كان الظّاهر من خلال هذا العرض أنّ ما شغل الخوارج لم يكن سوى جدل نظري شمل المسائل التي اختلفوا بشأنها في ما بينهم أو مع باقي المسلمين وكان انكبابهم على بحثها من منطلق ديني بحت، فإنّ الرجوع إلى أصل الخلاف يؤكّد ارتباطه بما عرفته الحركة مع بداية الفتنة الثانية من انقسام بسبب الخلاف حول بعض المسائل وخصوصاً مسألة «الخروج» أو «القعود». وقد بيّنا سابقاً الجذور السياسية لهذه المسألة، ودور الخوارج في تحويل مواقفهم بشأنها إلى قناعات دينية بعد إخضاعها للقرآن وسيرة الرّسول، وعنها تفرّعت مسائل أخرى تخصّ الموقف من المخالفين والحكم عليهم وعلى نسائهم وأطفالهم والتقيّة. وقد كان تواصل الجدل بشأنها سبباً في ابتعادها تدريجيًا عن جذورها وتحوّلها إلى مسائل ذات صبغة فكرية ودينية، كما كان سبباً في مزيد من انقسام المجموعات الخارجية.

كما كان للأحداث السياسية والأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة في تلك الفترة تأثير على نشاط الخوارج الفكري لأنّ الجدل فيها قد أدّى إلى تبنّي مواقف متباينة أفضت إلى الانقسام. من ذلك انقسام الثّعالبة بسبب تأييد عناصر منهم بقيادة شيبان بن سلمة لعليّ بن الكرماني في صراعه مع نصر بن سيّار في خراسان، وظهور مجموعتين، تسمّى إحداهما «الشبانية»، والثانية «الزياديّة» نسبة إلى زعيم المجموعة المعارضة لشيبان وأصحابه[3]. كما انفصلت مجموعة من الخوارج العجاردة لقول أتباعها إنّ الضريبة في ما سقي بالعيون والأنهار الجارية نصف العُشر ولا يجب العُشر إلاّ في ما سقته السماء فحسب[4]، وقد كفّرهم سائر الثعالبة بسبب هذا القول.

وتأثر النشاط الفكري للخوارج كذلك بالجدل الكبير الذي كان يدور بين المسلمين

(١) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٨٥ ـ ١٢٠؛ الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٤٤.
(٢) الشمّاخي، كتاب السّير، ص١٢٠.
(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٨ ـ ٩٩؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٩.
(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٩؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٧٠.

خاصةً في الأمصار الكبرى مثل البصرة والكوفة حول بعض المسائل مثل مسألة مرتكب الكبيرة وقضيّة الجبر والاختيار. وقد بيّنا سابقاً أن الجدل في المسألة الثانية قد شغل أغلب الخوارج، وكان سبباً في انقسام العديد من المجموعات. وإجمالاً يمكن من خلال ما تقدّم القول إنّ النشاط الفكري للخوارج كان مهمًّا وخطيراً بعد الفتنة الثانية انشغل به عدد كبير منهم في البصرة خاصةً. وقد ساهم هذا النشاط في تطوير الفكر الخارجي والفكر العربي الإسلامي عامّة، لكنّه زاد في تشتت الخوارج بظهور مجموعات جديدة تحمل أسماء مختلفة، لم تكن فرقاً كما يذكر مؤلّفو كُتُب الفرق بل مجموعات صغيرة تضم عناصر تبنّت الموقف نفسه في إحدى المسائل المطروحة ولذلك لم يكن لأغلبها وزن كبير.

ولقد تزامن النشاط الفكري للخوارج في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني هجري مع نشاط آخر لا يقل أهميّة عنه وهو الدّعوة السريّة، محور بحثنا التالي.

٣ ـ الدّعوة السريّة

انطلقت عمليّة نشر الفكر الخارجي بصورة سريّة في أطراف الإمبراطوريّة من البصرة مركز الحركة[١]. إلاّ أنّ أغلب الرّواة لا يذكرون المجموعات التي اهتمّت بهذا النشاط أو أشرفت عليه، ولا توجد سوى بعض الإشارات في مؤلّفات إباضيّة المغرب تخصّ إفريقيّة وتتحدّث عن قدوم سلمة بن سعيد من البصرة إلى القيروان بصحبة عكرمة مولى ابن عبّاس، وقيام سلمة بالدّعوة إلى المذهب الإباضي وعكرمة إلى مذهب الصفريّة[٢]. ورغم اتفاق رواة الإباضيّة على ذكر هذا الخبر، فإنّنا نشك في صحّة بعض ما ورد فيه وذلك لعدّة أسباب منها صعوبة قبول فكرة قيام خوارج ينتمون إلى تيّارين مختلفين بعمل مشترك في المنطقة نفسها ووجود شكوك حول انتماء عكرمة مولى ابن عبّاس إلى الصفريّة[٣] وقيامه بهذه المهمّة في بلاد المغرب، بالإضافة إلى غياب الأدلّة عن وجود تيّار صفري منظّم وله دعاة في الأقاليم الإسلامية.

لكنّ الشكّ في الرّواية لا يصل إلى حدّ نفي انتشار مبادىء هاتين الحركتين كما ذهب إلى ذلك حسين مؤنس[٤]، لأنّ كلّ الرّواة ينسبون المنتفضين في إفريقية في أواخر الحكم

---

(١) لقد سبق الفكر الخارجي أن تسرّب إلى إفريقيّة خاصةً عن طريق العرب القادمين من الشرق للجهاد، لكن الأرجح أن ذلك لم يكن في إطار دعوة منظمة.

(٢) الشمّاخي، كتاب السير، ص٩٨؛ أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، بيروت، ١٩٨٢، ص٤٠-٤١.

(٣) لا تذكر أغلب كتب الفرق انتماء عكرمة إلى الصفرية، أمّا كتب التاريخ فتذكر بعضها انتماء عكرمة إلى المذهب الخارجي من دون إشارة إلى فرقة بعينها؛ ابن قتيبة، المعارف، ص٤٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٢٤٤ ـ ٢٥٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص٢٩٢.

(٤) حسين مؤنس، فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، =

الأموي وبداية الحكم العبّاسي إلى المذهب الإباضي بمن في ذلك الرّواة من غيرالإباضيّة. كما ينسب العديد منهم المنتفضين في المغربين الأوسط والأقصى إلى الصّفرية، وهو ما يفترض وجود نشاط دعائي أدّى إلى انتشار مبادىء التيّارين.

أمّا إذا اعتبرنا غياب الأدلّة في أخبار الانتفاضات الخارجيّة عن صفريّة القائمين بها أو إباضيتهم سبباً لنفي انتمائهم إليها كما يذكر حسين مؤنس، فإنّه لا يعدّ ـ رغم صحّته ـ كافيًا لأنّ ذلك صار ميزة الخوارج في أواخر الحكم الأموي في كل المناطق. وقد بيّنا سابقاً أنّه يعود إلى ضعف اهتمام الخوارج الجُدد بالمسائل الفكرية والعقائدية التي يُمكن من خلالها التعرّف على انتمائهم المذهبي مقابل توجّههم كليًّا نحو العمل السياسي والعسكري.

أمّا عن النشاط الدعائي من حيث تنظيمه والعناصر التي قامت به، فكلّ ما نملكه يخصّ الإباضيّة، أمّا الصفريّة فلا نجد عنهم في المصادر شيئاً. ولعلّ غياب المعلومات يُعدّ في حدّ ذاته دليلاً على عدم وجود تيّار منظّم له قيادة ودعاة منتشرون في الأقاليم الإسلامية. والظاهر أنّ انتشار المبادىء الخارجيّة التي تنسب إلى الصفرية قد تمّ بواسطة عناصر أو مجموعات لا صلة لها بتيّار قائم بذاته، والأرجح أنّها خارجيّة نسبها الرّواة إلى الصفريّة للتمييز بينها وبين الإباضيّة. ومن هنا فإنّ دراسة النشاط الدعائي الذي قام به بعض الخوارج في أواخر الحكم الأموي سيقتصر على الإباضيّة، ولذلك ستكون استنتاجاتنا خاصّة بهذا التيار، ولا يُمكن إسقاطها على المجموعات الخارجيّة الأخرى نظراً لاختلاف أوضاعها عنها.

من الصعب تحديد تاريخ مضبوط لانطلاق النشاط السرّي للإباضيّة خارج العراق. ويُلاحظ المتتبّع للرّوايات أنّ الاهتمام بتنظيم الحركة واعتماد أسلوب الدعوة السريّة لنشر أفكارها ومبادئها بدأ مع تولّي أبي عُبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى تميم قيادة الحركة[١]، أي في بداية القرن الثاني هجري[٢].

أمّا المناطق التي حظيت باهتمام زعماء الإباضيّة فهي أساساً جنوب شبه الجزيرة

= القاهرة، ١٩٥٩، ص١٤٩.

(١) يذكر مؤرخو الإباضيّة أنّ أبا عبيدة تولّى قيادة الحركة مباشرةً بعد وفاة جابر بن زيد. لكن الرّواة يختلفون في تحديد سنة وفاة جابر. فابن سعد يؤكّد أنّه توفي سنة ثلاث ومائة ويذكر أنّ بعض الرواة يجعلون موته سنة ثلاثاً وتسعين. ويؤيّد ابن قتيبة التاريخ الأول أي ثلاث ومائة ويجعله الشمّاخي سنة ستّ وتسعين. انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٧ ص١٨٢؛ ابن قتيبة، **المعارف**، ص٤٥٣؛ الشمّاخي، **كتاب السّير**، ص٧٧.

(٢) محمود إسماعيل عبد الرّازق، **الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرابع هجري**، الدار البيضاء، ١٩٧٦، ص٤٣؛ LEWICKI (T), «Al-Ibadiyya», In: *L'Encyclopedie de l'Islam*, Nouvelle édition, 1971, T. III, p. 671.

العربيّة وبلاد المغرب. ولئن يذكر الشمّاخي انطلاق حملة العلم الإباضيّة في اتجاه شرق الإمبراطورية ويشير إلى وجود بعض العناصر من خراسان في البصرة[١]، فإنّ نشاط دُعاة هذه الحركة وأتباعها في المناطق الشرقيّة للإمبراطوريّة كان محدوداً. وقد تكون أنشطة دعاة الشيعة في خراسان ووجود خوارج من غير الإباضيّة في كرمان وفارس والأهواز هو الذي جعل زعماء الحركة يركّزون اهتمامهم على المناطق الجنوبيّة والغربيّة للإمبراطوريّة تجنباً للمنافسة.

كان اقتحام الفكر الخارجي للمناطق الجنوبيّة لشبه الجزيرة العربيّة إبّان انتفاضة نجدة الحنفي. ورغم أنّ سيطرة نجدة لم تدم طويلاً، فإنّ المبادىء الخارجية ظلت على ما يبدو حيّة في تلك المناطق. وهو ما يفسّر اندلاع انتفاضة في عُمان سنة ٧٨هـ بقيادة ميمون الحروري[٢]، وقيام عبّاد الرّعيني بتحرّك في اليمن سنة ١٠٧هـ[٣]. ويظهر من خلال رواية المبرّد انتشار الفكر الخارجي في عُمان إذ يذكر أنّ الشاعر عمران بن حطان لمّا هرب من الحجّاج ظلّ ينتقل من مكان إلى آخر حتّى أتى عُمان فوجدهم يعظّمون أمر أبي بلال ويظهرونه فأظهر أمره فيهم[٤].

أمّا بالنسبة إلى الفكر الإباضي، فلا نملك معلومات يُمكن من خلالها تحديد زمن انتشاره في جنوب شبه الجزيرة والأطراف التي قامت بذلك باستثناء رواية يذكرها الشمّاخي تتحدّث عن انتقال جابر بن زيد وهبيرة أحد زعماء الإباضيّة إلى عُمان التي نفاهما إليها الحجّاج بن يوسف لما زاد نشاطهما في البصرة[٥]، وهو ما قد يكون ساعد على نشر مبادىء الإباضيّة في تلك المنطقة.

ويذكر لويسكي أنّ تسرّب الفكر الإباضي إلى حضرموت واليمن قد يكون تمّ بواسطة عبد الله بن إباض زعيم الحركة. ويستند في هذا القول على رواية ابن حوقل التي يذكر فيها موت ابن إباض بجبل المذيخرة في جنوب غرب اليمن. ويفترض هذا المؤرّخ أن يكون قدوم زعيم الإباضيّة إلى اليمن أثناء سيطرة الخوارج على جنوب شبه الجزيرة في الفترة الممتدة بين سنتي ٦٥ و٧٣هـ[٦]، وتبدو أقوال لويسكي وافتراضاته غير مقبولة لعدّة أسباب **أوّلها** عدم وجود ما يشير إلى مشاركة ابن إباض في تحرّكات خوارج شبه الجزيرة في الفترة المذكورة سابقاً، لا في المصادر الإباضيّة ولا في غيرها، وصعوبة قبول فكرة وجود ابن

(١) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٨٧ ـ ١١٩.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص٢٧٧.
(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٤٠.
(٤) المبرّد، الكامل، ص١٥.
(٥) الشمّاخي، كتاب السير، ص٧٦.
(٦) LEWICKI (T), «Al- Ibadiyya»,*E.I.*, op. cit., T. III., p. 672.

إباض وقيامه بالدعوة في مكان يسيطر عليه أتباع نجدة الحنفي. أما ثاني هذه الأسباب فهو تأكيد ابن حوقل نفسه موت عبد الله بن إباض في جبل نفوسة في المغرب لا في الرواية التي اعتمدها لويسكي فحسب بل في رواية أخرى في المصدر نفسه[1]. وأخيراً ضعف رواية ابن حوقل التي تتحدّث عن انتقال ابن وهب الراسبي وابن إباض إلى جبل نفوسة لأنّها تتنافى مع الأحداث كما ينقلها بقيّة الرواة، ولا يوجد ما يؤيدها في المصادر الأخرى.

وعموماً يمكن القول إنّ الفكر الخارجي الّذي اقتحم جنوب شبه الجزيرة إبّان انتفاضة نجدة الحنفي قد تبناه بعض السكّان وهو ما قد يكون دفع زعماء الإباضيّة إلى الاهتمام بهذه المنطقة وإرسال حَمَلة العلم إليها. ولئن كانت المصادر لا تعطي تفاصيل عن العناصر أو المجموعات التي قد تكون وجّهت إلى عمان وحضرموت واليمن فإنّ روايات عديدة في المؤلفات الإباضيّة تؤكّد وجود عناصر من أهل عُمان في البصرة مقرّبة من قيادة الحركة[2]. كما توجد إشارات تدلّ على وجود صلة بين إباضية البصرة وخوارج حضرموت[3].

أمّا بالنسبة إلى بلاد المغرب، فيجمع الرّواة على القول إنّ سلامة بن سعيد كان أول داعية إباضي يفد إليها[4]، وقد استقرّ في القيروان عاصمة الولاية ونشط فيها. على أنّ المتتبع للروايات يلاحظ أنّ الفكر الإباضي قد انتشر بسرعة في أوساط بعض قبائل المغرب الأدنى والأوسط، وخاصّة في زناتة وهوّارة ونفوسة. ولسنا ندري ما إذا كان الداعية الإباضي المستقرّ في القيروان هو الذي تولّى تنظيم عملية نشر الدّعوة في هذه القبائل أم أن الانتشار قد تمّ عن طريق عناصر أخرى مستقلّة عنه. وإذا كانت المصادر لا توفّر إجابة على هذا السؤال، فإنّ إحدى الإشارات تؤكّد وجود عناصر من أهل الدّعوة في القيروان[5] قد تكون قدمت مع ابن سعيد أو اعتنقت الفكر الإباضي بعد قدومه وصارت من أهل الدّعوة. وقد أدّى اقتحام الفكر الإباضي لبلاد المغرب وانتشاره في بعض مناطقها إلى خروج جماعة من الأفارقة إلى البصرة لطلب العلم على أيدي مشايخ المذهب. وقد أورد الشمّاخي قائمة بأسماء الخارجين إلى البصرة تضم أربعة عناصر هم عاصم السّدراتي، وأبو داود القبلي النفزاوي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وعبد الرحمن بن رستم[6]. ويضيف الدّرجيني

---

(١) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص٤٣ - ٩٣.

(٢) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٠ - ٩٣؛ الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٤٩.

(٣) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٢ - ٩٨؛ الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٤٢ - ٢٤٣، ٢٥١.

(٤) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٨ - ١٢٣؛ الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص١١.

(٥) الشمّاخي، كتاب السّير، ص١٢٤؛ الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص١٢؛ أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة، ص٥٥.

(٦) الشمّاخي، كتاب السّير، ص١٢٤.

إلى القائمة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري[1]. وقبل عودة حَمَلة العلم الأفارقة من البصرة وقيامهم بأوّل ثورة إباضيّة منظّمة في إفريقيّة سنة ١٤٠هـ، وقعت تحركات صغيرة كان أوّلها تحرّك هوّارة في طرابلس بقيادة عبد الله بن مسعود التّجيبي تلاه تحرّك في المنطقة ذاتها قاده عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي، وقد انتهى بمقتل القائدين في ظروف غامضة. وأخيراً انتفاضة قبيلة نفوسة بقيادة إسماعيل بن زياد النفوسي[2].

وما يُستنتج من خلال ما توفّره المصادر عن هذه التحرّكات هو دور العناصر العربيّة في قيادتها وخصوصاً تحرّكات هوّارة، وهو ما يدّل على أهميّة دورها في نشر المبادىء الخارجيّة في أوساط تلك القبائل، إلاّ أنّ قلّة المعلومات عن هذه الانتفاضات تجعلنا غير قادرين على تحديد هويّة هذه العناصر القيادية وعلاقتها بزعماء الحركة الإباضيّة في البصرة. ويعود ذلك إلى «إسقاط المصادر الإباضيّة من اعتبارها كلّ نشاط لأتباع الحركة في المغرب سابق لثورة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري سنة ١٤٠هـ»[3].

وعموماً، فإنّ ما قلناه بالنّسبة إلى بلاد اليمن وخاصةً بالنسبة لإفريقيّة يُمكن أن يعطينا فكرة عن الخطّة التي اتّبعها زعماء الإباضيّة لنشر الدعوة في الأقاليم البعيدة وتكوين مراكز للثورة فيها. فهذه الخطّة كانت تقتضي في مرحلتها الأولى إرسال بعض العناصر البَصْرية المتمكّنة من مبادىء الحركة إلى الأقاليم وتكليفها بنشر الدّعوة سريًا ولا سيما بجمع وتأطير العناصر المحليّة التي تُظهر اهتماماً واستعداداً للعمل ضمن الحركة ثمّ إرسالها إلى البصرة لتكوينها[4] وإعدادها للقيام بالثورة، وهي المرحلة الثانية في هذه الخطّة. والأكيد أنّ الدّور الخطير الذي سيُناط بالعناصر المحليّة يجعل عمليّة اختيارها دقيقة تخضع لعدّة اعتبارات منها الكفاءة والالتزام وكذلك المكانة داخل القبيلة ووزن القبيلة في المنطقة وغيرها. وبالتوازي مع هذه العمليّة، يواصل الدّعاة والعناصر المحليّة المنضمّة إليهم نشر الفكر الإباضي في الأقاليم التي يقيمون فيها.

أمّا حملة العلم فيتّصلون عند حلولهم بالبصرة مباشرة بأبي عبيدة زعيم الحركة والمشرف على عمليّة التكوين فيها في إطار التقسيم المتّفق عليه بين المشايخ والذي يتولّى بمقتضاه أبو عبيدة «أمر الدّين والمسائل في حين يتولّى حاجب الطائي أمور الحروب وجمع

(١) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص١٩.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب، ص٨٢.

(٤) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٨؛ الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص١٢.

المال والمعونة والخصومة»[1]، وهو التّنظيم الذي أطلق عليه لويسكي اسم «الحكومة الثورية»[2].

وتتمّ عمليّة التكوين في جو من السرية المطلقة، إذ يذكر الدّرجيني أنّ أبا عبيدة كان يجتمع بطلبة العلم في سراديب تحت الأرض يجلس أمام السرداب رجل يحمل القفاف، فإذا رأى شخصاً مقبلاً حرّك السّلسلة فسكتوا، وإذا انصرف حرّكها فيأخذون في دراستهم[3]. ويعود هذا الحرص الشديد على التكتّم إلى نوعية الدروس التي كان يلقيها أبو عبيدة والمواضيع التي كان يتطرّق إليها مع هؤلاء الطلبة والتي لا تقتصر على ما يبدو على طرح مسائل فكرية وفقهيّة، بل تشمل كذلك مسائل سياسيّة وتنظيميّة خاصّة بالحركة.

ونظراً لأهميّة الدّور الذي سيلعبه حَمَلة العلم في أقاليمهم، فإنّ عمليّة التكوين تستمرّ عدّة سنوات، ويتولّى عند انتهائها مشايخ الإباضيّة وخصوصاً قائدهم أبو عبيدة مدّ الطلبة بالتّوجيهات والتعليمات الضرورية لتنفيذ تحركاتهم. والظاهر أنّه كان يوزّع عليهم المسؤوليات كذلك، إذ يذكر الشمّاخي أنّه أشار على حَمَلة العلم الأفارقة بتولية أبي الخطاب المعافري الحميري قيادة الثورة أو «إمامة الظهور» وقتله إنْ رفض ذلك[4]، وهو ما تمّ تنفيذه فعلاً بعد عودتهم إلى إفريقية.

وتستمرّ الصّلة بين زعماء الحركة وحَمَلة العلم بعد رجوعهم إلى بلدانهم. وتشمل الاتصالات والمشاورات بين الطرفين المسائل الهامة كالخلافات التي تطرأ من حين لآخر داخل المجموعات الإباضيّة مثل الخلاف الذي شجر بين إباضيّة إفريقيّة بعد مقتل القائدين الحارث وعبد الجبّار واستوجب تدخل أبي عبيدة نفسه، إذ كتب إليهم مُطالباً بالكفّ عن ذكرهما[5]. كما تدخّل زعماء البصرة لفضّ الخلاف الذي طرأ بين إباضيّة حضرموت وقد انتقل حاجب الطائي أحد زعماء الحركة بنفسه إلى مكّة للالتقاء بطرفَيْ الخلاف. وتؤكّد الأقوال الواردة على لسان حاجب ومخاطبيه متانة الصلة التي كانت تربط بين القيادة وخوارج الأقاليم[6].

كما تشمل المشاورات بين إباضية الأقاليم وزعماء البصرة مسألة الانتقال من «حالة

---

(١) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٢.

(٢) LEWICKI (T), «Al- Ibadiyya», *E.I.*, Op. cit., T. III, p. 671.

(٣) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص٢٠؛ الشماخي، كتاب السّير، ص١٢٤؛ أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٤) الشمّاخي، كتاب السّير، ص١٢٤؛ الدرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص٢١؛ أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة، ص٥٦.

(٥) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج١، ص٢٤؛ أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة، ص٥٨.

(٦) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٢.

الكتمان» إلى «حالة الظهور» أي إعلان الثورة. ويبدو أنّ الأهميّة التي تكتسيها هذه العمليّة هي التي جعلت الثائرين يحرصون على استشارة زعماء الحركة قبل القيام بأيّ عمل، وهو ما يتّضح من خلال ما قام به عبد الله بن يحيى الكندي لمّا فكر في الخروج، فقد أرسل إلى أبي عُبيدة يستشيره، ولم يعلن ثورته إلاّ بعد وصول ردّ أبي عبيدة ومعه اثنين من زعماء الحركة الكبار[1] أرسلهما للمشاركة في الثورة معه.

وإذا كان الدّعم العسكري مرتبطاً بالانتفاضات، فإنّ الدّعم المالي يقدّم على ما يبدو بصورة متواصلة لأنّه ضروري لمساعدة الدُعاة على نشر الدّعوة وتوسيع نطاقها وجلب مزيد من الأتباع إلى صفوفها والإحاطة بهم. وقد كانت عمليّة جمع الأموال وإرسالها من مهمّات حاجب الطائي[2] في إطار التقسيم الذي ذكرناه سابقاً. ويُعطي الشمّاخي فكرة عن هذه العمليّة إبّان ثورة عبد الله بن يحيى الكندي وأبي حمزة بقوله: «فقد جمع حاجب لهما أموالاً كثيرة، وكتب إلى كلّ موسر من المسلمين قدر ما يرى فما امتنع عليه أحد». . وتضيف الرواية نفسها أن حاجباً «طلب من أبي طاهر أن يقوم بجمع المال من النساء وأوساط الناس فتحصّل في يوم واحد على عشرة آلاف درهم فاشترى حاجب بها سلاحاً»[3]. وقد نجح زعماء الإباضيّة بفضل هذا العمل المتواصل والتنظيم المحكم في نشر الفكر الإباضي وتأطير ورعاية أتباعهم في مختلف الأقاليم، وهو ما مكّن من قيام انتفاضات كان لإحداها دور في إنهاء الحكم الأموي.

تتجلى واضحة من خلال ما سبق أهميّة نشاط الخوارج في نهاية القرن الأوّل وبداية القرن الثاني هجري وتنوّعه. إلاّ أنّ النّشاط الفكري كان أكثر قيمة نظراً لعمق تأثيره على الحركة الخارجيّة. فقد زاد في انقسامها إلى مجموعات تتبرّأ من بعضها وتكفّر بعضها بعضاً، وزاد بالتالي في تشتّت الخوارج واختلاف كلمتهم. على أنّ أحد الأوجه الإيجابيّة لهذا النشاط يكمن في ظهور عدد كبير من العلماء والفقهاء من مختلف المجموعات من أمثال الرّهين المرادي، وعمران بن حطان السّدوسي، وأبي عبيدة وغيرهم، ساهموا بدور كبير في تطوير الفكر الخارجي خاصةً والفكر العربي ـ الإسلامي عامةً. وقد ترك بعض هؤلاء العلماء مؤلّفات منها: كتاب **الأمثال** للصحّار العبدي الخارجي[4] وهو من أقدم

(١) الشماخي، كتاب السّير، ص٩٩.

(٢) الدّرجيني، **طبقات المشائخ**، ج٢، ص٢٦٢؛ الشمّاخي، **كتاب السّير**، ص٩٢ ـ ١١٤.

(٣) الدّرجيني، **طبقات المشائخ**، ج٢، ص٢٦٢؛ الشمّاخي، **كتاب السّير**، ص١١٤ ـ ١١٥.

(٤) يذكر ابن النّديم أنّ الصحّار كان خارجيًا وكان أحد النّسّابين والخطباء في أيّام معاوية بن أبي سفيان روى عن النبيّ (صلعم) حديثين أو ثلاثة. وله من الكتب كتاب الأمثال، ويذكره الدّرجيني في الطبقة الثانيّة لمشائخ الإباضيّة. انظر: ابن النّديم، **الفهرست**، بيروت، بدون تاريخ، ص٩٠؛ الدرجيني، **طبقات المشائخ**، ج٢، ص٢٠١.

المؤلّفات، وكتاب في الأحاديث لأبي عُبيدة مسلم بن أبي كريمة الإباضي يُقال إنّه نقله عن جابر بن زيد[1].

وإذا كان العديد من علماء التيّارات الخارجيّة قد انشغلوا بالمعارك الفكريّة، فإنّ علماء الإباضيّة قد عملوا بالتوازي مع ذلك على توسيع نشاطهم الدّعائي في البصرة وخارجها واستقطاب المزيد من الأتباع. وقد تمكّنوا بفضل التنظيم المحكم الذي أقاموه من نشر مبادىء حركتهم خارج العراق ومن تكوين مراكز للثورة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة وفي إفريقية انطلقت منها ثورات عارمة في نهاية الحكم الأموي. إلاّ أنّ هذا النشاط الخارجي الذي امتد طيلة فترة حكم الخلفاء المروانيين يجرّنا إلى التساؤل عن ردّ فعل السلطة عليه وموقف بقيّة الحركات الإسلاميّة منه ومن الحركة الخارجيّة عامّةً.

II ـ موقف السّلطة وبقيّة حركات المعارضة من النشاط الخارجيّ

لم تكن مختلف أنشطة الخوارج تتمّ بعيداً عن أنظار السّلطة، كما لم تكن منعزلة تماماً عن نشاط بقيّة الحركات الإسلامية التي تكونت إبان الحكم الأموي. وإذا كان الحديث عن العلاقة بين الخوارج والسلطة قد تواصل طيلة هذا البحث، فإن التركيز عليه في هذه الفترة بالذات يعود إلى التغيير الحاصل في بعض أوجه هذه العلاقة بسبب التحوّل الذي طرأ على نظرة الخوارج إلى النضال وموقفهم من السّلطة. أمّا صلتهم بالحركات الأخرى، وخصوصاً بالشيعة، فإنها لا تقتصر على هذه الفترة بل هي سابقة لها وتعود إلى ظهور هذه الحركة.

١ ـ موقف السلطة من الخوارج: بين الرّدع والمراقبة ورغبة الاحتواء

لقد رأينا في ما سبق أنّ موقف السّلطة من الخوارج كان واضحاً منذ ظهورهم في خلافة علي بن أبي طالب. فمعارضة هذه المجموعة للدولة وتبنّيها مبدأ الخروج والثّورة المسلّحة جعلاها في مواجهة مستمرّة مع السلطة. ولم يتغيّر هذا الموقف إزاء الثائرين رغم التحوّلات التي طرأت على رأس الدّولة. فموقف الخلفاء السفيانيين تبنّاه ابن الزّبير ثم أبناء مروان، بل إنّ عنف الدّولة ضدّ هذه الحركة المعارضة قد زاد تدريجيًا حتّى أدّى إلى مقتل عدد كبير من الخوارج ومكّن من القضاء على أكبر الانتفاضات مثل انتفاضة الأزارقة والنّجدات وغيرهما. ولم يقتصر هذا العنف على الثائرين من الخوارج، بل طال أحياناً العناصر التي تبنّت الفكر الخارجي، وكانت البصرة مسرحاً لأغلب عمليات القتل والتمثيل التي وقعت في القرن الأول هجري. وقد دفع القمع المسلّط على الخوارج بعضهم إلى القول بـ«القعود» و«التقيّة»، حتى صار أغلبهم من القَعَدَة بعد الفتنة الثانية[2].

---

(١) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٨٣.

(٢) المبرّد، الكامل، ص١١٩.

إلاّ أنّ القضاء على الثائرين وتحوّل من تبقّى منهم من حالة الثورة إلى حالة القعود لم يُنْهِ القمع ضدّ الخوارج، إذ تزخر كتب الأدب بالرّوايات عن عمليات القتل والحبس والنّفي التي كانت تسلّط عليهم. ولئن كانت هذه المصادر لا تذكر سوى العناصر الخارجيّة التي برزت في بعض الميادين مثل الأدب والشعر والفقه وغيرها، فهي تعطينا فكرة عن تصرّفات الولاة إزاء الخوارج وخصوصاً الحجّاج بن يوسف الثّقفي وخالد بن عبد الله القسري. كما تبيّن أن عمليات القمع قد شملت أساساً العناصر التي كان نشاطها يُضايق السلطة أو يُشكّل خطراً عليها. ولعل أبرز الأمثلة عن هذه الأعمال ما قام به الحجّاج تجاه الشاعر عمران بن حطان السّدوسي الذي هدّده بالقتل، ففرّ من البصرة وظلّ مختفيًا ينتقل من مكان إلى آخر يطارده الوالي حتى مات[١]. والأكيد أن نشاط عمران وخصوصاً أشعاره التي يمجّد فيها الخوارج ويتهجّم على الحجّاج قد ضايقت السّلطة ودفعت عبد الملك بن مروان إلى إهدار دمه رغم أنّه كان من القعدة.

ولم يكن العنف الأسلوب الوحيد الذي استعمله الحكّام المروانيون ضدّ المعارضين من الخوارج في تلك الفترة، بل حرصوا بالتوازي معه على عدم مضايقة العناصر المسالمة التي أظهرت رضوخاً كاملاً للسّلطة وقبولاً للعيش مع بقيّة المسلمين، معتبرين أنّ بقاءها لا يُشكّل خطراً على سلطتهم وأنّ قعودها يجعل إمكانية مراقبتها والسيطرة عليها سهلة.

أمّا الإجراء الجديد الذي دشّنه عبد الملك بن مروان وتميّز به عن أسلافه فهو محاولته ربط الصّلة بينه وبين بعض العناصر الخارجيّة، إذ تذكرالمصادر الإباضيّة أنّه راسل عبد الله بن إباض. وقد احتفظ البرّادي بالنصّ الكامل لإحدى الرّسائل التي يقول إن زعيم الإباضيّة بعثها إلى الخليفة الأموي. ويتضّح لقارىء نصّ الرسالة أنّها ليست الأولى التي يبعث بها ابن إباض إلى عبد الملك بن مروان بل سبقتها رسالة أخرى، وأنّ عبد الملك هو الذي طلب من الزعيم الخارجي مكاتبته[٢] والاجتهاد في النصيحة له. ويرى لويسكي أنّ ابن إباض هو الذي سعى إلى ربط الصّلة مع الخليفة الأموي في محاولة منه للتّفاهم معه وأنّه اختار القعود ليتمكّن من ذلك[٣]، إلاّ أنّ لا شيء في الرسالة ولا في الروايات يُوحي بذلك. والظاهر أنّ عبد الملك هو الذي رغب في إجراء هذا الحوار مع زعيم الإباضيّة في محاولة منه لجلبه إلى حظيرة الدولة أو على الأقل لضمان عدم خروجه عليه. ويبدو من خلال الرسالة أنّ عبد الملك قد ذهب إلى حدّ محاولة إغراء ابن إباض ببعض الامتيازات. وقد أدرك الزعيم الإباضي غاية ابن مروان فردّ عليه في خاتمة رسالته: «ولا تعرض لي بالدنيا فإنه

(١) المصدر نفسه، ص١٤ ـ ١٥.

(٢) البرّادي، كتاب الجواهر، ص١٥٦.

(٣) LEWICKI (T), «Al- Ibadiyya», *E.I.*, op. cit., p. 670.

لا رغبة لي في الدنيا وليست من حاجتي»[1].

وتنفيذاً لرغبة عبد الملك بن مروان في مهادنة الإباضيّة ومحاولة احتواء حركتهم، سلك الحجّاج بن يوسف والي العراق، على ما يبدو، سياسة مرنة تجاه أتباع هذه الحركة رغم كرهه الشديد لهم ولكل المعارضين للدولة ورغبته في القضاء عليهم. ولإبراز هذا التحوّل في سياسة الدّولة تجاه المعارضين من الإباضية، ركّز المؤرّخون على العلاقة الودّية التي ربطت الحجّاج بجابر بن زيد. فقد منحه عطاءً قدره سبعمائة أو ستمائة درهم وعيّنه ضمن أعوان صاحب ديوان البصرة بعد أن رفض مهمّة القضاء التي اقترحها عليه[2]. بل إنّه ذهب إلى حدّ الاستعانة به في الردّ على القائلين بالقدر، فقد ذكر الشمّاخي: «أنّه وقع في نفس الحجّاج شيء من القدر فشكا ذلك إلى يزيد فكتب إلى جابر فأجابه قُلْ للأمير أن يكثر من ترديد خطبته فإنّ فيها بيان ما سأل عنه فردّدها مراراً كلّ ذلك لم ينتبه ثمّ بعد ذلك انتبه فقال: مَنْ يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلّل فلا هادي له»[3].

ورغم وجود شكوك حول انتماء جابر بن زيد إلى الإباضيّة، فإنّ هذه الرّوايات تبقى دليلاً على التحوّل في سياسة الدّولة تجاه المعارضين لأنّ جابراً الذي حظي بهذه المعاملة اشتهر بمعارضته أو على الأقل بانتقاداته المستمرّة لسياسة الأمويين وتجاوزات ولاتهم. كما أنّ الأسماء الوارد ذكرها مع جابر بن زيد في روايات أخرى هي لعناصر من الإباضيّة، وهو ما يفيد شمول الإجراءات الجديدة أنصار هذا التيّار الخارجي. وتتأكّد مرونة الدّولة كذلك من خلال بعض الإشارات الواردة في المصادر الإباضيّة والتي تتحدّث عن قيام بعض الخوارج بأنشطة علنيّة في البصرة من دون تدخّل السّلطة.

إلاّ أنّ هذه الهدنة بين السّلطة والإباضيّة لم تمنع الحجّاج من التّدخل من حين لآخر للحدّ من نشاط بعضهم من ذلك نفيه جابر بن زيد وهبيرة إلى عُمان[4]، وحبسه جماعة منهم أبو عُبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي ظلّ في الحبس إلى حين موت هذا الوالي[5]. وقد توتّرت العلاقة كثيراً بين الإباضيّة والحجّاج بعد وفاة عبد الملك بن مروان. ويعطي لويسكي ثلاثة أسباب تفسّر هذا التوتّر: **أوّلها** موت الخليفة الذي كان متفهماً لأتباع هذه الحركة، **وثانيها** تطوّر العلاقة بين الإباضيّة والمهالبة أعداء الحجّاج بعد انضمام عاتكة أخت يزيد بن المهلب إلى صفوفها، وأمّا **ثالثها** فهو تصلّب موقف إباضيّة البصرة وتغلّب العناصر

---

(١) البرّادي، كتاب الجواهر، ص١٦٧.
(٢) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٧٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٧٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٧٦ ـ ٨١.
(٥) المصدر نفسه، ص٨٧.

الثورية على الحركة[1]. وإذا كان ربط توتّر العلاقة بين الخوارج الإباضيّة والحجّاج بموت عبد الملك بن مروان صحيحاً باعتبار أنّ الصّلة ستنقطع بين الحركة وباقي الخلفاء المروانيين باستثناء عمر بن عبد العزيز، فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى أن الإباضيّة قد استفادوا من التغييرات التي حصلت بعد موت الحجّاج لأن تقريب الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك للمهالبة واعتماده على يزيد بن المهلب في إدارة شؤون العراق[2] قد يكون وفّر للإباضيّة هامشاً من الحريّة استغلّوه لتكثيف نشاطهم مستفيدين من أواصر الصّداقة التي كانت تربط بينهم وبين عناصر من آل المهلّب.

أمّا خلافة عمر بن عبد العزيز فقد رأى فيها الخوارج فرصة للتّصالح مع السّلطة إذا قبل الخليفة الأموي التراجع عن سياسة أسلافه وإصلاح ما أفسدوه واتباع سياسة تعتمد على القرآن وسيرة الشيخين. وقد رغب عمر بدوره في انتهاج سياسة جديدة تجاه هؤلاء المعارضين، لذلك لم يقمع الثائرين عليه في الجزيرة الفراتيّة قبل التفاوض معهم والتعرّف على مطالبهم[3]. كما التقى بوفد من إباضيّة البصرة يضمّ عناصر بارزة في الحركة. ورغم أنّ عمراً لم يستجب لمطالب الإباضيّة[4]، فإنّ قبوله التفاوض معهم يُعَدّ في حدّ ذاته تحوّلاً في سياسة الدّولة تجاه هذه الحركة المعارضة سوف يتخلّى عنه باقي الخلفاء المروانيين.

إلاّ أنّ ما أظهره عمر بن عبد العزيز من تفهّم واستعداد للحوار مع الخوارج وما أظهره عبد الملك من قبل من حرص على ربط الصّلة بينه وبين بعض العناصر الخارجيّة من القعدة المعتدلين، لا يعني أنّ هذين الخليفتين قد تخلّيا عن أسلوب القوة في مواجهة هؤلاء المعارضين وغيرهم، وقد كانت فترة حكم عبد الملك متميّزة في هذا المجال. أمّا خلافة عمر بن عبد العزيز، فهي لم تشهد مواجهات بين جيش الدولة والخوارج، ذلك أنها لم تعرف سوى تحرّك واحد في الجزيرة أراد عمر إخماده باللّين مع أنّ نيّة استعمال القوة كانت موجودة لديه، والدليل على ذلك إرسال والي العراق بأمر من عمر جيشاً كبيراً لمحاصرة الثائرين ومراقبتهم في انتظار ما ستسفر عنه المناظرات بين الخليفة ومبعوثي الخوارج. وبالتالي يُمكن القول إن كلّ الخلفاء الأمويين وقفوا بالمرصاد لتحرّكات الخوارج وغيرهم من المعارضين ومنعوا قيامهم بأيّ نشاط من شأنه أن يخلّ بالأمن والنظام ويهدّد بصورة مباشرة أو غير مباشرة السلطة.

وقد ظلت المراقبة المفروضة على الخوارج مستمرّة طيلة الفترة المتبقيّة من الحكم

---

(١) LEWICKI (T), «Al- Ibadiyya», *E.I.*, Op. cit., p. 670.

(٢) تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٢٣؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٩٦.

(٣) تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٥٦.

(٤) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٧٩ ـ ٨٠.

الأموي، وتعرّض العديد منهم للقمع خصوصاً إبّان ولاية خالد بن عبد الله القسري. ولعلّ تكثّف الانتفاضات في تلك الفترة، وخصوصاً الشيعيّة، هو الذي حمل هذا الوالي على انتهاج أسلوب العنف تجاه كلّ المعارضين. ويظهر أنّ المراقبة المفروضة على الخوارج والعنف الكبير المسلّط عليهم هما اللذان جعلا زعماء الإباضيّة يتوّخون الحذر في تحرّكاتهم ويرفضون القيام بانتفاضات في العراق. فقد قيل لأبي عُبيدة مسلم بن أبي كريمة: «ما يمنعك من الخروج؟ لو خرجت ما تخلّف عنك أحد. فقال: ما أحبّ ذلك»[1]. ويدّل ردّ الزعيم الإباضي على اقتناعه بأنّ مراقبة الدولة لتحرّكات الخوارج ووجود الجيش الشّامي قريباً منهم في واسط يجعلان الفشل مصير كل تحرّك ينطلق من البصرة. لذلك حرص الإباضيّة على نشر مبادئهم في أطراف الإمبراطورية وأعطوا هذا العمل الكثير من جهدهم ووقتهم وأحاطوه بالسريّة المطلقة لضمان نجاحه باعتباره سيُمكّن من قيام انتفاضات خارجيّة عارمة. وهي الخطة نفسها التي اتّبعها الشيعة العباسيون في نشر دعوتهم في خراسان. وتجرّنا هذه المقارنة بين الشيعة والخوارج إلى الحديث عن العلاقة التي كانت تربط بين الحركتين وبين الخوارج وبقيّة الحركات التي تكوّنت ونشطت في تلك الفترة.

٢ ـ الخوارج وحركات المعارضة الأخرى

لم يصلنا من الأخبار عن علاقة الخوارج ببقيّة الحركات المعارضة في تلك الفترة إلاّ القليل النّادر. وأغلب هذه الأخبار نجدها متفرقة في كُتُب الفرق والمقالات وكُتُب الأدب، وهي لا تخصّ الفترة موضوع البحث، بل تتعدّاها لتشمل الخلافة العباسيّة حيث صارت هذه الحركات مذاهب مكتملة وواضحة المعالم. إلاّ أنّ قلّة المعلومات الخاصّة بتلك الفترة لا تعني أنّ الصّلة بين الحركات المعارضة كانت مُنعدمة وأنّ أتباع كلّ حركة كانوا يتصرّفون ويتحرّكون بمعزل عن باقي المسلمين المنتمين إلى حركات أخرى وذلك لانتمائهم لمجتمع واحد وعيشهم تحت حكم واحد وتعرّضهم للمعاملة ذاتها من قبل الدولة على ضوء معارضة أغلبهم لها. لذلك، فإن البحث في طبيعة العلاقة القائمة بينها ومحاولة تتبّع تطوّرها يُمكن أن يوضّح لنا جوانب من تاريخ هذه الحركات ويُفسّر بعض مواقفها وخلفيات العديد من المبادىء التي تبنّتها.

ونشير في هذا الإطار إلى أنّ حركة الشيعة هي أولى الحركات المعارضة التي تزامن ظهورها مع حركة الخوارج، وكان لها تأثير كبير عليها في تلك الفترة، أمّا البقيّة وهي المرجئة والقدريّة والمعتزلة، فإنّها لم تظهر إلاّ في أواخر الحكم الأموي وكان وجودها محدوداً في الفترة موضوع البحث، ولذلك سيكون تركيزنا أساساً على علاقة الخوارج بالشيعة.

---

(١) الشمّاخي، كتاب السّير، ص٨٤.

أ ـ علاقة الخوارج بالشيعة:

يبدأ الحديث عن الخوارج والشيعة كمجموعتين منفصلتين منذ خلافة عليّ بن أبي طالب. وقد بيّنا سابقاً ما تميّزت به العلاقات بين أنصار المجموعتين من توتّر تحوّل في بداية الحكم الأموي إلى قطيعة تامّة لمّا وقفت بعض العناصر الشيعيّة إلى جانب السّلطة وساعدتها في مواجهة الخوارج وإضعاف حركتهم في الكوفة.

ورغم أنّ العداء سرعان ما طرأ على العلاقة بين الأمويين والشيعة وتحوّل أصحاب عليّ بن أبي طالب بدورهم إلى معارضين للسّلطة مثل الخوارج، فإنّ العلاقة بين المجموعتين لم تتحسّن. ولعلّ وجود أنصارهما في مصرين منفصلين وغياب تنظيم شيعي موحّد يحدّد علاقة الشيعة بالأطراف السياسيّة الأخرى وتفرّق الخوارج بدورهم منذ الفتنة الثانية، لعل كل ذلك قد ساهم في بقاء العداء قائماً بين أنصار التيّارين، التيار الشيعي والتيار الخارجي، وجعل القطيعة بينهما أمراً واقعاً.

ويتجلّى العداء بين الشيعة والخوارج إبّان الحكم الأموي من خلال بعض الإشارات الواردة في كُتُب الأدب، إذ يذكر الأصفهاني أنّ الخوارج الإباضية كانوا يسبّون عليّ بن أبي طالب ويعتقدون أنّهم يتقرّبون إلى الله بهذا العمل. وقد كان والدا السيد الحميري الشاعر الشيعي ـ وهما من الإباضية ـ يسبّان عليّاً ويتبرّآن منه، وقد همّا بقتل ابنهما لمّا علما أنّه تبنّى الفكر الشيعي. وأدّى هذا الموقف إلى انفصاله عنهما إلى أن توفيا[1]. وقد ردّ السيد الحميري على هذا الموقف بشتم والديه والخوارج عامّة، إذ يقول في إحدى قصائده:

لعن الله والديَّ جميعاً ثمّ أصلاهما عذاب الجحيم

حكّما غدوة كما صليا الفجـ ـر بلعن الوصيّ باب العلوم

لعنا خير من مشى فوق ظهـ ـر الأرض أو طاف محرماً بالحطيم[2]

ولم يكن السيد الحميري الشاعر الشيعي الوحيد الذي شتم الخوارج وتبرأ منهم، فقد قال قبله كثير بن عبد الرحمن المعروف بكُثير عزّة:

برئت إلى الله من ابن أروى ومن الخوارج أجمعينا[3]

أمّا الأدب الخارجي، وخصوصاً الشعر، فلا يحتوي على معلومات يُمكن أن تفيدنا

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص٢٢٥؛ ديوان السيد الحميري، جمعه وحققه شاكر هادي شكر، بيروت، بدون تاريخ، ص٣٩٣.

(٢) ديوان السيد الحميري، ص٣٩٢، ٣٩٣.

(٣) ديوان كُثير عزّة، جمعه إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٧١، ص٤٩٠؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٨.

في إلقاء مزيد من الضوء على هذه العلاقة لأنّه «لم يكن شعراً مذهبياً»[1]. لذلك لا نجد فيه صدى للخلافات القائمة بين الخوارج وغيرهم من المسلمين.

أمّا مصادر التاريخ العام فلا نجد فيها عن هذه العلاقة سوى إشارات قليلة تهمّ الفترة الأخيرة من الحكم الأموي، ويظهر من خلالها فشل الخوارج في تجاوز الخلافات القائمة بينهم وبين الشيعة. فقد باءت محاولة خوارج الجزيرة الفراتية الانضمام إلى انتفاضة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالفشل، كما لم تنجح عملية دخول شيبان بن سلمة الحروري الصّراع إلى جانب ابن الكرماني حليف القائد الشيعي أبي مسلم الخراساني وانتهت بتكفيره من قبل خوارج خراسان. وتؤكّد المعلومات الواردة في خطبة أبي حمزة الإباضي، الثائر في أواخر الحكم الأموي، تواصل العداء بين أنصار التيارين وتحوّل الخلافات السياسية إلى خلافات فكرية ومذهبية. فقد ورد في هذه الخطبة قوله عن الشيعة: «... وأمّا إخواننا من هذه الشيعة، فليسوا بإخواننا في الدّين، لكن سمعت الله عزّ وجلّ قال في كتابه العزيز: ﴿إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[2]. شيعة ظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفريّة على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصّواب، قد قلّدوا أمرهم أهواءهم وجعلوا دينهم عصبية لحزب لزموه وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم غيّاً كان أو رشداً، أو ضلالة أو هدى. ينتظرون الدّول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه أو يحويه جسمه. ينقمون المعاصي على أهلها ويعملون إذا ظهروا بها ولا يعرفون المخرج منها. جُفاة في الدّين قليلة عقولهم، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينهم وزعموا أنّ موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة. قاتلهم الله أنّى يؤفكون»[3].

ويبدو من خلال هذه الخطبة عمق الخلافات القائمة بين الخوارج والشيعة وتمحورها حول مسألة أساسيّة وهي الإمامة.

تُعدّ مسألة الإمامة[4] إحدى المسائل التي انشغل بها المسلمون وبسببها اختلفوا. ولئن كانت المشاكل الأساسية المرتبطة بالإمامة قد طرحت منذ وفاة الرسول مثل معايير الاستخلاف وشروطه[5]، فإن الخوض فيها نظريًا لم يتمّ خلال هذه الفترة بسبب انشغال

---

(١) النّعمان، القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، القاهرة، ١٩٧٠، ص٤٥٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٣٨.

(٤) لا تحمل كلمة "الإمامة" هنا معنى دينيًا بل سياسيًا بحتاً وهي مرادفة لكلمة "الخلافة".

(٥) DJAIT (H), *Op. cit.*, p. 52.

المسلمين الكلّي بمصير الأمّة الذي هدّدته الرّدة. ثمّ مع انطلاق الفتوحات انكبت الدّولة والمسلمون على تتبّع العمليات العسكريّة وتنظيم المناطق المفتوحة. ولمّا اندلعت الثّورة ضدّ عثمان ودخلت الأمّة في مواجهات عسكرية، طفت مسألة الإمامة على السطح وبدأ المسلمون ينشغلون بها حتّى صارت المحور الرئيسي للجدل بينهم.

وقد تبنّى الخوارج الذين ظهروا خلال هذه الفتنة مواقف متميّزة في مسألة الخلافة، كما تبنّى الشيعة بدورهم جملةً من الأفكار والمبادىء تطوّرت تدريجيًا حتى كوّنت نظرية كاملة.

وتبدو نظرية الإمامة عند الخوارج وخصوصاً عند الشيعة كما نجدها في كُتُب الفرق متشعبة وشديدة التعقيد بسبب ما دخلها من أفكار جديدة إبان الصّراع السياسي والفكري حول هذه المسألة. ويصعب بالاعتماد على ما جاء في هذه المصادر فهم أوجه الاختلاف بينهما ممّا يحتم علينا الرجوع إلى الأصول الأولى للنظريتين وتتبّع أقوال الشيعة والخوارج في هذه المسألة وربطها بمختلف الأحداث التي استجدّت خلال تلك الفترة.

يبدو من خلال رواية أبي مخنف أن الخوارج قد حدّدوا موقفهم من مسألة الخلافة منذ اللحظة الأولى لظهورهم كمجموعة معارضة لعليّ ومعاوية من خلال شعارهم الذي رفعوه في حروراء وهو: «الأمر شورى بعد الفتح»[1]. وقد بيّنا من خلال تحليل محتوى الشعار وبالرجوع إلى بقيّة الروايات الخاصة بتلك الفترة شكّنا في صحّة هذه الرواية، غير أنّ هذا الشك لا يمنعنا من التأكيد على أن الخوارج قد حسموا منذ ظهورهم إحدى المسائل الهامة المرتبطة بالخلافة، ألا وهي العترة القرشيّة. فقد رفضوا حصر الخلافة في هذه القبيلة، مؤكدين بذلك شعورهم المعادي لقريش والذي أظهروه منذ بداية الثورة ضد عثمان.

ثم ضبط الخوارج في بداية الحكم الأموي الشّروط التي يجب توفّرها في المترشّح لقيادة الجماعة[2] من دون أن يحدّدوا الطريقة التي يتمّ بها الاختيار، إذ لم يرد ذكر الشّورى أو غيرها. إلاّ أنّ الطريقة التي توخّوها في اختيار بعض قادتهم تعطينا فكرة عن النّموذج الذي يعتبرونه الأفضل في اختيار الخلفاء، أي الانتخاب بمعناه الواسع. ورغم ما في هذه الأفكار من عدم دقة وصعوبة في التطبيق على مستوى الأمّة الإسلامية بأكملها، فإنّ كل الخوارج تمسّكوا بها ومثّلت الأساس الذي قامت عليه نظرية الإمامة عندهم.

ولكن في الوقت الذي حدّد فيه الخوارج الخطوط العريضة لموقفهم من مسألة الخلافة، لم يكن لأنصار عليّ موقف واضح منها. فكلّ ما كان يجمعهم هو القول إن عليّاً هو الخليفة الشّرعي وهو أفضل من معاوية لسابقته في الإسلام وقرابته من الرّسول ولما كان

---

(١) تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٧٤.

يتحلّى به من صفات حسنة.

ولمّا قُتل عليّ بن أبي طالب وانتقل الحكم إلى بني أمية، بايع شيعته معاوية بن أبي سفيان والتزموا الهدوء رغم معارضتهم لحكمه. إلاّ أن عمليّة مقتل الحسين وأفراد عائلته في كربلاء أثّرت على الحركة الشيعية لأن رابطة المقتولين بالرّسول أدخلت العنصر الديني في التشيّع، وتحوّلت هذه الحركة السياسية إلى حركة سياسية دينية يحتلّ فيها الجانب الشعوري حيّزاً كبيراً، كما تحوّل «تفضيل» الشيعة لعليّ إلى «ولاء» له و«عداء» لأعدائه[1]. وتجاوز الولاء بعد ذلك عليّاً ليشمل أبناءه، ثم جرى ربط الولاء بالرسول مباشرةً لكن من دون أن يرتبط هذا الولاء في البداية بنظرية معيّنة للإمامة.

برزت المبادىء الأولى لنظرية الإمامة عند الشيعة مع حركة المختار بن أبي عُبيد الثّقفي التي وقعت في الكوفة في الفترة الفاصلة بين سنتي ٦٥ و٦٧هـ[2]. فقد قامت هذه الحركة على مبدأ أساسي هو «الدّعوة للطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلّين»[3]. وبما أن المختار الثقفي لا يملك صلة قرابة بعائلة الرسول تخوّله حق المطالبة بدم الحسين، فقد اعتبر نفسه مفوّضاً للقيام بذلك من قبل محمّد بن الحنفية، أخي الحسين وصاحب الحقّ الشرعي في الثأر له[4] وابن «الوصي»[5] عليّ بن أبي طالب.

وسيصبح مفهوم «الوصاية» الذي ركّز عليه المختار الثقفي في خطبه ورسائله وشعاراته مبدأً أساسيًّا في نظرية الإمامة عند الشيعة، إذ إن جلّ الفرق الشيعية ستتبنى هذا القول، معتبرة أنّ الرسول قد أوصى قبل موته بالخلافة لعليّ. وقد نصّ على ذلك صراحة في مناسبات عديدة منها قوله في غدير خمّ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه. اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه». وكذلك قوله لعليّ لمّا أراد المشاركة معه في غزوة تبوك: «يا عليّ، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى. إلاّ أنه لا نبيّ بعدي»[6].. وهي أحاديث يتّفق المسلمونعلى صحّتها لكنّهم يختلفون مع الشيعة في تفسيرها.

---

(١) وداد القاضي، الكيسانية، ص١٢٠.

(٢) بدأ المختار دعوته في أواخر سنة ٦٤هـ قبل خروج التّوابين، لكنّه سُجن من قبل والي الكوفة ولم يُطلق سراحه إلاّ سنة ٦٥هـ. وشرع بعد خروجه من السجن مباشرة في تنظيم الدعوة. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢٠٧ ـ ٢١٣.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢١٣ ـ ٢٢٨؛ تاريخ الطبري، ج٦، ص١٥.

(٤) وداد القاضي، الكيسانية، ص٧٦.

(٥) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص٢١٨؛ النوبختي: كتاب فرق الشيعة، تحقيق إبراهيم الزين، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٣ ـ ٢٤؛ القُمّي، كتاب المقالات والفرق، ص١٥ ـ ١٦.

(٦) مسند أحمد بن حنبل، استانبول، ١٩٨٢، ج١، ص١١٧ ـ ١١٩.

وقد تبنّت جل المجموعات الشيعية القول بالوصاية لعليّ وإنْ كانت ستختلف في ما بينها في تسلسل الإمامة بعده. إلاّ أنّ هذا الاختلاف لن يأخذ شكله النّظري في فترة الحكم الأموي، ولذلك لم يختلف الشيعة حول هذه المسألة وشارك أغلبهم في الانتفاضات التي اندلعت خلال تلك الفترة، ونقلوا ولاءهم من فرد إلى آخر من أبناء بيت الرسول[1] الذين ثاروا ضدّ الحكم الأموي.

ولئن تبدو فكرة الوصاية التي تبنّاها الشيعة غير مرفوضة عند الخوارج باعتبار أن أبا بكر الصديق الذي يتولونه جميعاً ويمجدونه قد أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب وأنّ بعض قادة الحركات الخارجيّة قد طبّقوا هذا المبدأ. فإنّ الخوارج يرفضون الوصاية عندما تصبح الطريقة الوحيدة للوصول إلى السلطة، كما يرفضون حصر الوصاية في آل بيت الرسول لأنّه يحرم بقيّة المسلمين من حقّهم في اختيار من يرونه الأفضل لقيادة الجماعة ويجعل الخلافة في قريش وهو ما لا يقبلونه إطلاقاً، هذا بالإضافة إلى السلطة الدينية التي يمتلكها من يتولّى المنصب بحكم ارتباطه بالرسول وتاليًا بالله.

وبالإضافة إلى القول بالوصاية، ظهر إبّان حركة المختار الثقفي مفهوم آخر كان له تأثير كبير على الفكر الشيعي، وبالتحديد على نظرية الإمامة، وهو مفهوم «المهدي»[2]. ولئن عبّرت الكلمة في البداية عن بعض فضائل ابن الحنفيّة حسب المعنى الشائع لها من قبل[3]، فإنّها سرعان ما اتخذت بُعداً جديداً إذ صارت تعني امتلاك الإمام لصفات فوق صفات البشر[4]، وهو ما يتعارض تماماً مع مبادىء الخوارج. فالفضائل الشخصية التي يعتبرونها الأساس في اختيار القادة لا تعني أبداً امتلاك الشخص المعني صفات خارقة. لذلك لم يكن قادتهم مقدّسين ولا يملكون سلطة دينية، بل كانوا يخضعون للمراقبة التي قد تؤدي أحياناً إلى الثورة ضدّهم.

ولم يكتفِ الشيعة بتبنّي فكرة «المهدي» بل طوّروها. فبعد أن أُسندت إليه إبّان ثورة المختار الثقفي صفات خارقة تفوق صفات البشر، أدخلت الكيسانية مفاهيم جديدة كالقول بغيبة الإمام ورجعته. وترجّحُ ودّاد القاضي أن يكون القول بالغيبة والرّجعة قد ظهر إثر وفاة محمّد بن الحنفيّة سنة ٨١هـ، وتفسّر أخذ الكيسانية بهذا الرأي بأنّه يكفل لهم البقاء والاستمرار، ويمكّنهم من تأويل بيعة ابن الحنفيّة لعبد الملك بن مروان على أنّها ذنب

(١) محمد عبد الحيّ شعبان، الثورة العبّاسية، ترجمة عبد المجيد حسيب قيسي، أبو ظبي، ١٩٧٧، ص٢٣٨.
(٢) تاريخ الطبري، ج٦، ص١٦.
(٣) وداد القاضي، الكيسانية، ص١٢٤.
(٤) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٣٢؛ القاضي، الكيسانية، ص١٢٤.

ارتكبه واستحقّ بموجبه عقابًا من الله وهو الغيبة[1]. ولكن هذه الغيبة ستنتهي بانتهاء مدّة العقوبة، وهو ما أشار إليه أبو حمزة الخارجي في خطبته لما قال: «ينتظرون الدّول في رجعة الموتى». وستأخذ عن الكيسانية أغلب الفرق الشيعية القول بغيبة الإمام ثمّ رجعته، إلاّ أنّها ستختلف في شخص الإمام الغائب أو «المهدي المنتظر»، كما ستختلف في مكان غيبته.

ويرفض الخوارج القول بالرّجعة لا لعدم إيمانهم بعودة الموتى إلى الحياة في الدنيا فحسب، بل لأن واقعيتهم تجعلهم يرفضون الانصياع لشخص غائب يجهلون مكان وجوده وزمن رجوعه.

وستزداد هذه الآراء التي دخلت الفكر الشيعي مع حركة المختار وطوّرتها الكيسانيّة بعده تطرّفاً مع تطوّر الحركة الفكرية. ورغم أن تنظير مفهوم الإمامة وإضفاء الصفات الإلهية على الإمام سيكون مع بداية الحكم العبّاسي، فإنّ بعض الإشارات تؤكّد أنّ إرهاصاته الأولى ظهرت منذ أواخر الحكم الأموي، ذلك أنّ بيان بن سمعان التّميمي والمُغيرة بن سعيد وبزيغا وصائداً قد نصّبوا أنفسهم أنبياء وآل محمد أرباباً خالقين[2]. وقد خرج بيان بن سمعان على خالد بن عبد الله القسري والي العراق في خلافة هشام بن عبد الملك وقُتل سنة ١١٩هـ.

وعموماً، فإنّ نظرية الإمامة عند الشيعة مخالفة تماماً لنظرية الخوارج. فإذا كان الشيعة يرون أن الإمامة لا تكون إلاّ في بيت الرسول، وأنّه ليس من حقّ الأمة أن تختار من يحكمها بما أن الرسول قد اختار لها، وأن طاعة الإمام واجبة لارتباطه بالنّبي.. فإن الخوارج يرون أن الخلافة تُعقد لأفضل أبناء الأمّة، وأن الخليفة لا يملك سلطات دينية ولا صفات خارقة، وهو مسؤول عن أعماله، وطاعته واجبة طالما التزم بتنفيذ ما تعهد به. أمّا إذا ظهر منه تهاون أو انحراف، فيجب الخروج عليه وخلعه أو قتله، ولذلك كان تاريخهم حافلاً بالثورات ضد خلفائهم. وقد ذهب بعض الخوارج إلى حدّ القول بالبيعة المقترنة بشرط الخلع إذا توفّر الأفضل[3]. وهكذا أكّد الخوارج على دور الأمّة في مسألة الإمامة، في حين أكد الشيعة على دور الإمام وجعلوه فوق الأمّة ومنحوه كل السلطات الدينية والدنيوية.

---

(١) وداد القاضي، **الكيسانية**، ص١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) يذكر البغدادي أن بيان بن سمعان قد ادّعى الربوبية لنفسه إذ قال إنّ روح الله تناسخت في الأنبياء والأئمة حتّى صارت إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ثم انتقلت إليه من أبي هاشم. ويضيف الطبري أنّ المغيرة بن سعيد كان يقول لو أردت أن أحيي عاداً أو ثموداً أو قروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم.
انظر: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٢٨؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص١٨٠؛ القمّي، **كتاب المقالات والفرق**، ص٥٥.

(٣) **المصدر المنسوب للبلاذري**، ج١١، ص١٢٦.

إلاّ أنّ هذا الاختلاف بين الشيعة والخوارج في مسألة الإمامة لم يمنع من اتفاق أقوالهم في بعض المسائل الأخرى. والظاهر أنّ هذا الاتفاق بدأ يبرز منذ انتفاضة زيد بن عليّ الخارج زمن هشام بن عبد الملك. فقد تبنّى زيدٌ بعض المطالب السياسية التي كان الخوارج ينادون بها[1]. وسينعكس هذا الاتفاق بعد ذلك فكريًا بتبنّي الشيعة الزيدية مبدأ الخروج على الإمام الجائر[2]، وسلّ السيوف في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك، وتكفير مرتكبي الكبائر والحكم بتخليدهم في النّار[3].. وهي أقوال تبنّاها الخوارج وتميّزوا بها عن سائر المعارضين.

هذه هي المسائل الرئيسية التي دار حولها جدل الخوارج والشيعة، وهي تكاد تقتصر في الفترة موضوع البحث على مسألة الإمامة. والواضح أنّ المبادىء الرئيسية للنظريتين قد ظهرت وتبلورت في تلك الفترة وجاءت متباينة تعكس تباين المواقف السياسية والمنطلقات الفكرية والتطور التاريخي للحركتين. ويجرّنا هذا الاستنتاج إلى التساؤل عن تأثير هذه الخلافات الفكرية والمذهبية على العلاقات بين أنصار الحركتين.

يبدو من خلال الإشارات القليلة المتوافرة أنّ الخلافات بين الخوارج والشيعة لم تخلق ـ رغم حدّتها ـ قطيعة تامّة داخل المجتمع بين أتباع المذهبين. بل إنّ بعض العناصر من الأجيال الجديدة خاصةً تمكّنت من تجاوز خلافاتها المذهبية وأقامت علاقات ودية في ما بينها. ويركّز الرّواة في هذا الإطار على العلاقة الحميمة التي كانت تربط بين الشاعرين الخارجي الطّرماح الطّائي والشيعي الكميّت[4]. كما يذكر الاصفهاني زواج السيد الحميري، الشاعر الشيعي المتعصّب، بامرأة من الخوارج الإباضيّة زواج متعة. ورغم المعارضة الشديدة التي أبداها أهلها وتوعدهم إيّاها بالقتل، فقد حافظ السيد الحميري على علاقته بهذه المرأة الإباضيّة مدّة طويلة[5].

وقد لا تعطي هذه الأمثلة القليلة صورة صادقة عن طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الشيعة والخوارج، لكن يمكن من خلالها القول إنّ أتباع المذهبين كانوا يتعاملون مع بعضهم بعضاً. فإذا كانت العناصر الملتزمة بل والمتعصّبة من أمثال الطّرماح والسيد الحميري قد تجاوزت العداوة وأقامت علاقات مع أتباع المذهب الآخر، فالأكيد أنّ العامة من أنصار المذهبين كانوا يتعاملون بسهولة أكبر مع بعضهم بعضاً ومع باقي المسلمين من

---

(١) انظر البرنامج السياسي لزيد بن عليّ في: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص١٧٢، ١٨٠ ـ ١٨١.

(٢) ابن قتيبة، **المعارف**، ص٦٢٣؛ الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص٧٤.

(٣) الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص٧٤؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص٢٤.

(٤) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص٤٦؛ الاصفهاني، **الأغاني**، ج١٦، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٥) الاصفهاني، **الأغاني**، ج٧، ص٢٥٦.

أتباع الحركات الأخرى مثل المرجئة والقدرية والمعتزلة، وإنْ كان هذا التعامل لا يعني زوال الخلافات الدينية والفكرية، وهو ما تبيّناه سابقاً وستتبيّنه بوضوح أكبر من خلال الحديث عن علاقة الخوارج بالفرق الأخرى.

ب ـ علاقة الخوارج بالمرجئة والقدرية والمعتزلة:

*** الخوارج والمرجئة:**

ليس من الصعب تحديد نوعية العلاقة التي يمكن أن تقوم بين الخوارج والمرجئة إذا اعتمدنا على ما نجده في كُتُب الفرق والمقالات لأن المبادىء الأساسية التي يقوم عليها هذا التيار تختلف تماماً مع مبادىء الخوارج. فالمرجئة بمختلف تفرّعاتهم يقولون إنّ «الإيمان يقتصر على معرفة الله والإقرار به»، وتبعاً لذلك فإنهم يعتبرون «مرتكب الكبيرة مؤمناً ما دام باقيًا على اعتقاده»[(١)]، وهو ما يتنافى مع موقف الخوارج القائل إنّ مرتكب الكبيرة كافر[(٢)].

لكن ما ينقله مؤلفو كُتُب الفرق لا يمكن قبوله والاعتماد عليه في دراسة العلاقة بين هاتين الحركتين لأنه لا ينطبق على الفترة موضوع البحث. فالمرجئة لم يكوّنوا خلال الحكم الأموي حزباً مثل الخوارج أو الشيعة بل كانوا مجرد مجموعة من المسلمين شارك بعض أفرادها في الجدل الدّائر بين علماء وأتباع مختلف التيارات الموجودة، وكانت لهم مواقف متميّزة في المسائل الرئيسية التي كان يدور حولها الجدل. لكن مواقفهم لم تأخذ على ما يبدو صبغة عقائدية في الفترة الأولى لوجودهم، ومن هنا فإنّ دراستنا ستكون محاولة لتحديد ملامح هذه المجموعة والتعرف على ما تميّزت به مواقفها لفهم طبيعة العلاقة التي قد تكون قامت بين أنصارها والخوارج خلال الحكم الأموي.

لا يوجد في كُتُب التاريخ الأساسية معلومات عن المرجئة في تلك الفترة سوى رواية مقتضبة ينقلها ابن سعد ويقول فيها «إنّ الحسن بن محمد بن الحنفيّة هو أوّل من تكلم في الإرجاء»[(٣)]. ونجد في بعض المصادر المتأخرة وخصوصاً في كتاب الذهبي بعض التفاصيل عن الظروف التي تبنّى فيها الحسن القول بالإرجاء والأسباب التي دفعته إلى ذلك.

يذكر الذهبي أنّ الحسن بن محمد بن الحنفية «تبنّى القول بالإرجاء لمّا رأى الخوارج تولّت الشيخين وبرئت من عثمان وعليّ، وعارضتهم السبائية فبرئت من أبي بكر وعمر

---

(١) توجد بعض الاختلافات بين مجموعات المرجئة في تحديد مفهوم الإيمان، ولكن أغلبها تُجمع على ما قُلناه.

(٢) يتفّق الخوارج على تكفير مرتكب الكبيرة لكنّهم يختلفون في درجة كفره.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٥، ص٩٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٩، ص١٤٠؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام**، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج٣، ص٣٥٩؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج٢، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.

وعثمان وتولت عليًا فأفرطت فيه»[1]. وتؤكد هذه الرواية على اقتضابها أمراً أساسيًا، وهو وجود صلة بين ظهور تيّار الإرجاء وأقوال الخوارج تجعل وجود العلاقة بينهما أمراً حتميًا.

أمّا محتوى ردّ الحسن بن محمد على أقوال الخوارج والشيعة فقد أورد منه الذهبي مقتطفات ذكر أنّ الحسن كتبها في رسالة ضمّنها موقفه من هذه المسألة[2]. ومما جاء فيها قوله: «إننا نرضى من أئمتنا بأبي بكر وعمر أن يُطاعا ونسخط أن يعصيا ونرجىء أهل الفرقة، فإنّ أبا بكر وعمر لم تقتتل فيهما الأمة ولم تختلف فيهما الدعوة ولم يشك في أمرهما وإنما الإرجاء فيما غاب عن الرجال ولم يشهدوه»[3].

ويُظهر القول المنسوب إلى الحسن أنّ الصدمة التي أحدثتها الفتنة وما تلاها من خلافات وصدور مواقف وأحكام تقييميّة من قبل التيّارات الموجودة قد دفع بعض المسلمين إلى الانكباب على إعادة قراءة الأحداث لفهمها وتقييمها والردّ على المواقف الصادرة بشأنها. وهو ما يؤكد قول هشام جعيط إنّ «التيارات الكبرى الأرثوذكسية والهرطقية قد ولدت إمّا خلال الفتنة أو من جراء قراءة الفتنة»[4].

أمّا موقف الحسن في حدّ ذاته فلا يبدو جديداً رغم تأكيد الرواة أنّه كان أول من تبنّاه. ففي إحدى الروايات يذكر سفيان بن عيينة أنّ «الإرجاء ظهر لأوّل مرة بمناسبة مقتل عثمان»[5]. وينقل ابن عساكر رواية مشابهة يقول فيها إنّ «بعض الصحابة منهم سعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت كانوا في المغازي، فلمّا قدموا المدينة بعد مقتل عثمان وجدوا الناس مختلفين يرى بعضهم أنّ عثماناً قُتل ظلماً في حين يرى البعض الآخر أن عليّاً وأصحابه محقّون، فقالوا نحن لا نبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ونرجىء أمرهما إلى الله وهو الذي يحكم بينهما»[6]. وقد دفعهم هذا الشك إلى رفض البيعة لعليّ واعتزال الفتنة والابتعاد كليًا عن مسرح الأحداث، وقد أُطلق عليهم اسم «المعتزلة» بسبب هذا الموقف[7]. لكن إذا كان القول بإرجاء أمر المشاركين في الفتنة

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣٥٨.

(٢) نقل فان ايس النصّ الكامل للرسالة التي وضعها ابن الحنفية في الإرجاء وعلّق عليها. انظر: VAN ESS (J), «Das Kitab - Al-irg 'a de Hasan B. Muhammad B. Al Hanafiyya», In: *Arabica*, n°XXI, 1974, pp. 20-25.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 162.

(٥) نقل هذه الرواية محمد الطالبي في مقاله حول الإرجاء، انظر: TALBI (M), «Al-irga', ou de la théologie du salut à karirouan au IIIè/IXè siècle», In: *Etudes d'histoire ifrigiyenne et de civilisation médievale*, Tunis, 1982, p. 362.

(٦) نقل هذه الرواية: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٢٧٩.

(٧) تاريخ الطبري، ج٥، ص٥٨.

إلى يوم القيامة قد ظهر منذ اللحظة الأولى للأزمة، فلماذا يؤكد الرواة أنّ الحسن هو أوّل المتكلمين في الإرجاء؟

يبدو أن موقف الحياد المنسوب لبعض الصحابة كان سياسيًا بحتاً التزم به أصحابه من دون أن يحاولوا تبريره دينيًا أو فكريًا. لكن لمّا انتهت الفتنة وتحوّل الصراع السياسي إلى جدل ديني وظهر موقف الخوارج والشيعة برز هذا التيار القائل بتأجيل الحكم على علي وعثمان وكلّ المشاركين في الفتنة إلى يوم القيامة. والظاهر أنّ الحسن هو أول من حاول تنظير هذه المسألة ولذلك اعتبره الرواة أول المتكلمين فيها. وقد كان موقف الحسن على ما يبدو المنطلق لنظرية المرجئة كما نجدها في كتب الفرق[1] والقائلة بعدم تكفير أيّ كان من المسلمين مهما ارتكب من أخطاء ما دام باقيًا على إيمانه بالله، وإرجاء الحكم عليه إلى يوم القيامة[2]. وهو قول سيوسّع به المرجئة دائرة الإيمان لتشمل جميع المسلمين ويبررون أخطاء الجميع بمن في ذلك حكّام بني أميّة، وهو ما جعل بعض أتباع التيارات الأخرى يتهمونهم بمناصرة السلطة الأموية[3].

ولم يكتف الحسن بن محمد بن الحنفية بتبنّي القول بالإرجاء، بل قام كذلك بنشاط كبير شمل المدينة مقرّ إقامته وبعض الأمصار الأخرى[4]. فقد كانت له حلقة في جامع المدينة يجادل فيها المسلمين ويشرح لهم مرتكزات نظريته مثلما كان يفعل زعماء التيارات الأخرى والعلماء في العديد من الأمصار. كما قام بتأليف رسالته في الإرجاء وبثّها في الأمصار وذلك بهدف نشر أفكاره على نطاق واسع. ويظهر أنّه شارك بنفسه في هذه العملية، إذ ينقل الذهبي عن عبد الرحمن بن أيمن قوله: «كان الحسن إذا قدم مكة نزل على أبي فيجتمع إليه إخوانه فيقول لي: اقرأ عليهم هذه الرسالة فكنت أقرأها»[5]. ولئن لم تذكر المصادر نتيجة هذا النشاط المكثّف، فالأكيد أنّ العديد من المسلمين قد تأثّروا بأفكار

---

(١) يؤكد ابن حجر أنّ الإرجاء الذي يتعلّق بالإيمان لم يعرّج عليه الحسن بن محمد بن الحنفيّة: انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص٣٢١.

(٢) تُنسب للشاعر المرجئي ثابت قطنة قصيدة طويلة عن هذه النظرية يقول فيها:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا ... أن نعْبُدَ الله لم نشرك به أحَدَا

نُرجّي الأمور إذا كانت مشبّهة ... ونصدق القول فيمن جارَ أو عَنَدَا

المُسْلِمُون على الإسلام كُلّهمُ ... والمُشركون أشتوا في دينهم قِدَدا

ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحداً ... من الناس شركاً إذا ما وَحّدُوا الصَمَدَا

(الاصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص٢٥٤).

(٣) النوبختي، كتاب فرق الشيعة، ص١٤؛ القمّي، كتاب المقالات والفرق، ص٥ ـ ٦.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣٥٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٥٨.

الحسن ومواقفه وتبنّاها بعضهم. ويرى الطالبي أنّ الذين قبلوا فكرة الإرجاء ينحدرون إمّا من وسط المسلمين الذين لم يكن التزامهم السياسي قويًا أو من الذين أزعجهم العنف ويريدون تهدئة الوضع المتفجّر[1]. أما الملتزمون سياسيًا، وخصوصاً الخوارج، فالأكيد أنه كان لأحكام ابن الحنفيّة وأعماله تأثير عليهم. فما هو هذا التأثير؟

لا نجد في المصادر شيئاً عن موقف الخوارج من أفكار الحسن وأعماله، لكن المقتطفات الواردة في الرسالة تكفي وحدها لتصوّر موقفهم من المرجئة في تلك الفترة.

فالحسن تهجّم في رسالته على الشيعة ورماهم بشتّى الأوصاف والنّعوت. والأكيد أن الخوارج تعرّضوا بدورهم لهجوم مماثل بما أنّ أحكام الحسن جاءت أساساً للردّ عليهم وعلى الشيعة، وأن بعض الخوارج قد تجنّدوا بدورهم للتصدّي لهذه الحرب النظرية والردّ عليها. ولعلّ ما يؤكد ذلك قيام أحد علماء الخوارج، وهو الرّباب بن اليمان، بتأليف كتاب خصّصه للردّ على أتباع هذا التيار[2] ظهر على ما يبدو في بداية الحكم العبّاسي. وبظهور هذه المؤلّفات سيتسع نطاق الصّراع المذهبي والفكري وسيتخذ أشكالاً جديدة. ونجد صدى لهذا الصّراع بين المرجئة والخوارج في الشعر كذلك. فهذا ثابت قطنة يقول:

كلّ الخوارج مخطٍ في مقالته ... ولو تعبّد فيما قال واجتهدا[3]

إلاّ أنّ الصراع الدّيني والفكري بين المجموعتين وما قد يكون انجرّ عنه من عداء لم يمنع مشاركة بعض العناصر المنسوبة إلى تيّار الإرجاء في انتفاضة يزيد بن المهلب إلى جانب بعض الخوارج وحصول انسجام بين قائدَيْ المجموعتين أثناء العمليات العسكرية[4].

*** الخوارج والقدريّة والمعتزلة:**

إذا كانت الخلافات المذهبيّة بين الخوارج والشيعة أو بينهم وبين المرجئة قد أمكن التّعرف على بعض جوانبها من خلال ما توافر من الرّوايات والأشعار، فإن علاقة الخوارج بالقدريّة لا نجد عنها شيئاً في المصادر لأن القدريّة لم تكن فرقة قائمة بذاتها واضحة المعالم ولها مبادىء ثابتة يلتفّ حولها أتباعها، بل كانت مجرد حركة تضمّ خليطاً من المسلمين جمعهم القول بمسؤولية الإنسان عن أفعاله خيرها وشرها باعتباره مخيّراً في القيام بها. ولم تكن مسألة الجبر والاختيار جديدة بل كانت باستمرار محل تساؤل من قبل المسلمين. وقد أخذت في النصف الثاني من القرن الأول هجري بُعداً جديداً إذ تجاوزت المستوى الديني

(1) TALBI (M), *op. cit.*, pp. 364-365.

(2) ابن النديم، الفهرست، مصر، ١٣٤٨هـ، ص٢٥٨.

(3) الاصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص٢٥٤.

(4) تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٩٣.

لتُطرح فكريًا وتتحوّل إلى قضيّة أساسيّة يدورحولها الجدل بين المسلمين[١]. وقد كانت البصرة وحلقة الحسن البصري بالذات هي الساحة الرئيسية لهذا الجدل وفيها عبّر العلماء عن هذه المسألة بأوّل صيغة فكرية[٢].

وقد تأثّر المسلمون في كل المناطق بالجدل حول هذه المسألة وتفاعلوا معه، وكان الخوارج في طليعة المهتمين به. ويظهر ذلك من خلال العديد من الإشارات التي تؤكد تبّني بعض الخوارج القول بالقدر قبل نهاية خلافة بني أميّة مثل فرقة الميمونيّة من العجاردة[٣]. وتذكر كُتُب الفرق والمقالات أسماء العديد من المجموعات التي تكوّنت بسبب موقف أتباعها من مسألة القدر. وقد أوردنا في ما سبق تفاصيل هامة عن الصّراع الذي نشب بين الإباضيّة بسبب هذه المسألة[٤].

وعموماً، فقد اختلف الخوارج بشأن مسألة القدر كما اختلف بشأنها بقيّة المسلمين. لكن القائلين بالقدر من الخوارج كانوا على ما يبدو كثيرين، الأمر الذي يقرّب بين التيّار الخارجي وهذا التيّار الجديد على المستوى الفكري.

وثمّة جانب آخر يصل الخوارج بمجموعة معارضة في الشام تنسبُ إلى القدرية، وهي «الغيلانيّة» نسبةً إلى غيلان الدمشقي الذي ثار في خلافة هشام بن عبد الملك وقتل[٥]. وكان غيلان أوّل من وضع برنامجاً سياسيًا، وهو الذي تبناه يزيد بن الوليد في ثورته ضدّ الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ[٦]. وما يميّز هذا البرنامج تضمّنه لمطالب سياسية كان الخوارج قد نادوا بها مثل مبدأ الشورى في اختيار الخلفاء والحدّ من سلطتهم المطلقة وحق الأمّة في خلعهم إذا حادوا عن الطريق السّوي[٧].

وسينعكس الاتّفاق حول هذه المسائل السياسية على المستوى الفكري بتبنّي المبادىء نفسها في مسألة الموقف من الإمام الجائر والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بالإضافة إلى مبدأ الشّورى في اختيار الخلفاء. وسيتدعم هذا الاتفاق بعد بروز تيّار الاعتزال المتفرّع عن القدرية، فهذا التيار الذي ظهر نتيجة الجدل في المسائل التي كانت محل خلاف بين المسلمين، وأساساً مسألة الموقف من مرتكب الكبيرة جاء رافضاً لموقف الخوارج المتطرّف وموقف المرجئة المتسامح. إلاّ أن هذا الخلاف لم يمنع المعتزلة من تأييد قول

---

(١) حسين مروّة، **النزعات المادية**، ج١، ص٦١٩ ـ ٦٢٠.

(٢) **المرجع نفسه**، ج١، ص٦٢٠.

(٣) الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ص٩٣ ـ ٩٤؛ البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص٦٤.

(٤) الدّرجيني، **طبقات المشائخ**، ج٢، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ الشماخي، **كتاب السّير**، ص٨٤ ـ ٨٥.

(٥) ابن قتيبة، **المعارف**، ص٤٠٤ ـ ٤٨٤.

(٦) VAN ESS (J), «Kadriyya», In: *L'Encyclopédie de l'Islam*, N^elle^ édition, T. IV, p. 386.

(٧) انظر البرنامج السياسي ليزيد بن الوليد في: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص٢٦٨ ـ ٢٦٩.

الخوارج بخلود أصحاب الكبائر الذين يموتون على كبائرهم في النّار[1] ويذكر البغدادي أنّ واصل بن عطاء هو الذي وافق الخوارج في هذا القول[2]. كما سيتفق أغلب الخوارج مع المعتزلة في مسألة التوحيد وخلق القرآن وغيرها من المسائل التي ستُطرح للجدل بين المسلمين خلال القرن الثاني هجري وبعده. إلاّ أنّ اتفاق الخوارج مع بقية التيّارات حول بعض المسائل لن يكون له تأثير كبير على المستوى السياسي باعتبار أن هذه التيّارات لن تحاول التقارب مع الخوارج، ولذلك سيظلّ العداء قائماً بينهم وبينها.

وإجمالاً، يمكن القول إنّ نشاط الخوارج لم يتوقّف بعد الفتنة الثانية لكن ملامحه تغيّرت. فقد ضعف النّضال العسكري خاصة في المناطق القريبة من قلب الإمبراطورية وازدهر في مقابل ذلك النشاط الفكري وانشغل به العديد من الخوارج خاصة في البصرة. ولئن كان لهذه الأنشطة تأثير على المجموعات الخارجية، فإنّ أهمّ هذه التأثيرات تتمثل في دخول الخوارج في «حرب» نظرية مع أنصار التيّارات الأخرى وخاصة الشّيعة والمرجئة. كما كان للنشاط الدّعائي الذي قام به الإباضيّة انطلاقاً من البصرة دور في نشر الفكر الإباضي في أطراف الإمبراطورية الجنوبية والغربية وتكوين مراكز للثورة ستنطلق منها في أواخر الحكم الأموي وبداية الحكم العبّاسي انتفاضات عارمة.

III ـ انحلال السّلطة الأموية وعودة النشاط العسكري للخوارج

ارتبطت تحرّكات الخوارج التي اندلعت في نهاية الحكم الأموي ارتباطاً وثيقاً بالأحداث السياسية التي شهدتها الدّولة الإسلامية في تلك الفترة، وخصوصاً بعد مقتل الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ. فمنذ القضاء على انتفاضات الخوارج العارمة التي اندلعت إبّان الفتنة الثانية، لم يعد وجودهم يُشكّل خطراً كبيراً على السّلطة، كما لم تأخذ تحرّكاتهم التي شهدها نصف القرن الأخير من الحكم الأموي شكل ثورات كبيرة إلاّ في إفريقية، لذلك تمكنت الدولة من القضاء عليها كما قضت على غيرها من الانتفاضات وحقّقت الاستقرار والأمن لمدة طويلة.

لكن قلّة تحركات الخوارج وميل أغلبهم إلى القعود لم يحدّا من انتشار الفكر الخارجي في المناطق التي شهدت في السابق نشاطاً للخوارج، وهي العراق والجزيرة الفراتية والمناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية، كما انتشر في أطراف الإمبراطورية الشرقية وخاصة الغربية. لكن عنف وبطش حكام بني أميّة إزاء المعارضين جعلا عدداً كبيراً من الخوارج يركنون إلى الهدوء ولا سيما في المناطق القريبة من مركز الخلافة منتظرين الفرصة المناسبة للتحرّك من جديد. وقد سنحت هذه الفرصة مع حلول سنة ١٢٦هـ التي شهدت

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١٢٤؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٨٢.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٨٢.

مقتل الخليفة الوليد بن يزيد ودخول الدولة في حالة اضطراب وفوضى شاملة. ونظراً لأهميّة هذه الأحداث ودورها في عودة النشاط الخارجي، فإننا سنبدأ بإلقاء نظرة عليها.

١ ـ أزمة النّظام الأموي أو الفتنة الثالثة

تعود بوادر الأزمة السياسية التي شهدتها الدولة الأموية إلى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك، أي إلى سنة ١٢٥هـ. ذلك أنّ الوليد بن يزيد الذي خلف هشاماً لم يكن يحظى بتأييد العديد من الأطراف داخل البيت الأموي وفي صفوف الجيش الشامي. وقد فسّر محمد عبد الحيّ شعبان هذه المعارضة برفض هذه الأطراف سياسة الوليد الثاني القيسية التوسعية[١]، مستدلاً على ذلك بالقول إنّ الوليد كان في عهده القصير أكثر من هشام تحبيذاً للسياسات العسكرية القيسية التوسعية، والدليل على ذلك موقفه من خالد القسري زعيم اليمنيّة[٢]. وقد اعتمد شعبان على الصّراع بين الحزب القيسي صاحب النّزعة التوسعية والحزب اليمني الرّافض لهذه النزعة لتفسير كل الأحداث التي وقعت في خلافة بني مروان.

ويبدو أن في ما ذكره شعبان جانباً من الصحة. فالوليد بن يزيد كان منحازاً إلى المضريّة بدليل استعماله ولاةً وعمّالاً جلّهم من قبائل مضرية وخصوصاً من ثقيف أخواله[٣]، وهو ما ألّب عليه اليمنيّة الذين يمثلون الأغلبيّة في الجيش الشامي[٤]. إلاّ أن الوليد لم يُدخل تغييرات جذريّة على سياسة سلفه في مجال التعامل مع القبائل، إذْ لم يغيّر العديد من ولاة هشام المضريّة، كما عيّن في مناصب المعزولين منهم أشخاصاً ينتمون إلى العصبيّة القبليّة ذاتها، وبالتالي لا يمكن القول إن السبب الوحيد للثورة ضد الوليد هو سياسته القيسية باعتبار أنّ هذه السياسة لم تُحدث في السابق ثورةً ضد الخليفة.

كما أنّ عملية قتل الوليد الثاني لخالد القسري، التي ركّز عليها العديد من الدّارسين واعتبروها السبّب فيما حدث له[٥]، لا تعدّ دليلاً على سياسته المعادية لليمنية باعتبار أنّ ضحايا العمليات الانتقامية التي وقعت في خلافة الوليد شملت عناصر أخرى من غير اليمنية مثل إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي وأبناء القعقاع بن هبيرة وغيرهم.

---

(١) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٧٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٧١.
(٣) سمّى الوليد على الحجاز يوسف بن محمد الثّقفي، وعلى دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي، وأبقى على العراق يوسف بن عمر الثقفي، وعيّن على قنّسرين يزيد بن عمر بن هبيرة وهو فزاري.
(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٣١.
(٥) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٧٢؛ نبيه عاقل، دراسات في تاريخ العصر الأموي، دمشق، ١٩٧٦، ص٢٨٧.

بالإضافة إلى أنّ العناصر اليمنية كانت قد دبّرت مؤامرة قتل الوليد قبل قتله لخالد، وقد طلبت من خالد نفسه الانضمام إليها لكنه رفض ولمّح للخليفة بوجود هذه المؤامرة. ومن ناحية أخرى لم يكن خالد القسري زعيماً كبيراً حتى تقوم اليمنية بثورة عارمة وتقتل الخليفة انتقاماً لمقتله، فهو ينتمي إلى بطن القسر من بجيلة التي لم تكن قبيلة ذات أهمية ولم يكن منها في الشام إلاّ عددٌ قليل(١).

وأخيراً، إذا كان خالدٌ يتمتّع بكلّ هذه الأهمية لناصرته اليمنية لما عذّبه هشام بن عبد الملك وعبث به وبعائلته(٢). ومن هنا يمكن القول إنّ العصبية القَبَليّة التي لعبت دوراً في الثورة ضد الوليد بن يزيد لم تحرّكها سياسة هذا الخليفة القيسية ولا عمليّة قتل خالد القسري فحسب، بل انضافت إليها عوامل أخرى ساعدت على قيامها وهو ما سنحاول التعرّف عليها من خلال تتبّع تحركات مختلف الأطراف في تلك الفترة.

تذكر المصادر أنّ الوليد لما تولّى الخلافة «أجرى على زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم وأمر لكلّ إنسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يُخرج لهم هشام وزاد الناس جميعاً في العَطاء عشرة عشرة. ثم زاد بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة وزاد من وَفَدَ إليه من أهل بيته في جوائزهم الضّعف»(٣). ويبدو أنّ الوليد أراد من خلال هذه الأعمال أن يكسب إلى جانبه المسلمين، وخصوصاً الشاميين منهم، ويضمن تأييدهم وولاءهم له ويمحو في الوقت ذاته الصورة السيئة التي رُسِمت له في خلافة هشام(٤). إلاّ أنّ هذه الأعمال سرعان ما فقدت تأثيرها بسبب بعض الإجراءات التي اتخذها الوليد، مثل عزل العديد من ولاة وعمال هشام، وتكليف الولاة الجدد بمحاسبة المعزولين وتعذيبهم، ممّا أدّى إلى وفاة واليَيْ المدينة ومكة محمد بن هشام المخزومي وأخيه إبراهيم، كما توفي ابنا القعقاع بن خويلد العبسي الوليد وعبد الملك ورجلان معهما من آل القعقاع.

ولم تقتصر أعمال الوليد بن يزيد الانتقامية على عمّال هشام، بل تجاوزتهم لتشمل عناصر من البيت الأموي نفسه، منهم سليمان بن هشام والأفقم بن يزيد بن هشام وغيرهما(٥)، وهي أعمالٌ أغضبت العديد من المسلمين خصوصاً من داخل البيت الأموي. وقد وصف الطبري تأثيرها بقوله: «وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك

---

(١) تاريخ الطبري، ج٥، ص١٤؛ محمد بطاينة، «حول مصرع الوليد بن يزيد بن عبد الملك»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، مج٥، سنة ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨، ص٢٤٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢١٧.

(٤) محمد بطاينة «حول مصرع الوليد...»، مرجع مذكور، ص٢٣٧.

(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

هلاكه إفساده على نفسه بنيّ عمّه بني هشام وولد الوليد ابنَيْ عبد الملك»[1].

كما قام الوليد الثاني مباشرةً بعد تولّيه الخلافة بعقد البيعة لابنيه الحَكَم وعثمان ودعوة الشاميين إلى البيعة لهما، ثم مطالبة الولاة والعمال بأخذ البيعة من مسلمي الأمصار، وهو إجراء رفضه العديد من الشاميين ومنهم خالد القسري[2]، وكان هذا أحد أسباب غضب الوليد عليه.

ويبدو أنّ عقد الوليد بن يزيد البيعة لابنَيْه كان السبب الرئيسي الذي دفع عناصر من البيت الأموي إلى الثورة ضده، إذ يذكر محمد بطاينة أنّ أبناء الوليد بن عبد الملك وهم كثيرون كانوا يرون أنفسهم أقرب للخلافة باعتبار أنّ أباهم هو أكبر أولاد عبد الملك. وقد ظهر طموح أبناء الوليد إلى الخلافة منذ أيام سليمان بن عبد الملك، إلاّ أنهم لم يُظهروه علناً ولم يطالبوا به لمّا كان أبناء عبد الملك على قيد الحياة. لكن لمّا تجاوز السباق ولد عبد الملك وأفضى إلى أحفاده، رأوا أنّ وقت الاستيلاء على الخلافة قد حان[3].

وكان أبرز المتزعمين للمعارضة من آل الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك. ويذكر أغلب الرواة أن تنسك يزيد وشدّة تدينه هما اللذان حملاه على القيام بهذه الثورة وجعلاه ينجح أكثر من غيره في جمع المعارضين حوله[4]. وينسب بعض هؤلاء الرواة يزيداً إلى القدرية أو الغيلانية، وهي تيّار سياسي معارض ظهر في فترة حكم هشام بن عبد الملك وقُتل زعيمه غيلان الدمشقي ونفي بقية أتباعه إلى جزيرة دهلك[5]. ويرى فان إيس الذي قام بدراسة مفصّلة ودقيقة لأتباع هذا التيّار، أنّ الغيلانية هم من الموالي الذين عانوا من الحيف الاجتماعي في فترة حكم هشام بسبب ما كان يفرضه عليهم من ضرائب متصاعدة لحساب طبقة محظوظة من العرب[6]. وقد استمرت معاناتهم في خلافة الوليد بن يزيد بسبب تمسّكه بالسياسة نفسها التي اتبعها سلفه في التعامل مع الموالي ومع الغيلانية، ولذلك التحقت هذه المجموعة ببقيّة الثائرين ضده.

اجتمعت في حركة يزيد إذن أطراف متعددة، منها أبناء الوليد الطامعون في الخلافة، والغيلانية المطالبون بإصلاحات تمنحهم حقوقاً متساوية مع العرب وترفعهم إلى المرتبة

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٣١.
(٢) الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٧، ص٥١ ـ ٥٤.
(٣) محمد بطاينة، «حول مصرع الوليد...»، مرجع مذكور، ص٢٥٢.
(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٣٢.
(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٧٠؛ أما المسعودي فإنّه يذكر أنّ يزيداً يذهب إلى قول المعتزلة وما تذهب إليه من الأصول الخمسة: المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٥٨.
(٦) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٣٢؛ VAN ESS (J), «Les Qadarites et la Gailaniya de Yazid III», *Studia Islamica*, T XX, p. 282.

الاجتماعية نفسها، واليمنية الرافضون لسياسة الوليد القيسية، وكل الأطراف الأخرى المتضررة من حُكم هذا الخليفة أو التي تخشى وقوع تغييرات تضرّ بمصالحها وامتيازاتها. ويذكر فان إيس أن اليمنية المشاركين في الثورة قبلوا برنامج غيلان، وقبل الغيلانية بدورهم مبايعة رجل من قريش شريطة تمسكه بمبادئهم[١]، فجاء البرنامج السياسي ليزيد متضمناً مبادىء عديدة تُنسب إلى القدرية[٢].

انطلقت الحملة المعادية للوليد منذ الأشهر الأولى لتولّيه الخلافة، ويرجّح بطاينة أن يكون اندلاعها حدث مباشرةً بعد بيعة الوليد لابنَيْه[٣]. وقد اتخذ يزيد من سلوك الوليد الثاني وسيرته محوراً رئيسيًا لحملته حيث اتهمه بالكفر والزندقة واللّواط وغشيان أمهات أولاد أبيه وانشغاله عن الرّعية بسبب اهتمامه بالشراب واللهو والملذات. ويبدو أن هدف يزيد من التركيز على هذه الجوانب كان إعطاء حركته بُعداً دينيًا أخلاقيًا وإظهارها بمظهر الثورة ضد الخليفة الكافر الماجن. وقد ساعد انتشار الشائعات عن فساد الوليد الثاني ومجونه منذ خلافة هشام على جمع مزيد من الأنصار حول يزيد.

انتهى هذا التحرك بقتل الوليد الثاني ومبايعة يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ، إلاّ أن انتصار الثورة لم يُنْهِ الصّراع بل كان المنطلق لفتنة ستعمّ كل أجزاء الإمبراطورية الإسلامية.

كان سكان حمص أوّل الثائرين على الخليفة الجديد مُطالبين بدم الوليد بن يزيد، وتبعهم سكان الأردن وفلسطين[٤]. واضطرّ يزيد إلى إخضاع الثائرين بالقوة، كما اضطر إلى استرضاء مروان بن محمد الذي كان قد عزم بدوره على الخروج للمطالبة بدم الوليد بمنحه ولاية أرمينية وأذربيجان والجزيرة والموصل[٥].

ولم تكد الأمور تهدأ وتستقر في الشام حتى مات يزيد بن الوليد في السنة نفسها التي وصل فيها إلى الحكم[٦]. وتولى الخلافة بعده أخوه إبراهيم بن الوليد الذي لم يكن يحظى بتأييد أغلب الشاميين، لذلك عادت الاضطرابات إلى الشام بمجرد توليه الخلافة، فكانت أيامه، كما يقول المسعودي، «عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة

---

(١) VAN ESS (J), *op. cit.*, p. 282.

(٢) يشتمل البرنامج السياسي ليزيد بن الوليد على العديد من المبادىء أهمها: مبدأ الشورى في اختيار الخلفاء، والحدّ من سلطتهم المطلقة، وحقّ عزلهم عند الاقتضاء. انظر برنامج يزيد في: تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٦٨ - ٢٦٩.

(٣) محمد بطاينة، «حول مصرع الوليد...»، مرجع مذكور، ص٢٥٤.

(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٦٢ - ٢٦٦؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٢٥.

(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢٩٨ - ٣٠٠.

(٦) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٩٨.

وسقوط الهيبة»[1]. وقد استغل مروان بن محمد هذا الوضع ليدخل دمشق ويستولي على السلطة سنة ١٢٧هـ[2]. ورغم نجاحه في افتكاك الحكم وضخامة جيشه، فإنّه لم يتوصل إلى تهدئة الوضع إذْ سرعان ما انتفض عليه أهل حمص وسائر أهل الشام. وكان من بين الثائرين عناصر من البيت الأموي أبرزهم: سليمان بن هشام الذي كان يملك جيشاً خاصًا من مواليه وأتباعه من «الذّكوانية».

كان لهذا الصّراع على السلطة داخل البيت الأموي وما تبعه من انقسام في صفوف الجيش الشامي وبروز قوى عسكرية جديدة تأثير كبير على الحكم الأموي. فقد أسقط الدّعامة الأساسية التي يعتمد عليها هذا الحكم، وأدّى إلى انحلال مفهوم الطاعة وانهيار هيبة الدولة، وفسح في المجال بالتالي أمام كلّ القوى المعارضة للتحرك، وزاد في هيجان العصبية القَبَليّة في مختلف أرجاء الإمبراطورية. وإذا كانت القوة الشيعية هي التي ستنجح في إسقاط الحكم الأموي، فإنّ المجموعات الخارجية التي قامت بانتفاضات في العديد من المناطق قد ساهمت في إضعاف هذا الحكم وسهّلت على الشيعة مهمة القضاء عليه، وهو ما سنتبيّنه من خلال تتبّع مختلف التحركات الخارجية خلال تلك الفترة.

٢ ـ نشاط الخوارج العسكري إبّان الفتنة الثالثة

اندلعت الشرارة الأولى لتحركات الخوارج التي قامت في نهاية الحكم الأموي من الجزيرة الفراتية وامتدت لتشمل أجزاء شاسعة من الأراضي العراقية. وقد لعبت الظروف الاستثنائية التي كانت مرّت بها الإمبراطورية الإسلامية دوراً أساسيًا في اندلاع هذه الانتفاضة وتقويتها، وهو ما جعل عملية التصدي لها وإخمادها صعبة استوجبت إمكانيات بشرية وعسكرية هائلة. لكن بمجرد أن تمكّن الخليفة الأموي مروان بن محمد من صدّ هذا الخطر الخارجي حتى اندلعت انتفاضة أخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية بقيادة عبد الله بن يحيى الكندي المعروف بـ«طالب الحق». كما تحرّكت مجموعة صغيرة من الخوارج في خراسان مستغلّة الصّراع بين القبائل في هذا الإقليم.

أ ـ انتفاضة الضحّاك الشيباني في الجزيرة الفراتية:

كان انطلاق هذه الانتفاضة من كفر توثا بالجزيرة في شعبان من سنة ١٢٦هـ[3]، أي بعد أقل من شهرين على مقتل الخليفة الوليد بن يزيد وتدهور الأوضاع في مركز الخلافة وانشغال والي الجزيرة مروان بن محمد بالأحداث في الشام. وقد تزّعم عملية الخروج في

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٥٩.
(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٠.

البداية سعيد بهدل الشيباني، وكان في مائتي نفر منهم الضحّاك بن قيس[1]. كما تحركت في الوقت نفسه مجموعة أخرى من الخوارج يقودها بسطام البيهسي متكونة من مائتي نفر من ربيعة[2]. ورغم أنّ الهدف الأوّل لتحركات الخوارج كان السيطرة على منطقة الجزيرة وتخليصها من حكم مروان الثاني، فإن الخلافات المذهبية بين المجموعتين جعلت المواجهة تقع بين الخوارج، وكانت نتيجتها مقتل بسطام وأغلب أصحابه[3] وانتقال سعيد بن بهدل ومن معه إلى العراق.

وقبل تتبّع مراحل هذه الانتفاضة، لا بد من التوقف عند مسألة الخلاف بين سعيد بن بهدل وبسطام وتسليط الضوء عليها لفهم خلفياتها والتعرف من خلالها على وضعية الخوارج في تلك المنطقة وطبيعة العلاقة القائمة بينهم.

ينقل الطبري أحداث انتفاضة خوارج الجزيرة عن أبي عُبيدة معمر بن مثنّى وعن أبي هاشم مخلد بن محمد مولى عثمان بن عفان. فأمّا أبو عُبيدة، فلا يذكر أيّة معلومات عن هذا الخلاف، ولا يشير إلى حركة بسطام أصلاً، لأنه يبدأ الحديث عن هذه الانتفاضة بعد موت سعيد بن بهدل وتولّي الضحّاك الشيباني قيادتها. وأما أبو هاشم، فإنّه يذكر عن الخلاف الرواية التي سردناها سابقاً، والتي نقلها عن الطبري أغلب الرواة المتأخرين؛ ولذلك نجد في معظم المصادر تفسيراً واحداً لهذا الصراع، وهو الخلاف الفكري المذهبي بين الزعيمين، إذْ كان بسطام بيهسيًا في حين كان سعيد صفريًا. وينفرد خليفة بن خياط بنقل روايات عن تحرّكات خوارج الجزيرة في تلك الفترة[4] تضمّ تفاصيل هامة يظهر من خلالها أنّ أسباباً أخرى قد تكون ساهمت في حصول الخلاف بين هاتين المجموعتين من الخوارج.

يذكر ابن خيّاط أنّ خروج سعيد بن بهدل قد تزامن مع تحرّك العديد من المجموعات الخارجية الأخرى في مناطق متفرقة، منها تحرك أبو كرب الحميري في منطقة المرج من كور الموصل، وشيبان اليشكري في شهرزور. وقد انتقل سعيد بن بهدل إلى تلك المناطق حيث التقى بزعماء المجموعات الخارجة وأقنعهم بالانضمام إلى صفوفه، معتمداً في ذلك على أسبقية خروجه ومعتبراً أنّها تعطيه شرعية قيادة ثورة الخوارج في تلك المنطقة. وقد قبل أتباع أبي كرب وعددهم حوالى خمسمائة نفر الانضمام إلى سعيد، كما قبل شيبان اليشكري وأصحابه بدورهم الانضمام إلى صفوفه[5]، وبذلك صار عدد أتباعه ما يُقارب الألف.

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣١٧.
(٢) المصدر نفسه،ج٧، ص٣١٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٣١٧.
(٤) ينقل الأزدي صاحب تاريخ الموصل عن ابن خيّاط أغلب هذه الروايات.
(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٢.

وأمّا الخلاف بين بسطام وسعيد بن بهدل، فلا يذكره ابن خياط لأنّه يؤخّر خروج بسطام إلى سنة ١٢٨هـ، وينفرد بذكر المعارك العديدة التي خاضها بسطام ضد بعض عمال مروان الثاني في الجزيرة ومجموعات من الجيش أو من السكان تصدّت له. أما المواجهة بينه وبين أتباع سعيد فيجعلها ابن الخيّاط بعد موت سعيد وتولّي الضحّاك الشيباني قيادة الحركة، ولا يذكر دور الخلافات المذهبية في الصراع بين المجموعتين، ويكتفي بالإشارة إلى انتماء بسطام إلى البيهسية.

وباستثناء تاريخ هذا التحرك الذي لا يتماشى مع ما يذكره بقيّة الرواة ومع الأحداث، فإنّ ما يورده ابن الخياط على درجة كبيرة من الأهمية لأنّه يبيّن وجود مجموعات من الخوارج في مناطق عديدة من الجزيرة وفي أذربيجان كذلك. وهي مجموعات مشتّتة ومنفصلة عن بعضها بعضاً، وهو ما يفسّر تعدّد التحركات وانطلاقها في وقت واحد من أنحاء مختلفة. وقد كان تحرك مجموعة سعيد بن بهدل سابقة لبقية التحركات، كما كان قائده متميزاً عن باقي الزعماء لاختلاف رؤيته للثورة عنهم. ويبدو ذلك واضحاً من خلال حرصه على جمع الخوارج وتكوين قوة قادرة على مواجهة جيش الدولة. ورغم أن عملية توحيد الخوارج قد تطلّبت وقتاً طويلاً وانجرّت عنها مشاكل عديدة، فإن ابن بهدل قد حرص على إنجازها قبل التوجه إلى العدو[١].

إلاّ أن عملية توحيد المجموعات الثائرة تحت سلطة ابن بهدل قد يكون رفضه بسطام خصوصاً بعد الانتصارات العديدة التي حققها[٢]، وهو ما أدّى إلى نشوب الخلاف بينهما. ويمكن أن نضيف إلى هذا التنافس على الزعامة تضارب مصالح المجموعتين خصوصاً وأنهما مختلفتين قَبَليًا وإقليميًا: فبسطام تغلبيّ من أذربيجان، بينما سعيد وأغلب أصحابه من بني شيبان من الجزيرة الفراتية.

أمّا الخلافات الفكرية المذهبية التي يذكر بعض الرواة أنها السبب الأول للحرب التي وقعت بين بسطام وابن بهدل، فلا نستبعد أن تكون قد لعبت دوراً في حصول المواجهة، رغم أن هذه الخلافات صارت منذ انقسام الخوارج منحصرة في أوساط القعدة، ولم تؤدّ إلى مواجهات عسكرية بين المجموعات الخارجية المختلفة طيلة الحكم الأموي.

إلا أن مسألة انتماء سعيد بن بهدل وأصحابه إلى الصفرية يطرح إشكالاً كبيراً، لأننا لا نجد في المبادىء التي نادى بها زعماء هذه الانتفاضة والشعارات التي رفعوها اختلافاً مع

---

(١) كان خروج ابن بهدل سنة ١٢٦هـ، إلاّ أن العمليات العسكرية ضد الجيش العراقي لم تبدأ إلا في شعبان من السنة التالية. وبذلك تكون عملية توحيد المجموعات الخارجية قد استغرقت عدّة أشهر. انظر: تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٩٠ ـ ٣٩٦؛ تاريخ خليفة بن خيّاط، ج٢، ص٣٩٠.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٢.

المبادىء الأساسية للحركة الخارجية أو تشابهاً مع تلك التي ينسبها مؤلفو كُتُب الفرق إلى الصّفرية ويعتبرونها مميّزة لهذا التيّار. كما لا يوجد في الروايات الخاصة بتحرك بسطام المنسوب إلى البيهسية ما يدلّ على انتمائه إلى هذا التيّار، وهو الاستنتاج نفسه الذي كنا قد توصلنا إليه بعد تحليل الشعارات والمبادىء التي قامت عليها انتفاضات سابقة نُسبت بدورها إلى الصّفرية. وقد بيّنا سابقاً أن غياب الأدلّة عن الانتماء المذهبي للثائرين من الخوارج يعود إلى ضعف اهتمام الأجيال الجديدة بالمسائل الفكرية والمذهبية وتركيزهم خاصة على الجوانب السياسية والعسكرية، رغبةً منهم على ما يبدو في جمع مزيد من الأنصار حولهم وتجنّب حصول خلافات بين أتباعهم. لكن عدم الاهتمام بالمسائل الفكرية لا يعني غيابها كليًا وعدم تأثّر بعض زعماء الخوارج بها. ولا نستبعد أن يكون بسطام أو ابن بهدل قد أقحمها في الصراع الذي كان نتيجة هزيمة بسطام البيهسي وتواصل الانتفاضة بقيادة ابن بهدل.

قبل انتقال الخوارج إلى العراق مات ابن بهدل وتولّى الضحّاك الشيباني قيادة الحركة[1]. ويذكر الرواة انضمام عناصر جديدة إلى صفوفه في تلك الفترة بلغ عددها ثلاثة آلاف، وهو ما جعل عدد الخوارج يصل إلى أربعة آلاف شخص[2]. وإذا كان أبو عُبيدة لا يذكر بدقة الانتماء الجغرافي للمنضمين الجدد، فإن أبا هاشم مخلد بن محمد يذكر أنّهم من أرض الموصل ومن أهل الجزيرة[3]، وهذا ما يجعلنا نفترض انتماء العديد منهم إلى بني شيبان باعتبار سيطرة أبناء هذه القبيلة على منطقة الموصل[4]. وارتفاع عدد الشيبانيين في صفوف الضحّاك تبدّى بوضوح خاصة في الأشهر الأولى للانتفاضة، فأغلب الذين برزوا في المعارك أو الذين استعملهم الضحّاك هم من بني شيبان.

وينسب أبو عُبيدة المنضمّين الجُدد إلى صفوف الضحّاك إلى الصّفرية[5]. وإذا كنّا لا نشك في تأثّر العديد منهم بالفكر الخارجي الذي عرفته الجزيرة الفراتية وخصوصاً منطقة الموصل منذ تحرك صالح بن مسرّح وشبيب الشيباني، فإننا لا نستبعد أن يكون بعضهم من غير الخوارج قد انضموا إلى الثائرين بهدف التخلص من الحكم الأموي والمشاركة إلى جانب أبناء قبيلتهم في الانتفاضة. وعموماً، فإن المنضمين الجدد من سكّان الجزيرة الفراتية إلى صفوف الخوارج قد عزّزوا جيش الضحّاك وجعلوا حظوظه في الانتصار على الجيش

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣١٧ ـ ٣١٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٣١٧ ـ ٣١٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٣١٧.
(٤) رضا بن حسين، الجزيرة الفراتية وعلاقتها بالأمصار وبالخلافة بين الفتح وسنة ١٣٢هـ (شهادة كفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٩٠)، ص٥٧.
(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣١٨.

الشاميّ في العراق كبيرة.

كان قرار المسير إلى العراق قد اتخذه الخوارج على ما يبدو قبل موت سعيد بن بهدل، ويؤكّد الرواة أنهم اتخذوه لمّا بلغهم تشتّت الأمر فيه واختلاف أهل الشام وقتال بعضهم بعضاً مع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق ليزيد بن الوليد، والنّضر بن سعيد الحرشي الوالي الجديد الذي بعثه مروان بن محمد(١). ويرى شعبان أنّ خوف الخوارج من مروان هو الذي جعلهم يتجهون نحو العراق، لأن بقاءهم في الجزيرة سيجعلهم فريسة سهلة له(٢). لكن الخوف من مروان الثاني لا يفسّر وحده اختيار التوجه إلى العراق، فقد يكون الخوارج أدركوا أنّ السيطرة على هذا الإقليم تُجنّبهم خطر الوقوع بين قوتين معاديتين وتضمن لهم قاعدة توفر لهم ما يحتاجونه في حروبهم ضد الخليفة الأموي. وقد شجع الوضع المتدهور في هذا الإقليم الخوارج على الإسراع بتنفيذ قرارهم وسهّل عليهم تحقيق هدفهم.

دارت المعارك الأولى بين الخوارج والجيش الشامي في النخيلة على مشارف الكوفة، وقد انهزم فيها الشاميون أقبح هزيمة(٣)، وفرّ أصحاب عبد الله بن عمر إلى واسط، وخرج أهل الشام من الكوفة متوجهين في كل وجه(٤). ولم يكن انتصار الخوارج حدثاً مفاجئاً لأن الجيش المواجه لهم كان ـ رغم ضخامته وقوّته ـ منقسماً أشد الانقسام. وأسباب انقسامه أعمق من أن يتجاوزها المقاتلة بسهولة لأنّ الصّراع على السلطة قد أحدث منذ خلافة الوليد قطيعة بين الشاميين وأنهى لديهم فكرة الدولة الموحدة التي يجب الدفاع عنها وأفقدهم بالتالي روح التضحية والاندفاع، لذلك انهزموا بسهولة أمام الخوارج وفرّ أغلبهم من دون قتال.

وانتقل عبد الله بن عمر بعد الهزيمة إلى واسط وتبعه الحرشي وجماعة المضرية وعاد الصّراع بينهما على ما كان عليه قبل قدوم الخوارج(٥). أمّا الضحّاك فقد استولى على الكوفة وأرضها وجبى خراجها ونادى مناديه: «ألاّ تتبعوا مولّيًا ولا تخرجوا أحداً وقد أجلناكم يا أهل الشام ثلاثاً فمن دخل فيما دخلنا فيه فله مالنا ومن أحبّ أن يتوجه حيث شاء من الأرض فليتوجه آمناً. فمن أتاهم ألحقوه بهم ومن شخص لم يعرضوا له»(٦). ويبدو موقف الضحّاك تجاه المنهزمين أكثر تسامحاً وليناً من مواقف زعماء الخوارج السابقين. فهو

---

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٣١٦ ـ ٣١٧.
(٢) محمد عبد الحيّ شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٧٩.
(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣١٧.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٧.
(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٦) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٧.

لم يسلّط عليهم عقوبات، ولم يفرض على الراغبين منهم في الانضمام إلى صفوفه شروطاً قاسية، ولذلك بقي العديد منهم في الكوفة وانضمّ بعضهم إلى جيش الضحّاك وبايعوه. وكان من بين المبايعين عناصر سبق لها أن تقلّدت مناصب هامة خلال الحكم الأموي مثل عُبيد الله بن عبّاس الكندي الذي كان عامل عبد الله بن عمر على الكوفة[1].

لم تدمْ إقامة الضحّاك في الكوفة طويلاً إذْ سرعان ما استعمل عليها ملحان بن معروف الشيباني، وسار في رمضان سنة ١٢٧هـ إلى عبد الله بن عمر في واسط فحاصره[2]. ويؤكد توجّه الخوارج إلى واسط رغبة الضحّاك في السيطرة على كامل العراق قبل المسير إلى مروان بن محمد.

وانتهى الحصار بالصّلح بين الضحّاك وابن عمر، إذْ تحصّل هذا الأخير على ولاية واسط مقابل دخوله في طاعة الضحّاك. وتُظهر بعض المصادر ابن عمر بمظهر الرّاغب في مواصلة الحرب والرّافض للانضمام إلى الخوارج لولا خذلان جيشه له. ويذهب بعض الرواة إلى حّد القول إنّه لم ينضم إلى الخوارج بل وعدهم بذلك إذا تمكنوا من قتل مروان بن محمد[3]. ويبدو أن التقليل من شأن الحادثة ومحاولة إنكارها من قبل بعض الرواة هدفه تبرئة ابن عمر بن عبد العزيز من البيعة لخارجي مارق مقابل المحافظة على منصبه ومصالحه.

وخلافاً لابن عمر، كان منصور بن جمهور أحد زعماء اليمنية أكثر تحمساً للانضمام إلى صفوف الضحّاك. وقد حثّ ابن عمر على مبايعته مبيّناً له أن هذه البيعة ستحوّل وجهة القتال نحو الشام وستشغل مروان بمحاربة الخوارج سنوات طويلة. وفي انتظار نتيجة المواجهة بينهما يكون ابن عمر ومن معه من اليمنية قد استراحوا واستعدوا للقتال من جديد. فإن كان الانتصار حليف مروان، وهو أمر مستبعد نظراً لقوة الخوارج وشدة بأسهم، فسيكون ذلك بعد فقدانه الكثير من قوته وهو ما سيسهّل الانتصار عليه. أمّا إذا انتصر الخوارج فسيستفيد ابن عمر ومن معه باعتبار انضمامهم السابق إلى صفوف الحركة[4]. وقد كانت هذه الأسباب دافعاً لمنصور بن جمهور ومن معه للانضمام إلى الانتفاضة الشيعية التي وقعت في الكوفة وتزعمها عبد الله بن معاوية قبل تحرّك الخوارج بقليل.

---

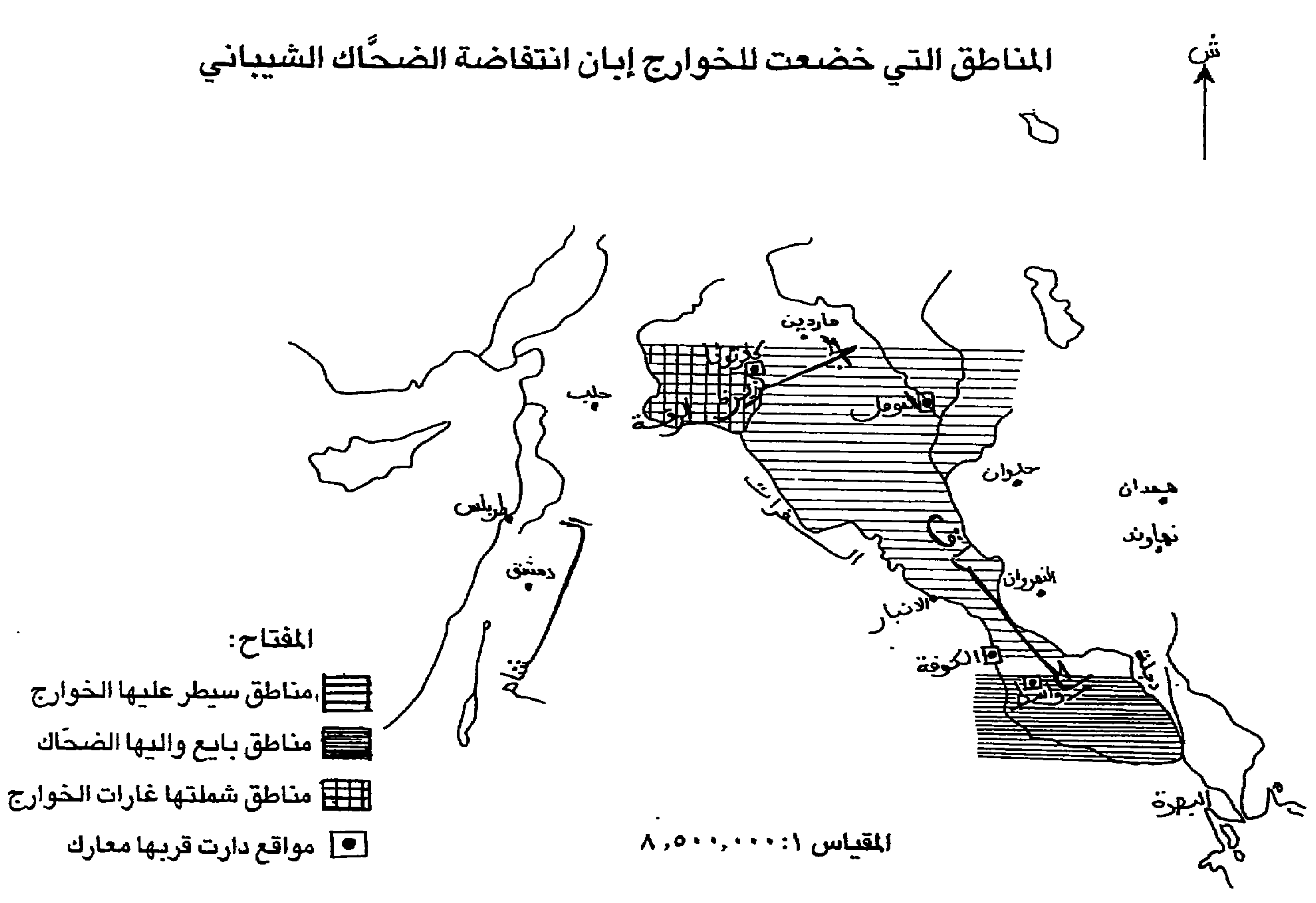
(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣١٩؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٧.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٧؛ تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٠.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٨؛ أمّا الطبري فيذكر في رواية لأبي مخنف أن عبد الله بن عمر صالح الضحّاك على أن بيد الضحّاك ما كان غلب عليه من الكوفة وسوادها وبيد ابن عمر ما كان بيده من كسكر وميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس: تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٧.

(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

المناطق التي خضعت للخوارج إبان انتفاضة الضحَّاك الشيباني



وتدلّ مواقف ابن جمهور على رغبته في الانضمام إلى أيّة انتفاضة مهما كانت مبادئها وأهدافها إذا كانت قادرة على القضاء على حكم مروان بن محمد وإقامة حكم جديد حتى وإنْ كان شيعيًا أو خارجيًا. كما يدل قبول الضحاك بإبرام الصلح مع ابن عمر ومبايعة ابن جمهور أنّه لا يرفض مثل أسلافه الدخول في اللعبة السياسية ما دام ذلك سيساعده على تحقيق هدفه، ألا وهو الانتصار على الأمويين. وسيصبح القضاء على حكم مروان الثاني الهدف الأول لكلّ المعارضين في أواخر الحكم الأموي، ولذلك سيشترك الجميع من يمنيّة وغيلانية وأمويين وعباسيين وشيعة في تحركات شيعية وخارجية.

اتجه الضحاك بعد حصوله على بيعة عبد الله بن عمر وسيطرته على كامل العراق إلى الجزيرة لملاقاة مروان بن محمد. ويذكر بعض الرواة أنّ «أهل الموصل كاتبوا الضحّاك ودعوه إلى القدوم عليهم فيمكّنونه منها»[1]. ويُظهر موقف سكان الموصل أن التحولات التي طرأت على الأوضاع في العراق قد شجعتهم على إعلان مساندتهم للخوارج والتخلّص من الخوف الذي دفعهم في ما سبق إلى رفض بقاء ابن بهدل في مدينتهم لأن الضحّاك بعد سيطرته على العراق صار قادراً على الوقوف في وجه مروان الثاني. ويؤكد هذا التحوّل في موقف السكّان أنّ انحصار الجزيرة بين العراق والشام كان له تأثير على مواقف سكانها خصوصاً إبّان الانتفاضات.

أمّا أسباب مساندة سكّان الموصل للخوارج فهي عديدة لعل من أهمها رغبتهم في التخلّص من الحكم الأموي وإدارة شؤون منطقتهم بأنفسهم. كما قد يكون انتماء الضحّاك وأغلب أصحابه إلى هذه المنطقة دفع البعض وخصوصاً الشيبانيين إلى مساندة الخوارج. ويمكن أن نضيف كذلك دور العطاء المرتفع[2] في تشجيع بعض السكان على الانضمام إلى جيش الضحّاك[3]، خصوصاً وأنّ أغلب سكان الجزيرة الفراتية كانوا محرومين من العطاء.

وعموماً، فإنّ انضمام سكان الجزيرة المكثف إلى الانتفاضة جعل عدد أفراد جيش الضحاك يرتفع ليصل إلى مائة وعشرين ألفاً حسب أغلب الرواة[4]. ورغم ما في هذا الرقم من مبالغة، فالأكيد أن عدد المنضمين إلى صفوف الخوارج كان في تلك الفترة كبيراً جداً.

كان انتقال الضحّاك إلى الجزيرة متزامناً مع الصّراع الدائر في الشام بين مروان بن

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٥؛ الأزدي، تاريخ الموصل، ص٦٩.

(٢) كان الفارس يُرزق مائة وعشرين والراجل والبغال مائة أو ثمانين في كل شهر: تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٦.

(٣) VECCIA VAGLIERI, «Al-Dahhak B. Kays Al-Shaybani», In: *L'Encyclopédie de l'Islam*, T. II, p. 92.

(٤) هذا الرقم يذكره أغلب الرواة إلا أن الجاحظ يعطي رقماً آخر وهو خمسون ألفاً، انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٣٤٣.

محمد وسليمان بن هشام وأتباعه من الذكوانية وغيرهم. ولذلك كتب مروان بن محمد لمّا بلغه سيطرة الخوارج على الموصل وكورها إلى ابنه عبد الله بن مروان، خليفته على الجزيرة، يأمره أن يسير بمن معه إلى مدينة نصيبين ليمنع الضحّاك من توسّط الجزيرة[1] في انتظار أن يفرغ من محاربة سليمان بن هشام. ورغم امتلاك الضحّاك لجيش ضخم، فإنّه لم يحاول استغلال فرصة انشغال مروان بالحروب الداخلية ومهاجمة الشام ومحاصرته بين جيش الخوارج وما تبقى من جيش سليمان بن هشام، بل اكتفى بالقيام بغارات على أطراف الجزيرة وبعض مناطق الشام. ويبدو أن الضحّاك فضّل تدعيم مركزه في الجزيرة استعداداً للمواجهة الكبرى مع مروان بن محمد. إلاّ أن هذا التدبير فوّت عليه فرصة القضاء على خصمه، ومكّن في الوقت نفسه مروان من القضاء على الثائرين ضدّه مع سليمان بن هشام ومن تثبيت أقدامه في الشام، وهو ما سيمكّنه من التفرّغ كليًّا لمحاربة الخوارج ومن انضم إلى صفوفهم من الشاميين والعراقيين وغيرهم.

ارتكزت خطّة مروان في محاربة الخوارج على القيام بتحركين في آن معاً: **الأول** في الجزيرة هدفه التصدّي للضحاك ودحره، **والثاني** داخل العراق هدفه استرجاع الأراضي العراقية من سيطرة الخوارج ثم مهاجمة الضحاك في الجزيرة انطلاقاً من العراق ومحاصرته بين قوتين. وقد عيّن مروان بن محمد لتنفيذ هذه الخطة واليًا جديداً على العراق، هو يزيد بن عمر بن هبيرة الذي اختلف الرواة في تحديد تاريخ قدومه إلى العراق حيث جعله أبو عبيدة في موفى سنة ١٢٧هـ[2] وابن الخياط في سنة ١٢٨هـ[3]، في حين ذهب هشام بن محمد إلى القول إن قدومه كان سنة ١٢٩هـ[4]. ورغم هذا الاختلاف، فإنّ ما يمكن تأكيده هو أنّ دخول ابن هبيرة العراق لم يحدث قبل خروج الضحّاك منه وقبل إخماد تحرّك سليمان بن هشام في الشام، لأنه لا يمكن لابن هبيرة وجيشه التحوّل إلى العراق طالما أن الضحّاك لم يغادره وأن الوضع بالشام لم يستقر نهائيًا لصالح مروان الثاني وذلك لعدم قدرته على مواجهة الخوارج وابن عمر في وقت واحد. ويؤكّد اتّباع ابن هبيرة طريق الفرات للوصول إلى الكوفة رغبته في تجنّب ملاقاة الضحاك ودخول العراق بعد خروجه منه.

شرع ابن هبيرة منذ وصوله إلى العراق في تنفيذ خطته وكانت الكوفة هي هدفه الأول، لذلك اتجه مباشرة إليها وخرج عامل الضحاك المثنّى بن عمران العائذي بمن معه من الشّراة وغيرهم للتصدّي له ومنعه من دخول المصر[5]. والتقى الطرفان بغزة قرب عين التمر،

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٥؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٩؛ الأزدي، تاريخ الموصل، ص٦١.
(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٧.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٤؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٩.
(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٩.
(٥) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٢٨.

وأسفرت المعارك عن مقتل المثنّى وعزيز وعمرو وكانوا من رؤساء أصحاب الضحّاك، في حين فرّ منصور بن جمهور ومن تبقّى من جيش الكوفة[1]. وقام منصور بن جمهور في الكوفة بجمع اليمنية والصفرية للتصدي لجيش ابن هبيرة، لكنه فشل في ذلك إذ قُتل برذون أحد قواد الخوارج وفرّ منصور بن جمهور مرة أخرى ودخل ابن هبيرة الكوفة ونفى منها الخوارج[2]. ورغم محاولة الضحّاك إنقاذ الموقف واستعادة السيطرة على الكوفة، فقد فشل الجيش الذي أرسله مع عُبيدة بن سوار التغلبي في إلحاق الهزيمة بابن هبيرة، ولم يتمكّن الضحاك من تجنيد مزيد من الجيوش لاسترجاع الكوفة لأنه كان يستعد لمواجهة مروان في الجزيرة.

تمثّلت استعدادات الضحّاك للمواجهة في السيطرة على المناطق الموجودة في وسط الجزيرة وتكثيف الغارات على الأطراف. وفي أثناء ذلك كان قدوم سليمان بن هشام من الشام إلى الجزيرة والتحاقه بالضحّاك بصحبة أهل بيته ومواليه وأتباعه، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف نفر[3]، «واجتمعت بذلك للضحاك ملوك أهل الشام ممن هرب من قريش وغيرهم»[4]. وقد سجّل أحد شعراء الخوارج وهو شبيل بن عزرة الضبعي حدث انضمام سليمان بن هشام ومن معه من القرشيين ببيت شعر يقول فيه:

ألـم تـرَ أنّ الله أظـهـر ديـنـه فصلّت قريش خلف بكر بن وائل[5]

وقد استغّل بعض الدّارسين هذا البيت للاستدلال على النزعة القَبَليّة لدى الخوارج والتأكيد على أهميتها بالنسبة لهم. وإذا كنا لا نستطيع نفي ما يحمله هذا البيت من روح قَبَليّة، فإنّ تحليل محتواه يدّل أن عصبيّة الشاعر لا تتمثّل في إذلال قريش فحسب وإنّما كذلك في تفضيل بكر بن وائل على سائر القبائل الأخرى ومنحها شرف إخضاع قريش. وقد تعود عصبيّة الشاعر إلى تأثره بالصّراع القَبَلي الذي كان يشغل المسلمين آنذاك، كما قد يعود إلى ضعف تمسّك الخوارج الجُدد بموقف أسلافهم الذي يتجاوز الرّوابط القبليّة. ومهما تكن دوافع هذا الشاعر الخارجي، فإنّ مما لا شك فيه أن انضمام سليمان بن هشام إلى انتفاضة خارجية حدثٌ يستحق التسجيل لأنّه يبرز من ناحية مدى الضعف والتشتت الذي

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٨؛ أمّا ابن خياط فلا يجعل مقتل المثنى بن عمران في هذه المعركة بل في تلك التي دارت في الروحاء. انظر: تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٤٧.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٣٩٩.

(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٧. ويذكر ابن خياط أن هذا البيت قاله شبيل بن عزرة لما بايع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الضحّاك: تاريخ خليفة بن خياط، ص٣٩٨.

صار عليه أبناء العائلة الأموية، ويؤكد من ناحية أخرى تمسّك الضحّاك بتوجهه الرّامي إلى تعزيز صفوفه بكل المعارضين للسلطة حتى وإن كانوا من أعداء الخوارج.

وسار الضحّاك بعد انضمام سليمان بن هشام إلى صفوف الخوارج من نصيبين إلى كفرتوثا لملاقاة مروان وتقدّم مروان بدوره نحو الجزيرة في جيش ضخم. والتقى الجيشان بموضع يُقال له العزّ قرب كفرتوثا[1]، وكانت المعركة الأولى عنيفة جداً تولّى قيادتها من جانب الخوارج الضحّاك بنفسه وأظهر خلالها اندفاعاً كبيراً وشجاعة لا مثيل لها. وتذكر المصادر أنه ثبت مع الضحّاك نحوٌ من ستة آلاف من أصحابه قاتلوا معه حتى قُتلوا مثله[2]، كما قُتل نحوٌ من ثمانمائة امرأة من الشّراة[3]. ولما قتل الضحّاك بايع أهل عسكره الخيبري[4]، أحد أصحابه المقربين وأحد أبرز قادة هذا الجيش. وكان الخيبري مثل سلفه شديد الحماس لمحاربة الشاميين ولذلك انتدب مباشرة بعد البيعة له جماعة من الشّراة وبايعهم على الموت وحمل بهم على مروان فانكشف وكاد يُقتل في هذا الهجوم لولا فراره ومن معه. إلاّ أن قيام بعض عبيد مروان بهجوم مفاجىء على الخيبري وأصحابه حوّل الانتصار إلى هزيمة إذ قُتل الخيبري وأصحابه[5]، وهو ما سيُدخل التحرك في مرحلة جديدة ومختلفة عن السابقة.

كانت أولى علامات التحوّل في نهج الانتفاضة هو بروز سليمان بن هشام ومحاولته احتلال مكانة متميّزة داخل المجموعة، إذ يذكر الهيثم بن عدي أن سليمان قال للخوارج بعد أن قتل الخيبري: «إن الذي تفعلونه ليس برأي، فإنْ أخذتم برأيي وإلاّ انصرفت عنكم. قالوا: فما الرأي؟ قال: إنّ أحدكم يظفر ثم يستقتل فيُقتل فإنّي أرى أن ننصرف على حاميتنا حتى ننزل الموصل فنخندق»[6]. فقبل الخوارج رأيه وتبعوه. وقد يعود هذا البروز المفاجىء لسليمان بن هشام إلى تدعم مركزه بعد اختيار شيبان اليشكري قائداً للانتفاضة، لأن سليمان كان صهراً لشيبان تزوّج أخته لمّا قدم على الخوارج[7]. كما قد يعود إلى التغيير الذي طرأ على تركيبة الجيش بعد المعارك التي دارت بين الخوارج وجيش مروان بن محمد، إذ تؤكد كلّ الروايات أن أغلب الضحايا كانوا من أصحاب الضحّاك كما كان أغلب الذين قُتلوا في المعارك التي دارت بين جيش ابن هبيرة ومقاتلة الكوفة من قواد الضحّاك

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٦.
(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٦؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٠.
(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٠.
(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٦.
(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٧؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٠ ـ ٤٠١.
(٦) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٧.
(٧) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٤٧.

وأصحابه، وهو ما جعل العناصر غير الخارجية تبرز وتحاول لعب دور في قيادة الانتفاضة.

كان أسلوب الاستقتال الذي اعتمده الخوارج في مواجهة مروان الثاني هو الذي لم يحظَ برضى سليمان بن هشام لأنه لن يمكّنه من تحقيق الهدف الذي انضم من أجله إلى صفوف الخوارج وهو إلحاق الهزيمة بمروان بن محمد والقضاء على حكمه. لذلك بادر بمجرد أن سنحت له الفرصة بالتعبير عن موقفه مهدداً في الوقت ذاته بالانسحاب مع جيشه إذا لم يقبل الخوارج اتباع خطته في مواجهة مروان.

وكانت خطّة سليمان بن هشام تنصّ على الانتقال من كفرتوثا إلى جوار الموصل والتحصّن فيه ثم محاربة مروان انطلاقاً منه، وقد قبلها الخوارج بدون تردّد، مما يشكّل دليلاً على أن ميزان القوى داخل الحركة قد انقلب لغير صالحهم. فقد قلّ عددهم بالمقارنة مع البقية المتكونة من أتباع سليمان وغيرهم من الذين انضموا إلى جيش الضحّاك طمعاً في العطاء المرتفع أو لأغراض أخرى. وبذلك بدأت هذه الانتفاضة تُفقد الثورة صفتها الخارجية، وصارت شبيهة بغيرها من الانتفاضات التي اندلعت في تلك الفترة في الشام والعراق ومناطق أخرى ينحصر هدفها في إزاحة مروان بن محمد عن الحكم.

وتبع هذا التحوّل في وجهة الانتفاضة تحوّلٌ في أسلوب القتال، فقد سار الجيش بقيادة شيبان إلى الموصل «بعد أن انفصل عنه أصحاب الطمع وذوو الأغراض ونزل البقية على شاطىء دجلة وخندقوا على أنفسهم وخندق مروان بإزائهم ستّة أشهر يقاتلهم بكرة وعشية»[1]. ولم يستطع أيّ طرف تحقيق انتصارٍ على الطرف المقابل رغم استعمال مروان أسلوباً قتاليًا جديداً يعتمد الكراديس عوضاً عن الصفوف. وقد أدرك مروان أنّه لن ينتصر طالما أن هذا الجيش متحصّن تصله الإمدادات من الموصل، لذلك كتب إلى ابن هبيرة يأمره بأن يمدّه بعامر بن ضبارة المرّي فوجّهه إليه في نحوٍ من ستة آلاف أو ثمانية آلاف[2].

وأثار قدوم المدد إلى مروان من العراق خوف شيبان ومن معه، ولذلك قرّروا التصدّي له ومنعه من الوصول. إلاّ أنّ ابن ضبارة تمكّن من التغلّب على المجموعة التي أرسلها شيبان لهذا الغرض. ويذكر أبو هاشم أنّ الخوارج اضطروا نتيجة لهذه الهزيمة إلى مغادرة الموصل[3] حتى لا يقعوا فريسة بين الجيشين، في حين يذكر أبو عُبيدة أن جيش شيبان بقي في الموصل إلى حين قدوم ابن ضبارة وقتال الخوارج على جبهتين حتى قطع عنهم مروان المادة والميرة فاضطر شيبان إلى مغادرة الموصل وهو ما عابه عليه العديد من

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٥٠.
(٢) يوجد اختلاف كبير بين الرواة في تحديد عدد الجنود الذين كانوا مع ابن ضبارة. انظر: تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٥٠ ـ ٣٥٢.
(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٥٠.

أصحابه وكان سبباً في اختلاف كلمتهم[1].

وسواء صحّت الرواية الأولى أم الثانية، فإن مما لا شك فيه أن قرار الارتحال عن الموصل كان النهاية الفعلية لهذه الانتفاضة، فقد تشتّت هذا الجيش وانتهى خطره بالنسبة إلى مروان، وساد الهدوء في تلك المنطقة وتواصل إلى حين قدوم جيوش الثورة العباسية.

أمّا مصير شيبان وأصحابه فيسوده الغموض بسبب اختلاف الرواة في تحديد الوجهة التي قصدها والظروف التي قُتل فيها. وينفرد المدائني بالقول إن شيبان ومن معه من الخوارج وسليمان بن هشام وجيشه ومنصور بن جمهور قد قصدوا عبد الله بن معاوية الذي كان قد استقر باصطخر مع من تبعه من الشيعة بعد إخراجهم من الكوفة. وقد شاركت كل هذه الأطراف إلى جانب ابن معاوية في الحرب ضد جيش ابن ضبارة الذي بعثه مروان، إلاّ أنهم انهزموا وفر كل منهم نحو الوجهة التي اختارها[2]. واعتماداً على هذه الرواية تحدّث الدّارسون عن دخول الخوارج في انتفاضة شيعية، وركّزوا على هذا الحدث باعتباره الأول الذي يحدث في الخلافة الأموية. إلاّ أن المتتبّع لأخبار انتفاضة خوارج الجزيرة يُلاحظ أنّ الرّواة الذين نقلوا وقائعها لم يوردوا خبر اشتراك شيبان مع الشيعة في تحرّكٍ واحد. فأبو مخنف يذكر أن شيبان لمّا خرج من الموصل صار ينتقل من مكان إلى آخر وابن ضبارة يتبعه حتى مرّ على اصطخر وفيها عبد الله بن معاوية، فلم يقم معه «لأن الأمر لم يتهيأ بينهما». وخرج إلى جيرفت حيث التقى مع جيش ابن ضبارة فانهزم الخوارج ومضى شيبان إلى سجستان فهلك فيها سنة ١٣٠هـ[3].

أمّا أبو هاشم مخلد بن محمد، فلا يذكر مسير شيبان إلى ابن معاوية أصلاً ويجعل وجهته الأهواز ثم فارس ثم البحرين التي قُتل فيها[4]. وينقل الطبري رواية أخرى شبيهة برواية أبي هاشم إلاّ أنها تنتهي بالقول إنّ شيباناً صار إلى جزيرة ابن كاوان ثم إلى عُمان حيث قتله الجلندي بن مسعود الأزدي[5]، وهي الرواية نفسها التي ينقلها اليعقوبي[6]. والظاهر أنّها الأصح لأننا نجد ضمن أحداث سنة ١٣٤هـ خبر مقتل شيبان بن عبد العزيز على يدي الجلندي الإباضي في عُمان ثم مقتل هذا الأخير على يدي جيوش الدولة العباسية[7]. وقد لا تنفي هذه الروايات التقاء شيبان بابن معاوية كما يذكر أبو مخنف، إلاّ أن

---

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٧٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٥٢.
(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٥١.
(٥) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٥٣.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣٩.
(٧) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٦٣.

عدم توصل الطرفين إلى اتفاق وافتراقهما جعلا هؤلاء الرواة يهملون ذكر هذا الخبر.

أمّا خبر الخلاف بين شيبان وأصحابه الذي نشأ قبل ذلك فينفرد بذكره أبو عُبيدة، مؤكداً أن سببه هو قرار شيبان الانسحاب من الموصل[1] خوفاً من جيوش مروان. ويبدو في هذا القول جانب من الصحّة إذ من غير المستبعد أن يرفض بعض الخوارج الأسلوب الذي اعتمده شيبان في مواجهة مروان، وهو أسلوب التحصّن والفرار عند الإحساس بالخطر، لأنهم لم يتعوّدوا الفرار من العدو بل كانوا يستميتون في القتال حتى وإنْ كانت هزيمتهم أكيدة تدفعهم إلى ذلك رغبتهم القوية في الاستشهاد.

وباختلاف كلمة الخوارج تفرّقوا، إلاّ أنّ مجموعة شيبان ظلّت تشكّل على ما يبدو خطراً على مروان، لذلك أمر جيش ابن ضبارة بتتبعها إلى حين زوال خطرها. أمّا دخول هذه المجموعة في تحرّك عبد الله بن معاوية فهو مستبعد، ولذلك لا يُمكن الحديث عن حصول تحول في علاقة هاتين الحركتين المعارضتين، إذْ لم يتمكّن الخوارج والشيعة على ما يبدو من تجاوز خلافاتهم ولم يقتنعوا بضرورة توحيد جهودهم لمواجهة عدوهم المشترك.

عموماً، يستنتج المتتبع لانتفاضة خوارج الجزيرة الفراتية أن اندلاعها قد ارتبط بالصراع على السلطة داخل البيت الأموي وانشغال الوالي مروان بن محمد بهذا الصّراع. ورغم أن الانتفاضة ضمّت عناصر ومجموعات معارضة أخرى، فإنّها لم تنجح في القضاء على حكم مروان بن محمد ولا في تخليص المناطق التي سيطرت عليها من الحكم الأموي.

وإذا كان فشل هذه الانتفاضة أمراً يدعو إلى الاستغراب باعتبار أنّ ميزان القوى كان لصالح الخوارج، فإنّ التتبّع الدقيق لمراحلها وتصرّفات قادتها يمكن أن يُعطي تفسيراً لهذا الفشل. فزعماء الخوارج - رغم ما أظهروه من نضج سياسي جسّدوه بدخولهم في تحالفات مع أطراف غير خارجيّة ومعادية للخوارج أحياناً - لم يظهروا خبرة في قيادة الانتفاضة ولم يحسنوا الاستفادة من الظروف الموضوعية الملائمة التي توافرت لها وذلك لعدم امتلاكهم لتنظيم محكم وخاصّة لاستراتيجية عمل واضحة تضمن لهم الانتصار.

ويتجلّى ضعف قادة الانتفاضة على المستوى العسكري خاصةً من خلال عدم حرصهم على ضبط خطط عسكرية ملائمة، ولذلك لم يستطيعوا رغم اندفاعهم الكبير واستماتتهم أثناء المعارك تحقيق الانتصار. بل إنّ أسلوب الاستقتال الذي إعتمدوه هو الذي ساهم في فقدان الانتفاضة منذ المواجهات الأولى أكثر عناصرها حماساً وخاصة قائديها الكبيرين وهما: الضحّاك الشيباني والخيبري، وتحوّلت القيادة إلى شيبان اليشكري الذي لم

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٥٣.

يكن في مستوى أسلافه ومكانتهم.

كما أحدث هذا الأسلوب فراغاً شجّع العناصر غير الخارجية على البروز ومحاولة التحكّم في سير الانتفاضة، الأمر الذي ساعد على حصول خلافات داخلية أضعفتها وعجّلت بنهايتها.

كما يظهر ضعف قادة الانتفاضة عسكريًا وتنظيميًا من خلال عدم اهتمامهم بالمجموعات والعناصر المنضمّة إلى صفوفهم. فهم لم يحاولوا تأطيرهم واستخدامهم في المعارك، وهو ما شجّع أغلبهم على الانسحاب منذ المواجهات الأولى ولم يُظهر من تبقّى منهم أي تحمس للقتال ولم تستفد الانتفاضة بذلك من الطاقة البشرية التي توافرت لها.

ويمكن أن نضيف سبباً آخر لفشل هذه الانتفاضة وهو عدم سعي خوارج الجزيرة إلى التنسيق مع المجموعات الخارجية الأخرى وخاصة تلك التي تحرّكت في جنوب شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي وفّر فرصة لمروان بن محمد للقضاء على هذه الانتفاضة قبل التفرّغ لغيرها وجنّبه خطر الوقوع بين عدوّين.

أمّا ما يلفت الانتباه عند تتبّع هذه الانتفاضة فهو الحضور المكثّف للمرأة الخارجيّة والذي يؤكّده العديد من الرواة[1]. وإذا كانت مشاركة النساء ولا سيما في القتال إحدى مميزات هذه الحركة المعارضة، فإن ارتفاع عددهن في هذه الانتفاضة يدعو إلى التساؤل: فهل هو مرتبط بنمط عيش المشاركين فيها[2] والدّور المهم للمرأة فيه؟ أم أنّه يعود إلى تأثر نساء تلك المنطقة بما قامت به كل من غزالة زوجة شبيب وأمّه جهيزة إبّان الانتفاضة التي عرفتها الجزيرة الفراتية بين سنتي ٧٦هـ و٧٧هـ؟ وعموماً، فإنّ الدور الذي لعبته المرأة في هذه الانتفاضة لا نجد له مثيلاً في انتفاضات الخوارج التي اندلعت في المناطق الأخرى، وهو ما سنتبيّنه من خلال تتبّع انتفاضة عبد الله بن يحيى الكندي في اليمن.

ب ـ انتفاضة عبد الله بن يحيى الكندي في اليمن:

كان انطلاق هذه الانتفاضة من حضرموت في بداية سنة ١٢٩هـ. ويظهر من خلال المصادر أنّها جاءت احتجاجاً على الظلم والجور الذي تفشّى في هذه المنطقة بسبب السياسة التعسفية التي كان يمارسها الوالي الأموي القاسم بن عمر الثقفي وما ولّدته لدى سكّان حضرموت وجنوب شبه الجزيرة عامّة من عداءٍ للحكم الأموي[3]. ولئن كانت ظروف المنطقة قد دفعت عبد الله بن يحيى وأصحابه إلى التحرك، فإنّ تدهور الأوضاع في

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣١٨؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٢) أغلب المشاركين في الانتفاضة هم من شيبان إذ من جملة ستة عشر شخصاً أمكن تحديد انتمائهم القَبَلي ثمة عشرة من شيبان وحدها..

(٣) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٢؛ الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٨.

قلب الإمبراطورية وفي أطرافها الشرقية قد شجعهم كذلك على الثورة باعتبار أنّه وفّر ظرفية مناسبة لإنهاء الحكم الأموي.

سبقت عمليّة الخروج استعدادات تمثّلت خاصة في مكاتبة عبد الله بن يحيى أبا عُبيدة مسلم بن أبي كريمة زعيم الإباضيّة في البصرة يستشيره في الخروج(١). ويذكر المدائني الذي ينقل هذه الرواية أن أبا عُبيدة أشار عليه بالإسراع في ذلك، كما أرسل إليه جماعة من الإباضيّة منهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلج بن عقبة الأزدي(٢). ويدلّ حرص عبد الله بن يحيى على استشارة قادة الإباضية على متانة العلاقة التي كانت تربط بين خوارج حضرموت بزعماء الحركة في البصرة. إلاّ أن هذه العلاقة تنفيها الرواية التي ينقلها الطبري والتي تجعل لقاء قائد هذه الانتفاضة بأحد زعماء الإباضية وهو المختار بن عوف مجرد مصادفة تمّت خلال موسم الحجّ لسنة ١٢٨هـ(٣)، أي قبل أسابيع قليلة من اندلاع الانتفاضة.

ويبدو لمتتبّع هذه الرواية أن عبد الله بن يحيى لم يكن مطّلعاً على الفكر الإباضي، وأن ارتباطه بأبي حمزة وحرصه على مصاحبته إلى حضرموت يعود أساساً إلى ما يملكه هذا الشخص من قدرة على الدعاية والتحريض ضد الحكم الأموي. وبذلك تكون مشاركة هذا الزعيم الإباضي هي التي ربطت انتفاضة عبد الله بن يحيى بالحركة الإباضية وأعطتها هذه الصفة. ورغم ما تحتويه هذه الرواية من معلومات هامة، فإنها تبدو غير مقبولة لأننا نستبعد أن يكون ابن يحيى قد تبنّى الفكر الإباضي وقاد تحرّكه دفاعاً عن مبادئه لمجرد انضمام أبي حمزة إلى صفوفه. فالأرجح أن ابن يحيى كان خارجيًا مؤمناً بالفكر الإباضي، وأنّ صلته بزعماء هذا التيار في البصرة سابقة لهذه الفترة. ورغم جهلنا لتاريخ انضمام ابن يحيى إلى الحركة والظروف التي تمّ فيها، فإنّنا لا نستبعد أن يكون ذلك مرتبطاً بنشاط دُعاة الإباضيّة في جنوب شبه الجزيرة كما بيّنا سابقاً.

أمّا ما يذكره الطبري عن اللقاء الذي تمّ خلال موسم الحج بين ابن يحيى ومبعوثي الحركة، فإننا لا نستبعده لأنّ هذه المناسبة الدينية كانت دائماً فرصة تلتقي خلالها المجموعات المعارضة من الخوارج والشيعة وغيرهم للتشاور وتنظيم الصفوف قبل القيام بتحرّكاتها. أمّا هدف اللقاء فهو على ما يبدو الاتفاق على التفاصيل الخاصة بالانتفاضة ووضع الترتيبات اللازمة لذلك.

لم تقتصر مشاركة البصريين في هذه الانتفاضة على أبي حمزة وبلج بن عقبة بل

---

(١) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١١٢؛ الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٨

(٢) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١١٢؛ الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٩.

(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٨.

شملت كذلك عناصر أخرى، إذ يذكر الأزدي أنّه خرج مع أبي حمزة ابن عمّه جابر بن جبلة السليمي وجميع بطون نصر بن زهران اليحمد وبنو الحارث والغطريف وبنو طمثان ومعولة وبنو مخلد وغيرهم من بطون نصر بن زهران وسليمة ومعز ابني مالك بن فهم وغيرهم من ولد مالك بن فهم[1]. ويدعو تجنّد أبناء قبيلة الأزد وخروجهم للمشاركة في هذه الانتفاضة إلى التساؤل عن دوافعه: فهل هو يندرج في إطار حرص زعماء الإباضيّة وقادة الانتفاضة على ضمان الانسجام القَبَلي بتشجيع مشاركة الأزديين دون سواهم، أم أنّ العناصر الأزدية تحركت بدافع التضامن القَبَلي أو الإقليمي من دون أن يكون لذلك صلة كبيرة بالحركة الإباضيّة؟

إنّنا لا نستطيع أن نقدّم انطلاقاً من المعلومات المتوافرة لدينا إجابة صحيحة على هذه التساؤلات لكننا مع ذلك لا نستبعد أن تكون كل هذه العوامل قد لعبت دوراً في دفع الأزديين إلى الخروج مع أبي حمزة، وأنّ الانتماء المذهبي لم يكن دافعهم الوحيد للخروج خصوصاً وأن الأزدي لا يشير إلى انتماء الخارجين من البصرة إلى الحركة الإباضية. ويبدو من خلال إحدى الروايات أنّهم لا ينتمون لهذا التيار إذ يذكر أنّه «اجتمع لعبد الله بن يحيى الكندي الإباضية وخلق من أهل البصرة»[2].

كان اندلاع الانتفاضة من حضرموت، وكانت أولى مراحلها الاستيلاء على دار الإمارة وحبس العامل إبراهيم بن جبلة الكندي. وقد تمّت هذه العملية بدون قتال ولم يتعرض أيّ شخص للعنف وأطلق سراح العامل نفسه في اليوم التالي حيث التحق بصنعاء[3].

وانضم إلى عبد الله بن يحيى بعد السيطرة على حضرموت عدد آخر من المسلمين حتى كثر جمعه وتجاوز ألفاً وخمسمائة رجل، وهو ما يدل على محدودية عدد الخارجين في البداية[4]. ويظهر أنّ الخوارج قد أطلقوا على ابن يحيى اسم «طالب الحقّ» في تلك الفترة[5]، وتحمل هذه التسمية على بساطتها معاني عديدة، فهي تبرز من ناحية الغاية النبيلة التي خرج من أجلها عبد الله بن يحيى وهي طلب الحق، وتنفي من ناحية أخرى عن صاحبها أيّ لون سياسي باعتبار أن طلب الحق هو غاية جميع المسلمين مهما كانت مبادئهم

---

(١) الأزدي، تاريخ الموصل، ص٧٧ ـ ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٧.

(٣) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٢؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٥.

(٤) يختلف الرواة في تحديد عدد أتباع «طالب الحق» لما خرج من حضرموت إلى صنعاء، إذ يذكر الشمّاخي أنهم كانوا ألفاً وستمائة، وأما الأصفهاني وابن خياط فيجعلانه ألفين. انظر: الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٣؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٥.

(٥) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٢.

وقناعاتهم. وبذلك، فإن كلّ الذين يعتبرون الحكم الأموي ظالماً وبعيداً عن الحق يُمكنهم الانضمام إلى هذه الانتفاضة وتكون التسمية بذلك بمثابة الدعوة إلى كل مسلم للانخراط في هذه الحركة. ومما يؤكد أن جمع شتات المعارضين للحكم الأموي كان أحد أهداف الخوارج رفعهم كشعار أول: «الدعوة إلى خلاف مروان وآل مروان»[١]، وهو شعار عام يمكن أن يلتفّ حوله كل المعارضين من دون تمييز وعدد هؤلاء كان كبيراً في حضرموت واليمن.

واستولى عبد الله بن يحيى بعد حضرموت على صنعاء التي فرّ واليها القاسم بن عمر الثّقفي بعد فشله في التصدي لعبد الله بن يحيى ومقتل عدد كبير من أفراد جيشه. وبخروج والي مروان صارت بلاد اليمن كلها تحت سيطرة الإباضية. ويركّز الرواة كثيراً عند سردهم لهذه الأحداث على تصرفات عبد الله بن يحيى وخصوصاً على الطريقة التي توخّاها في معاملة الأعداء، فقد أمر أتباعه بأن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبراً كما منع أبرهة بن الصبّاح من ملاحقة المنهزمين من أهل صنعاء»[٢]. ولم تقتصر هذه المعاملة الحسنة على عامة المسلمين بل شملت ممثلي الحكم الأموي كذلك، إذ أطلق عبد الله بن يحيى سراح الضحّاك بن زمل خليفة القاسم بن عمر على صنعاء وإبراهيم بن جبلة بعد أن حبسهما عند دخوله المدينة، مؤكداً لهما أنه لم يحبسهما إلاّ لخوفه عليهما من العامة وقد خيّرهما بين البقاء أو الرحيل فخرجا[٣].

وتؤكد هذه المعاملة مدى تسامح ابن يحيى واعتداله في معاملة أعدائه حتى من عملاء السلطة. ورغم أن الأصفهاني يذكر أن أصحاب ابن يحيى من الإباضيّة هم الذين نصحوه بالاقتداء بسيرة أسلافه الصالحين وعدم الغلو والغدر، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن رغبة عبد الله بن يحيى في جمع أكثر ما يمكن من المسلمين حوله جعله يبتعد عن كل ما من شأنه أن يثير استنكار السكان أو غضبهم، بالإضافة إلى ميله مثل غيره من الخوارج الجدد وخاصة من الإباضية إلى الاعتدال والابتعاد عن التطرف والعنف. ويؤكد كل الرواة بمن في ذلك الرواة من غير الخوارج اعتدال ابن يحيى وأصحابه وحسن سيرتهم وعدلهم في المناطق التي سيطروا عليها.

وألقى عبد الله بن يحيى في صنعاء خطبة ينفرد بنقلها الأصفهاني وتتضمّن المبادىء الأساسية التي يدعو إليها، وهي كتاب الله وسنّة نبيه وأداء الفرائض والرّضا بالحلال والحرام واليقين بالوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واعتبار الإسلام الدين الوحيد

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٤٨ ـ ٣٧٤.
(٢) الشماخي، كتاب السّير، ص٩٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٣ ـ ١١٤.
(٣) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٤.

ومحمد هو النبي والكعبة هي القبلة والقرآن هو الإمام[1]. وباستثناء ما نسبه الأصفهاني إلى ابن يحيى من أقوال حول تكفيره للزّاني وشارب الخمر، فإنّ المبادىء والشعارات الواردة في الخطبة تبدو عامة ولا تختلف عن تلك التي كانت ترفعها بقية التيّارات المعارضة للحكم الأموي. كما لا توجد في الخطبة دعوة إلى تيّار سياسي معيّن ولا تقدّم بديلاً للنظام القائم، وهو ما يُظهر مرة أخرى حرص الأجيال الجديدة من الخوارج على تجنّب إثارة المسائل التي قد تُحدث خلافات داخلية وسعيهم إلى كسب ثقة السكان وجلب أكثر ما يمكن من الأنصار والمؤيدين إلى صفوفهم.

كما ركّز عبد الله بن يحيى في خطبته على أهل العلم والاجتهاد مبيّناً دورهم في هداية المسلمين وتضحياتهم في سبيل ذلك. وفي هذا التركيز على أهل العلم تبرير لما يقوم به باعتبار انتمائه إلى هذه الفئة من المسلمين.

وأقام عبد الله بن يحيى في صنعاء أشهراً[2]، ورغم ذلك لم يحرّك مروان بن محمد ساكناً ولم يتدخل لاسترجاع المنطقة من سيطرة الخوارج. والأكيد أن تدهور الأوضاع في مركز الخلافة والمناطق القريبة منه هي التي جعلته يؤجل التدخل في تلك المنطقة، خصوصاً وأن أصحاب «طالب الحق» لم يشكلوا خطراً حقيقيًا على سلطته نظراً لانحصار تحركاتهم في حضرموت واليمن أي بعيداً عن مركز الخلافة. وقد يكون إهمال مروان الثاني لما يحدث في تلك المنطقة هو الذي شجّع الخوارج على الزّحف في اتجاه الحجاز بقيادة أبي حمزة.

كان خروج جيش الإباضية من صنعاء في اتجاه مكة مع حلول موسم الحج لسنة ١٢٩هـ[3]. ويدل اختيار هذا التوقيت على رغبة زعماء الانتفاضة في استغلال الظروف الصعبة التي يمرّ بها الحكم الأموي من جهة والاستفادة من الموسم من جهة أخرى. فالخليفة الأموي مروان الثاني الذي هزم الضحّاك في الجزيرة كان مُطالباً بتتبّع فلول الخوارج والتصدي في الوقت نفسه لخطر الثورة العباسية في خراسان ويصعب عليه القتال على الجبهتين الشرقية والجنوبية لما في ذلك من خطر الوقوع بين القوتين[4].

أثار قدوم الخوارج إلى مكة الخوف والفزع في نفوس الحجاج رغم قلة عددهم[5].

---

(١) المصدر نفسه، . ج٢٣، ص١١٤ ـ ١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١١٥.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٥؛ الشمّاخي، كتاب السّير، ص٩٩.

(٤) DAGHFOUS (R), *op. cit.*, p. 655.

(٥) يذكر المدائني أن عدد الذين بعثهم ابن يحيى إلى مكة تسعمائة وقيل ألف ومائة: الأصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٥. أما الدرجيني فيذكر أن عدد القادمين من اليمن هو ستمائة رجل: الدرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٦٥.

كما خاف الوالي عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بدوره فساد الموسم، لذلك أسرع بإرسال وفد إلى أبي حمزة يدعوه إلى الهدنة حتى ينفر الناس فوافقه على ذلك[1]. ولما انقضى الموسم فرّ عبد الواحد وترك مكة لأبي حمزة فدخلها بدون قتال، وبذلك أنجز الخوارج أولى مراحل خطتهم التي تتضمن الاستيلاء على مكة والمدينة قبل التوجه إلى مروان الثاني. إلا أن عبد الواحد كون بمجرد انتقاله إلى المدينة جيشاً كبيراً وأرسله إلى أبي حمزة لمنعه من التقدم نحو الشام. وينسب المدائني تكوين هذا الجيش إلى عامل المدينة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز[2]، ويغيب في روايته عبد الواحد وهو ما يفيد إقالته من قبل مروان الثاني لعدم تصديه للخوارج وإفساحه في المجال أمامهم لدخول مكة.

كان لقاء الجيشين في قديد قرب المدينة. وقد حاول أبو حمزة قبل نشوب القتال إقناع أهل المدينة بالعدول عن محاربته، مؤكداً لهم أن الخوارج لا يريدون قتالهم ولا يطلبون منهم سوى السماح لهم بالسير إلى مروان بن محمد الذي «ظلمهم وجار في الحكم عليهم واستأثر بالفيء». لكن سكان المدينة رفضوا طلب الخوارج وشتموهم. وللتأكيد على تمسكهم بمحاربتهم أنشبوا القتال وأجبروهم على الردّ عليهم[3]. ورغم تأكيد الخوارج على أن هدفهم يقتصر على السماح لهم بالمرور إلى الشام، فإننا لا نشك في وجود نية السيطرة على المدينة لديهم لأن ذلك ضروري لضمان عدم الوقوع بين عدوّين.

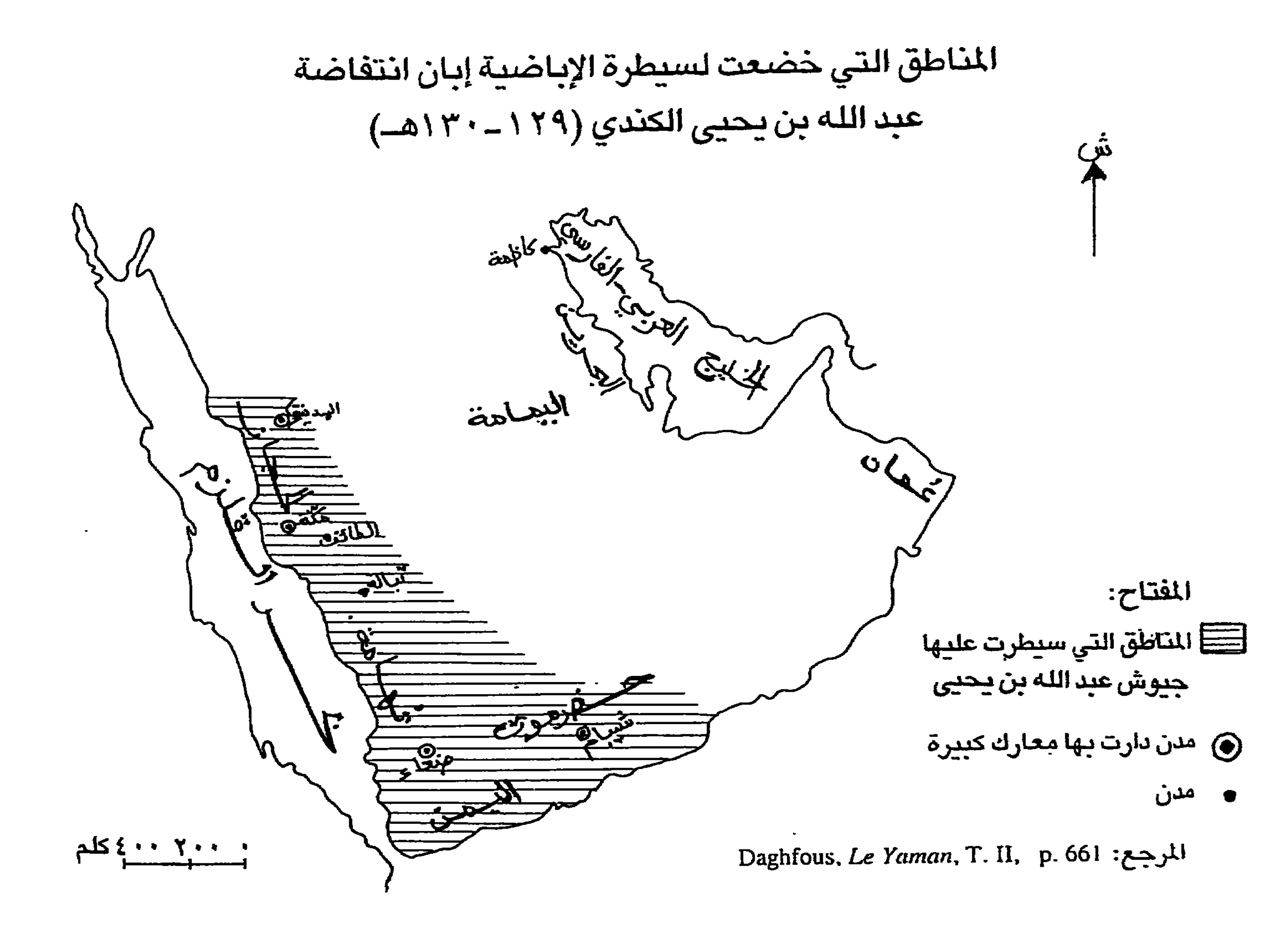
ومما يُظهر حرص سكان المدينة على محاربة الخوارج وتحمسهم لذلك، أن موقفهم كان يختلف عن موقف أغلب المسلمين في المناطق الأخرى وخصوصاً في اليمن والعراق والجزيرة الفراتية، فقد ساند بعض سكان هذه المناطق الثائرين على حكم مروان الثاني ووقفوا إلى جانبهم في حين تبنّى البقية موقف الحياد في انتظار ما ستسفر عنه هذه الانتفاضات من دون أن يُظهروا حماساً كبيراً في الدفاع عن الحكم الأموي كما فعل سكان المدينة. ويعكس هذا التباين في المواقف تجاه حكم مروان الثاني تبايناً في المصالح، فالأطراف المتضررة من الحكم الأموي وجدت في هذه الانتفاضات فرصة مناسبة للتخلص منه، في حين أن الأطراف المستفيدة ساندته ووقفت إلى جانبه وحاولت إنقاذه. وطبيعي أن يكون سكان المدينة وخصوصاً أبناء قبيلة قريش في مقدمة المساندين باعتبار أنهم أكثر المستفيدين من هذا الحكم. كما قد يكون كره القرشيين للخوارج وخصوصاً من بني أمية وبني هاشم وآل الزبير هو سبب تحمّسهم لقتالهم، وهو كُره يعود إلى أعمال الخوارج السابقة وخصوصاً إلى ما كانوا يظهرونه من عداء سافر لقريش.

---

(١) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١١٧.



المرجع: Daghfous, *Le Yaman*, T. II, p. 661

لكن رغم الحماس الذي أبداه سكّان المدينة قبل المعركة، فإنّ الخوارج تمكنوا من الانتصار عليهم بسهولة وفي وقت وجيز وقتلوا منهم عدداً كبيراً يذكر الأصفهاني أنّه بلغ ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً[1]. ولولا تدخُّل أبي حمزة لمنع أصحابه من ملاحقة الفارّين وقتل الجرحى لقُضي على الجيش بكامله. ويركز الرواة عند سردهم لأحداث هذه الموقعة على تصرّفات أبي حمزة وما أظهره من تسامح في معاملة المنهزمين من جيش المدينة[2]، وهي تصرفات لم تُرضِ بقيّة الخوارج الذين أرادوا استغلال هذه الفرصة للانتقام من سكان المدينة والقرشيين منهم بالأخص. ولقد تصدى أحد قادة الجيش وهو علي بن الحصين لأبي حمزة ومنعه من إطلاق سراح الأسرى. وينقل بعض الرواة أنّ عليّ بن الحصين أتى بالأسرى، فكان إذا رأى رجلاً من قريش قتله وإذا رأى رجلاً من الأنصار أطلقه، حتى إن محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان نسب نفسه إلى الأنصار لينجو من القتل[3]. وقد عبّر أحد رجال اليمن عن عمق العداء لقريش وتأصله في نفوس الخوارج أحسن تعبير حين قال: «الحمد لله الذي أقرّ عينيّ بمقتل قريش»[4]. وقد جاء ردّ ابنه ليؤكد هذا الشعور إذ قال: «الحمد لله الذي أذلّهم على أيدينا، فما كانت قريش تظن أنّ من نزل من عُمان من الأزد عربي»[5]. ورغم ما في ردّ هذا اليمني من نزعة قَبَليّة واضحة، فالأكيد أن أسباب العداء لقريش كانت سياسية قبل أن تكون قبليّة. فتصرّفات الحكام الأمويين وما أظهروه من محاباةٍ لأقاربهم وعنفٍ في معاملة بقيّة السكان واستغلال لثروات مناطقهم قد جعل النقمة تتصاعد ضدهم وضد قريش التي صارت دولة بني أمية دولتها. وهذا الحقد لم يكن حكراً على الخوارج بل شمل أغلب سكان اليمن. ولعل ما يؤكد ضعف أهمية العامل القَبَلي في هذا الصراع انضمام أحد القرشيين إلى صفوف الخوارج في تلك الفترة، وهو أبو بكر بن محمد بن عمر القرشي من بني عدي بن كعب، وكان من شرطة أبي حمزة وهو الذي ترأس المجموعة الأولى التي أُرسلت إلى جيش المدينة[6].

---

(١) الاصفهاني، **الأغاني**، ج٢٣، ص١٢٥. أما الطبري فينقل عن الواقدي قوله إن عدد القتلى كان سبعمائة: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص٣٩٨. في حين يذكر الدّرجيني أنه أربعة آلاف، وهو رقم مبالغ فيه على ما يبدو. انظر: الدّرجيني، **طبقات المشائخ**، ج٢، ص٢٦٥.

(٢) الاصفهاني، **الأغاني**، ج٢٣، ص١٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٢٥.

(٦) يذكر الاصفهاني بالإضافة إلى هذا القرشي أسماء لعناصر أخرى من سكان المدينة انضمت إلى صفوف الخوارج وقتلهم الجيش الشامي، منهم بشكست وهو معلم أطفال: الاصفهاني، **الأغاني**، ج٢٣، ص١٢٥ ـ ١٣٩.

أمّا أسباب هزيمة أهل المدينة في قديد، فقد أجمع الرواة على القول إنها تعود إلى تركيبة الجيش الذي كلّف بمحاربة الخوارج والذي كان «يضمّ خليطاً من قريش والأنصار والتجار، أغمار لا علم لهم بالحرب، خرجوا في المصبّغات والثياب الناعمة واللهو لا يظنون أن للخوارج شوكة ولا يشكّون أنهم في أيديهم»[1]. أمّا سكان المدينة فيردون هزيمتهم إلى خيانة خزاعة وتواطؤها مع الخوارج، فهي «التي دلّتهم على عورتهم وأدخلتهم عليهم فقتلوهم»[2]. ورغم أن بعض الرواة الذين ينقلون هذا القول يشكّون في صحته، فإن رواية الدرجيني التي تذكر انضمام أربعمائة من الخزاعيين المسلحين إلى صفوف الخوارج[3] تبرّر إلقاء التهمة على خزاعة دون سواها من سائر قبائل الحجاز، فالظاهر أنّ الخزاعيين قد ساهموا في هزيمة سكان المدينة وهو ما جعل تهمة الخيانة والتواطؤ تُلقى عليهم. وإذا كان موقف خزاعة المعادي لقريش ومن ورائها للحكم الأموي يكتنفه بعض الغموض، فإنه كان أكثر وضوحاً في خراسان إذ كان أبناء خزاعة المستقرين في مرو والواحات المحيطة بها المحرّك الرئيسي للثورة العباسية التي انطلقت في تلك الفترة. ورغم تأكدنا من أنّ لكل مجموعة أسبابها ودوافعها التي تفسّر مواقفها بالنظر لاختلاف الظروف، فإنّ اتفاق الخزاعيين على تبني مواقف متشابهة يظهر الخيبة الكبيرة التي كان يشعر بها أبناء هذه القبيلة التي ساندت الرسول في حروبه الأولى ضد قريش ووقفت إلى جانب الدولة الإسلامية في أحداث الردة وتحوّل هذا الشعور بالخيبة إلى عداء سافر لقريش وللأمويين.

أما بقية القبائل، فلا تذكر المصادر عنها شيئاً باستثناء إشارة إلى مشاركة بعض رجالها في قديد وسقوط ضحايا منهم[4]، وهو ما يؤكد مشاركتهم مع أهل المدينة في تلك المعركة. وعموماً فقد أثّرت موقعة قديد كثيراً في القرشيين وفي سكان المدينة عامة، وهو ما يبدو واضحاً من خلال الروايات وخصوصاً الأشعار التي رثت قتلى هذه الموقعة[5].

(١) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٢١.
(٢) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٢٠.
(٣) الدّرجيني، طبقات المشائخ، ج٢، ص٢٦٥.
(٤) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٢٥.
(٥) من بين الأشعار التي رثت قتلى قديد ما قالته نائحة من أهل المدينة:

ما للزمان وماليه ... أفنت قديد رجاليه
فلأبكين سريرة ... ولأبكين علانية
ولأبكين إذا خلو ... ت مع الكلاب العاوية

(الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٢٦؛ تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٩٧).
كما رثاهم أحد أصحابهم بهذه الأبيات التي يقول فيها:

يا لهف نفسي ولهف غير كاذبة ... على فوارس بالبطحاء أنجادِ

دخل الخوارج بعد معركة قديد المدينة بغير حرب ودخل السكان في طاعتهم وكفّوا عنهم[1]. وكان أبرز ما قام به أبو حمزة خلال إقامته القصيرة هو إلقاء خطبته الشهيرة في جامع المدينة والتي تطرّق فيها إلى مسائل عديدة كانت أولاها تقييماً للحكم الأموي ورد في إطار قراءة شاملة للأحداث السياسية التي عرفتها الأمة الإسلامية منذ فترة النبوة وحتى خلافة مروان بن محمد. ونجد مثل هذه القراءة في كل خطب الخوارج ورسائلهم تقريباً، فهي أحد الأركان الثابتة فيها، وإنْ كان أبو حمزة قد تجاوز الخوارج السابقين بتركيزه على فترة الحكم الأموي وخصوصاً الفترة المروانية إذ تعرض لجلّ خلفائها، فوصف جورهم في الأحكام وسُوء سيرتهم ورماهم بأقبح الأوصاف والنعوت ثم تبرأ منهم[2]. ولم يستثنِ منهم سوى عمر بن عبد العزيز الذي اكتفى بذكر عجزه.

ولم يقتصر أبو حمزة في خطبته على ذكر الأمويين بل تعرّض للشيعة كذلك، فاستعرض بعض مبادئهم وبيّن خطأها وضلالتها[3]، وهي المرة الأولى التي يرد فيها على لسان خارجي ذكر صريح للخلافات السياسية والفكرية التي كانت قائمة بين الخوارج والشيعة.

وخصص أبو حمزة القسم الأكبر من خطبته للحديث عن أهل المدينة، مبيّناً تناقض مواقفهم. فقد رفضوا التعاون معه وتصدوا له بالقوة ومنعوه من المسير إلى الشام رغم اقتناعهم بظلم حكّام بني أمية وسوء سيرتهم.

كما أورد أبو حمزة في خطبته الخطوط العريضة لبرنامجه السياسي الذي يتضمن

= عمرو وعمرو وعبد الله بينهما وابناهما خامس والحارث السادي

(تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٩٤؛ الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٢١).

كما سجّل الخوارج بدورهم هذه الأحداث. ولعل أجمل ما قيل فيها القصيدة البائيّة التي ألفها الشاعر الإباضي عمرو بن الحصين الكوفي والتي يقول في إحدى أبياتها:

سائل بيوم قديد عن وقعاتها تخبرك عن وقعاتها بعجائب

(الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٣٠).

(١) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٢٥.

(٢) لا يتّفق الرواة على تحديد مجمل المحاور التي تطرّق إليها أبو حمزة في خطبته، ولذلك لا نجد نصاً واحداً لهذه الخطبة. فالطبري يوردها مقتضبة جداً، في حين ينقل الاصفهاني عن هارون بن موسى خطباً عديدة مصادرها مختلفة. ويظهر من خلال تتبع محتواها وجود محاور يتفق على ذكرها كل الرواة وأخرى ينفرد بذكرها بعضهم. وتبدو الخطبة التي ينقلها هارون بن موسى عن داود بن عبد الله عن أبي فضالة النحوي أقرب للصحة لاحتوائها على كل عناصر الخطبة وتشابه محتواها مع محتوى خطب الخوارج عامة. انظر: تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٩٤؛ الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٣٠ ـ ١٣٩.

(٣) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٣٨.

العديد من الإصلاحات، منها الالتزام باختيار من يقيم للمسلمين كتاب الله وسُنَّة نبيّه، والعدل في الأحكام، وتقسيم الفيء بين المسلمين[1]. ولا يختلف هذا البرنامج كثيراً عن غيره من برامج المجموعات المعارضة للحكم الأموي التي ثارت في تلك الفترة. ولعل المسألة الوحيدة التي كان قول أبي حمزة فيها متميّزاً بل ومخالفاً لأغلبية المسلمين هي مسألة الكفر والإيمان.

وتنتهي خطبة أبي حمزة بالرد على سكان المدينة الذين عابوا أصحابه وانتقصوهم لحداثة سنّهم. وقد جاء وصفه لهم غاية في الفصاحة والبلاغة، فقد قال عنهم: «شباب والله مكتهلون في شبابهم، عضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة على الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفسٍ لا تموت أبداً...». كما وصف حالهم بعد الحروب بقوله: «فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكَى بها صاحبها من خشية الله، وكم من يدٍ قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً...». وهذا الوصف البليغ وهذه الصور الجميلة والمؤثرة التي رسمها أبو حمزة لأصحابه جعلت كل المؤلَّفات الأدبية تهتم بهذه الخطبة وتدرج هذا الجزء ضمن مشاهير الخطب الإسلامية.

وعاد أبو حمزة إلى مكة بعد إقامة قصيرة بالمدينة، وبقي فيها إلى أن قدم الجيش الشامي بقيادة عبد الملك بن عطية السعدي. وقد كانت المواجهات الأولى بين هذا الجيش والخوارج في وادي القرى، وانتهت بهزيمة بلج بن عقبة وأصحابه، وهي هزيمة استغلّها السكان للتخلص ممن بقي من الخوارج في المدينة. ثم تلتها معركة مكة التي قادها أبو حمزة بنفسه وانتهت بمقتله وهزيمة أصحابه وتفرّقهم. وقد لعب سكان مكّة دوراً كبيراً في هذه المعارك بمساعدة الشاميين على قتال الخوارج[2].

وبعد انهزام الخوارج في مكة قرّر ابن عطية الانتقال إلى اليمن للقضاء على من تبقى منهم، وخرج عبد الله بن يحيى وأصحابه بدورهم من صنعاء لمنع ابن عطية من دخول المنطقة. ودارت بين الطرفين معركة كبيرة انتهت بانتصار الجيش الشامي وقتل عبد الله بن يحيى وأغلب أصحابه وتشتيت المجموعة المتبقية[3].

---

(١) لا يوجد هذا العنصر في الخطبة التي قمنا بتحليل محتواها، لكننا نجده في الخطب الأخرى، ونستبعد أن يكون أبو حمزة قد أهمل ذكره. انظر: الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٣٠.

(٢) يوجد اختلاف بين الرواة في سرد هذه الأحداث. فالاصفهاني وابن خياط والدرجيني ينقلونها حسب التسلسل الذي ذكرناه، في حين يذكر الطبري وابن الأثير أن معركة واحدة دارت بين الخوارج وجيش ابن عطية في وادي القرى وهي التي قتل فيها أبو حمزة وبلج وأغلب الخوارج. انظر: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص٣٩٩؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٤، ص٣١٥؛ الاصفهاني، **الأغاني**، ج٢٣، ص١٤١ - ١٤٢؛ الدّرجيني، **طبقات المشائخ**، ج٢، ص٢٦٠.

(٣) **تاريخ الطبري**، ج٧، ص٤٠٠؛ **تاريخ خليفة بن خياط**، ج٢، ص٤١٦.

وتُعتبر الهزيمة الثقيلة التي مُني بها الخوارج في تلك المعركة بداية النهاية بالنسبة لانتفاضتهم هذه. فرغم محاولة الفارين تنظيم صفوفهم باختيار قائد لهم هو حمانة، فإن ابن عطية التحق بهم إلى صنعاء وتمكّن من القضاء عليهم[1]، ولئن لم تمنع هذه الهزائم المتتالية بعض العناصر الخارجية من القيام بتحركات ضد ابن عطية، فإن تشتتها وانخفاض عدد المشاركين فيها قد جعل جيش الدولة ينجح في القضاء عليها والسيطرة على صنعاء وما حولها[2]. وانتقل ابن عطية بعد ذلك إلى حضرموت التي التجأ إليها من تبقّى من الإباضية والتفوا حول عامل عبد الله بن يحيى بها واستعدوا للمواجهة.

ويختلف الرواة في سرد تفاصيل المواجهات التي دارت بين الإباضيّة وجيش الدولة. فالدرجيني يذكر أن ابن عطية تحصّن في قرية، فحاصره الخوارج أربعاً وعشرين ليلة. فلما طال الحصار وخاف على نفسه سألهم الصلح فصالحه الإباضية على أن يرد كل ما كان في عسكره مما أصاب من أموال المسلمين[3]. أما الأصفهاني فينقل عن المدائني قوله إن ابن عطية هو الذي حاصر الثائرين بعد أن استولى على الحصن الذي جمعوا فيه مؤونتهم ولم يصالحهم إلاّ عند قدوم كتاب مروان يطلب فيه منه حضور الموسم[4]. وتبدو رواية الدرجيني غير مقبولة لتناقضها فهي تؤكد من جهة سيطرة ابن عطية على أموال الخوارج وأمتعتهم وتجعله من جهة ثانية مهدداً بخطر السقوط في أيديهم. كما لا تخلو رواية المدائني التي تُظهر التفوق الكلي لابن عطية من مبالغة. وتُظهر شروط الصلح المتمثلة في قبول قائد جيش الدولة رد أموال الخوارج وتمكينهم من اختيار من يولّى أمرهم[5] أن ابن عطية قد حقّق بعض الانتصارات على الإباضية، لكنه لم يتمكن من القضاء عليهم نهائيًا وإزالة خطرهم، ولذلك قبل بتقديم بعض التنازلات لهم وقبلوا بدورهم بتركه يُغادر المنطقة. ويتأكد من خلال الشرط الثاني للصلح أن أول أهداف الثائرين كان التخلص من عمال بني أمية الذين استغلّوهم وسلّطوا عليهم شتّى أنواع القمع والاضطهاد.

ورغم حصول الصلح بين ابن عطية وإباضية حضرموت، فإن عناصر خارجية من مراد وكندة وهمدان اعترضت ابن عطية وهو في طريقه إلى مكة وقتلته[6]. واستغلّ عامل صنعاء

---

(١) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٤٨.

(٢) ثار على ابن عطية رجلٌ من حمير يُقال له يحيى بن عبد الله بن عمرو السبّاق؛ كما خرج عليه حميري آخر يُقال له يحيى بن كرب: الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٥٥؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٦.

(٣) الدّرجيني، كتاب المشائخ، ج٢، ص٢٦١.

(٤) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٥٥ - ١٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٥٦.

(٦) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١٥٦ - ١٥٧. أما الطبري، فيذكر أن الذين قتلوا بن عطية كانوا من =

هذه العملية للانتقام من الخوارج، إذْ أرسل جيشاً كبيراً «قتل الرجال والصبيان وبقر بطون النساء وأخذ الأموال وخرّب القرى وجعل يتتبّع البريء حتى لم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا من الإباضية إلا قتله»(١). وبسقوط آخر معاقلهم، انتهت انتفاضة الخوارج في جنوب شبه الجزيرة العربية.

ما نخلص إليه، من دراسة هذه الانتفاضة، هو أنّ تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية في اليمن ومشاركة عناصر من قبائل مختلفة ووجود قيادة تتمتّع بكفاءة في التنظير وحماس في القتال وتحظى بدعم زعماء الإباضية كل هذا لم يكن كافيًا لنجاح الانتفاضة، فالدولة الأموية تمكّنت رغم ضعفها الشديد من قمعها وقتل أغلب المشاركين فيها.

ورغم الاختلاف بين انتفاضتَيْ اليمن والجزيرة الفراتية، فإن أسباب الهزيمة تتشابه لارتباط في الحالتين ببرامج القادة ولا سيما بخططهم العسكرية. فزعماء هذه الانتفاضة لم ينسّقوا مع بقية الثائرين ضد مروان الثاني وخصوصاً من الخوارج. ولذلك كان تأخر اندلاع انتفاضتهم إلى ما بعد هزيمة الضحّاك في الجزيرة قد فسح في المجال أمام جيش مروان للقضاء عليهما بصورة منفصلة.

كما كانت الخطة العسكرية القاضية بتوسيع دائرة الانتفاضة لتشمل الحجاز عاملاً مساعداً على الهزيمة لأنها قسّمت جيش الخوارج ومنعته من مواجهة جيش مروان موحداً. كما لم تنجح خطة «طالب الحق» في استغلال الموسم لتعزيز صفوف الانتفاضة بمسلمين جدد، لأن الخوارج لم ينجحوا في استقطاب كثير من الأنصار ووجدوا أنفسهم يحاربون جيش مروان بدون مساندة وفي وسط معادٍ لهم. ولا يمكن أن نفسّر عدم تحمّس المسلمين للانضمام إلى الانتفاضة بعنف الخوارج، لأنّ عنفهم لم يبرز إلاّ في معركة واحدة وجاء ردّاً على ما أظهره القرشيون من عداء لهم.

وبصفة عامة، لم يتحول تحرّك «طالب الحق» في أية مرحلة من مراحله إلى تحرك جماهيري(٢)، إذ لم يكن ما أظهره قادته من تسامح في معاملة السكان واعتدال في برنامجهم كافيًا لجلب اليمنيين وغيرهم من الناقمين على السلطة إلى صفوفهم.

ج ـ شيبان بن سلمة الحروري يقود انتفاضة الخوارج في خراسان:

لم تقتصر انتفاضات الخوارج التي اندلعت في أواخر الحكم الأموي على الجزيرة

= مراد. انظر: **تاريخ الطبري**، ج٧، ص٤٠٠.

(١) الاصفهاني، **الأغاني**، ج٢٣، ص١٥٧ ـ ١٥٨؛ **تاريخ خليفة بن خياط**، ج٢، ص٤١٧.

(٢) لم يتجاوز عدد المنضمين إلى الانتفاضة ألفي شخص في أقصى الحالات. ولا يمكن تصديق الأرقام الضخمة التي ينفرد بتقديمها ابن خيّاط لتناقضها مع الأرقام الواردة في كل المصادر بما في ذلك المصادر الإباضية. كما أن ضخامتها تجعل هزيمة الإباضية أمام جيش الدولة غير مقبولة.

الفراتية واليمن بل شملت منطقة أخرى لم يسبق للرواة أن ذكروا فيها نشاطاً لأتباع هذا المذهب وهي خراسان. ويثير الظهور المفاجىء لهذه المجموعة تساؤلات عن أصلها وعلاقتها بالفكر الخارجي وأوضاعها في خراسان وأسباب انتفاضتها في تلك الفترة والدور الذي لعبته في الصراع الذي عرفه هذا الإقليم في أواخر الحكم الأموي.

لكن الإجابة عن هذه التساؤلات تبدو صعبة بسبب قلّة المعلومات في المصادر وارتباط ما يتوافر منها بزعيم هذه المجموعة: شيبان بن سلمة. لذلك، رأينا الاهتمام بتحركات هذا الزعيم للتعرّف على المجموعة المشاركة معه في الانتفاضة، وبالتالي تكوين فكرة عن الخوارج في ذلك الإقليم في أواخر الحكم الأموي.

وتستدعي دراسة هذه الانتفاضة كذلك تقديم لمحة عن خراسان تمكّننا من التعرّف على الوضع في ذلك الإقليم وعلى مختلف القوى التي تكوّنت فيه وكان لها دور في الصراع. كما يتطلّب فهم علاقة هذه المجموعة بالمذهب الخارجي تقييم الانتفاضة وإبراز مواقف مختلف الأطراف خلالها.

*** خراسان في أواخر الحكم الأموي: وضع متوتر فجّرته أزمة البيت الأموي:**

لا شك في أنّ التعرّف على الأوضاع في خراسان في فترة الخلافة الأموية يستوجب إلقاء الضوء على ظروف فتح هذا الإقليم واستقرار العرب المسلمين فيه. كما يتطلّب فهم الصراع الذي نشأ في السنوات الأخيرة من حكم بني أمية تتبّع سياسة الدولة والتحولات الناتجة عنها في مختلف المجالات.

كان شروع المسلمين في فتح خراسان خلال خلافة عثمان بن عفان، وبالتحديد بعد بضعة أشهر من تعيين عبد الله بن عامر واليًا على البصرة سنة ٢٩هـ[١]. ولم يكن الفتح صعباً بالنسبة إلى العرب، فمنذ معركة نهاوند التي قُضي فيها فعليًا على السلطة الساسانية، صار أمر المقاطعات المتبقية في يد المرازبة هيناً. ولما بدأت الجيوش العربية تتقدم في اتجاه الشرق، سارع هؤلاء إلى الاستسلام وعقدوا مع الفاتحين معاهدات صلح تضمن لهم الاستمرار في مهامهم والمحافظة على مصالحهم. وتمّت بمقتضى هذه المعاهدات السيطرة على كامل إقليم خراسان الإيراني[٢]، مع المحافظة على الهياكل الإدارية والاجتماعية فيه.

ولئن توقفت الحملات في اتجاه الشرق بسبب الصراعات السياسية التي عرفتها الدولة الإسلامية، فإن نهاية الفتنة وانتقال الحكم إلى بني أمية مثّلا بداية مرحلة جديدة في تاريخ

(١) البلاذري، فتوح البلدان، بيروت، ١٩٥٧، ص٥٦٧؛ تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠١.

(٢) يمتد إقليم خراسان الإيراني أيام الفتح العربي إلى نهر المرغاب وبالتحديد إلى القسم الأسفل من هذا النهر في مرو الروذ وحتى شمال مرو. محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ص٣٨ ـ ٣٩. انظر كذلك مقال بوزوارث عن «خُراسان»: BOSWORTH (C.E), «Khurasan», In: *L'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, Vol. V, 1986, p. 57.

خراسان، فقد التزم معاوية بن أبي سفيان بمواصلة الفتوحات، ولذلك أعار عناية لكل الجبهات وخاصة الجبهة الشرقية. لكن التحولات الفعلية في ذلك الإقليم لم تبدأ إلا بعد تعيين زياد بن أبي سفيان واليًا على البصرة والمشرق سنة ٤٥هـ. فقد استأنف هذا الوالي الحملات العسكرية، ونظم الإقليم إداريًا، ثم قام بعملية استيطان واسعة النطاق شملت خمسين ألفاً من مقاتلة البصرة والكوفة بعيالاتهم[١]. وإذا كانت المصادر تتفق على أن استقرار العرب كان في مرو، فإنّها لا تذكر بدقة ما إذا كان ذلك داخل المدينة أم على مشارفها أم في الواحات المجاورة. ويبدو من خلال بعض الإشارات أن الفاتحين اتخذوا من مرو قاعدة لهم تمركز فيها الجهاز الإداري وبيت المال وحامية عسكرية بمقتضى المعاهدة التي تفرض على سكان المدينة استضافة العرب في دُورهم[٢]. في حين ظل القسم الأكبر من المقاتلة خارج المدينة يقيمون في معسكرات ويقومون بالفتوحات ويتقاضون العطاء. وقد ظلّت مرو القاعدة الرئيسية للقوات العربية في خراسان سنوات طويلة، ولم يقم الأمويون الأوائل بتوطين المقاتلة في مناطق أخرى باستثناء الحاميات العسكرية الصغيرة المكلّفة بمراقبة الحدود وحمايتها[٣].

إلاّ أن مواصلة الأمويين للعمليات العسكرية استدعى تدفق المزيد من العرب على خراسان للمشاركة في الغزو أو لتعويض الخسائر البشرية الناتجة عن الهزائم. كما قدم العديد منهم بصحبة ولاة أو عمال عُيِّنوا على خراسان أو في إطار هجرات خاصة[٤]. وإذا كان بعضها لم يشمل سوى أعداد محدودة من العرب، فإن هجرات أخرى ضمت أعداداً ضخمة مثل جيش المهلّب الذي قدم معه لمّا عيّن على هذا الإقليم والمتكوّن من الأزد أو كذلك الجيش الذي أرسله هشام بن عبد الملك ويعدّ عشرين ألف رجل.

كان لهذه الهجرات المتتالية تأثير على الوضع في خراسان، فقد ساهمت في بروز تباين بين عرب هذا الإقليم، وبالتحديد بين القادمين الأوائل والجدد، كما ساهمت في تغيير التركيبة القَبَلية التي وجدت في خراسان في السنوات الأولى للحكم الأموي. ولعل أكثرها تأثيراً في هذا المجال تلك التي شملت الأزد لما أدخلته من تغيير على ميزان القوى القَبَليّ[٥]، إذ أدّت إلى الحد من تفوق تميم في خراسان ودفعتها إلى التحالف مع قيس

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٧٦ ـ ٥٧٧؛ تاريخ الطبري، ج٥، ص٢٨٦.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٧٠.

(٣) شعبان، الثورة العباسية، ص١١٩ ـ ١٦٤.

(٤) أحمد صالح العلي، «الاستيطان العربي في خراسان»، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٥٨، ص٣٨ ـ ٤٠؛ حسين عطوان، الشعر العربي بخراسان، بيروت، ١٩٧٤، ص٥٧.

(٥) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ١٩٦٨، ص٤٠٨.

للتصدي للأزد وحليفتها بكر بن وائل.

إلا أن التكتلات القبلية التي تكونت في خراسان لم تكن ناتجة عن هذه الهجرات المتتالية فحسب، بل عن عوامل أخرى أيضاً، ارتبط بعضها بالوضع في الإقليم وبسياسة الدولة فيه، في حين ارتبط البعض الآخر بما كان يحدث في قلب الإمبراطورية من صراعات وفتن. لذلك يبقى فهم أسباب تكوّن هذه التكتلات رهناً بالتعرف على دوافعها وخلفياتها.

يرد أول ذكر للصراع بين القبائل في خراسان في الأشهر الأولى لموت يزيد بن معاوية واندلاع الفتنة. وإذا كان هذا الصراع قد ارتبط بما عرفه العالم الإسلامي من اضطرابات وخاصة مدينة البصرة، فإنّ الوضع في خراسان قد ساهم بدوره في اندلاعه، إذْ حاولت العناصر القَبَلية استغلال خروج الوالي سلم بن زياد للسيطرة على الإقليم، وكانت أعمال عبد الله بن خازم ومن معه من أبناء قيس وتميم سبباً في حصول مواجهات مع أبناء بكر بن وائل[1].

لكن الصراع لم يكن بدافع قَبَلي بحت، بل كانت وراءه مصالح عبَّر عنها البكريون أنفسهم حين علموا بنوايا ابن خازم بقولهم: «على ما يأكل هؤلاء خراسان دوننا؟» وأغاروا على ثقله[2].

ويؤكد الصراع الذي اندلع داخل قبيلة تميم في الفترة نفسها أن الصراعات القَبَليّة التي وقعت خلال سنوات الفتنة الثانية قد ارتبطت أساساً بالوضع في خراسان. وقد دفع تفشيها العرب إلى مطالبة الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان بإرسال والٍ قرشي يكون فوق القبائل وفوق الصراعات[3].

ولئن توقفت الصراعات القَبَلية بعد هذه الفتنة ولم تظهر إلاّ في سنوات محدودة عند ضعف السلطة أو عند توقف الفتوحات، فإن التنافس بين القبائل العربية قد تواصل على امتداد الفترة المتبقية من الحكم الأموي. وقد ساهمت سياسة الدولة نفسها في تأجيجه، إذ إن الصراع القيسي ـ اليمني الذي دشّنته معركة مرج راهط سنة ٦٤هـ، وكان إحدى نتائج الفتنة الثانية، غدا عنصراً رئيسيًا في سياسة الدولة. وإذا كان بعض الخلفاء قد تمكنوا من التحكم في هذا الصراع، فإن العديد منهم مالوا إلى أحد الطرفين فغلبوا مجموعة قَبَليّة على أخرى. وتقدم المصادر معلومات كثيرة عن التعصب القَبَلي لبعض الخلفاء وولاتهم.

ولم يكن اعتماد الدولة على إحدى القبائل يقتصر على إغداق الأموال على أبنائها أو توليتهم المناصب، بل كذلك تمكين الموظفين الجُدد من محاسبة من سبقهم مع ما يصحب

(١) انظر تفاصيل هذا الصراع في: تاريخ الطبري، ج٥، ص٥٤٦ ـ ٥٤٨.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٨٣.

(٣) تاريخ الطبري، ج٦، ص١٩٩ ـ ٢٠٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٨٦.

ذلك من تجاوزات خطيرة. وتزخر المصادر بالروايات التي تصف هذه الأعمال خاصةً في خلافة ابنَيْ عبد الملك: سليمان وهشام[١].

ومن الطبيعي أن تخلق هذه السياسة خلافات وأحقاداً بين القبائل خصوصاً في وسط حافظت فيه العلاقات القَبَليّة على متانتها بحكم المحافظة على تنظيم الأخماس الذي يأخذ بعين الاعتبار قرابة القبائل سكناً ونسباً. ولم يُبقِ هذا التنظيم على متانة الروابط القبلية فحسب، بل كان على ما يبدو أحد أسباب العصبية. وقد أدرك عرب خراسان ذلك إذ أكدوا للوالي أسد القسري لمّا أراد أن ينزل العرب في بلخ على الأخماس: «إنهم يتعصبون»، فخلط بينهم[٢].

ومن خلال ما تقدم يمكن القول إن العصبية التي كانت أحد أسباب التوتر في خراسان نتجت عن عدة عوامل، لعل أهمها سياسة الدولة في هذا الإقليم وما انجرّ عنها من تضارب في مصالح القبائل. لذلك يصعب ربطها بالعداوات القَبَليّة القديمة كما يرى بعض المؤرِّخين وخصوصاً فلهوزن[٣].

وقد ركّز محمد عبد الحيّ شعبان على هذه المسألة وانتقد كل الذين نظروا إلى تاريخ العرب في تلك الفترة من وجهة نظر العصبيات القَبَلية وحدها[٤]. وأكد في المقابل على التحولات التي عرفها إقليم خراسان خلال الحكم الأموي والمرتبطة بطبيعة الاستقرار العربي وعلاقة الفاتحين بالسكان المحليين، معتبراً أنها تفسِّر أكثر من غيرها التوتر الذي ساد هذا الإقليم وأدى إلى اندلاع الصراع فيه في أواخر الحكم الأموي.

كانت بداية هذه التحولات إبّان الفتنة الثانية لما اضطربت الأوضاع في كامل أنحاء الإمبراطورية وساد خراسان صراعٌ بين أبناء تميم وبكر. فقد لزم بعض العرب في تلك الفترة الحياد، وبدأت مجموعة منهم تهتم ببعض الأنشطة الاقتصادية[٥]، مستغلّة توقف الفتوحات لمدة تزيد عن أربع عشرة سنة. وتوجد في الروايات إشارات إلى شروع بعض العرب في استغلال الأرض[٦]، واستقرار العديد منهم في مرو والقرى المحيطة بها حتى إن بعضها

(١) تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٠٦، ج٧، ص٤٧ ـ ٤٩، ٦٩؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٣؛ ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، تحقيق نعيم زرزور، بيروت، ١٩٨٦، ج٧ ـ ٨، ص١١٣، ١٥١، ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٤١.

(٣) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص٤٧٤.

(٤) شعبان، الثورة العباسية، ص١٠٥.

(٥) شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٩٣؛ BOSWORTH (C.E), «Marw-Al-Shahidjan», In: *E.I.2*, Paris, 1991, T. VI, p. 605.

(٦) ينقل الطبري رواية تؤكد اهتمام العرب باستغلال الأرض يذكر فيها «أن التميميين تذمّروا من الوالي =

صارت تُنسب إلى قبائل عربية مثل خزاعة وطيء[1].

إذا كانت هذه التحوّلات في البداية محدودة، فإن تواصلها على امتداد الفترة المتبقية من القرن الأول هجري جعل نتائجها تظهر منذ بداية القرن الثاني حيث صار العديد من العرب يتلكؤون في الالتحاق بالحملات العسكرية[2] لانشغالهم بأعمالهم. واضطر هشام بن عبد الملك إلى قبول هذا الواقع، فقرر الاستغناء عن قسم من المقاتلة العرب وتعويضهم بمقاتلة جدد بلغ عددهم عشرين ألفاً من البصرة والكوفة[3]، كما ازداد الاعتماد على الأعاجم في القتال.

كذلك ساعدت هذه التحوّلات على اختلاط العرب بالسكان الأصليين، وظهرت نتيجة لذلك أجيال جديدة من العرب تأثرت بالحضارة الفارسية[4] وقوي لديها الشعور الخراساني الإقليمي. لكن هذه التطورات لم يواكبها تغيير في البنى السياسية والاجتماعية في خراسان، فقد حافظ العرب على الإدارة المحلية وواصل الدهاقون مهمتهم في فرض الضرائب وجمعها، وحرصوا على منع كل تغيير يُفقدهم الامتيازات التي يتمتعون بها. ويذكر شعبان أن العرب الذين كانوا يمارسون أنشطة فلاحية أو تجارية لم يكونوا راضين عن هذا الوضع لأنه يثقل كاهلهم بالخراج ويجعلهم خاضعين للدهاقين مثل الأعاجم. وأكد أن ذلك كان أحد أسباب سخطهم على الأمويين[5].

ولم يكن بقية العرب بدورهم راضين كل الرضا عن الوضع، ويظهر ذلك من خلال رفضهم المتواصل نقل مداخيل إقليمهم إلى مركز الخلافة وإصرارهم على توزيعها في خراسان[6]. ولعل إحساس العرب بأهمية دورهم في توسيع حدود الإمبراطورية وخصوصاً في حمايتها من الأخطار الخارجية قد جعلهم أكثر حزماً في مسألة المداخيل[7].

ورغم أن هشام بن عبد الملك قد حاول إزالة بعض أسباب التذمر في خراسان

= أمية بن عبد الله بن أسيد لاشتداده عليهم في الخراج»، وهو ضريبة لا يدفعها العرب إلا إذا كانوا يتعاطون أنشطة غير عسكرية: تاريخ الطبري، ج٦، ص٣١٦.

(١) تاريخ الطبري، ج٦، ص٣١٤؛ شعبان، الثورة العباسية، ص٩٥ ـ ٩٦؛ فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠، ص١٧٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٠ ـ ٣٣.

(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٧٩؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٠٣.

(٤) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص١٧٤.

(٥) شعبان، الثورة العباسية، ص٢١٢.

(٦) ابن الأعثم، الفتوح، مج٨ ـ ٧، ص٢٢٠ ـ ٢٢١؛ تاريخ الطبري، ج٧، ص١٧ ـ ٢٠؛ شعبان، الثورة العباسية، ص١٤٨ ـ ١٥٠.

(٧) شعبان، الثورة العباسية، ص٨٢.

بتطوير المجتمع من خلال إدخال بعض التجديد على الإدارة المحلية وعلى ميدان الضرائب بالخصوص[١]، فإنّ إجراءاته لم تُدخل تغييرات جذرية على الوضع ولم تنجح بالتالي في كسب ولاء الغاضبين من العرب[٢]. كما زادت سياسة هذا الخليفة القيسية النزعة في إغضاب قسم كبير من عرب خراسان خاصة من اليمنية، وبذلك ارتفع عدد الناقمين على الحكم الأموي في أواخر خلافة هشام وإنْ كان لكل مجموعة أسبابها الخاصة لذلك.

ولم يكن المعارضون من العرب فحسب، بل ومن السكان المحليين كذلك الذين لم تتغير أوضاعهم كثيراً بعد الفتح العربي. فالإبقاء على الإدارة المحلية قد جعلهم خاضعين للدهاقين يدفعون الجزية والخراج. ولم يكن اعتناق الإسلام فرصة لتحسين أوضاعهم المادية أو الاجتماعية، لذلك ظل عدد الداخلين في الدين الجديد محدوداً إلى نهاية القرن الأول هجري. ولم تكن الدولة بدورها حريصة على نشر الإسلام وسط السكان ولا ترغب في اندماجهم مع العرب، ولعل من أسباب هذه السياسة رغبة الأمويين في المحافظة على الطابع العربي للدولة وخاصة على المداخيل التي ضبطتها معاهدات الصلح مع الحكّام المحليين. وكان الدهاقون بدورهم يُعارضون الدخول المكثّف للأعاجم في الإسلام لأنه يُنقص من المداخيل التي يدفعونها للدولة ويحدّ من تلاعبهم بأموال الجباية.

وقد كانت الضرائب السبب الرئيسي لتذمر الأعاجم خصوصاً الموالي الذين كانوا يشتكون من دفع الجزية رغم إسلامهم ومن سوء تصرفات الدهاقين وكثرة تلاعبهم في فرض هذه الضريبة[٣]. أمّا أهل الذمّة، فلم تصدر عنهم شكاوى كثيرة من ضريبة الخراج لكن المجندين منهم في الجيش الذين ارتفع عددهم تدريجيًا منذ ولاية قُتيبة بن مسلم (٨٦ - ٩٦هـ)[٤] صاروا يتذمرون من حرمانهم من العطاء والأرزاق في وقت تسخرهم فيه الدولة للقتال عدة أشهر في السنة[٥].

وقد حاول عمر بن عبد العزيز إصلاح هذا الوضع بالمساواة في العطاء وإعفاء من أسلم من الجزية[٦]. لكن الوضع لم يتغير كثيراً بعده إذ ظهر عند تطبيق الإجراءات الجبائية التي اتخذها نصر بن سيّار سنة ١٢١هـ أن «ثلاثين ألف مسلم كانوا يؤدّون الجزية عن رؤوسهم»[٧].

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٢١ - ١٧٣.

(٢) BOSWORTH (C.E), *Op. cit.*, p. 605.

(٣) عبد العزيز الدوري، «نظام الضرائب في خراسان في صدر الإسلام»، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ١١، ص٨٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج٦، ص٤٧٧ - ٤٧٣.

(٥) انظر ما قاله وفد خراسان لعمر بن عبد العزيز: تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٥٩.

(٦) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٥٩.

(٧) المصدر نفسه، ج٦، ص١٧٣.

وقد كانت التجاوزات الجبائية سبباً في تعدّد تشكّيات الخراسانيين وفي انتفاضة سكان أقاليم ما وراء النهر في ولاية الأشرس بن عبد الله سنة ١١٠هـ[١]. كما استغلّها الحارث بن سريج زعيم المرجئة في حملته ضد الحكم الأموي[٢].

يُبيّن هذا العرض للوضع في خراسان أن التوتر قد بلغ أشدّه في أواخر الحكم الأموي، وأن أطرافاً عديدة كانت تتحيّن الفرصة للتخلّص من هذا الحكم. وقد سنح لها ذلك بوقوع البيت الأموي في أزمةٍ بعد مقتل الوليد بن يزيد.

بدأت الفتنة في خراسان منذ الأشهر الأولى التي تلت مقتل الوليد، وكان المتزعم لها الجديع بن عليّ الكرماني الذي جمع العديد من المعارضين للحكم الأموي خاصة من أبناء قبيلته من الأزد وحلفائهم من بكر بن وائل. وبدأ الجديع بهذه المجموعة التي يُطلق عليها الرواة اسم «اليمنية» يحارب الوالي نصر بن سيّار الذي جمع بدوره المؤيدين للحكم الأموي وخاصة من أبناء قيس وتميم، واتخذ الصراع منعرجاً جديداً بدخول أطراف أخرى منها الخوارج بقيادة شيبان بن سلمة.

*** دور شيبان بن سلمة في صراع خراسان:**

يلاحظ المتتبع للصراع الذي شهدته خراسان في أواخر الحكم الأموي أنّه مرّ بمرحلتين: تميّزت **الأولى** بوجود طرفين أساسيين هما الوالي نصر بن سيار وأتباعه وزعيم اليمنية الجديع بن علي الكرماني، في حين تميّزت **الثانية** بدخول حلبة الصراع طرف جديد هو أبو مسلم الخراساني. كما ساهمت في هذا الصراع أطراف ثانوية كان لها تأثير على مساره، وهي مجموعة الحارث بن سريج المنسوبة إلى المرجئة، ومجموعة شيبان بن سلمة المنسوبة إلى الخوارج.

ولئن أعطى بعض الدّارسين أهمية لتحركات الحارث بن سريج ودوره في الصراع، فإن شيبان بن سلمة لم يلقَ عناية كافية إذْ أهملت ذكره أغلب الدراسات واكتفى عدد قليل منها بالإشارة إلى وجوده وذكر بعض تحركاته[٣]. ويعود عدم الاهتمام بشيبان ومن معه إلى قلّة المعلومات عنهم في المصادر. فباستثناء ما نجده في المصنّف المعروف بـ **أخبار الدولة العباسية**[٤]، لا نكاد نجد في مصادر البحث الأساسية معلومات مفيدة عنه. وحتى الطبري

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٥٤ ـ ٥٥.

(٢) MADELUNG (W), «Murdjia», In: *L'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, Paris, 1991, T. VII, p. 605.

(٣) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص١٨٢ ـ ١٨٥؛ شعبان، الثورة العباسية، ص٢٥١ ـ ٢٥٣؛ حسين عطوان، الدعوة العباسية: تاريخ وتطور، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٤) مؤلّف من القرن الثالث هجري، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز =

الذي تتبّع بدقة تاريخ خراسان، فإنّه لا يذكر عن شيبان ومن معه سوى معلومات مقتضبة ومضطربة في أغلب الأحيان يصعب من خلالها التتبع الدقيق لتحرّكات شيبان والمنضمين إليه في هذا الصراع، وخصوصاً فهم المواقف التي اتخذوها. كما أن اعتماد الطبري على راوٍ واحدٍ هو المدائني يجعل إمكانية مقارنة الروايات صعباً، خصوصاً وأن مؤلف أخبار الدولة العباسية لا يذكر أسانيد رواياته.

ورغم قلّة المادة وعدم دقتها، فقد رأينا من الضروري استغلالها لتتبع تحركات شيبان خلال هذا الصراع وتسليط الضوء على مواقفه للتعرف على حقيقة هذا الخارجي وعلى تركيبة المجموعة التي انضمت إليه واشتركت معه في هذا الصراع، وخاصةً تحديد صلتهم جميعاً بالمذهب الخارجي.

يرد ذكر شيبان بن سلمة الحروري لأول مرة في أخبار خراسان في سنة ١٢٩هـ، أي بعد أشهر عديدة من اندلاع الصراع في ذلك الإقليم. وقد تزامن ظهوره المفاجىء مع ظهور أبي مسلم الخراساني وبداية نشاطه العلني. فقد جاء في رواية المدائني قوله: «إنّ أبا مسلم قدم مرو ونزل في قرية من قرى خزاعة يُقال لها سفيذنج وشيبان والكرماني يقاتلان نصراً»[1]. وإذا كانت الرواية لا تحمل تفاصيل يُمكن من خلالها التعرّف على هوية شيبان أو زمن وظروف دخوله الصراع إلى جانب عليّ بن جديع الكرماني، فإن رواية أخرى ينقلها ابن خياط يُمكن أن توضّح ما نقله الطبري. إذ يذكر فيها أنه بعد هزيمة الجديع بن عليّ الكرماني أمام نصر بن سيّار ومقتله، «لحق ابنه عليّ بن الجديع وربيعة والأسد بسرخس، فلحقوا بشيبان بن سلمة رجل من بني سدوس حروري، قد غلب على سرخس وطوس وناحية ابرشهر فبايعوه وصاروا معه»[2].

ويبدو من خلال الرواية أن عليّ بن الجديع هو الذي أقحم شيبان في الصراع الرئيسي بعد أن كان بعيداً عن مرو مكتفيًا بالسيطرة على بعض المناطق. ولكن هذه النقلة لم تفقد شيبان على ما يبدو دوره القيادي، فقد بايعه ابن الكرماني وصار مع أتباعه من الأزد وربيعة تحت إمرته[3] وخاطبوه بـ«أمير المؤمنين»[4].

أما شروط الاتفاق بين عليّ بن الجديع وشيبان وأهدافه، فلا تذكرها الرواية ومع ذلك يمكن فهم غاية كل طرف. فابن الجديع الذي فقد على ما يبدو بسبب هزيمة والده ومقتله

= الدوري وعبد الجبار المطلبي، ط١، بيروت، ١٩٧١؛ ط٢، ١٩٩٧.

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٥٥.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤١٠.

(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٨٣؛ مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٨.

القدرة على مواجهة نصر بن سيّار بمن تبقى معه من الأنصار، رأى في انضمامه إلى شيبان دعماً لصفوفه بهذه المجموعة التي تشترك معه في العداء للأمويين. في حين وجد شيبان في انضمام ابن الجديع ومن معه إلى صفوفه فرصةً لدخول مرو ولعب دور في الصراع يمكن أن يكون مفيداً له ولأصحابه. ولعل ما يؤكد هذا الافتراض انتقال شيبان إلى مرو مباشرة بعد حصوله على بيعة ابن الجديع[1]. وكان وصول ابن الكرماني بصحبة شيبان إلى مرو قد تزامن ـ كما ذكرنا سابقاً ـ مع بروز أبي مسلم الخراساني، قائد الحركة الشيعية، على الساحة السياسية. وبذلك دخل الصراع مرحلة جديدة تعددت فيها الأطراف وتغيّرت فيها المعطيات.

أخذ التحرك في خراسان نسقاً أكثر سرعة في تلك المرحلة، وبدأت مختلف الأطراف مناوراتها الدبلوماسية لكسب مزيد من الأنصار وإضعاف الأطراف الأخرى. وإذا كانت المصادر تقدم تفاصيل كثيرة عن تحركات مختلف الأطراف، فإنها تركّز بصورة خاصة على أبي مسلم الخراساني ونصر بن سيّار، في حين تبدو تحركات ابن الجديع وشيبان محدودة تكاد تقتصر على ردود الزعيمين على المقترحات التي ما انفك يتقدم بها إليهما كل من ابن سيّار وأبي مسلم الخراساني.

ولا تكتفي المصادر بإظهار غياب المبادرات في صفوف هذه المجموعة، بل تبرز كذلك ضعف شيبان وتذبذب مواقفه وعدم قدرته على التحرك واتخاذ القرارات الحاسمة، وتجعله في أغلب الأحيان منقاداً إلى ابن الجديع أو ضحيّة لمؤامراته[2]. حتى إن المتتبع لتحركاته يقتنع بأن قتله في نهاية الصراع على يديّ أبي مسلم كان نتيجة حتمية لضعفه وفقدانه للتجربة والحنكة السياسية، لا بل يحمّله بعض المسؤولية في هزيمة نصر وانتصار الشيعة.

غير أن هذه الصورة السلبية التي تقدمها المصادر عن شيبان يصعب قبولها بسهولة. ويتطلّب البحث عن مدى صحتها تتبع الأحداث وربطها بواقع المجموعة التي يترأسها شيبان من جهة وعلاقتها ببقية أطراف الصراع وميزان القوى من جهة أخرى.

إن مما لا شك فيه أن الحلف الذي كوّنه شيبان مع ابن الجديع لم يكن قويًا ومنسجماً لأنه يضمّ زعيمين لا يجمع بينهما سوى العداء لبني أمية. وهذا التحالف كان من الممكن أن ينجح لو اقتصر الصراع على عدوُهما المشترك عامل بني أمية نصر بن سيّار، لكن ظهور مجموعة جديدة معادية لطرفَيْ الصراع غيَّر الوضع كليًا.

وقد أدرك كل من أبي مسلم ونصر ضعف التحالف بين ابن الجديع وشيبان وحاول

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.
(٢) مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥، ٢٩٨ ـ ٢٩٩، ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

كل منهما استغلاله لصالحه. فأما أبو مسلم فقد حرص - في إطار خطته الرامية إلى إضعاف أعدائه من دون قتال - على موادعة ابن الجديع فحالفه واعترف له بالزعامة لكن عمل في الوقت نفسه على إبعاده عن نصر بإذكاء العداوة بينهما. وقد حقّق هدفه هذا لكن ذلك لا يعود إلى انخداع زعيم اليمنية بوعوده الكاذبة كما يذكر الرواة وإنما لما كان يظهره نصر بن سيّار من تصلّب في مواقفه. فهو لم يقبل التخلّي عن مركزه كممثل للسلطة الأموية وربط كل نظر في مطالب ابن الجديع بالقضاء على أبي مسلم(١)، وهو ما لم يعد يقبله زعيم اليمنية بعد أن عزّز صفوفه بشيبان ومن معه وظهر عدو جديد يهدد خصمه نصر بن سيّار.

أما شيبان، فلم يكن أبو مسلم في البداية حريصاً على جلبه إلى صفوفه، وقد يعود ذلك إلى اقتناعه بقوة ابن الجديع وقدرته على التأثير على شيبان، كما قد يعود إلى رفضه المبدئي التعامل مع الخوارج بالنظر للعداوات القائمة بين التيارين الشيعي والخارجي. إلا أن هذا الموقف لم يمنع أبا مسلم من العمل على إفشال كل محاولات التقارب بين شيبان ونصر بن سيّار(٢).

ويبدو نصر بدوره حريصاً على مهادنة ابن الجديع لاقتناعه بخطورة تحالفه مع أبي مسلم. لكن موقف الرفض الذي اتخذه زعيم اليمنية دفعه إلى محاولة استمالة شيبان. ويذكر بعض الرواة أن أصحاب نصر هم الذين حرصوا على جلب شيبان إلى صفوفهم(٣).

وقد نجح نصر في إبرام هدنة مع شيبان(٤)، لكن الرواة يختلفون في تحديد ظروفها وملابساتها. فالمدائني يؤكد أنها كانت نتيجة لما أظهره شيبان من استعداد كلّي لقبول دعوة نصر له للموادعة، ويذهب إلى حد القول إنه راسل نصراً لهذا الغرض(٥). في حين يؤكد مؤلّف **أخبار الدولة العباسية** رفض ابن سلمة كل تقارب مع نصر، ويجعل توقيع الهدنة نتيجة ضغط سُلّط عليه من قبل أحد الزعماء المنضمين إلى صفوفه وهو عليّ بن معقل الحنفي الذي كان معه خمسة وعشرون ألف رجل. وقد وصف شيبان هذا الضغط لابن الجديع بقوله: «إنّ عليّ بن معقل أقوى أيدينا، وإن خذلنا وصار مع نصر اشتدت شوكته»(٦). ولئن لم يركّز المدائني على هذه المسألة، فإنه يشير إلى أن يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني، أحد زعماء بكر البارزين في خراسان وفي مجموعة ابن الكرماني، قد نصح ابن الجديع

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦٤؛ مؤلّف مجهول، **أخبار الدولة العباسية**، ص٢٨٩ - ٢٩٤.
(٢) مؤلّف مجهول، **أخبار الدولة العباسية**، ص٢٩٧ - ٢٩٨؛ تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦٤.
(٣) مؤلّف مجهول، **أخبار الدولة العباسية**، ص٢٩٤.
(٤) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦٥؛ مؤلّف مجهول، **أخبار الدولة العباسية**، ص٢٩٥.
(٥) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦٤.
(٦) مؤلّف مجهول، **أخبار الدولة العباسية**، ص٣٩٥ - ٣٩٦.

وشيبان بضرورة الانضمام إلى نصر بن سيّار لمحاربة الشيعة[١]. ورغم هذا الاختلاف بين الروايات، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن قبول شيبان إبرام هدنة مع نصر جاء رضوخاً لرغبة عناصر من مجموعته كانت رافضة لمواصلة الصراع ضد نصر وتريد فسح المجال أمامه لمحاربة أبي مسلم الخراساني. كما يختلف الرّواة في تحديد موقف ابن الجديع من الهدنة مع نصر، فالمدائني لا يذكر عنه شيئاً، لكنه يشير في الرواية نفسها إلى انسحابه مباشرة بعد توقيع الهدنة[٢]. وهذا دليل على وجوده مع شيبان في البداية.

أما صاحب **أخبار الدولة العباسية** فيؤكد قبول عليّ بن الجديع الهدنة بعد أن قبل نصر بن سيّار شرطه المتمثّل في تفريق الطرفين جموعهما، وهو ما كان أشار به عليه أبو مسلم الخراساني. ويجعل صاحب الرواية الهدنة سبباً في انقلاب الوضع لصالح الشيعة، إذ «سهّلت السبيل لمن أراد اللحوق بأبي مسلم. فانجفل الناس إليه، وجعل عليّ يمده بالرجال ويقويه بالسلاح حتى غلظ أمره»[٣]. الأمر الذي دفع نصراً وأصحابه إلى السعي إلى تمتين العلاقة مع شيبان والعمل على جلبه إلى صفوفهم، فقد «اجتمع رأيهم على الاحتيال لشيبان واحتراز معونته بكل وجه»[٤]. وقد نجح نصر بن سيّار في إقناع شيبان وأصحابه بالانضمام إليه في حرب أبي مسلم، لكن ابن الجديع تمكن من إفشال التحالف بتثبيط الأزد وربيعة عن الخروج مع شيبان، وخاصة بافتعال رسائل على لسان نصر تدعو أصحاب شيبان للوثوب عليه[٥].

وبهذه الأحداث أخذ الصراع منعرجاً جديداً، فقد صار ابن الجديع أكثر قوة بمساندة أبي مسلم له، وصار زعيم الشيعة بدوره أكثر حرصاً على التقرب من شيبان لمنع أي تقارب بينه وبين نصر. ولئن يؤكد الرواة أن ابن الجديع هو الذي نصح أبا مسلم بالتقرب من شيبان والترفق به[٦]، فالأكيد أن زعيم الشيعة قد أدرك بدوره ما يمثّله انضمام شيبان ومن معه من دعم لنصر بن سيّار في وقت يسعى فيه جاهداً إلى إضعافه. ولذلك تقرّب أبو مسلم من شيبان، فزاره في عسكره وسلّم عليه بالخلافة[٧]، لكنّه حرص في الوقت نفسه على إبعاده عن مرو تمهيداً للتخلّص منه في المرحلة اللاحقة. ويؤكد كل الرواة أن شيبان انسحب من مرو إلى سرخس قبل نهاية الصراع، لكن المدائني يجعل انسحابه نتيجة إدراكه خطورة بقائه

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦٥.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٦٥.
(٣) مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٠٢ ـ ٣٠٨.
(٧) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٨٣؛ مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٨.

في مرو بعد انضمام ابن الجديع إلى أبي مسلم ومفارقته له[1]. في حين يتحدث صاحب مؤلّف أخبار الدولة العباسية عن مؤامرة حاكها أبو مسلم ونفّذها ابن الجديع[2]. أما قول شعبان إن شيبان خرج بأمر من ابن الجديع الذي عيّنه عاملاً له على سرخس، فلم نجد في المصادر ما يؤيده[3]. وبقطع النظر عن مدى صحة هذه الروايات، فإن مما لا شك فيه أن لأبي مسلم ضلعاً في انسحاب شيبان من مرو، لا لأنه المستفيد الوحيد من هذه العملية فحسب بل لأنها تتماشى مع خطته القاضية بإضعاف أعدائه وخاصةً نصر بن سيّار لتسهيل القضاء عليهم، وهو ما أكّدته الأحداث اللاحقة.

يُمكن من خلال ما تقدّم القول إن شيبان بن سلمة الحروري بقبوله بيعة ابن الجديع الكرماني وانتقاله إلى مرو صار طرفاً في الصّراع. لكن عند دخوله تغيّرت الأوضاع بظهور أبي مسلم الخراساني. وقد انعكس هذا التغيير على وضع شيبان، فقد صار غير قادر على التحكم في الأطراف المكوّنة للتحالف الذي يقوده، إذ ظهر تباين واضح بين مجموعتين يقود إحداهما ابن الجديع وتضم عناصر من أنصاره ولا سيما من الأزد، وهي التي واصلت تحركاتها ومناوراتها باستقلالية عن شيبان واختار زعيمها التقارب مع أبي مسلم بانتظار التخلص من نصر بن سيّار، في حين تتكون الثانية على ما يبدو من بكريين فضلوا مهادنة ابن سيار لتمكينه من القضاء على أبي مسلم وأصحابه. والظاهر أن هذه المجموعة فضّلت قيادة شيبان على قيادة ابن الكرماني، ولكنها حاولت في الوقت نفسه دفعه إلى تبنّي مواقفها. وقد نجحت في البداية في إقناعه بإبرام هدنة مع نصر رغم عدائه الشديد له لكن ابن الجديع أفشلها، وهو ما سهّل على الشيعة إضعاف الطرفين قبل التخلّص منهما.

إنّ هذا التأرجح في مواقف شيبان قد يعود إلى ضعفه ومحدودية خبرته في الميدان السياسي وافتقاره إلى الدهاء. ولكن عدم امتلاكه لقاعدة قوية يستند عليها وتُمكنُه من فرض مواقفه على المتحالفين معه يبقى العامل الأساسي لهذا التأرجح. ولذلك تحوّل إلى أداة طيّعة في يدي مجموعتين تقودهما أطماع شخصية ومصالح قَبَليّة، وقبل بالتالي التقارب مع أطراف بينها وبين الخوارج عداءٌ عميق.

وتطرح مواقف شيبان خلال هذا الصراع مسألة أساسية، وهي مدى التزام هذا الخارجي بمبادىء الحركة، وخاصة موقف المشاركين معه في الانتفاضة من أعماله ومما أبرمه أثناء الصراع من تحالفات.

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٨٥.

(٢) مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٣) شعبان، الثورة العباسية، ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

* علاقة شيبان والمنتفضين في خراسان بالمذهب الخارجي:

لا تمثِّل دراسة علاقة المشاركين في انتفاضة خراسان بالمذهب الخارجي بحثاً في حقيقة انتمائهم إلى هذا المذهب لأن المسألة محسومة في المصادر وأكّدها كل الرواة. وإنما هي بحث في العلاقة التي تربطهم بالمذهب الخارجي على مستوى الفكر والممارسة، أي بعبارة أخرى النظر في مدى ارتباطهم بالمبادىء الخارجية ومدى التزامهم بتطبيقها.

ولئن تبدو هذه المسألة صعبة بالنسبة للمشاركين في الانتفاضة نظراً لقلة ما ينقله الرواة عنهم من مواقف وما ينسبون إليهم من أعمال، فإنه يمكن من خلال تتبع مواقف شيبان وأعماله أثناء الانتفاضة وردّ فعل أصحابه إزاء هذه المواقف الوقوف على طبيعة هذه العلاقة.

يستدعي البحث في علاقة شيبان بالمذهب الخارجي التعريف بهذا الزعيم وتسليط الضوء على بعض الجوانب التي يُمكن أن تساعدنا في فهم مواقفه وأعماله. لكن ما نجده في المصادر عنه لا يتعدى اسمه وانتماءه المذهبي. ولعل ابن خياط الوحيد الذي ذكر انتماءه القبلي إذ أكد أنه من بني سدوس[(١)] من بكر بن وائل[(٢)].

وقد كانت قلّة المعلومات سبباً في اختلاف المؤرِّخين. ففلهوزن ذهب إلى القول إنه من خوارج خراسان، أمّا فاروق عمر فقد أكد أنه من «أتباع الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي الذي ثار في العراق في بداية الفتنة الثالثة، فلما فشلت ثورته انضم إلى عبد الله بن معاوية ثم عاد فهرب إلى خراسان مع أتباعه بعد فشل ثورة عبد الله الجعفري»[(٣)]. وقد أيّد محمد عبد الحيّ شعبان ما ذهب إليه فاروق عمر مضيفاً أن شيباناً كان قائد فلول جيش ابن معاوية[(٤)]. ويميل حسين عطوان إلى هذا الرأي على ما يبدو، لكن الروايات التي ينقلها تظهر خلطه الواضح بين شيبان بن سلمة الحروري وشيبان بن عبد العزيز اليشكري، قائد فلول خوارج الجزيرة الفراتية الذين انهزموا أمام جيوش مروان بن محمد وانتقلوا إلى فارس وكرمان قبل أن يتشتّتوا.

وباستثناء ما ذكره حسين عطوان، فإنّ ما ذهب إليه بقيّة المؤرِّخين يبدو رغم اختلافه مقبولاً لعدم وجود ما يؤكّده أو ينفيه في كُتُب التاريخ العام. غير أنّه مع ذلك يصعب قبول ما ذهب إليه فاروق عمر وشعبان، لأن تتبّع انتفاضة الضحّاك في مراحلها الأخيرة يجعلنا

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.

(٢) ينسب حسين عطوان شيبان بن سلمة إلى بني يشكر، ولكنه لا يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تحديد الانتماء القَبَلي لشيبان. انظر له: الدعوة العباسية: تاريخ وتطوّر، ص٢٧٩.

(٣) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص١٨٢.

(٤) شعبان، الثورة العباسية، ص٢٥١.

نستبعد انتماء شيبان بن سلمة إليها. فالمشاركون في هذه الانتفاضة ـ وأغلبهم من خوارج الجزيرة الفراتية ـ فروا بعد هزيمتهم إلى بلاد فارس يقودهم شيبان اليشكري. ولا يذكر أغلب الرواة التحاقهم بعبد الله بن معاوية في اصطخر[1]، ويؤكد بعضهم انسحاب شيبان اليشكري إلى جزيرة ابن كاوان ثم إلى عُمان حيث قتله الجلندي بن مسعود الأزدي[2]. كما أنه يصعب قبول ما ذهب إليه فاروق عمر ومحمد عبد الحيّ شعبان، لأن أصحاب شيبان اليشكري يُنسبون إلى الصفرية في حين ينسب أصحاب شيبان بن سلمة إلى الثعالبة.

وحتى إذا افترضنا أن بعض أصحاب شيبان اليشكري، ومنهم ابن سلمة، قد بقوا مع ابن معاوية بعد خروج قائدهم إلى عُمان، فإنه من المستبعد أن يكون عددهم مرتفعاً كما يذكر رواة عديدون. كما أن ربط الأحداث بالتواريخ الواردة في المصادر يجعل ما ذهب إليه فاروق عمر ومحمد عبد الحيّ شعبان غير مقبول، لأن جلّ المصادر تذكر أن شيبان بن سلمة دخل الصراع في مرو في رمضان سنة ١٢٩هـ مع ظهور دعوة أبي مسلم. وفي هذا التاريخ كان أصحاب شيبان اليشكري ما برحوا يحاربون جيوش مروان بن محمد في العراق والجزيرة[3]. وحتى إذا افترضنا عدم دقة التواريخ الخاصة بانتفاضة الجزيرة، فإن ربط قدوم شيبان بن سلمة وأصحابه بهزيمة ابن معاوية وتشتّت أتباعه مُستبعد، لأن فلول هذا الثائر لم تصل قبل سنة ١٣٠هـ، أي في وقت كان فيه شيبان بن سلمة قد سيطر على المناطق التي ذكرناها سابقاً وشارك في الصراع إلى جانب ابن الجديع.

أما ما ذكره فلهوزن، فيبدو الأقرب إلى الصحة إذا اعتمدنا ما تنقله كُتُب الفرق والمقالات لأنها تنسب شيبان بن سلمة إلى مجموعة تُسمّى «الثعالبة»، وهي متفرعة عن تيار خارجي يُعرف بالعجاردة نسبةً إلى زعيمه عبد الكريم بن عجرد الذي يوجد أتباعه في الأقاليم الشرقية للإمبراطورية وخاصة في خراسان[4]. وتدعم هذه الروايات إشارات متفرقة إلى وجود خوارج في الأقاليم الشرقية مثل كرمان وسجستان وخراسان[5].

إلا أن قبول فرضية انتماء شيبان وأصحابه إلى خوارج خراسان أو المناطق القريبة منه

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤٠٩؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣٣٩؛ تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٥١ ـ ٣٥٣.

(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص٩٣ ـ ٩٥؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٣، ٦٥ ـ ٦٦.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، ١٩٠٦، ص٣٠٥ ـ ٣٢٣؛ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص٣٥٣؛ الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص١٢٨.

يطرح إشكالاً آخر حول علاقة شيبان بن سلمة بخوارج البصرة الذين يذكر ابن خياط وجود مجموعة منهم إلى جانبه[١]. وإذا كان حلّ هذا الإشكال غير ممكن لغياب المعلومات، فإننا لا نستبعد وجود علاقة بين الخوارجَ في المنطقتين. فالبصرة التي صارت منذ بداية الحكم الأموي المركز الرئيسي للخوارج، تحوّلت منذ الفتنة الثانية وتوقف النشاط العسكري فيها إلى قاعدة أيديولوجية لهم يستقرّ فيها علماؤهم وزعماء العديد من فرقهم ويقيم هؤلاء علاقات مع بعض الخوارج المنتشرين في أنحاء عديدة من الإمبراطورية إمّا في إطار تنظيم سياسي ـ ديني مثل الإباضية، أو في إطار علاقات فكرية ـ دينية. وقد تكون هذه العلاقة هي التي دفعت بعض خوارج البصرة إلى الالتحاق بصفوف شيبان بن سلمة للمشاركة معه كما التحقت عناصر من الإباضيّة بعبد الله بن يحيى في اليمن[٢].

أما مسألة ارتباط شيبان بالفكر الخارجي، فيمكن التعرّف عليها من خلال ما يُنسب إليه من مواقف وأعمال. وبما أننا لا نملك من أخباره إلاّ ما يخصّ فترة الصراع، فإننا سنقتصر على هذه المرحلة رغم يقيننا بأن ما صدر عن شيبان خلالها من أقوال وما اتخذه من مواقف لا يعكس حقيقته كاملةً.

يبدو من خلال التتبع الدقيق للروايات أن ما صدر عن هذا الزعيم من أقوال قليل جداً، ولا يوجد فيه ما يشير من بعيد أو قريب إلى ارتباطه بمبادىء الحركة الخارجية وشعاراتها. ولعلّ الإشارة الوحيدة التي تُظهر هذا الارتباط هي تلك التي وردت على لسان أبي مسلم الخراساني التي يبرّر فيها استحالة الاتفاق مع هذا الخارجي حيث يقول: «إن أصل شيبان وما يدين به البراءة من عليّ بن أبي طالب»[٣]. كما لا يظهر من خلال الروايات ما يشير إلى تمسّك شيبان بمبادىء الثعالبة التي ينسبها مؤلفو كُتُب الفرق إليها[٤].

وعموماً، فإن المتتبع لأخبار الصراع في خراسان يبدو له شيبان كسائر المعارضين للحكم الأموي. ويترسخ هذا الاعتقاد إذا نظرنا إلى الأسلوب الذي اعتمده في التعامل مع مختلف الأطراف في هذا الصراع. فقد هادن الأمويين والشيعة أعداء الخوارج، ودخل في تحالفات سياسية مع أطراف تقودها مصالح وأطماع شخصية أو قَبَليّة.

ويختلف شيبان باعتماده هذا الأسلوب عن الخوارج الأوائل. فهؤلاء كانوا يرفضون مبدئيًا الدخول في تحالفات مع المخالفين لهم، ويشترطون على من ينضم إلى صفوفهم أن

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.

(٢) الاصفهاني، الأغاني، ج٢٣، ص١١٢؛ الشماخي، كتاب السّير، ص٩٨.

(٣) مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٨.

(٤) انظر مبادىء الثعالبة في: الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص٩٧؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٨.

يتبنّى مبادئهم ويلتزم بالدفاع عنها. ولئن بدأ هذا الوضع يتغير في أواخر الحكم الأموي إذ قبل زعيم خوارج الجزيرة الفراتية الضحّاك الشيباني الدخول في اللعبة السياسية وضمّ إلى صفوفه أطرافاً معارضة من البيت الأموي ومن اليمنية وغيرهم[1]، فإنه فرض عليهم شروطه واحتفظ بقيادة الانتفاضة بحيث لم يكن لهذه الأطراف دور كبير فيها.

أما على المستوى العسكري، فلا يبدو لشيبان دور كبير، ولا يظهر تحمسه للقتال. ولا يذكر الرواة مشاركته الفعلية في المعارك التي كانت تدور بين حليفه الجديع بن عليّ الكرماني ونصر بن سيّار. ويغيب الحديث عن بطولات الخوارج وعن استبسالهم في المعارك وعن تلك الرغبة القوية في الاستشهاد التي تميّزوا بها.

لم يكن شيبان غير متحمّس للقتال فحسب، بل كان حريصاً على تجنّبه. وقد بدا ذلك بوضوح لما نصحه ابن الكرماني بالخروج من مرو إلى سرخس، فقد طلب منه أن يتوسط له لدى أبي مسلم حتى يكفّ عنه ولا يحاربه. وقد اشترط زعيم الشيعة مقابل ذلك أن يكتب بينه وبين شيبان كتاباً يتعهد فيه الطرفان بالمسالمة[2].

كما يختلف شيبان عن بقيّة الخوارج في حرصه على جمع الخراج. ويظهر من خلال الرواية التي ينقلها مؤلّف **أخبار الدولة العباسية** أن نجاح عليّ بن الجديع في إقناع شيبان بالخروج من مرو يعود إلى تركيزه على هذه المسألة[3].

وإجمالاً، تبدو الصورة التي رسمناها لشيبان بن سلمة من خلال المصادر غير مطابقة لتلك التي تقدمها المصادر ذاتها عن بقية الخوارج وخصوصاً الأوائل منهم. فمسعى شيبان يبدو سياسيًا بالأساس، أمّا الجوانب الأخرى فهي بعيدة عن اهتماماته. وهذا لا يعني أن شيباناً لم يكن خارجيًا، فانتماؤه إلى هذا المذهب ثابت لا شك فيه. لكنه خارجي اقتنع على ما يبدو بضرورة الدخول في اللعبة السياسية والمشاركة في التخلص من الحكم الأموي. وبما أنه لا يملك قوة كبيرة، فقد اضطر إلى التحالف مع أطراف أخرى من دون اعتبار لطبيعة هذه الأطراف ولا لميزان القوى المتحكّم في الصراع.

وفي الحقيقة، لا يتميّز شيبان في مواقفه كثيراً عن زعماء الحركات المعارضة الأخرى في تلك الفترة. فالرغبة في التخلّص من الحكم الأموي قد أقحمتهم جميعاً في الصراع وجعلت البُعد المذهبي والديني يضعف أو يغيب تماماً في مقابل طغيان الجانب السياسي والعسكري. وقد دخل الجميع في تحالفات مع أطراف لا تجمع بينها سوى الرغبة في إنهاء الحكم الأموي. وكان الانتصار في النهاية للطرف الأكثر قوة وتنظيماً وقدرةً على المناورة.

---

(١) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٢٧ ـ ٣٤٧.

(٢) مؤلّف مجهول، **أخبار الدولة العباسية**، ص٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٩.

ويجرّنا هذا الاستنتاج إلى طرح السؤال التالي؛ هل إنّ بقية الخوارج كانوا مثل شيبان بن سلمة؟ أي بعبارة أخرى: هل يمثل شيبان نموذج الخوارج في خراسان في أواخر الحكم الأموي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تستدعي حتماً التعرّف على موقف هؤلاء الخوارج من شيبان.

ليس من العسير التعرّف على موقف الخوارج من شيبان إذا اعتمدنا على ما تنقله كُتُب الفرق والمقالات، فهي تجمع على أن الخوارج قد تبرّأوا منه وكفّروه بسبب معاونته أبي مسلم الخراساني في حربه ضد نصر بن سيّار، وقتله المسلمين وأخذ أموالهم[1]. لكن المصادر عينها تتحدث عن وجود مجموعة من الخوارج ساندت شيباناً في تحرّكه وظلت وفيّة له بعد مقتله تُدافع عن مواقفه وتبرّر أعماله وتحمل اسمه «الشيبانية»[2].

كما تؤكد هذه المصادر صدور أحكام الإدانة والتكفير بعد مقتل شيبان بن سلمة ونهاية تحركه، وتنقل أصداء الجدل الذي دار بين الخوارج المعارضين لشيبان والمؤيدين له، إلاّ أنها لا تقدم معلومات ضافية عن طَرَفَيْ الخلاف ولا عن أسباب تأخر اندلاعه إلى ما بعد مقتل قائده. لذلك يبقى فهم مواقف الخوارج من أعمال شيبان رهناً بتتبع هذا الخلاف من بدايته.

ترد أول إشارة إلى وجود معارضين في صفوف شيبان في رواية ينقلها ابن خيّاط يقول فيها إن ما يقرب من ثلاثين ألفاً من الخوارج قد بايعوا شيباناً وهو في سرخس. لكن لما قدم ابن الجديع الكرماني وبايعه، فارقه من معه من خوارج البصرة وقالوا: «ركن إلى الدنيا وتعصّب». فخرج مشكان مولى لبني سليم في خمسة آلاف وفارقه عبد الله بن السمط مولى لمضر في ألفين وقعد عبد الرحمن بن زياد مولى لقريش في بيته»[3].

ورغم شكّنا في صحة هذه الأرقام لضخامتها، فإننا لا نستبعد أن يكون بعض المنضمين إلى شيبان من الخوارج قد رفضوا دخوله الصراع إلى جانب زعيم اليمنية وانفصلوا عنه، في حين ظلّت مجموعة أخرى إلى جانبه وانتقلت معه إلى مرو.

أما أصحاب شيبان الذين انتقلوا معه إلى مرو، فلا يذكر الرواة موقفهم من تصرفات زعيمهم. لكن بعض الإشارات تُظهر أن عناصر منهم كانت غير راضية أو هي على الأقل غير مقتنعة بذلك. فقد جاء على لسان عليّ بن معقل الحنفي قوله: «إني والله ما رأيت أمراً أضلّ من أمر نحن فيه: قتال على غير دين وعلى عصبية»[4]. وتؤكد رواية أخرى أن العديد

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٧٨.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٧٩.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.

(٤) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢٩٥.

من أصحاب شيبان قد انسلّوا من مرو وتركوا زعيمهم[١]. وإذا كان صاحب الرواية يذكر أنّهم أرادوا الرجوع إلى سرخس لجباية الخراج والاستفادة من مداخيل المنطقة، فإننا مع ذلك لا نستبعد أن يكون بعضهم قد رأوا في انغماس زعيمهم في الفتنة وتحالفه مع أطرافٍ معادية للخوارج وأخرى متعصبة ابتعاداً عن الهدف الذي دخلوا من أجله في الصراع إلى جانبه، ولذلك فضّلوا الانسحاب.

أما العناصر التي بقيت مع شيبان وكونت الجيش الذي اعتمد عليه في الصراع، فيؤكد الرواة أن بعضهم كان من الخوارج ويشيرون إليهم بأسماء مختلفة مثل «الحرورية» أو «أصحاب شيبان» أو «أهل رأيه». أما البقية فبعضهم من «سكان سرخس» والبعض الآخر من «قبائل ربيعة»[٢]. ويدلّ تمييز الرواة بين أصحاب شيبان على أن جيشه قد صار يضمّ عناصر من غير الخوارج خاصةً من أبناء ربيعة الذين وجدوا فيه على ما يبدو الزعيم الذي يدافع عن مصالحهم أكثر من حليفهم عليّ بن الجديع الكرماني. وما يلفت الانتباه تأكيدُ أغلب الرواة على انتماء العناصر التي شاركت مع شيبان في معركته الأخيرة ضد جيش أبي مسلم إلى قبائل ربيعة[٣]، وهو ما قد يعني تقلّص عدد الخوارج في جيشه حتى صار أبناء قبيلته يشكّلون الأغلبية فيه.

أما العناصر المعارضة لشيبان، فلا نجد عنها في كُتُب التاريخ العام سوى الإشارة الواردة في رواية ابن خياط والتي يذكر فيها أنهم من خوارج البصرة[٤]. لكن بعض الأسماء الواردة في الرواية تبدو مشابهة لأسماء عناصر يؤكد مؤلّفو كتب الفرق انتماءها للخوارج الثعالبة. ويُجمع هؤلاء كذلك على أن المتزعمين للحملة ضده كانوا ينتمون إلى المجموعة نفسها التي ينتمي إليها شيبان، أي الثعالبة. ورغم هذا الاختلاف، فإننا لا نستبعد أن تكون الإشارة الواردة في رواية ابن خياط صحيحة، باعتبار أن العناصر البصرية التي قد تكون انضمت إلى شيبان رفضت بحكم تمسكها بمبادىء الحركة الخارجية مواقفه وتزعّمت المعارضة ضده وشاركت فيها وانضم إليه كل الرافضين لما قام به شيبان من الخوارج الثعالبة.

ولم تكن معارضة هذه العناصر الخارجية لشيبان في البداية قوية، والظاهر أن انتقاله إلى مرو مع بقية أصحابه قد حدّ من استفحالها. لكن هزيمة شيبان ومقتله فجّرا الصراع من

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٠٩.

(٢) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٨٦؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠؛ مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٢٩٥، ٢٩٧ ـ ٢٩٨، ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٣) تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٨٦؛ تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٢.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.

جديد ودفعا المعارضين إلى شنّ حملة ضده وتكفيره[1]، لأنه ساهم بمواقفه المؤيدة لابن الجديع وحليفه أبي مسلم الخراساني في انتصار الشيعة أعداء الخوارج.

ولعلّ ما يؤكد ما قلناه، ربط أغلب الرواة تكفير الخوارج لشيبان بإعانته لأبي مسلم الخراساني وتأكيدهم على الخطأ الذي ارتكبه بتبنيه هذا الموقف[2]. إلاأن الرواة هم أنفسهم ينسبون إلى شيبان أعمالاً أخرى قام بها أثناء الصراع، وهي قتل مسلمين وأخذ أموالهم وضربهم[3]، وهي أعمال لم نجد لها أثراً في مصادر التاريخ العام. ولا نستبعد أن يكون المعارضون قد ألصقوها به في إطار حملتهم عليه ولتبرير تكفيره. كما نُسب إليه القول بـ«التشبيه»، وهذه إحدى المسائل النظرية التي كان يخوض فيها المسلمون في تلك الفترة.

وقد أثارت مواقف المعارضين لشيبان وأحكامهم ردود فعل في صفوف المناصرين لهذا الزعيم الخارجي وتصدّي العديد منهم للدفاع عنه وتبرئته من الكفر. ويبدو أن الجدل بين الطرفين حول أقوال شيبان وأعماله قد شغل الخوارج في تلك المنطقة، وأدّى إلى طرح مسائل نظرية ابتعدت عن المجال السياسي الذي انطلقت منه. وتؤكد رواية الأشعري ذلك إذ تذكر أن «الشيبانية» الذين أجازوا توبة شيبان قالوا: «إن الولاية والعداوة صفتان لله من صفات الذات لا من صفات الفعل»[4].

ولعلّ ما أعطى هذا الجدل أهمية كبيرة وساهم في تعميقه، الدور الذي لعبه فقيه الثعالبة ورئيسهم زياد بن عبد الرحمن[5]، وكان من نتيجته تحوّل الخلاف السياسي إلى خلاف فكري وديني، وانقسام هذه المجموعة من الخوارج إلى معارضين لما قام به شيبان وهم «الزيادية» ومؤيدين له وهم «الشيبانية»[6].

وما نستخلصه من خلال تتبع مختلف المواقف أن أغلب الخوارج الذين انضموا إلى شيبان بن سلمة في بداية تحركه قد عارضوه أثناء الصراع، لكن معارضتهم له لم تكن مرتبطة بمسائل فكرية أو دينية كما لم تكن مرتبطة بالمشاركة في أحداث الفتنة في حدّ ذاتها، لأن أغلبهم شاركوا معه في البداية واقتنعوا كغيرهم من المعارضين بضرورة استغلال الفتنة للتخلّص من الحكم الأموي، وإنما كانت مرتبطة بدخول هذا الزعيم في الصراع الرئيسي

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٩؛ الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٧٩.

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٩.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٧٩.

(٤) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٩٩.

(٥) اسم هذا الخارجي في رواية ابن خياط هو عبد الرحمن بن زياد: تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، ص٤١٠.

(٦) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص٩٩؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٦٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٧٨ ـ ١٧٩.

إلى جانب أطراف معادية لهم وفي ظل ميزان قوى لا يسمح له بلعب دور يستفيد منه الخوارج، وقد أكدت نتيجة الصراع خطأ شيبان.

أما المناصرون لشيبان، فتؤكد مواقفهم ابتعادهم عن مبادىء الحركة الخارجية وعن كل مظاهر التشدد الديني والمذهبي التي تميّز بها الخوارج وتشابههم مع بقية المعارضين، واقتصار هدفهم على التخلّص من الحكم الأموي بأية وسيلة كانت ومع أي طرف كان.

يبدو من خلال تتبع أحداث هذا التحرك أن أزمة البيت الأموي هي التي عجّلت بتفجير الوضع في خراسان وتحريك كل القوى المعارضة فيه بما في ذلك مجموعة الخوارج التي قادها شيبان بن سلمة.

لم يكن لنشاط هذه المجموعة في البداية أي تأثير على الصراع الرئيسي الدائر في مرو، إلا أن قبول زعيمها شيبان بن سلمة الانضمام إلى أحد أطراف الصراع هو الذي غيّر وجهة التحرك وأعطى هذا الزعيم دوراً كان من نتائجه إضعاف الوالي الأموي نصر بن سيار وتسهيل مهمة أبي مسلم الخراساني في السيطرة على الإقليم والتقدم في اتجاه مركز الخلافة.

ويظهر من خلال تتبع أعمال شيبان ومواقفه خلال التحرك اختلاف هذا الزعيم عن باقي الخوارج وخصوصاً الأوائل منهم. فهو غير متمسك بمبادىء الحركة، ولم يُظهر طيلة التحرك أي التزام بتطبيقها، بل أكدت مواقفه ضعف التزامه المذهبي وعدم تحمّسه لمحاربة أعدائه.

ولئن لم يكن شيبان أول خارجي يدخل اللعبة السياسية باعتبار أن الضحاك الشيباني قد سبقه إلى ذلك، فإن دخوله كان من دون قوة كبيرة يستند إليها، لذلك لم يتمكّن من التحكم في الصراع. وزاد جهله بأصول العمل السياسي في تحويله إلى أداة طيعة في أيدي البكريين من أبناء قبيلته تارة وابن الكرماني وأصحابه تارة أخرى، وسهّلت على زعيم الشيعة، أبي مسلم الخرساني، استغلاله ثم التخلّص منه في النهاية.

ولا يختلف بقية الخوارج المشاركين في التحرك كثيراً عن قائدهم بمن في ذلك العناصر التي عارضته وانفصلت عنه أثناء الصراع. فهي لم تنتقد ضعف تمسكه بمبادىء الحركة ولا عدم تحمّسه في محاربة أعدائه، إنما انتقدت دخوله حومة الصراع إلى جانب أطراف متعصبة وخاصةً دوره في انتصار الشيعة.

وعموماً، تظهر دراسة التحرك أن التحولات التي طرأت على المجموعات الخارجية كانت أكثر عمقاً في خراسان. فالخوارج في هذا الإقليم مختلفون عن بقية الخوارج بمن في ذلك المنتفضون منهم في تلك الفترة. فقد كانوا أقل تمسّكاً بمبادىء الحركة وأقلّ حماساً في محاربة العدو، ولذلك كان تحركهم فاقداً لكلّ نفسٍ ثوري.

ويعود عمق التحولات في خراسان على ما يبدو إلى بعدها عن مركز الحركة وضعف الدعاية الخارجية فيها، وقلّة الخوارج وتشتتهم وانتماء عدد كبير منهم إلى الموالي الذين لم يكن انضمامهم إلى المذهب الخارجي سوى وسيلة للتعبير عن معارضتهم للحكم الأموي.

يتضح من خلال هذا الفصل أن أنشطة الخوارج العسكرية توقفت في العراق بعد الفتنة الثانية وعلى امتداد الحكم المرواني، ومال أغلب من تبقّى من الخوارج في هذا الإقليم إلى القعود. لكن انشغال العديد من القعدة بالجدل ساهم في تطور الفكري الخارجي وانتشار مبادئه وتكوين أجيال جديدة من الخوارج. كما ساعدت تنقلات بعض العناصر الخارجية في إطار التجارة أو الفتوحات، أو في إطار الدعوات المنظّمة، على نشر الفكر الخارجي في أقاليم الأطراف وخاصةً الجنوبية والغربية وظهور مجموعات خارجية عديدة.

ولئن دفع تردّي الأوضاع في بعض المناطق العديد من العناصر والمجموعات الخارجية إلى الثورة، فإن تحركاتها تميّزت بالضعف والتشتت. وباستثناء خوارج المغرب، لم ينجح البقية في التصدي للجيوش الأموية وإنهاء سيطرتها على مناطقهم.

لكن أزمة البيت الأموي التي اندلعت إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ أتاحت فرصة استغلّها الخوارج في الجزيرة الفراتية واليمن وخراسان للقيام بانتفاضات شملت مناطق شاسعة وضمّت أعداداً ضخمة من الخوارج وغيرهم من المعارضين للحكم الأموي. غير أن توفّر الظروف الملائمة، وحماسة قادة الانتفاضات، وقبول بعضهم الدخول في اللعبة السياسية مع أطراف مُعارضة أخرى، لم تكن كافية كلها للقضاء على الحكم الأموي، أو تخليص المناطق التي سيطر عليها الخوارج من هيمنته.

وإذا كانت أسباب فشل هذه الانتفاضات عديدة ومختلفة، فإن سببها الأساسي يبقى عدم امتلاك المجموعات الخارجية لتصورٍ واضح لعمل سياسي وعسكري يضمن الانتصار على العدو، ويمكّن من إقامة حكم بديل عنه. ولذلك غاب التنظيم المحكم عن هذه الانتفاضات، وطغى على أغلب المشاركين فيها الاندفاع والعفوية. لكن هذه التحركات الخارجية كلّفت ـ رغم فشلها ـ مروان الثاني خسائر كبيرة، وشغلته عن الاهتمام بالصراع في خراسان، وفسحت بالتالي المجال أمام الشيعة للوصول إلى السلطة.

الخاتمة

نخلص في خاتمة هذا الكتاب إلى أنّ الحركة الخارجية، التي ظهرت خلال الفتنة الكبرى وارتبطت بالأحداث السياسية التي عاشتها الدولة الإسلامية، قد عرفت على امتداد الحكم الأموي تطورات عميقة غيَّرت ملامحها وجعلتها تبدو عند وصول العباسيين إلى السلطة منقسمة إلى تيارات عديدة تفصل بين أتباعها مسافات شاسعة وخلافات دينية وفكرية عميقة.

تمّ هذا التطور على مراحل وارتبط بالأحداث الهامة التي عرفتها الدولة الإسلامية خلال الحكم الأموي، وبمختلف المحن والتجارب التي مرّت بها الحركة. ولئن تتبعنا هذا التطور على امتداد هذا الكتاب فإننا سنحاول في خاتمته الوقوف على أبرز مراحله وما طرأ خلالها من تحولات، محاولين إلقاء الضوء على بعض المشاكل التي برزت خلال البحث وما زالت تستحق مزيداً من التفكير.

انبثقت حركة الخوارج ـ كما هو معروف ـ من وسط قُرّاء الكوفة، وجمعت بالإضافة إلى الكوفيين أقليّة بَصْرية. وخلافاً للحركات المعارضة الأخرى التي تكوّنت في فترات لاحقة، جاءت هذه الحركة منذ ظهورها مكتسبة لأبرز خصائصها، وهي شدّة التمسك بالدين ورفض الموقف المخالف والثورة الدائمة.

ولم تقتصر هذه الصفات على العناصر القليلة المنحدرة من وسط القراء والمؤسّسة للحركة، بل شملت أغلب المنضمين إلى صفوفها في السنوات الأولى. وجاء الجيل الثاني الذي تكوّن في البصرة أكثر تشدّداً من الزعماء الأوائل، لذلك انزلق تدريجيًا إلى عنفٍ بلغ ذروته خلال الحكم السفياني وفي سنوات الفتنة الثانية. ولئن حصلت تطورات عميقة بعد هذه الفتنة، فإن المرحلة الأولى من تاريخ الحركة تبقى هامة جدًا وإليها تعود أبرز المشاكل المطروحة.

إن أولى المشاكل التي لا يمكن لمن يتتبع تاريخ الخوارج إلا أن يتوقف عندها هي هوية هذه الحركة: هل هي دينية بحتة كما يؤكد أتباعها وينظر إليها العديد من الرواة؟ أم هي مرتبطة بالميدان السياسي وتتمسك بالدين لتوظيفه في هذا الميدان كسائر الحركات المعارضة التي ظهرت بعدها؟

إن دراسة الحركة الخارجية تُظهر بوضوح صفتها الدينية، ولا يمكن لمن يتتبع أخبارها ولا سيما في السنوات الأولى أن ينكر هذه الصفة. فالخوارج ثاروا ضد التحكيم لأنهم يرفضون إقحام العنصر السياسي في إدارة شؤون الأمة[1]، ويعتبرون القرآن المرجعية الوحيدة لجميع المسلمين ويصرّون في الوقت نفسه على أن تأويلهم له هو الصحيح. ولذلك أطلق عليهم أعداؤهم منذ البداية لقب «المارقة».

وقد واصل الخوارج حرصهم على إخضاع كل المسائل التي يختلفون فيها مع السلطة أو بقية المسلمين للدين، ورفضوا تبعاً لذلك كل المواقف المُخالفة، ثم كفّروا أصحابها واستحلّ المتشددون منهم قَتْلَهم.

وتبرز شدة تمسك الخوارج بالدين وبالقرآن تحديداً من خلال الخطب والأشعار المنسوبة إليهم، كما يؤكد الرواة هذا التدين الشديد وينسبون إلى زعماء الحركة العديد من الصفات والخصال الإسلامية.

لكن الارتباط بالدين لا ينفي عن هذه الحركة صفتها السياسية. فهي قد ارتبطت بالقرّاء الذين ثاروا ضد سياسة عثمان وتجاوزاته، واقترن ظهورها بحدث سياسي هو التحكيم. ثم ارتبطت كل أحكام الخوارج ومواقفهم في بداية الحكم الأموي بأحداث وأعمال سياسية. ويبدو ذلك جليًا من خلال تركيز دعاياتهم على «ظلم الحكّام» و«أكلهم الفيء» و«تعطيلهم الحدود» وغيرها. كما انشغل العديد منهم في تلك الفترة بالتفكير في مسائل سياسية تخصّ علاقتهم بالسلطة والطريقة المثلى للتعامل معها. وباستثناء المجالين السياسي والعسكري، لا يذكر الرواة اهتمام الخوارج بمجالات أخرى في بداية الحكم الأموي.

ورغم أن الخوارج كانوا ينظّرون للمسائل السياسية ويحولونها بسرعة إلى قضايا دينية ويصوغون بعضها على شكل شعارات أو مبادىء تُظهر هذا البُعد الديني مثل شعار: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فإنّ جذورها السياسية لا يمكن أن تغيب عن نظر الباحث. ولذلك فإننا نستطيع القول إنّ هذه الحركة دينية لتمسّك أتباعها، وخصوصاً تمسّك الأجيال الأولى منهم الشديد بالدين. لكن توظيفهم له في العمل السياسي قد أعطى هذه الحركة منذ ظهورها صفة الحركة السياسية كذلك.

وقد اقترن تمسّك الخوارج بالدين وإصرارهم على احتكاره بميلهم إلى الثورة والمخاطرة بأنفسهم، وهو ما أدى إلى مقتل عدد كبير منهم في المعارك أو أثناء العمليات الانتحارية. ويطرح ميل هذه الجماعة إلى العنف تساؤلات عن أسبابه: فهل هو مرتبط بطبيعتهم، أي كما يقول فلهوزن «بامتلاك بعضهم لغريزة سفك الدماء»[2]، أم أنّ ثقافتهم

---

(1) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 286.

(2) فلهوزن، أحزاب المعارضة، ص١٢٢.

التي لعب الدين دوراً كبيراً في تكوينها هي التي دفعتهم إلى ممارسة هذا العنف؟ أم لأن في هياكل السلطة والمجتمع خاصةً في خلافة بني أمية ما كان يدعو إلى مثل هذا العنف أو يبرّره؟

إن ربط تشدّد الخوارج وسعيهم إلى الثورة بطبيعتهم وميلهم الغريزي إلى العنف لا يمكن قبوله لأنه لا يوجد في الروايات ما يدلّ على تميّزهم عن سائر المسلمين الذين نبذ أغلبهم العنف ومالوا إلى السكينة. كما تؤكد أغلب الدراسات التي بحثت في علاقة العنف بالطبيعة البشرية أن الإنسان لا يملك سوى الاستعداد للعنف، وأن الظروف هي التي تكون السبب في انتقاله من مرحلة الاستعداد للعنف إلى الممارسة الفعلية للعنف.

ولا يمكن في هذا الإطار ربط سعي الخوارج الدائم إلى الثورة ببداوتهم كما ذهب إلى ذلك أغلب المؤرّخين، لأنه تبيّن من خلال البحث أن القرّاء الذين أسّسوا الحركة لا يختلفون عن أصحابهم المنتمين إلى قبائل غير بدوية وممن صاروا من أصحاب عليّ ثم خضع أغلبهم للسلطة سوى في أنهم كانوا مهمّشين في قبائلهم، ولم تستطع السياسة التي توخاها عليّ بن أبي طالب استقطابهم وتمكينهم من لعب دور كما كانوا يرغبون، لذلك سرعان ما خرجوا عليه ثم واصلوا ثوراتهم بعده.

لكن إذا لم نجد في طبيعة الخوارج ولا في بداوتهم ما يفسّر سعيهم الدائم إلى الثورة، فهل في ثقافتهم تفسيرٌ لذلك؟

لقد كان الخوارج مثل سائر المسلمين متأثرين بقيم الجاهلية، فلما جاء الإسلام هذّب عنفهم وسخّره لخدمة الدولة والأمة الإسلامية. لكن انشغالهم المتواصل بالفتوحات عوّدهم على الموت[1]، وزادتهم الفتنة ـ التي دشّنت الحرب بين المسلمين ـ تعوّداً عليه واحتقاراً له.

إلاّ أن التعوّد على الموت لم يؤدِّ إلى دخول المسلمين في عنفٍ عشوائي. فقد ظلّت الحروب دائماً من أجل العقيدة أو من أجل مبادىء وأفكار ربطها أصحابها بالعقيدة، لذلك ظل القرآن دائماً حاضراً ومؤثراً. ولعل الأواصر المتينة التي ربطها الخوارج وخصوصاً الأوائل منهم مع القرآن قد جعلتهم أكثر تأثراً من غيرهم به. والظاهر أنّهم وجدوا في آياته المشحونة بالعبارات التي تحثّ على الجهاد وترغّب فيه وتمجّد الشهداء وتعدهم بنعيم الجنة ما شجعهم على الثورة وأقنعهم بأن ما يقومون به جهادٌ يكون الموت في سبيله استشهاداً يضمن لهم الجنّة ونعيمها.

ويظهر هذا التأثير القوي للقرآن منذ البداية. فقد اعتبروا أنفسهم «أهل الحق»، وسمّوا معاوية وأصحابه «الفئة الباغية»، ثم أخرجوا من دائرة الإيمان كل مخالفيهم. وتؤكد أعمال

---

(1) DJAIT (H), *op. cit.*, p. 377.

الخوارج وأحكامهم تأثير الخطاب القرآني في نفوسهم كما تؤكّده الأشعار المنسوبة إليهم.

لكن إذا كان القرآن قد لعب دوراً في تكوين ذهنية الاستقتال لدى الخوارج، فالثابت أن عنفهم لم يكن عشوائيًا في البداية وإنما ازداد تدريجيًا خلال الحكم الأموي وارتبط بعنف الدولة المسلّط عليهم. فقد أرهب عنف ولاة بني أمية قسماً من الخوارج ودفعهم إلى السكينة والهدوء، لكنه دفع في الوقت نفسه قسماً آخر إلى الرد عليه بعنف أقوى تجسّد في تلك العمليات الانتحارية التي امتدت على كامل فترة الحكم السفياني واستهدفت عناصر من أعوان السلطة وعملائها ومسلمين أبرياء أحياناً. كما تجسّد في التنظير للاستعراض وقتل المخالفين وتبنّيه كشكل من أشكال النضال.

إلا أن إرهاب السلطة وتأثير القرآن لا يفسّران وحدهما ميل بعض الخوارج إلى العنف، فالتحوّلات التي بدأ يعرفها المجتمع العربي الإسلامي بعد وصول الأمويين إلى الحكم قد تكون زادت بدورها في نقمتهم ودفعت العديد منهم إلى العنف. فقد أخضع ولاة بني أمية المسلمين لنفوذهم وأوكلوا لرؤساء القبائل مهمة التصدّي لمن يخرج من أبناء قبائلهم حتى صار التضامن القَبَلي لا يلعب أي دور إذا تعلّق الأمر بالمعارضين للسلطة، وهو ما أدى إلى سجن وقتل العديد من الخوارج. ولذلك لا نستبعد أن تكون هذه الوضعية قد دفعت العديد منهم إلى العنف تعبيراً عن استنكارهم لهذا الخضوع الكلّي للسلطة وانتقاماً من المتواطئين معها. ولعلّ غياب العصبية القَبَلية لدى الخوارج قد ساعدتهم على القيام بعمليات عنف ضد أبناء قبائلهم من دون تردد.

وترتبط بمسألة تشدّد الخوارج وعنفهم مسألة أخرى لا تقلّ أهمية عنها وهي مدى سعي هؤلاء المعارضين إلى النجاح. بعبارة أخرى: هل كان الخوارج من خلال تحركاتهم يفكّرون في النجاح ويعملون على تحقيقه؟

إن المتتبع لتحركات الخوارج في الأشهر الأولى التي تلت ظهورهم يعسر عليه فهم نواياهم الحقيقية والغاية من خروجهم من الكوفة وتجمعهم في النهروان. لكن رفضهم كل مقترحات عليّ بن أبي طالب الهادفة إلى إرجاعهم إلى صفوفه وإصرارهم على مواجهة جيش الكوفة الضخم يؤكد أن التفكير في النجاح بمعنى الانتصار لم يكن يشغل أذهانهم. فكل ما كانوا يسعون إليه هو الدفاع عن موقفهم الرافض للتحكيم حتى لو كلفهم ذلك حياتهم، لأن الموت في سبيله يُعدّ استشهاداً. وقد أكدت التحركات التي تلت النهروان سعي الخوارج إلى الاستشهاد الذي ربطوه بالانتقام لضحايا النهر والتكفير عن الذنب الذي ارتكبه المنسحبون منهم من المعركة.

ولعلّ ما يؤكد عدم انشغال الخوارج في هذه المرحلة بالمستقبل وغياب التفكير في النجاح عدم الحرص على تنظيم صفوفهم أو التخطيط لتحركاتهم مع أن ذلك يُعدّ شرطاً

أساسيًا للنجاح ولم يكن من الصعب تحقيقه في خلافة عليّ بن أبي طالب. ويبدو أن تشتت الخوارج بعد النهروان وانشغال العناصر الثائرة منهم بالأحداث الهامة التي كانت تشهدها الأمة الإسلامية آنذاك، وخصوصاً بالمواجهات العسكرية مع السلطة، قد غيّبت عن أذهانهم كل نظر إلى المستقبل أو تفكير فيه كما لم يكن لديهم الوقت الكافي لبلورة تصور واضح لعمل منظّم يكفل النجاح لتحركاتهم.

لكن التفكير في النجاح قد راود بعض الخوارج خلال الحكم السفياني. ولئن كان من غير الممكن التعبير عن ذلك قولاً أو فعلاً في ظل القمع الشديد المسلّط عليهم، فإن موت يزيد بن معاوية واندلاع الفتنة الثانية قد فسح المجال أمام هؤلاء الخوارج للتعبير عن رغبتهم في تنظيم صفوفهم ونشر مبادئهم على نطاق واسع لجمع مزيد من الأنصار حولهم. وقد نفذوا ذلك بالخروج من البصرة إلى الأهواز والتجمع فيها استعداداً للمواجهة. لكن نافع بن الأزرق الذي قاد الخارجين إلى الأهواز فشل في جمع كل أنصار الحركة حوله، لذلك تبرأ من الرافضين للخروج أو «القعدة» وكفّرهم، وهو ما ساهم في تفجير الخلاف داخل الحركة وأظهر على السطح كل تناقضاتها الكامنة وأدى إلى انقسامها.

وبرغم الانقسام، تمكنت ثلاث مجموعات خارجية من تنظيم صفوفها والقيام بانتفاضات ضخمة، نجحت اثنتان منها ـ وهي الأزارقة والنجدات ـ في السيطرة على مناطق شاسعة وإقامة «دول» خارجية استمر وجودها طيلة سنوات الفتنة الثانية. ولم يتمكن الأمويون من القضاء عليها إلا بعد استرجاعهم السيطرة على أقاليم الدولة وانتهاء صراعهم مع ابن الزبير.

ولم يكن نجاح الأمويين في القضاء على المجموعات الثائرة ناجماً عن ضخامة الجيوش التي سخّروها لهذه المهمة فحسب، بل وإلى انقسام هذه المجموعات كذلك بسبب خلافاتها الداخلية. ورغم التباين الكبير بين الانتفاضتين وتعدد أسباب الخلافات التي عرفتها كل منهما، فإنه يُمكن القول إن سببها الأساسي كان ضعف «الدول» التي كونوها لافتقادها لهياكل أو مؤسّسات يمكنهم بواسطتها مراقبة قادتهم ومحاسبتهم كما كانوا يرغبون. وهو ما يؤكد عدم امتلاك الخوارج لتصور واضح لدولة قائمة على مؤسسات وعجزهم ـ رغم مرور عدّة سنوات ـ على تنظيم أفكارهم السياسية بصيغ مضبوطة وقابلة للتطبيق. كما أفقد التشدّد الديني للخوارج وميلهم إلى الثورة هذه «الدول» عنصر الاستقرار وساهم في استفحال الخلافات الداخلية وتحويلها إلى صراع بين أفراد المجموعة الواحدة، وأظهرت هذه التجارب فشل الخوارج في قيادة أية مجموعة حتى وإنْ كانت خارجية.

كان إخماد هذه الانتفاضات بداية مرحلة جديدة تغيّرت فيها ملامح الحركة وفقدت العديد من خصائصها الأصلية. ولعل أولى التغييرات التي طرأت على الخوارج هي ميل أغلبهم إلى «القعود» وتخلّيهم عن نزعة الخروج والثورة الدائمة التي ميّزت أسلافهم..

لكن العديد من «القعدة» انشغلوا بالنشاط الفكري. وإذا كانت البصرة المركز الرئيسي لهذا النشاط فإن أمصاراً أخرى في العراق وخارجه عرفت بدورها نشاطاً مماثلاً. وقد تعدّدت المسائل التي تمحور حولها جدل الخوارج. فبالإضافة إلى مسألة «القعود» التي طرحت في بداية الفتنة الثانية والقضايا المتفرّعة عنها، خاض الخوارج كذلك في الجدل الدائر بين المسلمين حول قضيتَيْ «الجبر والاختيار» و«مرتكب الكبيرة»، كما اهتموا بقضايا أخرى ارتبطت بالأحداث السياسية أو الأوضاع الاجتماعية. لكن تعمّق الجدل في هذه القضايا وربطها بالدين جعلها تبتعد تدريجيًا عن واقعها وتتحوّل إلى مسائل دينية وفقهية مجردة.

ولئن ساهم هذا الجدل في تطور الفكر الخارجي والفكر العربي الإسلامي عامة، فإنه زاد في انقسام المجموعات الخارجية إلى فرق صغيرة تحمل أسماء مختلفة اندثر بعضها وتحوّل البعض الآخر إلى مدارس فقهية ليس لأتباعها أي وزن سياسي أو اجتماعي. ونستثني من كل هذه المجموعات الإباضية الذين نجحوا منذ انقسام الحركة في بناء تنظيم محكم جمع بين النشاط الفكري والسياسي وتمكّن من نشر مبادىء الإباضية في إفريقية وجنوب الجزيرة العربية أثمر قيام انتفاضة في أواخر الحكم الأموي.

أمّا الخوارج الذين لم يتخلّوا عن مبدأ الخروج والثورة فأغلبهم من خارج العراق، وقد تبنّوا الفكر الخارجي لأنهم وجدوا فيه سلاحاً لمحاربة السلطة. لذلك ارتبطت انتفاضاتهم بظروف السكان في تلك المناطق وعبَّرت عن رغبة أصحابها في التحرّر والانعتاق من الهيمنة الأموية. وإذا كانت الانتفاضات التي اندلعت بعد الفتنة الثانية صغيرة ومشتتة نجحت الدولة في إخمادها، فإن تلك التي اندلعت في الأشهر الأخيرة من الحكم الأموي تميّزت بقوتها وارتفاع عدد المشاركين فيها.

ورغم الاختلاف الكبير بين هذه الانتفاضات، فإنّ دراستها أظهرت أهمية التحولات التي طرأت على المجموعات الخارجية على امتداد الحكم المرواني. فالأجيال الجديدة تخلّت عن العديد من صفات الخوارج الأوائل إذ صارت أقلّ تطرّفاً وعنفاً من أسلافها وأكثر رغبة في النجاح، ولذلك صار مسعاها سياسيًا وعسكريًا بالدرجة الأولى، وضعف اهتمامها بالمسائل الدينية والمذهبية. وهذا ما يفسّر قبول بعض زعماء الخوارج الثائرين الدخول في اللعبة السياسية إلى جانب أطراف غير خارجية أو معادية للخوارج أحياناً.

لكن هذه التحولات لم تكن ـ على أهميتها ـ كافية لنجاح المجموعات الثائرة في تحقيق هدفها. فقد تمكّن الجيش الأموي من إخماد انتفاضاتها الضخمة التي اندلعت في أواخر الحكم الأموي، وقتل أغلب المشاركين فيها. وإذا كان فشل هذه الانتفاضات يعود إلى انقسام الثائرين وتشتتهم الجغرافي وغياب التنسيق بينهم، فإن السبب الأساسي يبقى قصور الخوارج عن بلوغ مستوى من التنظيم يمكّنهم من التصدي للجيش الأموي وإلحاق الهزيمة به، ولذلك عجزوا طيلة الحكم الأموي عن لعب دور يقرّر مصير الأمة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

مصادر التاريخ العام:

- ابن أبي حديد، عزّ الدين عبد الحميد المدائني (ت ٦٥٥هـ)، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٩.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، حققه وعلّق عليه الشيخ عبد الوهاب النجّار، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن الأعثم الكوفي، أبو محمد أحمد بن علي (ت ٣١٤هـ)، **الفتوح**، تحقيق نعيم زرزور، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٤.
- ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خيّاط بن خليفة (ت ٢٤٠هـ)، **كتاب التاريخ المعروف بتاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري، النّجف، ١٩٦٧.
- ابن شبّة، أبو زيد عمر بن زيد (ت ٢٦٤هـ)، **كتاب تاريخ المدينة**، تحقيق محمد شلتوت، جدة، بدون تاريخ.
- ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله (ت ٢١٤هـ)، **سيرة عمر بن عبد العزيز**، مصر، ١٩٥٤.
- ابن عبد الحكم، **فتوح أفريقية والأندلس**، تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت، ١٩٦٤.
- ابن عذاري المرّاكشي، أبو العباس أحمد (ت النصف الثاني من القرن ٧ هجري)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق إ .ليفي بروفنسال وج، س. كولان، بيروت، ١٩٤٨.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ)، **البداية والنهاية**، بيروت، ١٩٦٦.
- ابن مزاحم المنقري، نصر (ت ٢١٢هـ)، **وقعة صفين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٨٢.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ)، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق أحمد صقر، القاهرة، ١٩٤٩.
- الأزدي، أبو زكرياء يزيد بن محمد بن إيّاس (ت ٣٣٤هـ)، **تاريخ الموصل**، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٧٧.
- الدّينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ)، **الأخبار الطوال**، صحّحه محمد سعيد الرّافع، مصر، ١٣٣٠هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله بن محمد (ت٧٤٨هـ)، **تاريخ الإسلام**، الجزء الثالث، القاهرة،

١٣٦٨هـ.
- الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت ٤١٧هـ)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق منجي الكعبي، تونس، ١٩٦٨.
- الطبري، أبو محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، (الأجزاء ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٦٧.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٥هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق وتصحيح شارل بلاّ، بيروت، ١٩٧٠.
- المسعودي، التنبيه والإشراف، عنيّ بتصحيحه ومراجعته عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة، ١٣٥٧هـ.
- الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ)، كتاب الردّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن الحارثة الشيباني برواية أحمد بن محمد بن الأعثم الكوفي، تحقيق يحيى الجبوري، بيروت، ١٩٩٠.
- مؤلّف مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العبّاس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، ط١، بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٧١؛ ط٢، ١٩٩٧.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، بيروت، ١٩٦٠.

المصادر الخارجية:

- البرّادي، أبو القاسم بن إبراهيم (عاش في النصف الثاني من القرن الثامن هجري)، كتاب الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات، طبعة حجرّية، بدون تاريخ.
- الدّرجيني، أبو العباس أحمد (ت ٦٧٠هـ)، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاّي، الجزائر، ١٩٧٤.
- الشمّاخي: أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٩٢٨هـ)، كتاب السّير، طبعة حجرّية، بدون تاريخ.
- القلهاتي، أبو سعيد محمد بن سعيد الأزدي، الفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان، تحقيق محمد عبد الجليل، تونس، ١٩٨٤.
- أبو زكرياء، يحيى بن أبي بكر (ت ٤٧١هـ)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، حقّقه ووضع هوامشه إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٧٩.

كتب الأنساب والطبقات والتراجم:

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، حيدر أباد، ١٣٢٥هـ.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٦٨.
- ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)، كتاب الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٥٨.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، المعارف، حقّقه وقدم له د. ثروة عكاشة، مصر، ١٩٦٩.

- ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب بن إسحاق (ت حوالى ٣٨٥هـ)، الفهرست، بيروت، بدون تاريخ.
- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، حققه محمد باقر المحمودي، الجزء الثاني، بيروت، ١٩٧٤.
- البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق إحسان عبّاس، القسم الرابع، الجزء الأول، بيروت، ١٩٧٩.
- البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء ٥، القدس، ١٩٣٨.
- الجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجهول لعلّه كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم المنسوب لأبي الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، غريفزولد، ١٨٨٣.
- الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ)، جمهرة النّسب، رواية السكّري عن ابن حبيب، تحقيق الدكتور ناجي حسن، بيروت، ١٩٨٦.

المصادر الأدبيّة:

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، الجزء الثاني، تحقيق طلال القنا، بيروت، ١٩٥١.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت ٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، أشرف على مراجعته وطبعه عبد الله العلايلي وموسى سليمان وأحمد أبو سعد، بيروت، ١٩٦٢.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الرسائل: رسالة في النابتة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٦٥.
- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٧٥.
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)، الكامل: باب الخوارج، دمشق، ١٩٧٢.
- السيد الحميري، إسماعيل بن محمد (ت ١٧٣هـ)، ديوان السيد الحميري، جمعه وحققه شاكر هادي شكر، بيروت، بدون تاريخ.
- كثّير عزّة، كثّير بن عبد الرحمن الخزاعي (ت ١٠٥هـ)، ديوان كثّير عزّة، جمعه وحقّقه إحسان عبّاس، بيروت ١٩٧١.

كتب الفرق:

- ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد سعيد (ت ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، بيروت، ١٩٨٦.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق (ت ٣٢٤هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، صحّحه هلموت ريتر، ڤيسبادن، ١٩٨٠.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، بيروت، ١٩٨٥.
- الرازي، فخر الدين (ت ٦٠٦هـ)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة علي سامي النشار، القاهرة، ١٩٣٨.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل، بيروت، ١٩٨٦.
- القمي، حسن بن محمد حسن (ت ٤٠٦هـ)، كتاب المقالات والفرق، صححه وقدم له وعلق عليه محمد جواد مشكور، طهران، ١٩٦٣.
- الملطي، أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٣٧٧هـ)، التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهر الكوثري، القاهرة، ١٩٤٩.
- النوبختي، أبو محمد حسن بن موسى (ت حوالى ٣١٠هـ)، فرق الشيعة، تحقيق إبراهيم الزين، بيروت، بدون تاريخ.

المؤلفات الجغرافية:

ـ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن عليّ النّصيبي (ت حوالى ٣٦٢هـ)، **كتاب صورة الأرض**، بيروت، بدون تاريخ.

ـ البلاذري، أبو العبّاس أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، **فتوح البلدان**، حققه وشرحه عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع، بيروت، ١٩٥٧.

ـ المقدّسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (عاش إلى حدود ٣٨٠هـ)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، لندن، ١٩٠٦.

ـ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله يعقوب بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، بيروت، ١٩٥٧.

ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ)، **كتاب البلدان**، النجف، ١٩٥٧.

المعاجم:

ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ)، **لسان العرب المحيط**، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، بيروت، بدون تاريخ.

المراجع العربية

ـ إحسان سركيس، **الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١.

ـ أدونيس العكرة، **الإرهاب السياسي، بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٣.

ـ إحسان عبّاس، **شعر الخوارج**، بيروت، ١٩٧٤.

ـ أحمد أمين، **فجر الإسلام**، بيروت، ١٩٦٩.

ـ أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، القاهرة، ١٩٦٤.

ـ أحمد سليمان معروف، **قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم**، دمشق، ١٩٨٨.

ـ أحمد علبي، **ثورة الزنج وقائدها محمد بن علي**، بيروت، ١٩٩١.

ـ بُركلمان (كارل)، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، ١٩٦٨.

ـ جولدتسيهر، **العقيدة والشريعة في السلام**، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وحسن عبد القادر، القاهرة، ١٩٤٦.

ـ الحبيب الجنحاني، **التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع صدر الإسلام**، بيروت، ١٩٨٥.

ـ الحبيب الجنحاني، **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٠.

ـ حسن بزون، **القرامطة بين الدّين والثّورة**، بيروت، ١٩٨٨.

ـ حسين مروة، **النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، الجزء الأول، بيروت، ١٩٧٩.

ـ حسين عطوان، **الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي**، بيروت، ١٩٧٤.

ـ حسين عطوان، **الدعوة العباسية: تاريخ وتطور**، ١٩٩٥.

- حسين مؤنس، فجر الإسلام، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، القاهرة، ١٩٥٩.
- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، ١٩٨٧.
- رضا بن حسين، «الجزيرة الفراتية وعلاقتها بالأمصار وبالخلافة بين الفتح وسنة ١٣٢هـ»، شهادة كفاءة في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٩٠.
- سهير القلماوي، أدب الخوارج في العصر الأموي، القاهرة، ١٩٤٥.
- صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول هجري، بيروت، ١٩٦٩.
- صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، بيروت، ١٩٨٣.
- طه حسين، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٧٣ .
- عبد الرحمن عبد الكريم العاني، عُمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي في الملاحة والتجارة الإسلامية، بغداد، ١٩٧٧.
- عبد العزيز الدّوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بغداد، ١٩٤٩.
- عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٧.
- عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٥٦.
- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٦.
- عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، بغداد، ١٩٧٣.
- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٩٢.
- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢.
- علي جفّال، الخوارج: تاريخهم وأدبهم، بيروت، ١٩٩٠.
- علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، القاهرة ١٩٦٤.
- علي يحيى معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٦.
- عمار الطالبي، آراء الخوارج الكلامية، المجلد الأول، الجزائر، ١٩٧٨ .
- عمر أبو النصر، الخوارج في الإسلام، بيروت، ١٩٥٦.
- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، بيروت، ١٩٦٦.
- فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠.
- فان فلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ترجمة حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، مصر، ١٩٤٣.
- فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣.
- مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن، مصر، ١٩٧٠.
- محمد بن حسن، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس، ١٩٨٦.
- محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي، الجزائر، ١٩٨٤.
- محمد رضا الدّجيلي، فرقة الأزارقة: دراسة تحليلية وتاريخية تبحث عن أصول هذه الفرقة وتطورها، النجف، ١٩٧٣.
- محمد عبد الحيّ شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٧.
- محمد عبد الحيّ شعبان، الثورة العباسية، ترجمة عبد الحميد حسيب قيسي، أبو ظبي، ١٩٧٧.

- محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري، الدار البيضاء، ١٩٧٦.

- محمد إسماعيل عبد الرزاق، الحركات السرية في الإسلام، بيروت، ١٩٧٣.

- منصف قوجة، الفتنة الكبرى من خلال مصادر خوارجية، تونس، ١٩٩٤.

- ناجي الحسن، القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي: ٤٠هـ/ ٦٦٠م - ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، بغداد، ١٩٨٠.

- نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي: نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم، بيروت، دار الطليعة، ط١/ ١٩٧٨، ط٣/ ١٩٨٦.

- نبيه عاقل، دراسات في تاريخ العصر الأموي: دمشق، ١٩٧٦.

- النعمان القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، مصر، ١٩٧٠.

- هشام جعيّط، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٢.

- وداد القاضي، الكيسانية في التاريخ والأدب، بيروت، ١٩٧٣.

- يوسف العش، الدولة الأموية، دمشق، ١٩٨٥.

- يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، نقله وعلّق عليه محمد الهادي بوريدة وراجعه حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٨.

- يوليوس فلهوزن، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الكويت، ١٩٥٦.

المقالات العربية

- جواد علي، «عبد الله بن سبأ»، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٥، سنة ١٩٥٨، ص٦٦ - ١٠٠.

- الحبيب الجنحاني، «حركات الخوارج في المغرب وفي منطقة الخليج خلال العصر الإسلامي»، مجلة الفكر، العدد ٤، جوان/ حزيران ١٩٧٨، ص٦٤ - ٧٨.

- رضوان السيد، «رؤية الخلافة وبنية الدولة في الإسلام»، مجلة الاجتهاد، العدد ١٣، السنة الرابعة، خريف ١٩٩١، ص١١ - ٤٥.

- سليم النعيمي، «ظهور الخوارج»، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ١٥، سنة ١٩٦٧، ص١٠ - ٣٥.

- سليم النعيمي، «الأزارقة»، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ١٧، سنة ١٩٦٩، ص٣٧ - ٤٩.

- سماح إدريس، «النموذج الخارجي للمعارضة في الإسلام»، مجلة الآداب، عدد ٧ - ٨ - ٩، آب - أيلول/ أوت . سبتمبر ١٩٨٧، ص٣٠ - ٣٥.

- صالح أحمد العلي، «الاستيطان العربي في خراسان»، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٥٨، ص٣٦ - ٨٣.

- عبد الجبار العبيدي، «قبيلة تميم بين الجاهلية والإسلام»، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ٦٧، ١٩٨٦، ص١١ - ٦٦.

- عبد العزيز الدوري، «نظام الضرائب في خراسان في صدر الإسلام»، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ١١، ١٩٦٤، ص٧٥ - ٨٧.

- عبد العزيز صالح الهلاّبي، «عبد الله بن سبأ، دراسة للروايات التاريخية عن دوره في الفتنة»، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثامنة، ١٩٨٧، ص ١٠ - ٧٣.

- عبد العزيز الهلابي، «إلقاء الضوء على الدور المزعوم للقراء في معركة صفّين»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السعودية، المجلد ٤، سنة ١٩٨٤، ص١٣ - ٤٢.
- محمد أركون، «مفهوم السلطة في الفكر الإسلامي: «لا حَكَمَ إلاّ الله»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٧٢ - ٧٣، كانون الثاني - شباط/ جانفي - فيفري ١٩٩٠، ص٢٧ - ٣٩.
- محمد بطاينة، «حول مصرع الوليد بن يزيد بن عبد الملك»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد ٥، سنة ١٩٧٧ - ١٩٧٨، ص٢٢٩ - ٢٦٨.
- محمد بطاينة، «سياسة بني أمية في اختيار الولاة»، العرب، العدد ١/ ٢، المجلد ٧/ ٨، أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٤.
- محمد بن عميرة، «الصّفرية من ظهورها إلى انقراضها»، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد ٦١، جانفي - فيفري ١٩٨١، ص٢٩ - ٤٠.
- محمد سعيد، «حول بعض سمات السياسة الأموية في عصر هشام بن عبد الملك، ١٠٥هـ - ١٢٥هـ»، كراسات تونسية، العدد ١٦٢/ ١٦٣، ص١٥ - ٢٨.
- محمود إسماعيل، «الخوارج وقضية التحكيم»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٠، ١٩٧٣، ص٤٧-٦٩.

المراجع والمقالات غير العربية

- ABEL (A), «La Djizya: tribut ou ronçon?», *Studia Islamica*, N° XXXII, 1970, pp. 5-19.

- BOSWORTH (C.E), «Marw-al-Shahidjan», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. VI, Paris, 1991, pp. 603-606.

- CAHEN (C), «Point de vue sur la révolution Abasside», *Revue Historique*, T CCXXX, 1963, T. II, pp. 295-338.

- CAHEN (C), "Dimma", *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. II, Paris, 1965, pp. 234-238.

- CAHEN (C), *Introduction à l'histoire du monde musulman médival VII-XV siècle*, Paris, 1982.

- CASKEL (W), «Bakrb. Wail», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. I, 1960, pp. 992-994.

- CASKEL (W), «Abd al-Kays», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. I, 1960, pp. 74-76.

- CHEIKH BEKRI, «Le Kharijisme berbère», extrait des *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales*, T. XV, Paris, 1938.

- DAGHFOUS (R), *Le Yaman islamique, des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes*, (I-III siècle/ VII-IX siècle), Thèse d'Etat soutenue en 1991 à Aix en Provence, T. II.

- DJAIT (H), *La grande discorde*, Paris, Gallimard, 1989.

- DJAIT (H), «Al Kufa», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. V, Paris, 1986, pp. 346 - 352.

- DJAIT (H), «La Wilaya d'Ifrigiya au II/VIII siècle, étude institutionnelle», *Studia Islamica*, N° XXVII, 1967, pp. 77-121.

- DONNER (F. McG), «The Bakr b. Wail, Tribes and Politics in Northeastern Arabia on the Eve of Islam», *Studia Islamica*, N° LI, 1980, pp. 5 - 37.

- DOZY (R), *Supplément aux dictionnaires arabes*, Beyrouth, 1980, T. I.

- EL KHOURY GHANEM (F), *Recherche sur les mouvements anti-Umayyades après Mu'awiya*, Thèse de 3ème cycle sous la direction de Charles Pellat, Paris, 1976.

- KISTER (M.J), «Al Harith-b. Suraydj», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. II, Paris, 1971, pp. 223-224.

- GAUTIER (E-F), *Le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscures*, Paris, 1952.

- GIBB (H.A.R), Shorter Encyclopedia of Islam, Leiden, E.J. Brill, 1974.

- HINDS (M), «Kufan Political Alignements and their Background in the Mid-Seventh Century», *International Journal of Middle East Studies*, T. II, 1971, pp. 346-367.

- HINDS (M), «The Murder of the Caliph Othman», *International Journal of Middle East Studies*, T. III, 1972.

- JOXE (A), *La violence et ses causes*, publication de l'UNESCO, 1980.

- LAOUST (H), *Les Schismes dans l'Islam; introduction à une étude de la réligion musulmane*, Paris, 1965.

- LEVI DELLAVIDA (G), «Kharidjites», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. IIV, Paris, 1978, pp. 1106 - 1109.

- LEWICKI (T), «Al Ibadiyya», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. III, Paris 1971, pp. 669-682.

- LEWICKI (T), «Les Ibadites dans l'Arabie du sud au moyen âge», *Folio Orientalia*, T. I, fasc. 1, Krakow, 1960, pp. 15-17.

- LEWINSTEIN (K), «The Azariqa in Islamic Heresiography», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, Vol. LIV, pt. 2, 1991, pp. 251-268.

- MADELUNG (W), «Murdjia», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. VII, Paris, 1991, pp. 605-607.

- M'CHAREK (A), «Henchir-es-Snam (antique Apud-Asnam?) champ de batail en 125 de l'Hégire», *Les Cahiers de Tunisie*, N° 165, 3ème trimestre, 1993, pp. 19-25.

- MIQUEL (A), *l'Islam et sa civilisation, VII-XXème siècle*, Pàris, 1977.
- NABHANI KORIBAA, *Les Kharijites: Démocrates de l'Islam*, Paris, Publisud, 1991.
- NAGEL (T), «Kura'a», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. V, Paris, 1986, pp. 502-503.
- PELLAT (C.H), *Le milieu Basrien et la formation de Gahiz*, Paris, 1953.
- PELLAT (C. H), Gahiz et les Kharijites», *Folia Orientalia*, N° XII, 1970, pp. 195-209.
- PELLAT (C. H.), «L'Imamat dans la doctrine de Gahiz», *Studia islamica*, N° XV, 1961, pp. 32-52.
- RODINSON (M), *L'Islam: Politique et Croyance*, Paris, 1993.
- RUBINACCI (R), "Azarika", *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. II, pp. 833-834.
- STROTHMAN (R), «Shi'a», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Ancienne édition, T. IV, pp. 362-371.
- TALBI (M), *Histoire économique du moyen orient*, Université de Tunis, 1975.
- TALBI (M), *Etudes d'histoire Ifriqiyenne et de la civilisation musulmane médivale*, Tunis, 1982.
- TUKER (W.F), «Abd Allah Ibn Mu'awiya and the Janahiyya: Rebels and Ideologues of the Late Umayyad Period», *Studia Islamica*, N° LI, 1980, pp. 39-57.
- VAN ESS (J), «Kadariyya», *l'Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. IV, Paris, 1978, pp. 384-388.
- VAN ESS (J), «Les Qadarits et la Galaniya de Yazid III», *Studia Islamica*, N° XXXI, 1970, pp. 269-286.
- VAN ESS (J), «Das Kitab al-Irga de Hassen b.Muhammed b.al Hanafiya», *Arabica*, N° XXI, 1974, pp. 20-52.
- WATT (W-M), *Islamic Political Thought: The Basic Concepts*, Edinburg, 1980.
- WATT (W-M), «Kharijite Thought in the Umayyad Period», *Der Islam*, V. 36, Pt. 3, 1961, pp. 215-231.

مطبعة دار الكتاب - شارع عدنان الحكيم - مقابل الـ BHV - بناية البارابولي - ٨٥٣٧٥٣ / ٠١
جميع أنواع الطباعة والتصميم (شعارنا السرعة والوقت)
٢٠٠٠/٠١/١٢٩٤

□ كتابٌ آخر عن الخوارج؟! تساؤل قد يطرحه المرء من فوره مبرِّراً تعجّبه هذا بكثرة البحوث والدراسات والمقالات التي وضعت ونُشرت لحد الآن عن هذه الحركة.

□ طبعاً، إن اختيار الخوارج موضوعاً لبحث جديد، عملٌ لا يخلو من المخاطرة. لكنها مخاطرة محسوبة، بل ومطلوبة، إذا كان البحث الجديد يقدّم للمكتبة العربية إضافة معرفية ومنهجية مُعتبرة، تقوّم النقائص وتسدّ النواقص التي تعتور الدراسات السابقة، وتجلي بعض الجوانب الخاصّة بحركة الخوارج التي ما زال يكتنفها الغموض وتتطلب مزيداً من التدقيق والتمحيص، وربما كذلك إعادة التقييم جذرياً على ضوء ما توافر من معطيات جديدة.

□ وهذا بالضبط ما حاول أن يفعله كتاب لطيفة البكّاي هذا، ويشفع له صدوره الآن. فهو عدا عن أنه وُضع بإشراف مؤرّخ مشهود له بالعلم والموضوعية هو الدكتور هشام جعّيط، يتصدى لجلاء عدة نقاط خطيرة، ولحسم عدة مسائل عالقة في آن، منها: مسألة التضارب في أحكام الباحثين بشأن الحركة، هل هي ثورية وديمقراطية، أم بدوية متعصبة؟ هل هي حركة دينية بحتة، أم حركة سياسية بالدرجة الأولى؟ بماذا نفسر ميل هذه الحركة الشديد إلى العنف وسفك الدماء؟ برد الفعل التلقائي على إرهاب الدولة الأموية، أم بثقافتهم البدوية/ الجاهلية، أم بتمسكهم الحرفي بالقرآن وتأويلهم الفجّ لآياته؟ وما دور الإسلام، إذا كان له من دور، في تهذيب عنفهم «الجاهلي» هذا.

□ ولم يركزّ الكتاب، مثلما فعل أغلب الباحثين، على تتبع تحركاتهم العسكرية في القرن الأول الهجري فحسب، وحصرها بانتفاضاتهم الكبرى وحدها، بل توسّع أكثر بمتابعته حتى نشاط المجموعات الخارجية التي تكوّنت في الأقاليم البعيدة عن الجزيرة الفراتية، مثل: البحرين وعُمان واليمن ومصر وخراسان. كما أفرد فصلين: واحداً لانتفاضات الخوارج خلال ما يُسمى بالفتنة الثانية، وآخر لأنشطتهم ما بعد تلك الفتنة.

□ وثمة نقطة إيجابية تُسجّل لمصلحة هذا الكتاب، ألا وهي عرضه المسهب والمعمّق للجدل الذي دار بين الخوارج حول القضايا السياسية والاجتماعية المعاشة وربطهم إياها بالعقيدة الدينية، مما جعلها تبتعد تدريجياً عن واقعها، وتتحول إلى مسائل دينية وفقهية مجرّدة. وهذا ما ساهم بدوره في تطور الفكر الخارجي خاصةً، والفكر العربي الإسلامي عامةً، وزاد في انقسام الحركة الخارجية إلى مجموعات وفرق صغيرة متناحرة، اندثر أكثرها، وتحوّل بعضها إلى مدارس فقهية لا وزن دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً لها، فيما كُتب للمجموعات الإباضية وحدها أن تبني تنظيماً محكماً لنفسها، وأن تستمر في الوجود إلى يومنا هذا.

دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت